الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر السريانية

١ ـ المؤرخ الرهاوي المجهول

٢ ـ ميخائيل السوري الكبير

٣ ـ ابن العبري

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء الخامس

المصادر السريانية

١ ـ المؤرخ الرهاوي المجهول
٢ ـ ميخائيل السوري الكبير
٣ ـ ابن العبري

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

يعد الأدب السرياني بين أغنى الآداب العالمية ، وتتمتع الكتابات التاريخية في هذا الأدب بمكانة علية خاصة لأنها كتبت من قبل رجال كانوا ذوي احساس رفيع وأمانة واخلاص.ولما كان هؤلاء جميعا من رجال اللاهوت من أبناء الكنيسة ، فقد جعلوا كل شؤون الجنس البشري تتوافق مع نمط معين ، رسمته يد العناية الالهية المرشدة ، وقد حكوا رواياتهم بدون رياء أو تكلف ، وبلا توهم أو سخرية.

والمراد بالسريانية ، فرع الآرامية الذي نطق به سكان سورية مع سكان الجزيرة وبعض المناطق المجاورة ، وكتبوا به خلال قرون طويلة منذ ما قبل الميلاد حتى ما بعد الفتح العربي بقرون.ففي سورية والجزيرة ما زال العديد من المسيحيين يتكلمون بالسريانية.

وكتب التاريخ السريانية مسيحية في المحتوى والتعبير ، تلونت بعمق بالكتاب المقدس وبسلوك وسير آباء الكنيسة ، وقد تم تصنيف أغلبها في الجزيرة ، والكثير منها في مدينة الرها(اديسا ـ أورفا حاليا)أو قربها ، فللرها قدسية كنسية خاصة ، على اعتبار انها أول مدينة ، أو لنقل أو ل مملكة ، في العالم تبنت المسيحية دينا رسميا ، وقد اعتمدت لهجة الرها ونمطها بالكتابة السريانية في جميع أرجاء العالم السرياني الذي تجاوز الرقعة الواقعة فيما بين الهضبة الأرمينية في الشمال حتى حدود الجليل في الجنوب ، واقليم عدبين في الشرق حتى البحر المتوسط في الغرب.

وغطت الكتابات التاريخية السريانية اكثر من عشرة قرون ، اي منذ القرن الثالث للميلاد حتى أيام المغول ، وخلال هذه الفترة المديدة لم يتول السريان دورا مباشرا في التحكم بشؤونهم ، ثم إنهم لم يسعوا لفعل ذلك ، ومرد هذا بالاساس الى الجغرافيا ، ففي البداية توزعوا بين امبراطوريتين اريتين متنازعتين هما : بيزنطة في الغرب وفارس في الشرق ، وامتدت حدود جبهة القتال المستمر بين هاتين الدولتين فيما بين الفرات والدجلة ، وكانت الحروب مدمرة خربت الأرياف والمدن بشكل مروع ، ولم يكن للسريان اية مصلحة في هذه الحروب ، وفضلا عما نالهم من دمار وأذى مستمر من جرائها شطرت السريان الى شطرين : شرقي وغربي ، وكذلك شطرت كنيستهم ، فمنذ القرن الخامس للميلاد استقل سريان بلاد ما بين النهرين عن اخوانهم في الغرب ، وفقط مع الفتوحات العربية ازيل الستار الحديدي الذي فصل ما بين سريان المشرق والمغرب واستأنفوا تجانسهم الطبيعي ، إنما منذ أن حدث هذا بدأ المسيحيون يتحولون الى اقلية متضاءلة لها بعض الأدوار السياسية والادارية.

وانعكس هذا كله على الكتابات التاريخية السريانية ، فهي لهذا حوت على حكايات كثيرة صممت لاثارة الولاءات للكنيسة ولتقويتها ، وعليه نجد فيها روايات أسطورية عن وصول اولى البعثات التبشيرية الى الرها وتراجم حياة شهداء الكنيسة ، وهي كثيرة جدا ، جل موادها خيالي مخترع لايمكن للمؤرخ الجاد الافادة منه •

وأفضل من هذه التراجم محفوظات وثائق الرها مع انها وصلتنا مفتتة ، واقدم مادة تاريخية فيها تتحدث عن فيضان أصاب الرها سنة ٢٠١ م ، ويرجح أن كاتب وصف هذا الفيضان كان شاهد عيان ، وكان مما قاله :« أصبحت ينابيع الماء التي انبجست من القصر العظيم ، العائد للملك ابجر ، غزيرة وفاضت ، وكما حدث في مناسبة فارطة تعاظمت وطافت على جميع الجوانب » ، « وبدأت

ساحات قصر الملك وبيوته تمتلىء بالماء ، وعندما راى سيدنا ابجـر الملك ذلك ، صـعد الى مـكان امين على تـل يشرف على هـذا القصر ، حيث كان حرفيوا الاشغال الملكية يعيشون ويسكنون »

والمتمعن في اسلوب هـذه الرواية يراهـا صـادقة ومبـاشرة ومختصرة ، وهي بالحقيقة نموذج لما تلاها من كتابات ، ومن المفيد التعرف هنا الى عدد مـن مشـاهير المؤرخين السريان وصـولا إلى مؤرخينا الثلاثة الذين كتبوا عن أحداث الحروب الصليبية.

لعل تاريخ يهوا العمودي هو الأقدم بين مـا هـو معـروف مـن التواريخ السريانية ، ولا نعرف شيئا عن يهوا سوى انه ابتدا كتابه بحوادث سنة ٣٩٥ ـ ٣٩٦ م وانتهى في سنة ٥٠٦ ، ويرجـح ان هذا التاريخ قد صنف بالرها ، ذلك انه كتب ببساطة وامانة وحيوية وبتسلسل دقيق رائع ، تحدث فيه يهـوا عن الحـروب بين الفـرس والروم فوصف أعمال الحصار والغارات والكمائن والأسلحة ، حتى اننا نكاد نسمع دمدمة الحشود العظيمة وزحـف الهـون على اعالي الجزيرة وسورية،ففي سنة ٥٠٢ م قاد النعمان بـن الأسـود قـوة كبيرة من العرب والفرس والهـون فـأغار على حقـول حـران والرها ، ولدى يهوا هنا رواية شهيرة عن قـدوم تعـزيزات قـوطية قدمت نجدة من البيزنطيين فنزلت على أهالي مدينة الرهـا واحتلت مساكنهم ، اسمعه يقول:« ونهبنا أيضـا الذين جـاؤوا لمسـاعدتنا تحت اسم المنقذين ، نهبونا وهم غادون أو رائحون بقدر مـا فعـل الأعداء بنا ، لقد قلبوا الكثير من فقراء الناس من فرشهم ، وناموا فيهـا ، في حين نام أصـحابها على الأرض في الطقس البارد ، وطردوا آخـرين مـن بيوتهـم ، ودخلوهـا ليسكنوها ، وانتزعوا مواشي بعض الناس بـالقوة ، كمـا لو كانت غنائم حرب ، ونزعوا عن آخـرين ثيابهـم وأخـذوها ، وضربـوا بعضهم بعنف لمجرد أمر تـافه ، وتشـاجروا مـع آخـرين في الشوارع ، وكانوا يسـبونهم لأصـغر سـبب....وكانوا يهـاجمون الناس في الطرق العامة.... من النساء العجائز الى الأرامل والفقراء وكانوا يمنعونهم من أعمالهم ليخدموهم ، وباختصار ، لقد أزعجوا

الناس جميعا ، كبيرهم وصغيرهم ، ولم يكن هناك انسان لم يعان بعض الأذى منهم »

لقد كان البدو هم الرعب الدائم لسكان المدن والقرى في شمالي الجزيرة ، ولم يكن هؤلاء ، كما يجب أن يلاحظ الناس ، الذين يدعون العرب (أو عربي) ، بسريانية تلك الفترة ، وقصد العرب هؤلاء في الريف بشكل رئيس بين آمد وثنوريوس ــ الذي وقع خلف القرى ، لقد كانوا نصف مستقرين ، وقد عملت السلطات على تسريع عملية تطويرهم الى فلاحين مستقرين ، لقد كان عرب الخيام بداة طيء ، كما كانوا يسمون عادة ــ هم الذين تحدوا كل التقاليد والعادات في المجتمع الراسخ ، وكانت الطرق والقرى الآمنة تحت رحمتهم ، وقد انتقل خبر امير الحيرة ، الذي ضحى بأربعمائة أسيرة من العذارى لربه القمر ــ العزى ــ من فم لفم ، وبدات المسيحية الحقيقية في اصلاح البدو المتمردين على القانون ، ولكن أيديهم عادة ، كانت ضد جميع الناس ، وكتب يهوا يقول : « انهم عبروا دجلة ، وسلبوا ، واخذوا أسرى ، ودمروا كل ما وجدوه في الاراضي الفارسية ، يا صاحب القداسة ». ويتابع مخاطبا مراسله : « يجب أن تعرف حقيقة أن الطائيين شكلت الحرب بالنسبة لهم موردا كثير الربح ، وقد فرضوا إرادتهم على كلتا المملكتين ».

وقد لاحظنا بساطة أسلوب الكاتب وصراحته ، وابدى يهوا ، مثله مثل جميع مؤرخينا السريان ، حتى بالنسبة لأولئك الذين ، كانوا بفضل وظيفتهم اعظم الأساقفة في الكنيسة السورية ، تعاطفا وتفهما للناس العاديين ، الذين كانت رغبتهم العيش في هدوء وراحة ، فها هوذا يخبرنا عن أسعار القمح والشعير والخضار والنبيذ ، ويكتب عن المحاصيل الجيدة والسيئة ، والضرائب ، والمباهج الشعبية ، وحتى عن عيد الربيع ، الذي كانت له دلالة وثنية واضحة ، والذي يوافق عليه ، هو نفسه ، قلبيا.

اما المؤرخ يحيى العربسوسي (افسوس) الذي عاش من

سنة ٥١٦ الى نحو ٥٨٧ م فكان ذا طبيعة أكثر حدة وصرامة ، وهو بالاصل من اهالي امد ، اقام معظم حياته في القسطنطينية ، وكان على صلة وثيقة هناك بالاباطرة ، وبالشخصيات القيادية في العاصمة ، وقد رحل بشكل واسع ، وقام بحملات تبشيرية كبيرة في أسيا الصغرى ، وكان احد الذين اثاروا ، وطوروا الحملة البيزنطية على النوبة ، وقد أعلن هو نفسه ، بصورة مملة نوعا ما ، انه:

« لم يكن غريبا عن صراع الأحداث....بل كان واحدا من الذين زحفوا الى المعركة ، والذين....تحملوا المعاناة ، وعانوا بصبر الام الاضطهاد والسجن... ».

وبما أن يحيى كان عضوا قياديا في كنيسة اليعاقبة ، التي كانت قد عدت ، من قبل معظم البيزنطيين ، انشقاقا خطيرا ، فقد كان في موقع استثنائي ، ليصف ضيق الأفق والتعصب..والحاجة الى ضبط النفس والظلم والقسوة ، التي كانت شائعة في تلك الفترة.

وجعلت مسألة الايمان بالإرادة الواحدة للمسيح ، يحيى وثيق الصلة بالمسيحيين العرب ، الذين كانوا اعضاء في الطائفة نفسها. ونقرأ على سبيل المثال ، انه عندما سجنت جماعة كبيرة من المسيحيين من قبل الفرس في انطاكية ، نجح مسيحيان عربيان في الهرب من المدينة ، وشقا طريقهما الى القسطنطينية ، وهناك أعلم يحيى بهما البلاط ، وعندما دعا تايبيروس ـ خوفا من الانشقاق الديني الذي مزق امبراطوريته ـ المنذر بن الحارث الى عاصمته ، وعمل على التوصل الى تسوية مع هذا الملك العربي المسيحي كان يحيى نفسه موفدا الى المؤتمر ، ونجد في صفحات تاريخ يحيى صورة حية للمنذر وشهرته في جميع انحاء الامبراطورية كمحارب ورجل دولة.

وقد القى احد معارف يحيى الآخرين ضوءا غريبا على التاريخ العربي في ذلك الوقت ، وكان أحد الممثلين القلائل للكنيسة القائلة

بالارادة الواحدة للمسيح في الاراضي الفارسية ، وهو سمعان من بيت أرشيم ، وكان مجادلا فظا ، قام برحلات متكررة الى فارس ، وراوغ أعداءه النساطرة بالامتناع عن الاعتراف بصحة اصالة الرداء الأرجواني ، وعندما كان بزيارة للحيرة في سنة ٥٢٤ ، قابل سمعان رسل الملك اليهودي ذانواس وسجل يحيى على صفحات تاريخه أخبار رسل ذي نواس الى أمير الحيرة ، وروايته عن الهجوم على نجران ومذبحة المسيحيين فيها – وهي حادثة ذائعة الصيت – كان لها صدى واسع في الاراضي العربية.

إننا يجب أن نقدم التقدير والاجلال لامانة يحيى كمؤرخ – فلقد منح ملك فارس ، وهو العدو المقيت لبيزنطة المسحية ، مديحا وافرا بقوله :« وكما اثبتت الحقائق نفسها ، لقد كان رجلا حصيفا ، حكيما ، وقد اوقف نفسه طوال حياته باجتهاد على دراسة الأعمال الفلسفية... »

ويبدو أيضا أن الحرب بين فارس والبيزنطيين ، كانت سبب حزن كبير له ، ويبدو أنه كان مستعدا لتقديم تنازلات كبيرة لاعادة ارساء السلام .

وهو بين مؤرخي تلك الفترة ، صدر كتابه برواية أحداث بعيدة ، مع صوت فيه تجديد وإنذار ، وذلك لدى عرضه للخطوط العامة لأحداث بلاد فارس ، اسمعه يقول :« تلك الأحداث ، التي لم نرها أو تدركها معارفنا ، ولا يمكن أن نشهد بصحتها بقدر ما نحن بعيدون عن البلاد التي وقعت فيها ».

وكتب يحيى إضافة إلى تاريخه تراجم ذاتية للنساك والزهاد الذين كانوا من معاصريه في منطقة آمد ، دار نشأته الأولى ، وهنا نجد مادة وفيرة للباحث في تاريخ الجزيرة قبل الاسلام ، وهي مادة حول شعب ورع جاهل يمجد في إنكاره لذاته على الرغم من فقره ، وبالنسبة للزهاد المتجردين ، شابهت معاناتهم طرائق المشائيين ،

ولكن هؤلاء الرجال والنساء ، هم الذين الهموا البدو في زمانهم الاخلاص في الصلاة والصوم وكبح الشهوات ، فالصراحة البدائية لمذهب المؤمنين بالارادة الواحدة في المسيح ، قد اجتذبت البداة العرب أكثر من الحلول الوسط ، التي تميز بها النساطرة وكان في هذا بشائر حركة هداية أكثر عاطفية ، كان مقدرا لها أن تتفجر من الصحراء بعد قرابة جيلين .

وكانت التواريخ التي كتبت عنها من تصنيف سريان الغرب ، اي بيزنطة والجزيرة وقد أنتج سريان الجزيرة ، التي حكمت من قبل فارس خلال تلك الفترة ، كتب تراجم فقط ، متكلفة ومتميزة للقديسين وزعماء الكنيسة ، ولكننا قد نهتم بثلاثة فقط منها ، الفت في القرن السادس ، لأنها ذات قيمة وهي تاريخ مشيخرخا ، مع معلومات قيمة حول قيام الأسرة الساسانية ، وتاريخ كرك بيت سلخ ، مع بيانات طبوغرافية حول فارس قبل الاسلام ، وتاريخ ابن حدبشبا .

ومن المحتمل أنه عند وفاة يحيى العربسوسي ، كان النبي محمد (ص) في السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمره ، وكان مقدرا للعالم ، أن يتغير بسرعة أكبر مما امكن لاحد ان يتنبأ بها في ذلك الوقت ، وليس لدينا لسوء الحظ روايات معاصرة مفصلة حول الفتح العربي بالسريانية ، وفي الحقيقة مرت ترجمة واحدة في ذلك الوقت بحملات هرقل والعرب في مالايزيد عن كلمات قليلة ، وعندما ارتفع الستار مرة أخرى ، كانت السيادة الاسلامية قد توطدت .

ولم يعد ، في الفترة الاسلامية هؤلاء المؤرخون السريان يعتمد عليهم في تسجيل الأحداث الكبيرة في زمانهم ، وصحيح أنهم كانوا دائما بعيدين عن توجيه الامور ، ولكنهم الآن باستثناء بعض الأفراد ، عاشوا الحياة المنعزلة لأقلية طائفية ، معزولين عن بلاط الملوك والأمراء ، بمكانة سياسية سلبية ولامبالية ، وحتى بلا خيال ، تشهد فقط مرور الأحداث ، وكان بالنسبة للمسيحي ، من

الاسلم أن تـكون له صـــلات صـــغيرة بســـلطات عصره ، وفي سنة ٧٦٥ م ، على سبيل المثال اعتقل البطريرك جورج ، وقد قـدح فيه أعداؤه ، وجلد أمام الخليفة المنصور ، وعندما سـأله الخليفـة بجفاء : لماذا لم يتقدم بـطلب (بـراءة ملكية) تـؤكد منصـبه في الكنيسة ، أجاب بلطف.: لم أرغب في إزعاج أحد .

ويلاحظ مع ذلك ، أن المسيحيين مهمـا كان تحفـظهم وبقـاؤهم بمنأى عن حروب الحـكام المسـلمين ومـؤامراتهم.كانوا مـع ذلك سيبتلون بتلك المشكلات التي تؤثر في الشعب العادي في كل أرض وفي كل عصر ، ونستطيع أن نستخرج من تواريخنا السريانية معلومـات مفيدة حول الظروف الاجتمـاعية والاقتصـادية للناس العـاديين ، ونحصل على صورة مشرقة للمشكلات ، التي واجهـت أقلية دينية تحت الحكم الاسلامي ، ويجب بـالطبع ، أن نطبـق على التـواريخ الأخيرة مسطرة منزلقة مختلفة في إمكانية الاعتماد عليها تاريخيا .

إن الآراء حول العصر السالف على ظهور الاسـلام الواردة لدى المؤرخين السريان هامة ، حتى وهي تصـف حـوادث سـالفة على زمانهم ، لأنهم ربما كانوا ، يكررون آثارا مـوثوقة ، خلفهـا لهـم أسلافهم ، لكن المؤرخين المتأخرين ، لم يزيدوا على تأكيد الحقائق ، التي رسخها مؤرخون عرب ، ويمكن فقط تفضيلهم ، عندما يتولون تقديم آراء تختلف عن آراء المؤرخين العرب ، حيث يقومون بـوصف أحداث شاهدوها بأنفسهم ، أو حدثت قرب فترة حياتهم .

وملفت للانتباه انه يوجد في هذه التواريخ فقـرات نافـذة ، لابـل ناقدة بقسوة للنظـام الذي كان قـائما ، وفي هـذا دليل واضـح أن السلطات الاسلامية أعطت حرية في العمل والاختيار جديرة بـالذكر لهؤلاء الكتاب من غير المسلمين ، فقد شعر هؤلاء الكتـاب ، بـأنهم أحرار في أن يكتبوا كمـا يريدون بـاللسان السرياني أو العـربي ، ويعزز هذا كثيرا ويرفع من قيمة تلك السجلات بدرجة كبيرة .

لقد بينت من قبل أن التـاريخ السرياني كمـا نفهـم اصـطلاح

- ١٩٥٤ -

التاريخ ، إنتاج غربي الجزيرة وليس شرقها ، وقد جاء حصيلة تقاليد طويلة ، ولم يكن أبدا ردة فعل عرضية ، أرادت التعبير عن وجودها أدبيا بالتدوين في العصور الاسلامية ، فالجزيرة لم تعد مقسمة إلى منطقتين مختلفتي الثقافة ، إحداهما تحت حماية بيزنطة الناطقة باليونانية ، والثانية تحت رعاية فارس ، وحتى عندما اصبحت كلتا المنطقتين تحت الحكم المشترك للاسلام ، فإن كتابات مؤلفي مشارقة الجزيرة ـ دنحا وايشودنح ، وتوما المرقي والمؤلف المجهول ، والسير الذاتية ، التي كتبت تراجم للشهداء والقديسين ـ لم تكن أكثر من خليط ضعيف التمييز بين الحقيقة والقصص الورعة وهناك استثناءان فقط يمكن ملاحظتهما : الأول هو التاريخ ، مجهول المؤلف ، الذي يعطي رواية للأحداث في فارس ، من خلع هرمز الرابع في سنة ٥٩٠ إلى ٦٧٠ ، وقيمته عظيمة ، لأنه لابد قد كتب بوقت ليس أبعد بكثير من سنة ٦٨٠ ، ويحتمل أنه صنف من قبل راهب نسطوري ، والثاني ، هو تاريخ الياس مطران من نصيبين في القرن الحادي عشر ، وهذا الكتاب على أي حال ، ليس اكثر من مجرد قائمة بالأحداث والتواريخ .

وبالمقابل تتمتع تواريخ مغاربة الجزيرة الموجودة على الرغم من القلة في العدد ـ باحتفاظها باتساع التواريخ السريانية القديمة وتكاملها.وقد نسب اعتماد الترتيب الحولي في التواريخ أولا بصورة غير صحيحة إلى البطريرك دانيوس التلمحري ، والذي ينتهي تاريخه بعام ٧٧٤ م ، وهو رواية مملة نوعا ما مليئة باقتباسات مطولة من الكتب الدينية ومناجاة للرب ضد خطايا الانسان ، مع الاضفاء الساذج للصفات الأخلاقية ، ومع ذلك فهي تعطينا وصفا ضافيا لبلاد الجزيرة في القرن الثامن ، من مثل قوله :« لقد كانت الأرض كلها .... رائعة بكرومها وحقولها وماشيتها الكثيرة ، ولم يكن هناك فقير في قرية ، لايملك حقلا وجملا وماعزا ، ولم يكن هناك مكانا قابل للزراعة تقريبا ، لم يبذر أو يزرع بالكروم حتى في

الجبال ، وحيث يمكن للمحراث أن يمـــر ، كانت الكروم تــزرع .... وكانت الأرض غاصة بالرعاة فوق طاقة المراعي الكثيرة » .

ولكن مؤلفنا يستغرب ،« فالأرض مليئة أيضا بـــالظلم » ، وقـــد كتب بمرارة عن الصراع المصـــطنع ضـــمن الكنيســـة ، وضـــد عدم الاستقرار الداخلي ، أو الثورة ضد السلطة ، والمجازر التـــي كانت تعقب ذلك ، وقد ندد بالابتزاز ، الذي قام بـــه الحـــكام واتبـــاعهم ، واعترض على مصادرة الملكيات ، ووشم أجسام الرجـــال لضـــمان تأدية ضريبة الجزية بكاملها ، والتدخل المستمر في حرية الفرد ، إلى حد أن الصياد لم يكن يسمح له كما قال « بالصيد في النهـــر بـــدون تصريح » ، وكان الموظفون يبالغون في تقدير العشور : « وسلف أن وصفنا الحقول على أنها عامرة تماما ، حتى لو لم يحصد أكثر مـــن خمسة أضعاف البذار ، وقـــد تحمـــل العـــرب محنا أقسى مـــن السريان » .

« ثم أنقض جباة الضرائب عليهم بـــالضرب والتعـــذيب مـــن كل الأنواع ، وكان عليهم نظـــريا أن يأخـــذوا العشر ، ولم يكن العـــرب يستطيعون جمع ماهو مطلوب منهم ، حتى ولو باعوا كل مايملكون ، وقد حاولوا حثهـــم على أن يأخـــذوا وفـــق القـــانون ، الذي شرعه محمد (ص) والملوك الأوائل ، وأن يأخذوا من كل واحـــد حســـب مايملك قمحا ممن لديه قمح ، وماشية ممن لديه ماشية ، ولكنهـــم لم يقبلوا ، وكانوا يصرخون فيهم : اذهبوا وبيعوا ســـلعكم واعطـــونا ذهبا » .

ومن الأهمية بمكان ذكر السيرة الذاتية ، التي كتبها البـــطريرك دانيوس الذي نسب إليه خطأ التاريخ الذي وصفناه لتـــونا .
وقد كان دانيوس يمارس بهدوء دراســـة التـــاريخ في أحـــد الأديرة ، عندما سيم رغما عنه بطريركا لليعاقبة في عام ٨١٦ ، وناضـــل طيلة ممارسته لمهنته دون كلل نيابة عن طائفته ضد الانشقاق من الداخـــل والاضطهاد من الخارج ، وسافر إلى الموصل وبغـــداد ، وحتـــى إلى مصر يلتمس تدخل السلطات ، وترى سيرته الذاتية مـــن خـــلال أنه

كان مراقبا داهية للرجال ، وقد صورت عجـز الأقليات واعتمـادها على النوايا الطيبة لأفراد بدلا من مواد القانون المكتوبة ، وفيما يلي كلمات الخليفة المأمون القاسية التي وجهها إلى دانيوس : « إنكم تزعجوننا وتضايقوننا كثيرا أيها المسيحيون وخاصة أتباعك اليعاقبة ، ومع ذلك فإننا نتجاهل الشكاوى التي يقدمها أحدكم ضد الآخر ، اذهبوا الآن وعودوا بعد أيام » .

وفي روايته حول زيارته لمصر ، لدينا صورة نابضة بالحياة للطائفة المسيحية هناك :« مدينتنا محاطة بالمياه ، وليس لدينا محاصيل زراعية أو أي موارد أخرى ، ولايمكننا أن نربي ماشية ، المياه التي نشربها تأتي من بعيد ، ونحن نشتريها بسعر أربعة مثاقيل للرواية ، وعملنا محصور بالصوف الذي تغزله نساؤنا ، ونقوم نحن بنسجه ، والثمن الذي نحصل عليه من تجار القماش ، هو نصف مثقال في اليوم ، وحيث أن عملنا لايوفر الخبز الكافي لأفواهنا ، وعندما نطالب بالضريبة ، نضطر إلى دفع خمسة دنانير (أي ثلاثين مثقالا) عن كل فرد ، ونتعرض للضرب ، ويلقى بنا بالسجن ونكره على تقديم بناتنا وأبنائنا كضمان للعمل كعبيد عاملين لقاء دينار واحد ....» .

وقد حكى دانيوس ووصف بلواهم لحاكم مصر الذي « أعطى أمره بأنهم يجب أن يدفعوا الجزية حسب قانون الجزية ـ ٤٨ مثقالا من الأغنياء ،و ٢٤ من متوسطي الحال و ١٢ من الفقراء ـ عند جمع الجزية » .

وننتقل إلى مؤرخينا الثلاثة ونصوصهم ، والنص الأول هو حولية لمؤرخ رهاوي مجهول لعله باسيل مطران الرها في فترة أحداث الحولية ، التي تعالج أخبار مدينة الرها وما كان مايحيط بها خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر ، إنها رواية دقيقة ، تذكر بقوتها بأسلوب تاريخ يهوا العمودي الأقدم بنحو سبعة قرون ، فتظهر الثروة من التفاصيل الدقيقة ، وإلفة المؤلف مع خطط الرها ، أنه كان معاصرا لتلك الأحداث ، وربما كان شاهد عيان لبعضها ،

لهذا رجحنا أنه ربما كان باسيل المطران السوري لمدينة الرها في ذلك الوقت ، ونقرأ عنده عن تبادل مجاملات الفروسية بين الحاكم المسلم للموصل واسيره الصليبي جوسلين ولكن مثل هذا الكرم ، كان يتناوب مع أعمال القسوة المذهلة ، فهناك مشاهد حية للرعب والدمار في الرها والمدن المجاورة ، خلال فترة السيطرة عليها من قبل الصليبيين ، والاستيلاء على الرها من قبل زنكي سنة ١١٤٤ م ، مما أثار حماس برنارد ، راعي دير كليرفو ، وسبب قيام حملة صليبية جديدة ـ واستردادها من قبل نور الدين بعد ذلك بعامين .

وكانت هناك حادثة سارة أكثر ، تمثلت بزيارة زنكي للمدينة في سنة ١١٤٥ : « وخرج المطران والكهنة والشمامسة وجميع المسيحيين لاستقباله من جهة واحدة ، والمسلمون الذين تجمعوا من كل الأحياء في الجانب الآخر ، وقد حيا المسيحيين بسرور ، وقبل الانجيل ، وسلم على المطران ، واطمأن على صحته واحواله وقال إنه جاء من أجلهم لامدادهم بما ينقصهم .... لقد زار كنائسنا السورية ، وتأمل في جمالها ، وأمر بوضع ناقوسين عظيمين يعلقان فيها ، كما كانت العادة في زمن الفرنجة ... ، وأوصى المطران أن يكون حريصا على حراسة المدينة ، وأن لايخون حكومته » .

وهذه الرواية واردة أيضا في تاريخ كان مؤلفه حاضرا عند سقوط القدس في يد صلاح الدين في سنة ١١٨٧ م ، وقد استمر تاريخه حتى سنة ١٢٤٣ .

واشهر منه واعظم اهمية ، العمل التاريخي للبطريرك ميخائيل ، الذي يسمى عادة ميخائيل السوري (ت ١١٩٩) لقد اصبح راسا لكنيسة اليعاقبة في سنة ١١٦٦ م واحتفظ بهذا المنصب ثلاثين عاما ، ولقد كان كاهنا عسكريا ميالا للجدل اللاهوتي وهو انضباطي ، لم يحظ بشعبية حتى بين اتباعه ، وكثيرا ماكان تاريخه مثيرا للجدل المذهبي ، وهو لهذا لايقدر بثمن ، وهو مرتب في ثلاثة

أعمدة ، عالج أولها الأحداث العلمـانية ، وتعلق الثـاني بـالشؤون الدينية ، في حين حوى الثالث حكايات متنوعة ، وأمـورا ذات أهمية شخصية ومحلية.وبالنسبة لنا ، إن العمود الثالث مـع مـافيه مـن تسجيل للمحاصيل والجفاف والبناء والحرائق ، هو غالبا الأكثـر جاذبية وضياء .

وكان الحكام وشـيوخ القبـائل الصـغار في الجـزيرة ، قليلي الاهتمام بخير عامة الناس ، أي أولئك الناس البسـطاء مـن أهـل المدن ، والفلاحين الذين تكونت منهـم رعية ميخـائيل . وبـالنسبة للمسيحيين ، الذين كانوا بينهم ، كانت القصـة مشـابهة لما كان في القرون السالفة ، وكانت ثرواتهم خاضعة بشكل خـطير لنزوات كل من المرتزقة الأجانب وسادتهم من المسلمين أو الفرنجة

وفي القتال بين الأكراد والتركمان ، كان كل طرف يصـب نقمتـه على المسيحيين المحليين ، ولقـد كانت لنور الدين سـمعة في الورع والاحسـان بين المسـلمين ، ولكن المسـيحيين رأوه خـلاف ذلك ، وعندما جاء الى الموصل ، يخبرنا ميخائيل قائلا : « ضاعف المكوس على المسـيحيين ، وزاد الجـزية ، والزمهـم بلبس الزنار ، ومنعهم من إطالة شعور رؤوسهم ، حتى يعـرفوا ويمـكن تمييزهم من قبل العرب. وقضى أيضا أن يحمل اليهود قطعة من مادة حمراء على أكتافهم ، حتى يعرفوا »

وعندما ارتقى العرش خليفة جديد في سنة ١١٧٠ ، أعدم الوزير ابن البلدي وأوضـح ميخـائيل ، أن الوزير الذي ذبـح ، كان عدو المسيحيين ، وقد تعهد الخليفـة الجـديد بمحبـة المسـيحيين نكاية بالوزير وكراهية له.

ولكن نور الدين ، بقي العدو الرئيس للمسيحيين ، وقد وضـعوا أمـلا كبيرا في عمـوري الأول ، الذي روعهـم مـوته ، في سنة ١١٧٤ م ، وفي مثل هذه الظروف ، لم يستطع حتى ميخـائيل نفسه أن يدين أو يصف بـاللاأخلاقية الرشـاوى المقـدمة للحـكام والعسكريين وسواهم من أجل دفع أذيتهم.

وكان نصيرا مدافعا قوي الشكيمة عن رعيته ومحافظا على حقوقهم كزعيم لها ، وقد أعلن صراحة لسيف الدين غازي ، الذي اقترح تسمية كاهن منافس له ليكون بطريركا:

« إذا كنت تريد تغيير ما جعله الملوك من أسلافك ، فلتعلم أنك ستلقى معارضة ليس مني فقط ، بل من الأنبياء ، موسى وعيسى ومحمد (ص)لأنك تدمر مشيئة الله... أما بالنسبة لي ففقدان رأسي لا قيمة له ...وها أنا اقدم بحرية رأسي فدعهم يقطعوه ، لأني اخالف مبادىء القانون ».

وفي عام ١١٨١ استدعى ميخائيل من قبل قلج ارسلان الى ملطية ، فذهب مرتعشا ، ولكن السلطان استقبله بكل حفاوة وتكريم ومجاملة ، وتناقش البطريرك معه واصغى اليه (يؤكد لنا) بسرور ، وتأثر بحكمته الى درجة جعلت الدموع ، تنهمر من عينيه (السلطان).

وتوفرت لميخائيل فرصة لحضور القداسات في جميع انحاء الجزيرة وسورية واستقبل وفود اليعاقبة من مصر ، وزار القدس ثلاث مرات ، وكانت في حينه في أيدي الفرنجة ، وحصل على براءات من كل عموري الأول وبلدوين الرابع.

وكانت تعليقاته على مجموعات القوى الرئسية الثلاث في غربي أسيا في تلك الفترة : التركمان والفرنجة والروم البيزنطيين معنية في المقام الأول بالحرية الدينية ، ولكنها ذات أهمية أوسع ، اسمعه يقول : « وفي السنوات التي سنكتب عنها الآن ، سيطر الهدوء والأمن في كنيستنا الأرثوذكسية لهذا السبب .... وكان الروم القساة محتجزين وراء البحار » •ولم يثر الفرنجة ، الذين كانوا في هذا الوقت يحتلون أماكن في فلسطين وفي سورية أيضا،وكان لهم أساقفة في كنائسهم ، صعوبات في أمور العقيدة ، ولكنهم كانوا يعدون مسيحيا كل من يعبد الصليب بدون فحص أو تحر ، ولم يكن للأتراك من جانبهم ، وكانوا يحتلون معظم البلاد التي يسكنها

المسيحيون ، فكرة عن الأسرار المقدسة ، وعليه فقد اعتبروا المسيحية خطأ ، ولم تكن لديهم عادة تعلم أمور العقيدة أو اضطهاد أحد لجهره بعقيدته ، كما كان الروم يفعلون ، ذلك أنهم شعب كافر شرير ».

ونأتي مع ابن العبري الى آخر تواريخنا السريانية . لقد أكمل تاريخ المنطقة منذ وفاة ميخائيل السوري حتى عام وفاته سنة ١٢٨٦ م ، وجاء تاريخه بالسريانية ـ لا أبحث هنا في تاريخه بالعربية ـ في جزأين : تعامل أولهما مع الأحداث العلمانية ، وتعامل الآخر (في قسمين) مع الأحداث اللاهوتية وقد غير وصول المغول المسرح السياسي ، وقد تولى ابن العبري وصف الظروف الجديدة بشكل واف ، وبشكل خاص أحداث ملطية مسقط رأسه ، وكان هو نفسه حاضرا كمطران عندما سقطت حلب في أيدي المغول في سنة ١٢٥٩ ـ ١٢٦٠ م .وكان على معرفة بأمراء وأميرات من البلاط المغولي.

وقد اتبعت مصائر المسيحيين مسارا ، لا يمكن التنبؤ به ، فمن جهة وحد العرب صفوفهم مع المسيحيين للدفاع عن ملطية ضد الهجوم التتري في سنة ١٢٤٣ م .ومرة أخرى في سنة ١٢٥٦ م . وهكذا أيضا في وجه العدوان المغولي على بغداد في سنة ١٢٥٨ م . وقد أودع العرب الأغنياء في المدينة ممتلكاتهم للحفظ في خزائن الجاثليق ، ومن جانب آخر ، نهبت الأديرة المسيحية من قبل الجند ورجال القبائل الكردية ، وهوجم المسيحيون من أهل المدن من قبل الغوغاء من المسلمين في بغداد والموصل واربل.

وكانت الطائفة المسيحية بالتأكيد في وضع شاذ في تلك الفترة ، ولم يتخذ أمراء المغول موقفا عدائيا تجاههم ، بل إن بعضهم جاهر بالعقيدة المسيحية ، وشغل المسيحيون مناصب عليا في البلاط ، وأعلن ابن العبري : « حازت الكنيسة على الاستقرار والحماية في كل مكان » وقد دعا قبلاى خان باسم« الملك الحكيم

العادل وصديق المسيحيين ، الذي أولى رعايته رجال العلم والعلماء والأطباء من جميع الأمم ».

ومع ذلك إن هذا التحالف ، لم يعط الأمان للمسيحيين من التتار أنفسهم ، ويكتب ابن العبري عن التتار في الحملة نفسها :« إنهم في جشعهم ، قتلوا أيضا كثيرا من المسيحيين وأسروهم ونهبوهم ، مع أن ملك الملوك ، قد أمرهم بأن لا يؤذوا المسيحيين ».

وتاريخ ابن العبري بكل ما حواه ، ليس مرضيا ، فمؤلفه لم يعطنا شيئا من اللمسات الشخصية ، التي جعلتنا مهنته وصلاته الشخصية نتوقعها ، فقد كانت ولاءاته طائفية ضيقة ، ويبدو أنه كان يفتقر الى معايير تماسك الذات والأمانة ، التي تميز بها المؤرخون الأقدم ، لأن قسوة القائد المغولي سندغا وغدره (ذلك الشاب الرائع) لم تكن لديه موضع لوم ، بيد أنه ينبغي علينا ، أن لا نحكم بقسوة على ابن العبري ، ذلك أن كتابته هذا التاريخ ، لم تتعد ، بالنسبة له ، كونها تمرينا في الانشاء السرياني وجزءا من محاولته العامة لاحياء الاهتمام باللغة القديمة ، وقد حكم على التجربة سلفا بالاخفاق ، لأن النهضة بالسريانية ، كانت فوق طاقة ابن العبري ، لا بل أعظم من معارفه الواسعة ومثابرته ، وإنه لأمر له دلالته أن الكتابة على قبر ابن العبري نقشت بالكرشونية ، وهي عربية بأحرف سريانية.

وتكاد روايات ابن العبري عن احداث الحروب الصليبية ان تكون مجرد تكرار مختصر لما كتبه سلفه ميخائيل الكبير ، ولهذا عدت مواد ميخائيل أعلى اهمية ومكانة ، ولا شك أن الافادة منها ستكون اكبر لدى مقارنتها بما أورده ابن الأزرق الفارقي الذي ارخ في العصر نفسه وعاش في المنطقة ذاتها مثله مثل البطريرك ميخائيل ، وتتأتى الفائدة ليس من الخلاف في عرض الروايات وإنما من الخلاف بالمشاعر.

إنها المرة الثانية التي انشر بها نص المؤرخ الرهـاوي المجهـول بالعربية ولكن الأولى بالنسبة لنص ميخـائيل الكبير ، على انه مفيد أن نذكر أنه لتاريخ ميخائيل الكبير ترجمة بالعامية العـربية كتبـت بالكرشونية ، منها أكثر من نسخة مخطوطة واحـدة في بلدة صـدد قرب حمص وعليها أعتمدت كمـا اسـتفدت كثيرا مـن التـرجمة الفرنسية للكتاب ، وسبق للقسم الاسلامي من تأريخ الزمان لابـن العبري أن نقل الى العربية من قبل الأب اسحق ارملة ونشر تباعا في مجلة المشرق ثم أعيدت طباعته بعد جمعه في بيروت ١٩٨٦ ، وهـذه الترجمة متوسطة الحال ، لاتخلو من بعض الأخطاء خاصة في أسماء الاعلام.

الأمل كبير هنا أن يأتي نشري لهذه النصوص السريانية محرضا لمزيد من العناية بالأصول التاريخية المكتوبة بـالسريانية وتحقيقهـا وترجمتها الى العربية لأنها جزء عزيز من تراثنا نحن أحـق الناس بالافادة منه فضلا عن العناية والصيانة ، وأتمنى ألا ينفرد بالقيام بهذا الواجب من أتقن السريانية فقط ، بل أن يكون هناك تعاون مع الاختصاصيين بالتاريخ فهذا يجعـل العمـل أكثـر كمـالا فيتجنب الوقوع بكثير من الأخطاء التي شاهدناها في كتاب سيغال عن الرها وغيره من المترجمات الحديثة.

من الله استمد العون واطلب الرشاد والتـوفيق وصـلى الله على نبينا المصطفى وعلى اله واصحابه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق الثالث من رمضان ١٤١٣ هـ

الخامس والعشرين من شباط ١٩٩٣ م

روايات

المؤرخ الرهاوي المجهول عن الحملتين الأولى والثانية

في سـنة ١٤٠٥ (٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م) وبعـد مضي واحـد وخمسون عاما على فتح التـركمان ، لهـذه البـلاد وعندمـا كان الكسيوس امبراطورا في القسطنطينية جرى تعيين التركماني يغـي سيان واليا على انطاكية مـن قبـل ابـو الفتـح (١) ، وكان الأفضل (٢) المصري في القدس التي استولى عليهـا مـن سـكمان التركماني واخوته ابناء ارتق (٣) قبـل سـنتين ، وبـذلك اصـبح الساحل كله بيد المصريين ، (٤) ، وكان ثيودور كوربلات بن هـاتيم في الرها (٥) ، وقد حفظها من التركمان ، وكان يأمـل ان يسـلمها للامبراطور (٦) فيما بعد ، وفي هذا الوقت ظهر عدد كبير مـن الملوك والزعماء الفرنجة ومعهم جيش لجب ، يصحبه جمهرة مـن العمـال والحرفيين من جميع الأنواع يعدون بالألوف ، لابل بعشرات الألوف وقاد هذا الجيش اربعة من الملوك . وهم بـوهيموند ، وغودفـري ، وصنجيل ، وتانكرد مع جيش من الأساقفة والرهبان ، وقد توجهوا للسير برا عبر الأراضي البيزنطية ، وقرروا أن يعبـروا البـوسفور حيث تقوم القسطنطينية ، وحيث يتصل البحران بواسطة مضـيق ، وأرسل هؤلاء الملوك سفراء للامبراطور الكسيوس ، ليستعد ليذهب معهم ، وليهيء لهم مايحتاجونه من مؤن وعلف لاستعمال الجيش ، وقد وعدهم الكسيوس بالمساعدة بكل مايحتاجونه (٧) .

وعندما تقدمت جيوش الفرنجة ، وبدات تدخل الحدود ، ووصـل قسم منهم إلى بعض المعسكرات .. (٨) أرسلت شرائم من المشـاة والعمال للعبور قبل وصـول الجند ، لكن الكسـيوس أنذر الأتـراك الذين كانوا في نيقية وما جاورها ، واخبرهم بقـدوم هؤلاء ، وطلب منهم أن يهاجموهم ، وهكذا اسرع الأتـراك إلى مـلاقاة هؤلاء على شاطىء البحر ، وذبحـوهم عن بـكرة ابيهـم دون شـفقة أو رحمة (٩) ، وعندما وصلت جيوش الفـرنجة إلى القسـطنطينية ، قابل رجالها الامبراطور الكسيوس ، وقام النبـلاء بـأداء الايمـان المغلظة على الولاء والطـاعة له ، واسـتعد الكسـيوس لمرافقتهـم شخصيا في طريق أخر من خلال غالشيا ، وبـدا الفـرنجة والاغريق

زحفهم مباشرة باتجاه نيقية (١٠) التــي انتــزعوها مــن التــركمان وسلموها للامبراطور ، ثم زحفوا من هناك إلى كليكية وقــد مــادت الأرض تحت أقدامهم ، وارتجفت أمامهم ، ثم اتجهوا إلى سورية ، حيث قرروا أن يبـدأوا بــالهجوم على انطــاكية (١١) رأس البــلاد السورية ، فنصبوا خيامهم في جميع الأمكنة حول انطاكية ، وبــذلك اقفلوا الطريق على كل من يود الدخول إليها ، أو الخروج منها ، ثـم بدا القتل والنهب في جميع انحاء المنطقة المحيطة بأنطاكية .

وكما سبق بنا القول كان تيودور يحكم الرهــا ، وعندمــا سـمع اهالي هذه المدينة (١٢) ان الفــرنجة قــد وصــلوا إلى انطــاكية ، وعسكروا حولها ، طلبوا منه ان ينشد المساعدة من الفرنجة لحماية المدينة من التركمان ، ولم يوافق تيودور على هــذا الاقتــراح أولا ، إنما عندما رأى أن اهالي المدينة لم تكن لهم القوة الكافية ، وانهــم سوف يستدعون الفرنجة خلافا لارادته ، تظاهر بالموافقة مع أنه لم يكن حقيقة مسرورا من مجيء الفرنجة ، بل كان خــائفا جــدا ، لأن أهالي المدينة كانوا يكرهونه ، لهذا أرسل رسله إلى الدوق غودفري رئيس الفرنجة وقائد جيوشها ، وطلب منه أن يرســل بعض الفــرق العسكرية لحماية تلك البلاد ، وعندما قــرأ الفــرنجة كتــب تيودور هذا ، ابتهجوا غاية الابتهاج ، وارسلوا بلدوين اخا غودفري ، وكان رجلا تقيا ، يخشى الرب ، ويخافه ، كما كان محاربا شــجاعا ، وفي ذلك الزمن كانت الرها مدينة كبيرة ، تعج بعدد كبير من الســكان ، وتشتهر بما كان بها من رجــال الدين والرهبــان ، وكانت ارضــها تغص بالقرى والمزارع والدساكر .

بعد أن أقام بلدوين ورجاله من الفرنجة في الرها بعض الوقــت ، بدأ بعض رجال المدينة الفاسقون الأشرار يثيرون البغضــاء ، وقـد وصل الأمر إلى درجة القيام بحبك المؤامرات لقتل الحــاكم تيودور ، وجعل الفرنجة يحكمونهم بدلا منه ، ولم يكن ذلك حبــا بــالفرنجة ،

لكن بسبب البغضاء والنقمة التي كانت تملأ قلوب أعداء تيودور ، فقد هاجوا كالحيوانات المفترسة ، وحرضوا بعضهم بعضا ، وجمعوا جمهورا عظيما ، وأثاروا الشغب والفوضى بنزولهم من القلعة القائمة قرب رأس النبع ، وعندما جاء تيودور نحو ذلك الحشد ليستطلع جلية الأمر ، هاجموه ، لكنه هرب من أمامهم إلى القلعة السفلى ، التي كان قد بناها فوق البوابة الشرقية للمدينة ، وهاجموه في تلك القلعة ، فطلب منهم أن يعطوه الأمان ويقسموا بأن يسمحوا له بمغادرة القلعة مع زوجته وأطفاله دون أن يأخذ أي شيء معه ، واستجابوا لطلبه ووعدوه بذلك ، وأقسموا له الأيمان ففتح لهم البوابة ، ولكنهم حنثوا بقسمهم ، وخانوا ما عاهدوه عليه ، وتقدموا منه وضربوه وربطوه بالحبال ، وقادوه وهو عار تماما إلا بما يستر سوأته ، ثم قذفوا به من أعلى السور المرتفع مقابل المدينة إلى الأسفل .... (١٣) ... ابن هاتيم وخراب بيته ، وقد تسلم بلدوين جميع ممتلكات تيودور مع القلعتين ، وعندما سمع الفرنجة أن بلدوين قد استولى على الرها ابتهجوا كثيرا ، ونصبوا خيامهم قرب انطاكية واحكموا حصار المدينة ، وضيقوا عليها ، وحالما اشتد القتال حاك بعض رجال الحامية مؤامرة للتسليم ، وارسلوا رسالة إلى بوهيموند لتسليمه المدينة ،وعندما تم حبك خيوط المؤامرة صعد بعض الفرنجة إلى أعلى السور ، ثم بدؤوا بالاندفاع إلى الأسفل ، إلى داخل المدينة ، وعندما رأى يغي سيان أن المدينة قد سقطت فر عبر باب القلعة العليا على التلة إلى نواحي شرقي الجبل ، وكان سقوط انطاكية بسبب الخيانة وتسليم الحامية قرب التلة على الجانب الشرقي (١٤) .

وبينما كان الفرنجة يحاصرون انطاكية ، إذا بأحد زعماء التركمان الكبار واسمه كربوغا يصل إلى الرها من الشرق ، ويدخل بوابة المدينة ، وقد كانت الأراضي حول الرها مملوءة بقطعان الحيوانات والمواشي والماعز والرجال والبيوت ، فأحدث دمارا كبيرا وتخريبا وقتلا وسلبا ، واخذ الكثيرين عبيدا ، ثم اتجه نحو حلب

للذهاب إلى انطاكية ، وعندما وصل إلى حلب علم أن انطـاكية قـد سقطت بأيدي الفرنجة ، فأسرع نحوها وعسكر حولها ، ومعه قـوة عظيمة جمعها من بغداد والعراق والجزيرة ، وحاصر الفرنجة وضيق الخناق عليهم في انطاكية ، وبدأ بـالهجوم على المدينة وقـد قـاست الحامية بسبب نقص المؤن والعلف للخيول ، فـالبلاد أقفـرت ، ولم تصلها اي امدادات في تلك السنة ، وكان الفـرنجة كثيرون يعـدون بالألوف ، لذلك ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وشـدت المجـاعة عليهم خناقها ، حتى صار ثمن الحمار الواحد عشرين دينارا وانعدم القمح والشعير ، وفي هذه الأثناء راى أحد المطارنة حلما أن هناك في مكان معين في كنيسة القسيان العظيمة الرمح الذي طعن بـه جسـم المسيح (على يد اليهود في طبـريا) ، وقـد قـال له الهـاتف في الحلم : « خذ هذا الرمح ، وضعه أمام الجنود ، واخرج معهـم إلى العدو فاسوف تهزمونه» .

وعندما وجدوا الرمح ارتفعت معنوياتهم ، وابتهجوا واسـتعدوا للهجوم على التركمان ، وخصوصا وأن المجاعة قد شحذت هممهم ، فأصبحوا يرون أن الموت في المعركة خارجا افضل مـن الموت داخـل البيوت كالنساء ، ووضعوا علامة الصليب وشارات هذا الرمح على حرابهم ، وزحفوا إلى الأمام فوهبهم الرب النصر من لدنه ، وانهار جيش التركمان فهرب ، وبعد أن أعمل الفـرنجة القتـل بـأعدائهم رجعوا إلى خيامهم ومراكزهم بعـد أن غنمـوا كثيرا مـن الغنائم ، والحبوب والخيول والسلع الأخرى ، وقد انتشر خبر هذا الانتصـار في الخارج ، فكسرت شوكة ملوك التركمان (١٥) ، واستولى الخوف والفزع على قلوب جميع ملوك المنطقة .

وحكم بوهيموند (١٦) انطاكية بمسـاعدة ابـن أختـه تـانكرد ، واحتفظ التركمان بسروج (١٧) ، وتملك الأرمـن مـن ابناء بـازاك زيوجما (١٨) بضفاف الفرات ، وأخذ باسيل اللص وهو من الأرمن

كيسوم (١٩) ورعبان (٢٠) (وقد دعي بهذا الاسم لانه كان يسطو على المسافرين باستمرار) واحتفظ غازي (٢١) التركي صاحب بلدوقيا بسميساط (٢٢) واحتفظ البيزنطيون ابناء فيلارتوس بمرعش (٢٣) والجبل الأسود ، واحتفظ الأرمن ابناء رافين بعين زربة (٢٤) وكليكية ، واحتل الفرنجةبطرسوس (٢٥) والمصيصة واذنه (٢٦) .

وعندما قويت شوكة الفرنجة ، استعدوا للتقدم ولحصار القدس ، وزحفوا برا وبحرا ، وقد حاصروا أولا يافا التي تقع على الساحل الفلسطيني ، واحتلوها في بضعة أيام ، ومن ثم تحركوا فورا ، ونصبوا خيامهم أمام القدس ، واحاطوا بها من كل جانب وقد هاجموها بضراوة ، وبنوا الأبراج الخشبية المتحركة امام المدينة ، وكانت المدينة تحتوي على جمع غفير من الجند المصري ، والأسلحة والعدد الحربية ، وعندما اشتد الهجوم سلم الحاكم المدينة للفرنجة في شهر تموز في السنة الثانية لبدء تلك الحملة عام ١٤٠٩ (٢٧) ، ولقد قتل في المدينة ثلاثون الف مسلم ونهبت المدينة (أما المسيحيون فقد كانوا قد طردوا منها قبل وصول الفرنجة) ونصب الدوق غودفري ، وهو أحد قوادهم الكبار ، ملكا على القدس ، (٢٨) ، ثم انتشروا في جميع أنحاء البلاد واحتلوا القرى والقلاع ومدن فلسطين ، وجميع الجليل .

وأخذ الكونت صنجيل أحد مقدمي الجيش الذين قدموا مع الفرنجة قوة كبيرة وحاصر طرابلس ، وهاجمها بضراوة ، وكانت المدينة محصنة بثلاثة أسوار وخندق عميق بين كل سورين ، ولكنها كانت مدينة صغيرة ، وبها حامية كبيرة من الجنود الأكفاء ، وبنى صنجيل حصنا على منحدرات جبل لبنان الجنوبية وجعله مدينة مأهولة كما هو الآن (٢٩) ، وقد حارب وقتا طويلا للاستيلاء على المدينة وظل الحصار مدة سبع سنوات حتى سلمها صاحبها (٣٠) ولقد غنم كثيرا من الاسلاب ، وقتل جميع المسلمين الذين كانوا في

المدينة ، وقد احتل جميع الأراضي حولها وجميع الساحل ماعدا صور وعسقلان اللتان بقيتا بيد المصريين ، وأما دمشق وحمص وتدمر وبعلبك وحماه وحلب وبصرى وكلا (٣١) ومنبج وحران والرقة فقد احتفظ بهم المسلمون الذين كانوا يلحقون الأضرار الفادحة بكل الأراضي التي احتلها الفرنجة .

وفي هذا الوقت كان جبريل القلقيلي (٣٢) يحكم ملاطية ، وكان قد عينه بوزان (٣٣) قائدا عليها وواليا لها ، وعندما قتل بوزان ظلت المدينة تحت سلطة جبريل ، وقد أرسل إلى بوهيموند في انطاكية يقترح عليه ان يأتي إلى ملاطية ويتزوج ابنته (ابنة جبريل) ويستلم ملاطية كمهر (دوطه) للبنت ، وكان اسم البنت كيرا ـ مورفيا ، واتجه بوهيموند نحو ملاطيه ، لكنه عندما اقترب منها تصدى له الدانشمند حاكم بونتوس وكبدوكيا وقد هزم بوهيموند وقتل من كان معه من الفرنجة ، أما هو فقد وقع أسيرا (٣٤) وبعد مدة افتدي بمبلغ ضخم من المال ، ورجع إلى انطاكية حيث عين ابن أخته تانكرد حاكما عليها ، ثم أبحر إلى موطنه حيث مات ، وكذلك فعل صنجيل (٣٥) الذي فتح طرابلس بأن جعل ابنه حاكما على طرابلس ، ثم أبحر عائدا إلى موطنه .

وحدث ان رغب احد أمراء الفرنجة المدعو بيتافين (٣٦) أن يتوجه إلى المنطقة عندما سمع ان الفرنجة الذين اتو قبله قد استولوا على سورية وفلسطين ، فعمل خطة بأن يمر من خلال بامفيليا وكبادوقيا ، ويمتلك الأراضي الشمالية وبعدما وصل إلى القسطنطينية اجتمع بالامبراطور الكسيوس وطلب منه أن يقدم بعض المرشدين الذين يعرفون خفايا الطرق ، ولكن الكسيوس خانه وضلله فارسل معه رجالا امرهم ان يقودوه إلى الأراضي الصحراوية حيث لاماء ولاعلف : ثم اخبر التركمان في تلك النواحي أن يحيطوا به ويحاصروه ، وقد تحقق كل مارمى إليه الكسيوس ، فقد أتت قوة عظيمة من التركمان ، واحاطت به وبمن معه ، وهاجمتهم وهم في حالة تعب وإعياء من الجوع والعطش وقد رماهم التركمان بوابل من

النبال ، ولم يكونوا بحالة تسمح لهم بالقتال ، ولم يكن امامهم مكان يفرون إليه ، ولهذا هزموا شر هزيمة ، وقتل التركمان الكثير منهم بسيوفهم وغنموا منهم مبالغ طائلة من الذهب والفضة ، وقد هرب بيتافين قائدهم ومعه القليل من رجاله ورجع خائبا إلى بلاده .

ومات غودفري ملك القدس بعد سنتين من حكمه ، وترك المملكة لأخيه بلدوين ملك الرها ، وعندما علم بلدوين بالخبر سلم الرها لبلدوين آخر ، وكان رجلا أبيا وزعيما كبيرا من زعماء الفرنجة المحترمين ، وذهب إلى القدس حيث حكم مكان اخيه ، وكان جوسلين وهو أحد اقارب بلدوين الذي أصبح حاكم الرها يحكم تل باشر (٣٧) في منطقة منبج ، وعندما اصبح بلدوين حاكم الرها عرض عليه جبريل صاحب ملاطية أن يتزوج ابنته كما كان قد عرض من قبل على بوهيموند وقبل بلدوين وتزوج كيرا موروفيا ابنة جبريل وأخذها إلى الرها ، وقويت شوكة الدانشمند حاكم كبدوكيا الداخلية خاصة بعدما أسر بوهيموند ، واستلم فدية كبيرة لاطلاق سراحه ، فجمع جيشا عظيما وعسكر حول ملاطية وأصابها بأضرار ، وقد حاربت حامية المدينة قدر استطاعتها ولكن عندما شعر رجال الحامية أن القتال أصبح دون جدوى ، أصابهم الوهن فاقنع بعضهم أسقف المدينة الذي كان مخلصا في تشجيع الرجال على القتال ، اقنعوه بأن يطلب من جبريل ويشير عليه بأن يوافق على المصالحة والتسليم ، وعندما اشتد القتال تكلم المطران مع جبريل لاقناعه ، ولكن جبريل الشقي ظن أن هنالك مؤامرة ضده فدخل الشيطان إلى قلبه ووسوس له فأقدم على قتل الأسقف وعدد من رجال المدينة المسيحيين المعتبرين ، معتقدا أن في ذلك خلاصا له ، لكن العكس هو الصحيح كانت سببا في نهايته ودماره ، وكان اسم الأسقف سعيد ابن صابوني ، وقد تغلب المحاصرون على المدينة وفتحوها ، وأصبح الدانشمند صاحبها (٣٨) ، وقد قتل جبريل وأزيل بيته من الوجود كليا .

وكانت بلدة سروج (٣٩) قرب الرها بلدة غنية ، ومأهولة بالسكان

المسلمين والمسيحيين ، وفيها جميع انواع التجار واكثرهم شهرة ، وكان واديها غنيا ومأهولا بالسكان ومليئا بالدساكر ، وكان يحكم هذه البلدة تركماني اسمه بلك (٤٠) وهو احد ابناء أرتق ، وقد قام فرنجة الرها بمهاجمة هذه البلدة وحصارها من طرف من أطرافها ، وأتى لمساعدتهم ارمن منطقة الفرات ، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الفرنجة ، وهاجموا تلك البلدة بعدما احكموا الحصار حولها من كل جانب ، ولما أدرك صاحب سروج أن البلدة لايمكن أن تقاوم وتستمر وسط الأراضي المسيحية راسل بلدوين حاكم الرها يعرض عليه أن يسلمه سروج وفق شروط يعينها له وايمان موثقة ومؤكدة ، فوافق بلدوين واعطى كل المواثيق المطلوبة فسلمت له سروج مع قلعتها ، وعين بلدوين أحد الفرنجة المشهورين ويدعى بوتشير ، وقام هذا فجمع الأموال الطائلة من سروج ، وقد صادر اموال أحد الرجال العرب المسلمين واسمه عبيد ، وكان واحدا من قادة البلدة واعيانها ، مع اموال اخوته واقاربه ، واخذ من بيوتهم اموالا وثروات لايمكن حصرها ، وهكذا غدا بوتشير غنيا وقويا .

وحينما سمع سكمان بن أرتق (٤١) عم بلك بأن الفرنجة قد استولوا على سروج ، جمع جيشا عظيما وحاصرها معتمدا على عدد المسلمين الكبير في البلدة ، ولدى سماع بلدوين حاكم الرها بذلك خف لقتاله ، وعندما اقترب الجمعان من بعضهما ، نصب التركمان كمينا للفرنجة ، واطبقوا عليهم من المقدمة والمؤخرة ، فكسر الفرنجة ، وقتل منهم عدد كبير ، لكن بلدوين هرب إلى الرها ثم تسلل وهو مفعم بالخوف عبر الفرات ، ووصل إلى أنطاكية ليجمع جيشا وينقذ سروج ، وكان بوتشير حاكم سروج قد وقع اسيرا ، وقد انسحب جميع المسيحيون هناك ، وتجمعوا في القلعة ومعهم بابياس أسقف الفرنجة في الرها الذي صدف أن كان موجودا في الرها في ذلك الوقت وقد اصطحبوا معهم العمال والنجارين والحدادين وجمعوا المؤن وبعد أن هزم الفرنجة بدأ التركمان في حصار القلعة وهاجموا النصارى بقسوةوبينما كان هؤلاء يقاتلون ليلا نهارا وصل رسول من بلدوين يحمل رسالة يقول فيها استعدوا

من داخل القلعة ، وعندما بزغ الفجر اشعل الفـرنجة المشـاعل ، ووضعوها على رؤوس الرماح وهجموا ، وقد مـادت الأرض تحـت وطأة اقدامهم ووصل ضجيجهم إلى عنان السماء ووافـاهم رجـال الحامية وأمدوهم بالعون والمساعدة ، وهـكذا حـل الرعب في قلوب التركمان وتملكهم الخوف فهزموا ، وذبح الكثير منهم بحد السـيف وتقدم الفرنجة إلى معسـكر التـركمان واعملوا النهـب فيه دونمـا توقف ، وغنموا الأموال والسلع ، وحـل الخـوف في قلوب سـكان المدينة من المسلمين ، ولم يصدقوا أن الفرنجة سوف يعاملونهم بأي نوع من الرحمة أو الشفقة ، وهكذا اقفلوا أبـواب المدينة وحصـنوا الأسوار وبدؤوا بمقـاومة الفـرنجة ، وكانوا يأملون ان يحتفـظوا بالبلدة حتى يأتي جيش من جيوش المسلمين لتخليصـهم ، وحـاول الفرنجة أن يقنعوهم بأن يتخلوا عن هذا العناد ، ويتخلوا عن هـذا الموقف ، وطمأنوهم بالأيمان المغلظة انهم لايرغبون في قتلهم ، ولكن هؤلاء لم يعيروا الفرنجة اذنا صاغية ، فأعلن الفرنجة « انه يجـب على كل المسيحيين داخل البلدة أن يلبسوا السلاح ويضعوا اشـارة الصليب » ، وبعدها هجموا كالأسود ، وقفزوا من القلعة إلى البلدة وهاجموها كالجزارين فذبحوا جميع المسلمين الصغار والكبار حتى امتلأت المدينة بأشلاء القتلى الألوف ، لابل عشرات الألوف ، التـي لاتعد ولاتحصى ، وقد خـربت تلك البلدة الآهلة بـالسكان ، وتجمـع المسيحيون الذين بقوا أحياء حول القلعة وعاشوا معيشـة البـؤس والفقر (٤٢) بعد هزيمة كربوقا (٤٣) المذكورة أعلاه ، وبعـد هـزيمة سكمان والمصائب التي حلت بالمسلمين في سروج ظهر احد الأمـراء من الشرق ويدعى جكرمش (٤٤) واستعد بجيش عظيم لقتال الفرنجة ولحماية البلاد ، فبدأ بمهاجمة الرها وجاس جيشـه خـلال البـلاد واعمل بها قتلا ونهبا واستعبادا حسب هواه ورضاه ، وحالما اقترب الجيش من المدينة خرجت حاميتها للقائه عند الباب الشرقي لمنعه من الاقتراب منها ، وتقدم كثير من أهالي الرهـا الحمقـى بسـيوفهم وأسلحتهم ، وخرجوا من المدينة لقتال التركمان الذين حالما رأوهـم قادمين بسرعة ودونما نظام انسحبوا إلى الوراء قليلا حتى مـكنوا الفرنجة من الانتشار في السـهل أمـام الجسر الشرقـي ، ثـم حيا

التركمان بعضهم بعضا وبدأوا يطبقون على الفرنجة من جميع الجوانب ، ورأى الجنود على الأسوار كل هذا فخشوا أن يلتقي الجيشان ويختلطان بعضهما ببعض ويرجعا معا إلى المدينة ولهذا أقفلوا الابواب وانعطف التركمان واطبقوابقسوة على المحاربين من اهالي الرها فهرب هؤلاء ، وعندما وجدوا أن الأبواب مقفلة ارتجفوا وحل بهم الذعر والهلع ، لانهم لم يستطيعوا الوصول إلى الجسر فوق الخندق ليعبروه بين الأسوار ، فسقط معظمهم في الخندق في أحد جوانبه او في الجانب الآخر ، ونزل الرجالة من التركمان خلفهم واعملوا فيهم القتل دونما رحمة ، وامتلأ الخندق في لحظة بجثث القتلى ، وجرى الدم كالنهر وانساب في الخندق ، وهذا انسحب جركمش بعد أن خرب واحرق ما شاء من القرى والريف (٤٥) .

وفي هذا الوقت كان رجل من بلدوقيا يعيش في سميساط ، ويحكم بها مع عدد من التركمان فأقدم على تسليم هذه البلدة للفرنجة لقاء بعض المال ثم انسحب ، وفي أرض الشمال في كركر (٤٦) كان الأرمن يعيشون ويحكمون ، وكان مقدميهم : جستادين (٤٧) وتابتوج وكريستوفر أبناء سنبيل ، وكانت البلاد غنية تحوي كثيرا من الأديرة وبيوت الكهنة من بينها دير السلالم « المعراج » ، ودير القديس أبخاي عند منحدرات صخور الفرات ، ودير الرهبان الحفاة في باسكين ، ودير القديس جورج ، ودير القديس شاباتي في شيرا ، ودير مالكوس مع عدد من القرى الآهلة بالسكان ، والدساكر والحقول ، وكان لديهم كثير من المقيمين جميعهم من الأرثوذكس ، وكان الأرمن الذين يحكمونهم خاضعين للفرنجة .

وفي عام ١٤١٤ (٤٨) عندما كان الفرنجة في ذروة قوتهم اجتمع جميع ملوكهم ومعهم الجيوش العظيمة وأتوا إلى الرها وقرروا أن يزحفوا شرقا ويفتحوا البلاد هناك ، وكما جرت عادتهم السيئة لم يتفقوا على شيء بسبب تنازعهم وغطرسة مقدميهم وتفاخرهم على بعضهم بعضا ، ولقد مكثوا مدة طويلة في الرها يناقشون كيفية

تقسيم المدن التي سوف ينتزعونها من التركمان ، فأحدهم كان يريد ميافارقين ، وآخر أراد آمد ، وثالث طلب نصيبين ، ورابع أصر على أخذ الموصل حتى وصل بهم الأمر إلى أن رموا قداح القسمة بشكل مثير للسخرية ، ثم استعدوا للزحف على نصيبين ، ولدى سماع التركمان بتجمع ملوك الفرنجة بدأوا يلمون شعثهم ايضا ، وفي حين كان الفرنجة مايزالون في الرها يتجادلون حول تقسيم البلدان جمع التركمان قواتا عظيمة ، واعدوا العدة لمهاجمة الفرنجة عند شروعهم بالزحف .

وعندما غادر الفرنجة الرها رافقتهم جماعات كبيرة من سكان المدينة الذين كان لاهم لهم سوى السلب والنهب وجني الثروات ، والاستيلاء على الأسرى من المسلمين والتركمان عندما تقع الهزيمة بين صفوفهم ، وهكذا تضخم حجم معسكر الفرنجة ، وعندما وصل الفرنجة إلى سهل حران زحفوا عبره شرقا حتى وصلوا إلى بيت إبراهيم في مكان يدعى دهبانه (٤٩) ، حيث كان هناك مسجد كبير وبيت لعبادة المسلمين وخشي اهالي حران من الفرنجة ، فأخذوا مفاتيح بلدتهم وقدموها عنوانا على طاعتهم وخضوعهم لهم وولائهم ، وهنا رأى بلدوين صاحب الرها أن حران من أملاكه ، لأنها واقعة ضمن أراضيه ، وانه بالتالي إذا عسكر الفرنجة قربها وتملكها ملوكهم سيجعل ذلك جنودهم يدخلونها ويعملون بها النهب والسلب ، وبذلك ستضعف المدينة ، وهذا لم يكن في مصلحته ، لهذا ارجع المفاتيح للأهالي واخبرهم أنه يعتبرهم من أتباعه ، وأمرهم ان يحافظوا على المدينة حتى يرجع بعدما يتفرق بقية الغرباء ، وعندما سمع تانكرد صاحب انطاكية والملوك الآخرون بما حدث اغتاظوا من عمل بلدوين واخبروه بصراحة أنه لم يتصرف تصرفا لائقا ، إذ كان من الواجب احتلال تلك المدينة الغنية ، وأن يتركوا امتعتهم الزائدة فيها ، ويذهبوا خفافا لمقابلة الأعداء القريبين منهم ، وإذا وهبهم الرب النصر فسوف لن يتجرأ أحدهم أن ينتزعها من بلدوين ، ولسوف يحل الزعر بالتركمان عند سماعهم بسقوط

تلك المدينة ، وإذا هزم الفرنجة لاسمح الرب فستكون هذه المدينة ملجأ وملاذا لهم ، ولكن بلدوين لم يوافق على هذا الكلام .

وزحف الفرنجة من دهبانة وانتشروا باتجاه نهـر البليخ ، وكان تانكرد مغضبا لذلك فضل أن يظل دوما في المؤخرة،وعندمـا وصـلوا راوا التركمان امامهم الوفا لابل عشرات الالوف وبدأت المعركة حالا فأمطر التركمان الفرنجة بوابل من سهامهم التي كانت تنهمـر (٥٠) كالمطر،وهذا جعل الرعب (٥١) والفزع يدب في قلوبهم،ثم سل الاتراك سيوفهم وبدأوا بالقتل والذبـح في المؤخـرة ، وحـالما رأى تـانكرد ورجاله في المؤخرة أن المذبحـة قـد بـدأت بين صـفوفهم لووا أعنة خيولهم وهربوا تاركين أولئك الذين في المقدمة لقـدرهم ، وهذا زادت قوة التركمان فبـدأوا بـالقتل دون شـفقة أو رحمـة ، وأسروا الكثيرين ، وقد أسر بلدوين صاحب الرها مع بعض أقـاربه ، وكذلك الكونت جوسلين صاحب تل باشر ، وكان فارسا شجاعا وقيدوهـم جميعا بالأصفاد الثقيلة ، ونهبوا معسكرهم واسـلحتهم وخيولهـم وجميع ممتلكاتهـم التـي لاتحصى (٥٢) ، وأخـذ التـركمان بلدوين وجوسلين مقيدين بالأغلال إلى الموصـل ، وهناك انعـكست الآية ، وخابت امالهم حيث حكم عليهم بأن أودعوا السجن ، بعدما خططوا املين بالاستيلاء على الموصل ، ومضى تانكرد صاحب أنطـاكية إلى الرها وارتـاح هناك بضـعة أيام يأكل ويشرب ويفعـل مـايشاء ويهوى ، وأخذ منها ثروات كبيرة وخيولا كثيرة ثم عين احد رجـاله واسمه ريتشارد (٥٣) حاكما عليها وغادرها عائدا إلى انطاكية .

وكان ريتشارد هذا رجلا فاسدا طاغية خشنا ظلومـا ، وانتهـز أشرار أهالي الرها هذا الظرف الذي ناسب مفاسدهم فوشوا ضـد بعضهم بعضا ، وتآمروا ، ووجد كل من كان يحقد على أخر الفرصة المناسبة لايذائه ، وعاملهم الحاكم بعنف وعذبهم وسـجنهم ، وأنزل بهم الذل ، وقد جمع منهم كثيرا من الأموال خـاصة وأنه كان يدرك انه كان مغتصبا وعابر سبيل ، وليس سيدا حقيقيا أو وراثيا .

وظل بلدوين صاحب الرها وقــريبه جــوسلين الشــهير أسرى في الموصل ، ولم يزعج أحد من الفرنجة نفسه ويسعى لتحــريرهما لأن تانكرد كان حاقدا عليهما ،وريتشارد كان يتصرف بــأملاكهما كمــا يشاء ، وبدأ السجناء بالتداول في الأمور فقال بلدوين إن من الصعب إطلاق سراحه لأنه رجل كبير الأهميه ، وإن جوسلين ينبغي أن يطلق سراحه أولا فعندها يستطيع أن يعمل لاطــلاق سراح بلدوين ، وتــم التفاوض مع التركمان واتفق على اطلاق سراح جوسلين مقابل مبلغ قدره اثني عشر الف دينار ، واطلق سراحه لجمع هذا المبلغ ، ووضع مكانه في السجن اثني عشر رجلا مــن أعيان أصــدقائه كرهــائن ، وبينما كان يجمع المال المطلوب ، هرب الرهائن الاثنا عشر ونجــوا من سجن الموصل ، وهكذا تحرر جــوسلين وأصــدقاؤه دون عناء ، وبمساعدة صاحب قلعة جعبر على الفــرات ((٥٤) ــ وهــو رجــل
مشهور بشهامته وقدرته على التوسط ــ حددت فدية بلدوين قــدرها سبعين الف دينار ميخائيلي(٥٥) . وجمع جــوسلين حــوالي خمســة وعشرين الفا وحملها بنفسه إلى قلعة جعبر ، ووضع نفســه كرهينة لدفع الباقي ، وأرسل صاحب قلعة جعبر رسولا من قبله إلى الموصل مع الدنانير التي دفعها له جوسلين ، وتعهد بدفع الباقي باعتبار ان جوسلين كان في عهدته ومتحفظا عليه عنده ، وفي هــذا الوقــت تعين حاكم جديد للموصل يدعى جاولي (٥٦) ، فسمع بجــوسلين ولكنه لم يكن قد رآه ، وعندما سمع انه وضع نفسه رهينة لدفع النقود ، رغب في رؤيته ، وعندما حضر الرسل ومعهم مبلغ الخمسة وعشرين الف دينار ، وتعهد صاحب قلعة جعبر وكفالته بدفع الخمســة والاربعين الفــا البــاقية ، اطلق سراح بلدوين ، ولكنه رغب في رؤية جــوسلين شخصيا ، لانه سمع بشهامته وأنه محارب شجاع ممتاز ، وعندهــا عمد صاحب قلعة جعبر الى ارسال جوسلين الى الموصل ، بعــد أن زوده بهدايا وثياب وحصان مطهم وأسلحة فرنجية ، وعندما وصــل جوسلين جمع الحاكم افضــل فــرقه وعســاكره للقــائه على أرض العرض ، وامر جوسلين أن يعرض مهارته الحربية امامه فقام هــذا باللعب برمحه ، وبمناورات حربية اعجبت الوالي ، فــأنقص عشرة

الاف دينار من فدية بلدوين ، عندها ترجل جوسلين وقبل الارض بين يدي جاولي وشكره ، وكتعبير عن امتنان الوالي لسلوك جوسلين هذا أمر بخصم عشرة الاف اخرى من الفدية ، وفي اثناء عودتهما الى المدينة أقام الحاكم له وليمة كبرى ، وخصم عشرة الاف اخرى ، وقد اقام جوسلين بضعة ايام في الموصل اظهر له الحاكم اثناءها كل مودة واقسم له أنه لن يحاربه ، وجعله يقسم الا يحاربه واتفقا الا يتحاربا ماداما على قيد الحياة بل على العكس ان يساعد بعضهما بعضا وقت الحاجة ، ثم اعطى جوسلين الهدايا ، واطلق سراحه نهائيا ، وسامحه بكل ما بقي من فدية بلدوين ، وسمح له بالذهاب بامان ، وهكذا وبمشيئة الرب اطلق سراح الاثنين .

وعندما اطلق سراحهما (٥٧) ، جمع رتشارد الذي كان يحكم الرها كل ما استطاع جمعه من المدينة ، وتوجه عائدا الى ارضه في مرعش ، وحالما وصل بلدوين وجوسلين الى الرها وعلما بما قد فعله تانكرد وريتشارد هناك استشاطا غيظا من جديد ، واخذا يستعدان للمعركة ، وارسل جوسلين رسالة الى جاولي صاحب الموصل يطلب منه العون فارسل هذا عددا من الجنود التركمان لمساعدته ، والتقت الجيوش في الاراضي التابعة لبير جبة بين كلز ودلوك (٥٨) وقد ارتفع غبار المعركة الى عنان السماء ، وكانت نتيجة المعركة أن هزم الاتراك وهربوا ، ولحق بهم رجال انطاكية واعملوا بهم القتل ، ثم هرب بلدوين ورجاله ، وهكذا كانت نتيجة المعركة ، وبعد زمن اتفق الفريقان وحل السلم بينهما ورجعت الالفة والمودة الى سالف عهدها .

وفي عام ١٤١٧ عندما كان ملوك الفرنجة في حالة سلم ، جمع مودود حاكم الشرق جيشا لجبا لايعد ولايحصى وتوجه الى الرها اولا وقد عسكر في السهل الشرقي حول قلعة كاساس (٥٩) وقد أرسل مودود عددا من الفرسان لنهب البلاد ، فقطعوا الاشجار والحدائق واتلفوا الارض ، وخربوا الديارات ولكنهم لم يقتربوا من

المدينة لمحاربتها ، بل نصبوا حولها الات الحصار ، واكتفوا بالاقتراب منها ثم رحلوا عنها .

وعندما سمع الفرنجة في انطاكية بهجوم مودود على الرها بدأوا بجمع جيش على جناح السرعة لانقاذها ، وتحركوا بسرعة نحو الفرات وعبروه ، وعندما سمع التركمان بمقدمهم انتقلوا الى نهر الجلاب ، واتخذ الفرنجة موقعا لهم امام معسكر مودود ، وكان جيش الفرنجة يحوي كل من بلدوين ملك بيت المقدس صاحب الرها سابقا وابن صنجيل صاحب طرابلس ، وتانكرد صاحب انطاكية ، وعدد كبير من الجند والخيول ولكن كان ينقصهم القمح والعلف ، فقد كان (مودود) قد خرب البلاد واتلف المؤن ، وقد قاسى الفرنجة من قلة المؤن ، وكعادتهم لم يكونوا يتحلون بصفة الصبر(٦٠)وصمموا على العبور الى غرب الفرات وهم لايزالون في مواجهة العدو ، وفي الوقت الذي كانوا يسيرون في طريقهم الى سميساط وهم يشكلون جيشا كبيرا يتبعه عدد هائل من القرويين وسكان المدن مضى فرنجي من مطايا الشيطان وادواته ، كان قد تشاجر مع رئيسه ، مضى الى معسكر الاتراك على نهر الجلاب واخبر مودود ان الفرنجة فروا وهم في حالة يائسة قد اضعفهم الجوع ، وانهكتهم مصاعب الطريق وقال له :« اذا اسرعت الى مطاردتهم فانك سوف تلحق بهم افدح الخسائر » ، وفي الحال اصدر مودود الاوامر بالهجوم ، واخذ المنادون يصرخون والابواق تنفخ ، وتقدم المحاربون الاشداء وتبعوا جنود الفرنجة الذين اصيبوا بالدهشة ، ولم يعلموا ماذا حدث ولم يستطيعوا ان ينظروا امامهم او خلفهم ، وعندما وصلوا الفرات تقدم المحاربون اولا بينما انتظر المشاة وحاملوا الامتعة في الخلف ، وكان الرب غاضبا على شعبه ، وخصوصا على اهالي الرها الذين شكلوا اكثرية الجيش ، وفجأة انقض عليهم التركمان وهاجموهم كالجزارين واخذوا يذبحون دون رحمة او شفقة ، ولقد غرق منهم اكثر مما قتل ، وكان التركمان يطعنون الغرقى بالرماح واخذوا الكثيرين منهم اسرى ، ثم استولوا على الغنائم والمؤن والاثقال ، وهكذا آل زحف الفرنجة الى نهاية تعيسة ، وهنا قفل مودود راجعا

الى ارضه وبلاده ، وعسكر حول المدينة واتلف الاراضي والمحاصيل الزراعية حولها ، وقطع الاشجار والحدائق التي بقيت(٦١) وحاصر المدينة وسبب لهـا الكروب طيلة الصيف ، وانتشر الخوف وحل الرعب والبؤس في المدينة بسبب قلة الاطعمة ، وتولاهم اليأس وهلعت قلوبهم ، لانهم زرعوا وتعبوا وشقوا سنة بعد سنة ، لكنهم لم يحصدوا شيئا ، وقد ارسل لهم مودود يمنيهم ويطلب منهم تسليم المدينة له ، وبذلك يصيبهم الخير بدلا مما هم فيه من التعب والويل ، ولم يرسل له اهالي الرها اي جواب ايجابي ، ولكن عشرون ارمنيا تآمروا مع مودود لتسليم المدينة وخيانتها ، فنقل معسكره ونصبه مقابل سروج ليوهم اهالي الرها انه قد يئس وذهب ، وبذلك لايهتمون بحراسة السور ، وبعد منتصف الليل في ليلة الأحد أتى التركمان بسرعة من الشرق وتسللوا من بين الاسيجة في الحدائق حتى لايلاحظهم احد وارسلوا بعض المحاربين الاشداء الى المكان المتفق عليه قرب السور في شرقي المدينة داخل الجسر السفلي فوق الخندق المملوء بالماء ، حيث كان هنالك مكان مناسب للمغامرة ، فقد كان هنالك برج في الزاوية يحرسه رجل من اهل الرها يدعى سيروس ، وهنالك تقابلوا طبقا للاتفاق ، فانزل الخونة بعض الحبال وسحبوا سلالم قوية ثبتوها على السور ، وبداوا يتسلقونه ولما راهم الحراس على السور اخذوا يصرخون إن الاعداء قد تسلقوا السور ، وسمع الاعداء هذه الاصوات وبداوا يحدثون ضجة وجلبة في الغرب ويضربون الطبول وينفخون بالابواق حتى يظن اهالي المدينة ان مشهد المعركة من الغرب فيتجهون الى هناك ، ويتركون الخونة وشأنهم حتى يستطيعون اتمام التسلق على الاسوار ، وقد قتلوا كل من كان في تلك الناحية ولم يستسلم لهم ، اما سيروس فقد ظل صامتا اذ انتابه الخوف وفقد ارادته فتركهم ينفذون خطتهم ، وقد صعد الى البرج حوالي ستون رجلا ، وعندما طلع النهار راى الجميع التركمان على السور وعلى البرج فاصيب الفرنجة وزعماؤهم بالذعر عندما علموا ان هناك خيانة في المدينة ، واذا بالعدو في الخارج والسور يغص بالتركمان والناس يتراكضون الى بيوتهم واطفالهم ، وصدف ان كان جوسلين صاحب تل باشر في

الرها في ذلك اليوم ، فقام باعمال الابطال اذ صعد الى السور من ذلك الجانب ، واقترب من العدو وعندما رآه الاعداء تجمعوا في البرج الكبير ووقفوا على سطح فوقه وامطروه بوابل من النشاب والحجارة ، ولكنه دخل البرج الذي كانوا يقفون على سطحه وكله شجاعة واقدام ، ومد سيفه من خلال نافذة مخصصة لرمي السهام وقطع حبال السلالم التي كانوا يصعدون عليها بينما كان كثير من الرجال على تلك السلالم فسقط الجميع الى الأرض مهشمين وأما الذين كانوا فوقهم فقد ارتجفت قلوبهم لما رأوا هذا المنظر ، وفقدوا الأمل ، فبادر جوسلين بالصعود الى جيث كانوا وقد ضربوه بالحجارة من الأعلى وكسروا درعه ، فأخذ كيسا مملوءا بنشارة الخشب كان ينام عليه الحرس ووضعه فوق رأسه وتسلق بكل جرأة وقوة ونزل بينهم فهربوا ، وقد أوقع بعضهم بضربة من سيفه وبعضهم قفز الى الأسفل وتحطم ، وهكذا اخفقت المؤامرة ودفنت في مهدها وهي لم تكد تبدأ ، وقد رجع مودودالى بلاده ، بينما أخذ الفرنجة يحاكمون المتآمرين والقوا القبض على كثير من المذنبين والأبرياء ، وقطعوا الأيدي وجدعوا الأنوف وقلعوا الأعين ، وقد مات الكثيرون من جراء ذلك ، وأعدم الآخرون.

وبعد بضعة سنوات (٦٢) ذهب مودود الى دمشق وفلسطين وطبرية وخرب البلاد ونهب وسلب ودمر واخذ كثيرا من الأسرى ، وعندما وصل الى دمشق ودخل الجامع الكبير ليصلي في يوم الجمعة كعادة المسلمين قام الاسماعيليون باغتياله (٦٣) وفي السنة نفسها (٦٤) مات تانكرد صاحب انطاكية الذي لم يكن له ولد ، فورثه ابن أخته روجر ، وكان شابا متغطرسا ومتعجرفا ، وكان روجر متكبرا ووسيما ، فجمع فرقا كبيرة من الجند وتزوج أخت بلدوين صاحب الرها ، وهاجم بجيشه قلعة أعزاز الحصينة في وادي كلز ، وقد حفر سراديب في الأرض تحت الأسوار ووضع عوارض من الخشب داخلها ثم أشعل النار بالعوارض فترنح السور وسقط ، فهجم الفرنجة من خلال الثغرة التي حصلت ، واستولوا على الحصن

وذبحوا المسلمين في داخله ، وهكذا استولى روجر على هذا الحصن الشهير (٦٥) .

وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٤٢٢ وعند الفجر يوم الأحد ضربت هزة ارضية مدينة جرمانيكا التي هي مرعش (٦٦) فهدمتها كليا ، ودمرت المعابد واديرة الرهبان وسقط السور بكامله وقتل اربعة وعشرون الف شخص غير الغرباء واكثر من مئة من رجال الدين والشمامسه ومحيت قلعة منصور وازيلت واماكن اخرى كثيرة من الوجود ، وفي هذه السنة غضب بلدوين صاحب الرها من جوسلين ووضعه في السجن وعذبه ، وبعد ان اطلق سراحه ذهب الى بيت المقدس ، ونزل عند بلدوين الذي رحب به واحبه وجعله حاكما لطبرية والجليل(٦٧) ، وهناك ولد له ابن سماه جوسلين ، وفي هذه السنة مات رضوان صاحب حلب (٦٨) . وكان السلطان السلجوقي يعيش في ايران ، وقد ارسل ولاة لسائر البلدان الغربية ، وعندما قتل مودود في دمشق ارسل البرسقي الى اقليم اقور (الموصل) ، فتقدم هذا وعسكر حول الرها واتلف الحدائق واحدث الأضرار العظيمة في الأراضي (٦٩)، وعبر الفرات ، وخيم في اراضي حلب وعمل كل ما في وسعه لتخريب الأراضي التابعة للمسيحيين قدر استطاعته ، ثم عاد أدراجه وفي السنة التالية اتى كالعادة الى الرها وعاث في الأرض واتلف المحاصيل وسبب أضرارا عظيمة ، ثم تحرك متجها الى حلب واستعد لحرب الفرنجة الذين جمعوا جيوشهم ، وعسكروا بين حلب وانطاكية ، وفي عام ١٤٢٧ نظمت الصفوف ونفخت الأبواق ، ودقت الطبول ، وقد وهب الرب النصر للفرنجة وهزم التركمان وذبحوا ، ونهب معسكرهم بينما هرب البرسقي (٧٠) ومعه بضعة رجال .

وكان ابو الغريب وهو أرمني يحكم قلعة البيرة الحصينة (٧١) وقد قام بلدوين صاحب الرها ومعه قريبه جاليران على راس جيش كبير بحصار هذه القلعة مدة طويلة ، لانه لم

يستطع الاستيلاء عليها بالهجوم المباشر ، ولما لم يستطع ابو الغريب أن يحصل على أية مساعدة ، استسلم للفرنجة على شروط ، وتزوج جاليران ابنته ، وكانت القلعة هي المهر لهذا الزواج ، وهكذا استولى الفرنجة على تلك القلعة .

وفي عام ١٤٢٥ (٧٢) ذهب بلدوين صاحب الرها للحج الى بيت المقدس وكان بلدوين صاحب بيت المقدس قد جمع جيشا وزحف على راسه الى مصر ووصل الى الفرما (٧٣) ومات هناك وكان قبل وفاته امر أن تدفن جثته في قبر أخيه غودفري ، وأن يصبح بلدوين صاحب الرها ملكا لبيت المقدس ، وقد نفذ هذا ، وعندها دعا بلدوين الكونت جوسلين صاحب طبرية واحل السلم بينهما ، وهكذا اصبح بلدوين حاكما لبيت المقدس ، وجوسلين حاكما لطبرية وكان جوسلين عندما عاش في طبرية قد ربح عدة انتصارات ، واصبح مرهوب الجانب في جميع انحاء المنطقة .

وكان ميخائيل بن قسطنطين وهو ارمني يحكم أراضي كركر (لاقى جستادين الأب حتفه بعد ان دفن وهو أسير في سمسياط عند حدوث الزلزال الذي دمر مرعش) وكان ميخائيل هذا شابا متعجرفا قام بارتكاب الكثير من الأعمال الشريرة بدعمه للعصابات واللصوص في جميع الأنحاء ، وكان بلك بن ارتق (الذي حكم سروج سابقا) والآن صاحب هنزيط وحصن زياد (خرتبرت) (٧٤) قد حذر ميخائيل من مغبة أعماله الشريرة ، وطلب منه ان يكبح جماح اللصوص الذين يهاجمون التجار والمسافرين،لكن هذا لم يعر هذا التحذير اي اهتمام وكانت الشكاوى ترد الى بلك باستمرار حتى انه لم يعد يستطيع الاحتمال ، فجمع جيشا عظيما من التركمان في شهر كانون ، وهو شهر قارس البرودة ، وتوجه الى أراضي جرجر الأهلة بالسكان وقد رافقته العناية الالهية وساعدته وأرشدته لأن مياه نهر الفرات كانت متجمدة في ذلك الوقت ، فعبر هو ورجاله النهر بسهولة تامة فوق الجليد ، بينما لو ود ان يعبره بالقوارب لاستغرق ذلك منه

خمسة ايام على الأقل ، ودخل إلى أراضي جرجر في المساء ، واخفى رجاله بين الصخور الشاهقة ، ولم يعلم بهم أحد ، فالرب كان غاضبا على أهل تلك البلاد وفي تلك الليلة هطلت كميات كبيرة من الثلوج ، وهكذا استطاع التركمان ان يقتفوا على الثلج آثار كل أولئك الذين هربوا من القرى المجاورة الى التلال أو المراعي العليا وقتلوهم أو اخذوهم أسرى ، وانتشروا كالطوفان خلال الأراضي واحرقوا البيوت والقرى وانزلوا الخراب بالمنطقة .

وكان بلدوين عندما ذهب للحج في بيت المقدس عين جاليران صاحب البارة(٧٥) نائبا عنه في الرها ، وجمع هذا ماستطاع جمعه من العساكر ، وهاجم معسكرات التركمان في السهول المتاخمة لجبل حزمه Hisma شرقي الرها ، وفي اراضي ايلغازي بن ارتق ، ففاجأهم على حين غرة ، وأسر خمسمائة من الرجال والنساء والأطفال ومئتي حصان ومئة الف رأس من الماشية والابل والماعز ، وقتل كثيرا من المحاربين وجلب الأسرى الى الرها وقد حدث هذا في شهر آذار عام ١٤٢٦ (٧٦) وكان سببا في اندلاع الفتنة والشر ، وغضب ايلغازي وكان قد استلم زعامة آل أرتق ، فجمع جيشا عظيما وعسكر قرب الرها في زمن الحصاد ، ولكنه ابتعد قليلا عن الحقول والمحاصيل الزراعية ، ولم تقع الحرب بل عقد السلم بينه وبين الفرنجة الذين أعطوه جميع الأسرى التركمان الذين يمتلكونهم ، فغادر المدينة دون ان يلحق بها اي ضرر ، ثم انتقل الى حران واحتلها ، وبعد ذلك عبر الفرات واحتل حلب وما جاورها ولذلك اصبح اقوى زعماء التركمان وخضع له حتى امراء اقليم آقور ، وجمع جيشا غزا به انطاكية.

وعندما سمع روجر صاحب انطاكية بزحف ايلغازي تقدم لملاقاته ، وقد كان بلدوين آتيا من بيت المقدس مع جاليران لمساعدته ، ولكن ذلك الشاب المتعجرف لم ينتظر قدوم الملك لأنه فكر انه قادر على انزال الهزيمة بالتركمان لوحده ويحتفظ لنفسه بمجد النصر ، وتقدم بدون تردد تجاه معسكر المسلمين ، وكان الاتراك

يتوقون لقتاله قبل قدوم الفرنجة لنجـدته ، واحـاطوا بـه احـاطة السوار بالمعصم وأمطروه بوابل من النبال كسحب من البـرد وكان الرب غاضبا على الفرنجة وأشاح بوجهه عن روجر الذي قتـل اثناء هذه المعركة ، ولم يجد احد جثته لابين الموتى ولا بين الاسرى (٧٧) ، وقد استولى الأتراك على الامتعة وجميع ما كان بحوزة الفرنجة.

وبعد مـوت روجـر وصـل بلدوين ملك بيت المقـدس ، وكونت طرابلس وجاليران من الرها ، وخـرج رجـال انطـاكية لمقـابلة الملك ، فاستلم زمام السلطة ، وجمع الجنود الموجودين ، وزحـف لمقابلة ايلغازي ، وابتدأ الالتحام وكان الرب غاضبا على التـركمان لذلك هزم ايلغازي وقتل عددا كبيرا من عساكره ، ونجـا بصـعوبة بالغة مع بضعة (٧٨)من اتباعه حيث ذهب الى حلب .

ورجع بلدوين وهو مزهو بانتصاره الى انطـاكية ، وتـوجه الى بيت المقدس ، حيث استدعى جوسلين من طبرية ، وبعـث بـه عام ١٤٣٢ حاكما على الرها (٧٩)،وهذا ماابهج قلوب سكانها ، وقد رجع جاليران الى البارة ، ثم جمع جوسلين جيشا هـاجم بـه المعسـكر التركي وغنم كثيرا من الأسرى ، وقد انتشر اسمه خـارج منطقتـه ووصل صيته حتى شمال مـابين النهـرين ، وحلت رهبتـه في قلوب التركمان حوله .

والتجأ التركمان الذين اخذ رفاقهم عبيدا الى ايلغـازي صـاحب ماردين ، واقنعوه بأن يهاجم الرها وينتقم لهـم ، فجمـع جيشـا عظيما ، وعسكر حول الرها والتهم المحاصيل ، وقـطع الأشـجار والحدائق ، ونهب وسلب ثم رحل (٨٠) .

وأصبح ايلغازي قويا وارتفع شـانه لأنه كان يحـكم زيادة على اراضيه : اراضي ابناء أخيه سكمان ، وأراضي ابن عمه داود حتـى بلاد أقور وارمينية ، وارض العبـرانيين (٨١) ، وكان احـد اقـاربه يحكم جميع ارمينيا ، وقد بدأ الخلاف يدب بينهمـا وبين الملك داود ملك العبـرانيين الذين كانوا وثنيين ، وكان ايلغـازي جـريئا

جدا ، فجمع كل أقــربائه ومعهــم قـــوى عظيمـــــة ، وغزا أرض العبرانيين (، وعندما سمع الملك بهذا الأمــر جمــع جيوشــه وتقــدم لمقابلته ، وحدثت معركة قهر بهــا ايلغــازي وطــارد العبـــرانيون فلوله ، وقتلوا كثيرا من رجاله ، ونهبــوا كل مقتنياتهــم ، وهــكذا رجع ايلغازي يجر انيال الخيبة والعار ، وهرب الى بلاده ، وبعدها بقليل اصابه المرض فمات (٨٢) وخلفه ابنه تمــرتاش الذي حــكم في ماردا (ماردين) ودارا وميافارقين ، اما بلك ابن عمه فقــد احتفــظ بقلعة زياد هنزيط (٨٣) .

وفي ملاطية حكم رجل من أسرة السلاجقة ملوك التركمان العظام (٨٤) بعد زوال حكم ابناء الدانشمند ، وبعد موته حكم ابناه القاصران مع امهما ، وقد حكم مسعود اكبرهما في قونية واراضيها المتوغلة تجاه الأغريق (البيزنطيين) وأما غازي بن دانشمند فحكم في ســبسطيه وقيصرية ، وقيصرية الجديدة ، وقد أصبح متكبرا متعجرفا وطاغية وصمم على احتلال ملاطية ، وعمــل كل مــا في وســعه للقبض على صاحبها ، واخذ المدينة منه ، حتى انه رغب بتزويج ابنتــه له ، ولما لم يستطع الاستيلاء على المدينة بالحيلة والخــداع قــرر اســتعمال القوة ، فجمع جيشا وحاصرها ، وضيق عليهــا الحصــار وســبب المجاعة فيها حتى انتشر بهــا الوبـــاء ، فـــاستولى عليهـــا في عام ١٤٤٣ (٨٥) ، وهكذا تعاظمت قوته ، وأصبحت أملاكه تشمل كبدوكية وملاطية وجميع المدن بينها وبين بحر الخزر ، واصبح يغزو الأراضي الأغريقية (البيزنطية) بانتظام ، وبدأ بالنهب والســلب في منطقـــة غلاطية وكولونيا وهــرقلية ، وجميع شـــواطيء البحـــر الشمالي ، وقد أخذ العبيد وسبب الكثير من الأذى والضرر.

وتزوج جوسلين كونت الرها بابنه روجر صاحب انطاكية وحصل على أعزاز كمهر معها ، ثم ذهب ليجلب عروسه الى الرهــا وامضى ليلة في البارة ، واخبروه أن التركمان قد أغاروا على المنطقة واخذوا كل من لا قوه أسيرا ، وكان هؤلاء مــن جيش بلك صــاحب هنزيط وقلعة زياد ، وقد كان بلك قد اتى من حلب ومعه اربعة الاف فــارس

أرسلهم في جميع الجهات للنهب والسلب بينما عسكر بنفسه قرب بئر يسمى هايج ، وهو ينبوع دائم طوال السنة في مملكة الرها عند احدى القلاع الشهيرة مقابل رأس كيفا ، وعندما سمع الفرنجة هذا الخبر اشتاقوا لمطاردة الغزاة ، إذ لم يكن لديهم اية فكرة أن بلك كان معسكرا هناك ومعه جميع عساكره ، وقد قام جاليران بتشجيع جوسلين خاصة وذلك لأن الأرض ارضه ، وبداوا في الهجوم بسرعة ليلا ممتطين خيولا ضعيفة وهزيلة ، وطاردوهم وهم يظنون أن باستطاعتهم اللحاق بهم في اراضي راس كيفا ، وعندما وصلوا الى أمكنة رأوا فيها اثار أقدام الغزاة تبعوهم طيلة الليل حتى منتصف النهار ، وكان قد أصابهم التعب والعطش وأرهقهم الغبار واشتداد الحرارة ، ومع هذا تابعوا مطاردتهم حتى وصلوا الى المعسكر العظيم لجيش بلك ، فرأوا جندا عظيما بينما كانوا قلة منهكة بسبب الجوع و السفر الطويل ، ورآهم التركمان ولم يعد بمقدورهم التراجع ، وعندما تقدموا لسقي خيولهم ، بادر التركمان بالاصطفاف على ضفة النهر وامطروا وابلا من النشاب كل رجل من الفرنجة حاول هو اوحصانه أن يقترب من النهر ، ثم أحاطوا بهم وقتلوا الكثيرين ، واخذوا الباقين أسرى أحياء ومنهم جوسلين وجاليران وفرسانهم ، وجلب هؤلاء الى حضرة بلك الذي لم يكن يصدق ما يرى إذ لم يكن يحلم أن مثل هؤلاء الأمراء قد اصبحوا أسرى تحت رحمته ، وهكذا أسر هذان الاميران الشهيران وهما في غفلة ولا يتوقعان ذلك ، واخذهما بلك الى أمام باب الرها وهو يتوقع أن تسلم له المدينة ، ولكن الأهالي اهانوه ولم يتفوهوا بأي كلمة عن السلام ، لذلك وضع أسراه في قلعة زياد.

وكان الملك بلدوين في انطاكية عندما سمع هذه الأخبار ، فتوجه في الحال الى الرها وبقي هناك ، ووضع حامية فيها تحت قيادة راهب محترم يدعى غودفري الموين حتى يعرفوا ماذا سيحدث لأسرى بلك ، وفي هذا الوقت كان ميخائيل الأرمني صاحب كركر مهددا من قبل الأتراك ، ولما كان يعلم حق العلم انه لا يستطيع الاحتفاظ بالقلعة لذلك أعطاها وسلمها للملك بلدوين ، واستلم

اماكن أخرى لاعالة نفسه في هذه الحياة ،فبعد أن سلم كركر استلم ميخائيل دلوك مكانها ، وسار بلدوين الى انطاكية واستمر بلك بالهجوم على كركر ونهبها ، وكذلك على سميساط « وجاكسي » وقلعة منصور فاضطر بلدوين للرجوع ثانية لانقاذها ولجلب القمح من كيسوم وسميساط وعندما سمع بلك أن بلدوين في كيسوم جمع جيوشه وتوجه الى نهر سنجة بين كيسوم وسميساط . ولم يكن يعلم شيئا عن قدوم بلك وانه اصبح قريبا منه لذلك استمر في اقامة الحفلات والولائم بمناسبة صعوده الى كيسوم ، وفي الثلاثاء سار هو وجنوده دون اتخاذ اية احتياطات حتى وصلوا الى قنطرة سنجه الشهيرة وكانوا على بعد حوالي فرسخ واحد منه (الفرسخ = ٤ اميال) وكان معظم خيالته وفرسانه بعيدين عنه ، فهم لم يكونوا قد وصلوا الى النهر بعد ، وكان الملك سائرا في المقدمة وأمامه الراية ، ومعه بضعة مرافقين ، وعندها فاجأه كمين أعده بلك ، واحاط به التركمان كالذئاب الكاسرة من جميع النواحي احاطة السوار بالمعصم ، وهم مسلحون ومجهزون ومتعطشون لنيل الغنائم ، عندها أسروا الملك وابن أخته وكان شابا وسيما ومعه كثير آخرين ، وقد قتل منهم كثيرون ، واخذ بلك الملك الى كركر وعذبه حتى سلمه القلعة فاحتلها بلك واكتفى بذلك.

وتخلصت البلاد من اللصوص وقطاع الطرق الذين عاثوا في الأرض فسادا ، ونهبوا الفقراء ، واخيرا حل السلم ، وقد قيل ان بلك كان يأمر بقتل أي تركماني على الخازوق لسرقته قطعة لحم من رجل فقير ، ولم يكن يسمح لاي شخص أن يهين أي مسيحي ولو بكلمة ، ثم وضع حامية في كركر ، ونقل الملك والأسرى الآخرين الى قلعة زياد ، حيث انضموا الى جوسلين وجاليران ، وكان جوسلين قد اسر في شهر ايلول ، ووصلت أخباره الى الرها في أمسية عيد الصليب ، فألغيت الاحتفالات والمواكب في تلك السنة ، وحل محلها الندب والنواح ، وكان اسر بلدوين في آخر ثلاثاء من شهر نيسان ، وروي أنه عندما غادر بلك قلعة زياد قال لجوسلين : سوف

أجلب الملك ليكون معك انشاء الله ، وهكذا كان ، فبعد ستة اشـهر التحق بهم الملك بلدوين.

وللمرة الثانية في هذه السنة عسكر بلك حـول الرهـا ، واتلف المحاصيل الزراعية والحدائق وخرب الارض ، ومن ثـم ذهـب الى حران التي سُلمت له ، ثم الى حلب التي خضـعت ايضـا بـدورها له ، وبعدها بدأ يغزو الفرنجة في تل بـاشر ودلوك وأعزاز ، واخـذ كثيرا من الأسرى والقرى بعد أن نهبهـا وارسـل مـن فيهـا الى بلدة ، ثم استولى على قلعة منصـور ، وهـزم رجـال خـلاط (٨٦) وأحدث الضرر العظيم في أراضي الفرنجة في ذلك العام.

وفي شهر آب من تلك السنة وهي ١٤٣٥ (٨٧) قام عشرون رجلا من الأرمن ممن كان يخدم في حصن كيسوم مع غودفـري الموين والملكة فذهبوا الى قلعـة زياد متنكرين بشـكل جنود فقـراء ، وكان عشرة منهم يحملون العنب والفواكه والطيور الداجنة ، وقد تـظاهر هؤلاء انهم قرويون أتوا للشكوى ضد واليهم الذي ظلمهم ، وبقي الآخرون خارجا وهم مستعدون للالتحـاق بـرفاقهم عندمـا تحين سـاعة العمل ، وذهبت الجماعة التى تحمل الأحمـال الى بـوابة الحصـن العليا واخبروا البواب عن سبب مجيئهـم ، وهـو الشـكوى ضـد واليهم ، فطلب منهم الانتظار بين البوابات بينما يخطر شحنة القلعة بقدومهم ، وصدف أن كان الشحنة يقيم وليمة لضباطه ، وقد أثرت الخمرة بهم ، وكانوا بمنتهـى الغبـطة والسرور ، وكان كثير مـن الحرس يشاهدون الوليمة ولم يبق سوى اثنان أو ثلاثة مع البـواب على البوابة ، وعندما ذهب الرسول لاخبار الشحنة عمـد الرجـال لاختطاف السيوف المعلقـة بين البـوابات وقتلوا البـواب وكل مـن وجدوه هناك ثم دعوا أصدقائهم الذين كانوا بانتظارهم في الخـارج وانضم هؤلاء اليهم وفتحوا الأبواب واندفعوا وقتلوا جميع الضباط الذين كانوا يشتركون في الوليمة بدون اسـتثناء ثـم فـكوا أسـار الأسرى ، واحتلوا القلعة وساعدهم جميع الأرمن الموجودين داخـل المدينة ، وحالما انتشر خبر هذه الواقعـة أرسـل الخبـر الى بلك في

حلب ، وتجمع الأتراك من كل حدب وصـوب ، وأحـاطوا بـالقلعة وراقبوها عن كثب حتى لا يخرج منها احد أو يدخلهـا أحـد وعمـد جوسلين في الليلة الأولى ومعه اثنان او ثـلاثة آخـرون الى الهـرب بشجاعة ، فاخترقوا الحصار ونجوا ، وكان جوسلين قد وعد الملك بألا يرتاح حتى يصل الى بيت المقدس ويجلب جيشا لانقاذه ثم سار مارا بكيسوم ، ثم تل باشر ثم انطاكية ، فالى بيت المقدس.

وزاد فرح الفرنجة لدى سماعهم أن بلدوين وجـاليران قـد أطلق سراحهما وأن قلعة زياد قد سقطت ، ولكن عندما سمع بلك بما حدث في قلعته الحصينة ، عاصمة مملكته ، وبيت ماله ومخزن ثروته بـدأ بالتحرك حالا مع فرق جيشه ، ووصل الى قلعـة زياد بمـدة أربعـة ايام ، أي بعد عشرة ايام من حـدوث الكارثـة ، وهـاجم القلعـة بضراوة ونصب آلات الحرب التي حطمت السور دون تـوقف دقيقـة واحدة لئلا يحضر الفرنجة لنجدتها ، وفي بضعة أيام فتحوا ثغـرة في السور ، وطلب بلك تسليم الحامية ووعدها أن يحفظ حياة أفرادها لانه لم يرغب أن يهاجم القلعة ويدمر سمعته وشرفه ، ثم هدم برجا آخر واقفا فوق صهريج المياه وعندما حدث هـذا فقـد المحـاصرون الامل وخرج جاليران بنفسه ليطلب كلمـة الشرف مـن بلك لحفـظ حياتهم ، وأعطاهم بلك كلمة الشرف ، فسلموا له القلعة فـدخل بلك وبدأ بتعذيب الارمن وسلخهم أحياء ، ثم أعيد الملك وجـاليران الى سجنهم (٨٨) السابق.

وذهب جوسلين الى بيت المقدس ، وجمع جيشا ونزل خارج حلب في جبل جوشن مقابل البوابة الغربية لمدة ثلاثة ايام ، واخذ الجـزية منهم ، وقد أراد أن يخلص قلعة زياد ، لكنه سمع أن بلك قد احتلها وقتل الأرمن لهذا عمد الى هدم المساجد الواقعـة على الجبـل الذي كان نازلا بـه ، وكان احـدها مشـهد الدكة واخـر بني للملك رضوان ، ثم قطع الأشجار وخرب الحدائق ورجع (٨٩) .

وفي حلب طلب ابو الحسن بن الخشـاب قـاضي المسـلمين مـن

المسيحيين في المدينة أن يعيدوا بناء المسجدين وكان هنالك أسقفان في المدينة أحدهما أرثوذكسي اسمه غريغوري أو شمشوم الرهاوي والآخر ملكاني وكانت خزينة الكنيسة لاتسمح بمثل هذه النفقات فقالا : إننا لانستطيع أن نفتح علينا بابا ، إذ أنه كلما هدم مسجد توجب أن نعيد بناؤه من « أموال الكنيسة » ، وعندما سمع المسلمون هذا الكلام قاموا في يوم الجمعة بناء على أمر القاضي فهجم ألوف من المسلمين ، ومعهم النجارون والفؤوس على الكنائس ، فاقتحموا كنيسة القديس يعقوب وكسروا المنبر وحطموا ملائكة المذبح وشوهوا الصور ، وفتحوا محرابا في حائط الحرم الجنوبي ، وبدأوا بالصلاة هناك ، وحولوا الكنيسة إلى مسجد ، وقد حدثت العملية نفسها في كنيسة ثيوتوكس الاغريقية وكنيسة النساطرة ، ونهبوا الكنائس وحجر خلوات الأساقفة ، وقدهرب الأسقف الملكاني إلى أنطاكية والأرثوذكسي إلى قلعة جعبر ، وقد حدث كل هذا في عام ١٤٣٥ عندما كان أثناسيوس بن قماري بطركا (٩٠)

وعندما سمع بلك بتحركات جوسلين اسرع في جمع قوات عسكر بها قرب منبج وخرب الأراضي التي لم تكن تابعة له وذلك عقابا للأهالي الذين لم يساعدوه ، وفي أثناء القتال ضد منبج أصيب بسهم أطلق عليه من أعلى السور فمات ، فأخذوه إلى حلب ودفن هناك بعيدا عن أسرة أرتق (٩١) .

وفي تلك الأثناء وفي أثناء الحوادث التي حدثت في قلعة زياد في عام ١٤٣٥ ، تجمع بعض الفرنجة ويدعون البنادقة وجمعوا جيشا عظيما وجهزوا كثيرا من السفن وأبحروا في البحر إلى فلسطين تحت قيادة ملكهم المدعو الدوج ، فوصلوا إلى ساحل صور وصيدا ورسوا بسفنهم هناك ، وعندما سمع الفرنجة بقدومهم اتى بطرك بيت المقدس لاستقبالهم لأن الملك بلدوين كان أسيرا ، وقد حاصروا صور التي كانت لاتزال تحت حكم المسلمين واصبحت ملجأ لكل من احتل الفرنجة بلادهم ، وهاجم هؤلاء صور برا وبحرا وحاربوها

بمختلف أنواع الأسلحة ونصبوا المجانيق والعرادات التي قذفتها ليلا ونهارا ، وبنوا برجين من الخشب مؤلفين من سبع طبقات ، وكل برج طوله عشرة أذرع وغطوا البرجين بأنواع قوية من خشب البلوط الرطب التي لاتؤثر بها نيران النفط ، وعندما انتهوا من بناء البرجين سحبوهما ووضعوهما أمام الأسوار ، والآن لم يكن للمدينة سور واحد بل ثلاثة أسوار عالية يفصل بينها ثلاثة أسوار صغيرة ، وخندق عميق بينها ، وكانت الأسوار مسلحة تسليحا قويا ، ووجد عليها جنود مسلحون بأقوى الأسلحة ، ورجال صور مشهورون بأنهم محاربون أشداء .

واستمر الحصار مدة سبعة أشهر ، وقد فتحت ثلمات في الأسوار في بضعة مواقع وهدمت عدة أبراج ، ولكن الحامية لم تتأثر لأن الطعام كان موفورا لديها إنما أصبح افرادها في كرب عظيم عندما نفد الطعام ، ولما لم يتمكنوا من الحصول على أية مساعدة من حاكم مصر توجهوا إلى صاحب دمشق ليساعدهم ويحكمهم ، وكانت المراسلات تجري بواسطة الحمام لأنه لم يكن هنالك مجال لانسان لدخول المدينة أو الخروج منها ، وجمع حاكم دمشق جيشا لجبا لمساعدتهم وارسل لهم رسالة بواسطة الحمام أيضا تقول أنا قادم بعد أيام للتفريج عنكم وبصحبتي جيش عظيم كونوا اقوياء ، استمروا في المقاومة ولاتهنوا ولاتضعفوا ، ولكن بمشيئة الرب وقعت الحمامة بيد الفرنجة في معسكرهم فقراوا الرسالة ، وكتبوا رسالة أخرى ذات معنى معاكس نصها :

« لقد كتبتم لنا بأن نأتي لنجدتكم . نحن لانستطيع القدوم لأنه ليس لدينا عساكر تقاوم هؤلاء الذين يحاصرونكم فسلموا المدينة ، وتأكدوا من الحفاظ على أرواحكم » وربطوا هذه الرسالة بجنح الحمامة واطلقوها وعندما قرا اهالي صور هذه الرسالة فقدوا الأمل لأنه لم يكن لديهم طعام « حذفت هنا فقرة تخص قصة الاسكندر الكبير » .

وأرسلوا بعض أعيان المدينة إلى الدوج قائد الفرنجة والبطرك ،

ورجوا أن تحفظ ارواحهم فاتفق على أن كل من يرغب بالبقاء يمكنه البقاء في المدينة ، وكل من يرغب في الخروج يمكنه الخروج مع عائلته إلى حيث شاء ، بأمان ، عندها فتحت أبواب المدينة ودخل الفـرنجة وتمركزوا فيها في شـهر تمـوز (٩٢) ، وفي هـذه الأثناء كان بلدوين (وجوسلين) وجاليران لايزالون في السجن (٩٣) .

اطلاق سراح بلدوين وموت جاليران (٩٤)

اما البرسقي الذي سبق وروينا خبر انكساره فقد راى حلما وهو في الموصل أن احد عشر كلبا قد مزقوا جسـمه إربـا إربـا وعندمـا استيقظ أخبر عن حلمه ، فحذروه بألا يذهب للصـلاة في ذلك اليوم ، وان يحتاط لأمره ، ولكنه رفض أن يتخلى عن صلاة الجماعة في يوم الجمعة في الجامع الكبير في ذلك اليوم ، وبينما كان يسير داخلا مـن باب المسجد في منتصف النهار متوجها إلى المسجد للصلاة كما هـي عادة المسلمين ، إذا بأحد عشر رجلا من الاسماعيلية يحيطـون بـه ويطعنونه بالمدى ويقتلونه (٩٥) ، وقد خلفه في حكم الموصـل واقـور ابنه الذي كان يدعى البرسقي ايضا ، وتجمع الفرنجة : الملك بلدوين وصنجيل صاحب طرابلس وجوسلين كونت الرها والتحق بهم أحـد المسلمين المنفيين المدعو دبيس صاحب الحلة والعراق ، وكان قد اتى إلى انطاكية وانضم إلى جانب الفرنجة ، وحاصر هؤلاء حلب بجيش عرمرم وهاجموها من جميع الجوانب مدة تسعة اشهر ، وقد اصبح الأهالي في كرب عظيم بسـبب المجـاعة ، واكلوا لحـوم الحيوانات القذرة ، وبعد تسعة أشهر عندما اصبحوا على وشـك الاسـتسلام اتتهم رسالة من البرسقي حاكم اقور انه قادم لنجـدتهم ، واقتـرح دبيس أن يعطى جيشا يذهب على راسه ويمنع البرسقي أو يعيقه من عبور الفرات حتى يتمكنوا من فتح المدينة ، وقد كان الفرنجة عنيدين فلم يأبهوا لنصيحته وعبر البرسقي الفرات ودخل حلب ليلا بمنتهـى الجراة ، وفي الصباح فتح اهالي حلب أبواب المدينة وزحفـوا وعلى راسهم البرسقي ، وهاجموا الفرنجة الذين تـركوا حصـار المدينة وعسكروا على قلعة الجـوشن ، وبعـد عشرة أيام جلواعن المنطقـة

واتجهوا إلى انطاكية ، فطاردهم البرسقي حتى الأثارب ، وقد قـام بضرب المتخلفين من الجيش ، ونهب الأمتعة ثم رجع إلى حلب وقـد انتابه السرور العظيم .

ثم بدأ البرسقي حصار عزاز ، وركب الآلات لضرب الأسوار ليلا ونهارا ، وقد حفرت الانفاق تحت الأسوار حتى يدب الفزع في قلوب الحامية ، وعندما سمع الفرنجة في انطـاكية تلك الأخبـار تجمعـوا تحت قيادة بلدوين وجوسلين ، ولكنهم كانوا يخشون التقدم لانقـاذ المدينة لأن عدد التركمان كان عظيما ، وقد وقعت الحملة في ارتبـاك عظيم فلم يستطع احد ان يدخل أو يخرج ، ولكن رجلا واحدا تبـرع بالمخاطرة بنقل أخبار الوضع السيء إلى الملك ، وقـد وعده الأهـالي بمكافأة سخية إن هو رجع إليهم سالما ، فـامتطى حصـانا قـويا ، واخذ سيفا في يده وحمامة على صدره ، وخرج من البـوابة كالبـرق واجتاز جماعة جماعة مـن جمـاعات الأعداء الذين كانوا يراقبـون البوابة وقفز فوق الخندق الدي حفر حول المكان ، وعبر إلى الضـفة الأخرى ، وقفز الأعداء عليه مـن كل حـدب وصـوب ولكنهـم لم يستطيعوا إيقافه ، فوصل إلى انطاكية وسلم الرسالة للملك ، فبـدأ الفرنجة في الاسـتعداد لاغاثـة أعزاز وهـم يعتمـدون على الرب ، وارسلوا رسالة بواسطة حمامة يقولون فيها . « سوف نغيثكم بعـد بضعة ايام كونوا أقـوياء ولاتهنوا وتضـعفوا » ونزلت الحمـامة في معسكر الأتراك الذين كتبوا رسـالة بمعنى معـاكس تحمـل اسـم جوسلين وهي تقول : « لاأمل يرجى منا إن الملك مشغول بمحـاربة المصريين الذين يحاصرونه ، انقذوا أرواحكم وسلموا الحصـن » ، وعندما قرأ افراد الحامية هذه الرسالة انقسموا في الراي ، وقالوا : « سوف نصمد ونتحمل لئلا يحدث لنا مـاحدث لحمـامة صـور ، إذ ربما كانت هذه الرسالة مـزورة ، فلنبـق أقـوياء ولنحـافظ على صمودنا أكبر مدة نستطيعها ، دعنا نمـوت ولا نسـتسلم » ، ورأى الاتراك أن حيلتهم قد أخفقـت فـأرسلوا بعض امتعتهـم إلى حلب لانقاذها من الفرنجة وارسلوا الجواسيس إلى انطاكية ليعرفوا متى يتحرك الفرنجة ، وبعد بضعة ايام جاءت الأخبار أن الفرنجة بـداوا

بالتحرك ، فأعاد الأتــراك كل مــاكان لديهــم مــن أدوات إلى حلب وأحرقوا آلات الحصار ، ولم يبق إلا الرجال المحاربون ، واختــزن الفرنجة أمتعتهم في كلز وتركوا التلة وتمركزوا في السهل فــوق كلز ، وعندما رأى الأتراك الفرنجة بدأوا يتحركون هنا وهناك واصــبحوا على يسارهم ، ومر الفرنجة الذين كانوا قليلي العدد بين التــركمان دون قتال ، وعسكروا حيث كان الأتراك معسكرين ، ورأى الأتــراك قلة عدد الفرنجة فارتفعت معنوياتهم وناقشوا القضية بهذا الشكل . إذا توقفوا في مكانهم فإننا ســوف نحيط بهــم ونقــطع عنهــم المؤن فيموتون جوعا ، وإذا هربوا فذلك علامة ضعفهم ولسوف نطاردهم ، أما الفرنجة فأدخلوا عددا كبيرا من الرجــال إلى داخــل القلعــة ، وأعطوهم التعليمات التالية : « نحن متوجهون لفترة قصيرة غربــا حيث ترتاح خيولنا ونحصل على الماء والغذاء (لم يكن اي شيء مــن هذا في أعزاز) فإذا طاردنا رجال العدو راقبوهم فعندما يخــرجون من مكانهم ويصبحون كتلة واحدة خلفنا عندهــا ارفعــوا شــارات الدخان فوق القلعة ، وعندها تتم مشيئة الرب » ، وتحرك الفــرنجة عند الفجر في طريق انطاكية ، وعندمــا تبعهــم الأتــراك تــظاهروا بالهرب ، وتشــجع الأتــراك فــأظهر جميع الرجــال الذين كانوا في الكمائن أنفسهم ، وطاردوا الفــرنجة بــكل عزم ، وظهــرت علامــة الدخان فوق القلعة ، فأصدر الملك الأمر ونفخــت الأبــواق وجلبــت الأعلام الملكية إلى المؤخرة وكان الرب غاضــبا على الأتــراك الذين هربوا وتــركوا خلفهــم الفــي قتيل ، ولم ينج إلا البــرسقي وبعض مرافقيه الذين طوردوا حتى حلب ، ثــم عاد إلى الموصــل ومــات في الرحبة على الفرات (٩٦) .

وأرسل الملك بلدوين واحضر مــن أوربــا ابــن بــوهيموند الأول صاحب انطاكية (الذي رجع إلى بلاده بعد أن أطلق سراحه من إسر الدانشمند) وقد خطبه لابنته وجعله حاكما لأنطــاكية وبعــد هــذا أحضر شابا اخر من عائلة الكونت فولك وخطبه لابنته الأخرى (٩٧) وأعلنه ملكا على بيت المقدس أثناء حياته ، أمــا طغتــكين صــاحب دمشق وبانياس فقد رأى أنه لايستطيع الاحتفاظ ببانياس ، لأنهــا

محاطةبأراضي الفرنجة ، وهكذا أعطاها لبهرام ، الاسماعيلي فقبلها هذا ، وجمع خمسمائة رجل وارسل بعض الهدايا لملك الفرنجة وقدم له ولائه .

اما ابناء رافين الارمني اسياد كيليكية فقد قاوموا غازي بن دانشمند ، وبدأ رجالهم بالنهب في أراضيه ، فبدأ غازي وهو من اقوى الامراء في مهاجمة اراضيهم واستعد بوهيموند صاحب انطاكية الذي كان متضايقا منهم ايضا ، للهجوم على كليكية ، وعندما بدأ بوهيموند بغزو كليكية ، قام غازي بالهجوم عليها من الجانب الآخر ، وقد تقابلت جيوش الفرنجة مع جيوش التركمان في الحال ، وكانت مقاصدها واحدة ، وهي تخريب تلك البلاد ، واحاط التركمان بجيش بوهيموند وقضوا عليه ، ولم ينج منهم أحد ، وقتل بوهيموند الشاب النبيل ، فأخذوا راسه وسلخوه وازالوا الشعر الرقيق عنه وارسلوا جلد راسه مع أشياء أخرى لطيفة : دروع ورماح فرنجية ، ومهاميز للخيل ارسلوها جميعا للسلطان في اصفهان كهدايا النصر ، هكذا قضى الأميران الواحد على الآخر ، وأطلق سراح الارمن ، ومن الغريب أن نذكر أن دانشمند ابو غازي قضى على جيش بوهيموند الأكبر وحطمه ، وهو أبو بوهيموند هذا وأخذه أسيرا ، بينما ابنه غازي قضى على جيش بوهيموند هذا ، وقتل غازي الشاب بوهيموند الشاب .

وفي عام ١٤٤٢ (١١٣١ م) مات السلطان السجلوقي في اصفهان ، وحدثت زلزلة قوية سببت الكثير من الوفيات في خراسان ، وقد أنعم خليفة بغداد على غازي بن دانشمند ، وهو صاحب كبدوكية وملاطية بالسلطنة ، وقد كان اقوى امراء الاتراك في تلك الديار .

وفي هذا العام جمع جوسلين صاحب الرها الذي كان قد طعن في السن ولم يتوقف عن القتال ، جمع جيشا لتدمير قلعة تدعى تل آعرن (٩٨) بين حلب ومنبج حيث كان يعيش بعض اللصوص الذين عاثوا في الأرض فسادا باستمرار،وقد حفر الخنادق حولها ليحدث

ثغرة في الأسوار ، لكن انهيار الثغرة طمره عندما نزل ليرى الثغرات بنفسه ، وعندما اخرجوه من تحت الأنقاض كان في حالة سيئة جـدا يكاد يموت فقد تحطم جسمه فحملوه إلى تل باشر حيث بقـي وهـو مريض هناك ، وفي اثناء ذلك جمع غازي جيشا للهجـوم على اراضي الأرمن أبناء (رافين) ، وعندما سمع جوسلين هـذا الخبـر أمـر بجمع جيش ، وحمل على نقالة وتقدم لمقـابلة غازي الذي رحـل إلى بلاده عند سماعه هذا الخبر ، وبعد أن وصل جوسلين إلى دلوك توفي هناك ودفن في الكنيسة هناك ، وقد حكم بعده ابنه جوسلين الشـاب الذي كانت تعوزه المعرفة والفهم ، وفي هذه السنة أيضا مات بلدوين ملك بيت المقدس وحكم بعده صهره الأمير فولك أوف انجو ، وكمـا ذكرنا من قبل فقد كان هذا الشاب يتمتع بسلطة الملك اثناء حياة عمه ابي زوجته ، واما في انطاكية فبعد موت بوهيموند بن بوهيموند حكم بيتابين الذي ذكرنا أن جيشه قـد تحـطم في الاناضـول ، وعاد إلى بلاده .

وفي الشرق بعد موت البرسقي الاصغر في الرحبة عين السـلطان العظيم عام ١٤٤٣ (الصحيح ١١٢٧) زنكي بن آق سنقر حـاكما في الشرق.وكان آق سنقر أحد رفقاء بـوزان الذي ذكر قبـل مجـيء الفرنجة ، وقد قتلهما تتش وهو تاج الملك ، وكان السلطان في بغـداد هو مسعود ابن أخي سنجر شاه العظيم ، وهـو ابـن ابـي الفتـح ملكشاه الذي دخل إلى سورية في ايام فيلارتـوس الدمشـقي وعين يغي سيان حاكما على انطاكية وبوزان حاكما على الرها ، وطغتكين على دمشق ، وقد ولد سنجر شاه لأبي الفتح مـن الملكة العـظيمة في سنجار ، وهكذا حصل اسمه ، وفي هذه الأثناء كان مسعود ابن أخي سنجر شاه يحكم اراضي اصفهان وخراسان والعـراق وبغـداد وكل البلاد الواقعة في الجنوب الشرقي ، وقد تبعت له اراضي اقاليم اقور في الشمال الغربي ايضا ، وفي الموصل كانت السلطة بيده ايضا ، وكان بها حاكم يدعى اتابك ، وهذا الاسم أطلقه عليه التركمان ، وقد حكم كل منطقة مابين النهرين والشمال وحلب وفينيقية ، وفي الموصل كان هناك صـلاح الدين (٩٩) المشـهور وكذلك ناصر الدين وزين الدين

علي ، وهم تركمان حصلوا على الحظوة لدى السلطان ، وعندما مات البرسقي تقلدوا جميع السلطة في الشرق وحرضوا السلطان على تعيين زنكي بن آق سنقر حاكما(وهو عماد الدين) ونفذوا هذا الأمر ، ثم جعل زنكي حاكما على اقور ، وجميع مابين النهرين وسورية وفينيقية ، وقد أعطاه ولدي السلطان مسعود الشابين ليكونا سيدين على المنطقة بينما احتفظ زنكي لنفسه بمنصب الوصي والحامي،وفي هذا الوقت مات مسعود صاحب أصفهان وقد خلفه ابنه سليمان شاه في همذان (١٠٠).

في عام ١٤٤٣ زحف زنكي إلى جوار الرها ، وحاصر قلعة واقعة في شرق المدينة التي كان الفرنجة قد انتزعوها من شخص عربي يدعى مانع بن عطير ، واحتل زنكي قلعة شان (١٠١) ثم زحف واقترب من الرها ، وأرسل رسولا لأهالي المدينة قائلا إنه لايريد الحرب مع الفرنجة بل يبغي السلم معهم ، فأرسلوا له الهدايا من طعام المدينة وشرابها ، وهكذا مر بسلام إلى حلب .

وحكم تاج الملك دمشق بعد وفاة والده طغتكين ، وبعد زمن قتله الاسماعيلية ، ولم يتفق ابناءه وأخوته الباقون ، فاستولى احد القادة الذين كانوا مع تاج الملك على دمشق وهو أنر باسم احد ابنائه ، واستولى ابن اخر على بعلبك ، وجمع زنكي جيشا وحاصر به بعلبك ونصب آلات الحصار التي خربت تلك الأبنية الرائعة ليلا ونهارا ، حتى أنه كان يرمي عليها كل يوم الف حجر ضخم ، ولهذا سلمت المدينة بسبب ماأصابها من كروب ، وهكذا استولى زنكي على بعلبك وبدأ القتال باستمرار ضد دمشق .

وعندما رأى انر صاحب دمشق ان زنكي كان قويا يمكن ان يتغلب عليه بسبب ضعف جيشه وافتقاره إلى القوة طلب العون من ملك بيت المقدس ورشاه ليأتي لمساعدته ، وجمع ملك بيت المقدس جيشا وتقدم حتى أصبح قريبا من جيش زنكي وبحركة فنية بارعة انسحب زنكي من امامه كما لوكان هاربا حتى توغل ملك بيت المقدس في البلاد ، وبعدها انعطف عليه زنكي بعنف وشراسة تسببت

في هزيمة الملك وهرب جيشه ، فبدأ التركمان بذبحهم بالسيوف ، ولكن ملك بيت المقدس هرب مع بعض رجاله إلى حصن الأكراد في أراضي طرابلس ، واختبأ هناك مع الرجال الذين هربوا معه ، وحاصر زنكي هذا الحصن وضيق على الحامية ، حتى أنهم أكلوا الخيول والحمير دون ملح ، واستغاث ملك بيت المقدس ببتابين صاحب انطاكية وجوسلين الاصغر صاحب الرها ليأتيا لاغاثته ، وقد قاسى الملك ورفقاؤه وهم ينتظرون جمع الجيش ومجيء النجدة ، وعندما سمع زنكي بالهرج والمرج ، وتجمع الفرنجة وإمكانية مجيئهم ، وعما يعانيه الملك أرسل له الأطعمة الطيبة اللذيذة لاسترضائه وعمل معه اتفاقا وعهدا وميثاقا مشفوعا بأغلظ الأيمان ، ثم سار زنكي في حال سبيله (١٠٢) ، وسرعان ماوصل الفرنجة وارادوا أن يطاردوا زنكي ، ولكن الملك لم يسمح بذلك بسبب ميثاقه وقسمه ، وقويت شوكة زنكي واستمر في حرب دمشق بعناد ، واخذ أراضيها واستولى على تدمر في الصحراء .

وبعد إحلال السلم مع الملك لم يعد زنكي يحارب الفرنجة ، بل كان كل همه محاربة المسلمين ، واخذ أراضيهم ، وإخضاعهم لسلطته ، وكان هنالك قلعة قرب حلب تدعى الأثارب ، وقلعة أخرى تدعى هادانا (زردنا) وهي تحت حكم أحد زعماء الفرنجة ، الذي جمع جيشا وأخذ في تخريب الأراضي في حلب ، واخذ كثيرا من الاسرى ، ثم رحل ، وعندما سمع زنكي بهذه الأخبار ، أخذ جيشه واحدق بهذه الأماكن ، واستولى الذعر على الأهالي ، فطلبوا من زنكي أن يقسم بالحفاظ على أرواحهم ، فأقسم ولكن كانت نيته الغش ، فقال بأنه سيأخذهم إلى بوابة أنطاكية ، وعندما فتحوا الابواب ، اخذهم جميعا رجالا ونساءا وأولادا إلى حلب ، لكن إلى باب يدعى باب انطاكية في حلب ، وبذلك حافظ على قسمه ، لكنه ذبح جميع الرجال بالسيف ، وأما النساء ، والأطفال فقد جعل الأولاد عبيدا والبنات جواري .

وعندما مات غازي بن دانشمند (١٠٣) حكم ابنه محمد بعده ،

واصبح قويا ، لكنه كان رهيبا ، وزاد ثقل نيره على ممتلكاته في كبدوكية ، وخصوصا على اهالي ملاطية ، وقد ارهقهم بالضرائب وخصوصا الجزية ، وعاقبه الرب بأن اصيب بمرض خبيث ، ومات ، وكان لغازي ولدان أخران هما (دولة) والآخر (يعقوب) وعندما مات محمد استلم الحكم (دولة) بعده (١٠٤) .

وفي عام ١٤٤٦ (التاريخ الصحيح هو ١١٣٧ م) بدت الحماسة في الظهور عند الامبراطور جون في القسطنطينية لغزو سورية فجمع جيشا يقدر بأربعمائة الف رجل من الأغريق والفرنجة والألمان والهنغاريين واستعد للزحف على طول ساحل كيليكية ، حتى يظل بجانب البحر وبذلك ينقل امتعة في السفن التي تستطيع ان تمده بالمؤن والعلف للخيول بانتظام ، وكان حاكم كيليكية في ذلك الوقت (ليو) (ليون بن رافين) الأرمني ، وهو خال جوسلين الاصغر صاحب الرها ، وقد تحسنت احوال (ليو) هذا واصبح قويا ، وعندما قتل بوهيموند في أراضيه زادت سلطته على الفرنجة وعلى الأراضي الساحلية المدعوة « تاغر (١٠٥) » واستولى على طرسوس ، وسبب كثيرا من الخسائر للفرنجة ، وعندما حكم بيتابين في انطاكية نمت وزادت هذه العداوة ، وقد استمر (ليو) هذا في غزو أراضي الاغريق ، وسبب هذا الانزعاج للامبراطور ، وفي الوقت الذي حدثت فيه غزوة الامبراطور ، كان بيتابين قد جمع جيشا ، وبدأ بنهب اراضي كيليكية ، واستعد (ليو) للقتال ، ولكنه فوجىء بكمين فرنجي فأسر وأخذ إلى انطاكية حيث اودع السجن ، وبينما كان (ليو) أسيرا وصل الامبراطور إلى ابواب كيليكية ، وأرسل رسالة إلى الفرنجة طلب بها من كل من يخضع له ان يأتي ويقدم له فروض الولاء والطاعة ، وعندها اتى جوسلين وبيتابين لتقديم فروض الطاعة وقابلاه فيما وراء طرسوس ، واستقبلهم الامبراطور بسرور ثم رجعا كل إلى مدينته ، واستولى الامبراطور على طرسوس والمصيصة واذنة واستولى على عين زربة بعد حصارها ، ثم تقدم إلى سهل انطاكية وانتشر جيشه في السهول والقرى ، وانزل اضرارا جسيمة بالقرى المسيحية ، وعندها اتى

حاكما انطاكية والرها مرة ثانية لتقديم فروض الطاعة للامبراطور ، وقد رغب أن يضع الأمتعة التابعة لجيشه وأمواله في انطاكية بمثابة عهد منه وتعهد بأنه تغلب على أراضي المسلمين فسوف يعطي هذه الأراضي لصاحب انطاكية ، لكن صاحب انطاكية لم يكن راضيا عن هذا الاجراء.

وزحف الامبراطور على رأس جيش عرموم ومعه أموال كثيرة ورافقه أبناؤه الأربعة وأخوته وأصهاره وجميع رجال بلاطه الامبراطوري ، وقد أقسم يمينا بألا يرجع مع قياصرته وأغسطسه وبطارقته وبقية نبلائه دون أن يحرز نصرا مبينا ، وهذا مادبره الامبراطور ولكن الرب يعطي نصره وتأييده لمن يشاء ، فعندما رجع بيتابين إلى أنطاكية أطلق سراح (ليو) الذي رجع إلى بلاده وانضم للامبراطور بمثابة رديف ، ولكن الامبراطور سجنه واحتل أراضيه وأرسله إلى القسطنطينية مع أولاده وأهل بيته .

وبينما كان الامبراطور في سهل أنطاكية والفرنجة يخدعونه إذ لم يكونوا مستقيمين بالتعامل معه ، أتت أخبار تستحق الرثاء من أذنه التي حلت بها نوازل قاسية ، فقد كانت أذنه مليئة بالمسيحيين اليعاقبة ومعهم مطرانهم يحيى يسوع بن أريك الرهاوي ، وعندما استولى عليها الامبراطور ترك فيها قوة لحمايتها ، وانتقل الى أنطاكية وقد فرح أهلها لأنهم أصبحوا تحت حكم الاغريق الذين خلصوهم من الضرائب الباهظة التي فرضها الفرنجة عليهم ، وبينما كانوا هادئين وناعمي البال في أحد أيام الأحد اذا بجيش تركماني (١٠٦) ينقض عليهم ويحيط بهم إحاطة الخندق بالأسوار ، وبدأ هذا الجيش بالهجوم عليهم كالريح العاتية ، ونصب جنده السلالم على الأسوار وتسلقوا عليها ، وعندما كانت حامية السور تدفعهم من جانب كانوا يظهرون في جانب آخر ، ولقد ضعفت الحامية بسبب السهام التي كانت تطلق عليها من جميع الاتجاهات والحجارة ، والهجوم المركز المحيط بها ، وصمدت الحامية من الفجر حتى منتصف

النهار ، وأشاح الرب وجهه عنهم وتـركوا لتتسـلمهم أيدي الأعداء بطريقة غريبة عجيبة لايصدقها أي شخص يسمعها ، اذ دفـع أحـد الأتراك سلما على السور وبدأ بالتسلق عليه ولكن عندما وصـل الى نهاية السلم كان السور لايزال أعلى منه . فتمسك بحجـر بـارز في السور ووقف عليه واذا بواحد من رجال الحامية فوقه يطعنه برمحه ليرميه على الأرض وتمسك التركماني بالرمح فسـحب الجندي الذي على السور الرمح بشدة ليخلص الرمح مـن يد التـركماني وبهـذه الطريقة سحب التركماني الى الشرفـات في أعلى السـور ، وسـل التركماني سيفه وهجم على الجندي الذي انهارت قواه وسقط مـن أعلى السور ، عندها اعترى الجنود الآخرين الخوف والفزع فهربوا من التركي ، وتركوا أمكنتهم وتشجع التركمان فتسـلقوا وتبعـوا رائدهم ، واحتلوا السور ، وفي لحظة من الزمن أصبح السور يعـج بالتركمان الذين نزلوا الى المدينة وفتحـوا ابـوابها ، وأدخلوا بقية الجيش التركي ، ولقد كان الرب غاضبا على أدنه وسكانها ، وجمع التركمان جميع الرجال وأمروهم بـالركوع ثـم قـطعوا رؤوسـهم بالسيوف ، وقد نهبوا البيوت والأديرة والكنائس ، وجمعـوا غنائم لاتعد ولاتحصى ، وأخذوا أسرى من الأولاد والبنات بشكل مجـاميع كاملة ، وأخذوا المطران والكهنة والشـمامسه الصـغار وربـطوهم بالحبال وجروهم الى الأسر المهين ، ودمروا المدينة وجعلوها خرابا يبابا ، ثم رجعوا الى بلادهم ، وعندما وصلت الأخبار للامبـراطور أرسل جيشا لمطاردة التركمان ، ولكن لم يسـتطع هـذا الجيش أن يدركهم لأنهم كانوا قد ابتعدوا مسيرة سبعة أيام ، وبيع الأسرى في أماكن متعددة خصوصا في ملاطية ، وأما الذين نجوا فقد رجعوا الى مدينتهم وقد اهتم الامبـراطور بـأمرهم ووهبهـم كل مـايحتاجونه لاقامة أودهم في هذه الحياة ، وجاء تدمير مدينة أدنه وخرابها بعـد خمسة أشهر مضين منذ بـداية حملة الامبـراطور ، وعندمـا حـل الشتاء قضاه الامبراطور في كيليكية مع جيشه وقـد كان هنالك كثير من المرضى وأعداد لاتحصى من الوفيات .

وفي نهـاية شـهر تشرين الأول وعندمـا كان الامبـراطور في

كيليكية ، تجمع جمهور كبير في بسميساط واتجهوا الى الرها لانه في مثل هذه الحالات لم يكن التحرك مأمونا الا بشكل جماعات وذلك بسبب الكمائن التي كان ينصبها العدو على الطرق ، وكان معهم جملة من العلف والنبيذ وجميع ضروريات الحياة ورجال وحيوانات لاتعد ولاتحصى ، ويصحبهم فرسان ومشاة من الفرنجة ، وعندما عبروا نهر الفرات واصبحوا على بعد بضعة اميال من الرها فاجأتهم قوى تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين وميافارقين المؤلفة من عشرة الاف فارس عند غروب الشمس في ٢٩ تشرين الأول عام ١٤٤٧ وتحاربوا طيلة الليل ، وظل القتال مستمرا من فجر ذلك اليوم حتى الظهر بشكل مرير ، وقد توجهت عدالة الرب ضد القافلة قرب قرية تدعى باتال على طريق الرها ، واطبق عليهم التركمان واعملوا بهم السيف وقتلوا منهم عددا لايحصى واسروا الألوف ، وغنموا غنائم هائلة من الخيول والبغال والحمير واخذوا الأسرى المصفدين بالأغلال واوقفوهم أمام ابواب الرها صفوفا صفوفا ، وخاطبوا اهالي الرها قائلين : ايها الحمقى ، ماذا تأملون سلموا المدينة ، ونحن سوف نطلق سراح اسراكم ، ولم يحر أهالي الرها أي جواب وهكذا انسحب الجيش لأنه لم يكن لديه أي آلات حصار .

وعندما انتهى الشتاء واتى الربيع (١٠٧) استعد الامبراطور لدخول سورية وارسل إلى زعماء الفرنجة حسب الاتفاقية ومر بمرعش وعين تاب وتل باشر ثم أتى الى منبج ، وقد قاده جوسلين لحصار حصن بزاعه بين منبج وحلب فاستولى عليه ونهبه ، ثم سلمه الى جوسلين وفي عام ١٤٤٨ (١٤٤٩) (١٠٨) زحفوا من بزاعه وموا من حلب ، وبدوا مثل اسراب الجراد جيشا لايعد ولايحصى ، وقد ارتجفت قلوب اهالي حلب حين ظنوا ان الامبراطور قد حضر ليهاجمهم ، وعلموا أنه اذا فعل ذلك فالمدينة سوف تسقط حتما ، ولكن الفرنجة الماكرين الغشاشين لم يكونوا راغبين بانتصار ساحق للامبراطور ، فكانوا يقلبون له الحقائق ، ويتظاهرون بالتفاني في حبه والولاء له ، ولكن كذبا ورياء

فنصحوه بألا يهاجم حلب بل أن يقدم على عمل انتحاري بحصار (شيزر)، وهي قلعة حصينة واقعة على قمة تلة عالية ، ويجري نهر اسفل منها ، وكان اصحابها من نبلاء العرب يدعون (بنو منقذ) وهم اقارب صاحب قلعة جعبر وهو الذي الجأ بلدوين كما سبق واشرنا عندما أطلق سراحه من الموصل ، وكانوا كرماء الأصل طبيعتهم حب الخير والمصالحة لاينوون لأحد الشر ، وكان زنكي في حلب وابتهج كثيرا عندما رأى خطط الاغريق والفرنجة السيئة ، فأدرك فورا أن أغراض الفرنجة تتضارب مع أغراض الاغريق ، وبينما كانوا يحاصرون شيزر تصرف زنكي بحكمة وفضل ان يتجنب مصادمتهم في الوقت الحاضر ، فأخذ يقوي رجاله ، ويحمي حدوده ، وتقدم قليلا بمحاذاة المعسكر الاغريقي ، وهاجم الامبراطور قلعة شيزر دون جدوى ، وبدأت المجاعة تتغلغل في صفوف الاغريق لأنهم كانوا يؤلفون جيشا عظيما يحتاج لمؤن كثيرة ، وقد منع زنكي عنهم المؤن بحكمة مدوية ، وعندما اشتدت وطأة المجاعة ، ولم تكن هناك أي حيلة للاستيلاء على الحصن بالقوة ، أدرك الامبراطور ، خيانة الفرنجة في اضاعة وقته في حصار هذا الحصن ، وأرسلت حامية الحصن رسلا الى الامبراطور قالوا لها « ان الفرنجة قد ضللوك ، وقد اتوا بك لتحاصر هذا المكان مع اننا لم نسبب أي ضرر للمسيحيين ، وارسلوا له الهدايا وأواني ذهبية وفضية مختصة بالسر المقدس وصلبان من الذهب حصلوا عليها من انتصاراتهم على الأباطرة ، واحتفظوا بها منذ زمن ابائهم ، وغادر الامبراطور شيزر وذهب الى انطاكية ، وبعد مسيرة مرهقة وصل الى عين زربه ، ولم ينجز أي عمل في ذلك الصيف .

وتوجه زنكي الى بزاعه واستولى عليها وقتل جميع الفرنجة فيها وكان الأسرى الذين أخذهم الفرنجة منها عند استيلائهم عليها قد وضعوا في اعزاز ، وكانوا يأخذونهم كل يوم الى حقول القمح ليأكلوا لأن الطعام كان نادرا ، فوضع زنكي كمينا قتل جميع حراس اولئك الأسرى واطلق سراحهم واخذهم الى بزاعه وكان الأمبراطور

في كيليكية ، وقد مـــات ابنه الأكبــر فحنطـــوه وارســـلوه الى العاصمة ، وسرعان مامات ابن آخر من ابنائه فحنط ايضا وأرسل الى العاصمة ، وتـأثر الامبـراطور كثيرا وزاد حـزنه فـرجع الى القسطنطينية خـائبا دون ان يسـتولي على بيت واحـد مـن بيوت المسلمين ، أو أن يربح معركة واحدة فقط .

وفي بداية السنة التالية استعد الامبراطور جون ثانية ، وأتى الى طرسوس ومعه جيش كبير ، واستدعى زعماء الفرنجة ووبخهم على مافعلوا به في السنة الماضية ، ورتب مصاهرة وزواجا حتى يتفقـوا معه بموجب حب حقيقي ، وبينما كان يقوم بهذه الترتيبات ذهب الى الصيد في يوم عطلة وظهر له غزال ففوق القوس نحوه بعد أن وضـع به سهما ، ولكن رأس السهم جرح يده اليسرى فالتهبت ، وحـدث تورم في ذراعه وبعد بضـعة أيام مـات ، وكان معـه ابنه الأصـغر مانويل الذي كان قـد أعلن امبـراطورا أثناء حياة والده ، وحنطـه الجيش واخذه مع ابنه الى القسـطنطينية وأصـابهم كرب وحـزن شديد ، وفي تلك الأثناء حدث زلزال شديد فتهدمت عدة مدن وخـاصة في كيليكية وسورية ، وقد اختفت قلعة الأثارب الحصينة ، وغارت في الأرض كأنها لم تكن ، ولكن القـدس نجـت وفي هـذه الأثناء تـوفي بلدوين وخلفه ابنه .

وبدأ زنكي الذي استراح وأمـن جـانب الفـرنجة والأمـراء المسيحيين ، بالهجوم على أعدائه من التـركمان ، فعبـر الفـرات وهاجم ابناء أرتق وتمرتاش وأبناء داود ، واخذ منهم أسرى واحتل دارا وتل موزن وجمالين وجميع شـبختان ، واخـذ حـاني وارقين والحميمة ، وفي شدتهم اسـتغاث ابناء أرتـق بجـوسلين صـاحب الرها ، واعطوه مقـابل مسـاعدته حصـن بـابولا في أراضي كركر ، فاستعد لمساعدتهم ضد زنكي ، وقد كان ذكيا وماكرا فعقـد السلم مع الأراتقة الذين كانوا راغبين في هـذا السـلم لأنهـم كانوا يعلمون انه ليس باستطاعة جوسلين مساعدتهم كما يجب ، وشـعر زنكي بالغضب من جـوسلين ، ولم يوفـر اي محـاولة أو وسـيلة

لاحتلال الرها ، وكان يرسل الجواسيس باستمرار للتأكد من أن المدينة كانت خالية من الجند ، وكان في حران زعيم مسلم يدعى فضل الله بن جعفر ، وكان يكره رجال الرها ، وكان الجواسيس يأتون اليه وهو يوجههم وفي ذلك الوقت كان زنكي يحاصر آمد .

وجمع جوسلين جيوشه وذهب للاغارة على المقاطعات القائمة على الفرات قرب بالس والرقة ، وبادر رئيس حران الى اخبار زنكي ، وكان في آمد : ان الرها باتت خالية من الجنود ولذلك ارسل زنكي على الفور جنودا مدربين تحت قيادة صلاح الدين (١٠٩) الشجاع ، واوعز اليهم ان يعملوا جهدهم لاحتلال الرها ، وأخذها على حين غرة ، واذا لم يستطيعوا فتحها عليهم ان يهاجموها ويختبروا مدى قدرتها ، فاذا وجدوا الدفاع قويا وفعالا فعليهم ان يعودوا ، والا فعليهم ان يحدقوا بها ويستدعونه .

وما ان بدات الحملة سيرها ، حتى سار زنكي على اثرها وقد زحفت الحملة بسرعة طيلة ذلك اليوم والليلة التالية ، ولو انها وصلت في الظلام لكان باستطاعتها الاستيلاء على المدينة لأن سكان المدينة لم يكونوا متوقعين أبدا مثل هذا الهجوم ، ولكن حدث ان هبط مطر غزير ، وكان الليل شديد الظلام ، وعندما اقتربت الحملة من المدينة ضلت الطريق ، وعند الفجر وجدت نفسها قد سارت في طريق حران ، وعندما رجعت كان عنصر المباغتة قد أصبح لاأمل منه ، فهاجمت المدينة عند الفجر في يوم الثلاثاء ٢٨ تشرين الثاني عام ١٤٥٥ ، ووصلت الى الهضاب المحيطة بها ثم قتلت بعض الرجال الذين كانوا بين الأسوار ، وعندما رأت ضعف المدينة ارسلت الى زنكي رسالة بواسطة الحمام الزاجل ليأتي حالا ، فوصل في فجر يوم الخميس على راس جيش يفوق عدده عدد نجوم السماء ، ملأ السهول حول المدينة واحاط بها فرقة تلو فرقة ، ونصب خيامه حولها كخيام المتسولين ، وقد كان العسكر حريصين ان ينصبوا خيامهم امام المعاقل الخارجية ، فقد نصب زنكي خيمته مقابل باب الساعات على التلة فوق كنيسة الاعتراف ، والى الشرق منه نصبت خيمة الملك العظيم ابن

السلطان ، والى الشمال كانت خيمة الايراني العاقل جمال الدين الوزير ، الذي كان مسؤولا عن جباية الضرائب وادارة الواردات من اراضي زنكي حيث عسكر على تلة المراقبين .

وأما صلاح الدين العاقل العظيم القائد العام لجيش زنكي فقد نصب خيمته في الغرب مقابل باب النافورة على تلة المقبرة حيث يوجد ضريح مار أفرايم ، وفوقه في أعلى وادي سليمان كان زين الدين علي كوجك صاحب إربيل وشهرزور مقابل حدائق بارصوما ، وفي شرقي باب كاساس كان الزعيم الكبير دبيس سيد الأراضي المنخضة مقابل بابل ، وهو الذي كان قد التحق بالفرنجة فيما مضى من الزمان (١١٠) وشمال موقعه هذا وفي حديقة بوزان كان ابو علي صاحب زعفران وارقنين ، وفي الشمال الشرقي كان ابناء باقساق وهم حكام سبابرق على شواطىء الفرات ، وفي شرقي باب كاساس عسكر عين الدولة سيد شبختان وجذوب هذا عسكرت قبائل من الأكراد يليهم كثير من الرجالة والعرب ورجال من حلب ، وفي الغرب مقابل القلعة عسكر حسان صاحب منبج ونصب خيامه.

وكانت المدينة ضعيفة ، ولم يكن بها اي جذد ، بل فيها الاسكافيون والنساجون ، وتجار الحرير والخياطون والكهنة والشمامسه فقط وكان بها ثلاثة اساقفة هم بابياس (١١١) من الفرنج وباسيلوس السرياني بن شومنا ، وهو من ابناء المدينة ، والأرمني أهنانيوس ، وقد قاوموا بشراسة ، وقاتلوا قدر استطاعتهم ، فنصب الأعداء آلات الحصار ، وكل قائد فعل ذلك في القسم الذي امامه ، وقد ضربوا السور بعذف ، وقد حفروا الأنفاق تحته في الجانب الشمالي تحت الجسر خارج باب الساعات ، ووصلوا الى أسس السور بينما كان القتال مستعرا في الخارج ومستمرا ، وقد حاول زنكي اضعافهم بارسال اقتراحات السلم ـ رفضوها ـ لأنه كان يرغب أن تستسلم له المدينة استسلاما دون أن تدمر ويقتل الأهلون ، فأرسل لهم: « انصتوا ايها الحمقى انكم ترون الا أمل لكم بانقاذ أرواحكم ، لماذا تنتظرون

وتأملون ، أشـفقوا على انفسـكم وأبنائكم وبناتـكم وزوجـاتكم ومدينتكم حتى لايحل بها الخراب ، وتصبح خالية مـن السـكان» ، ولم يكن هنالك أحد من السكان يملك اي سلطة ، فكل واحد يفعل ما يريده ، وهكذا تركوا للخراب والنهاية المحزنة ، فقـد أجـابوا زنكي بوقاحة بالاهانات والسباب بشكل كله حماقات ليس لها مثيل ، وقد اقترح الاسقف السرياني بعد التشاور مع اسقف الفرنجة ان يكاتبا زنكي ويطلبا منه هدنة مؤقتة لزمن محدد حتى تأتيهم النجدة ، وقـد بدت هذه الفكرة جيدة ، وهكذا استشار بعض الرجال العقلاء فكتبا الرسالة وقرآها للشعب وكان الهدف من ارسال الرسالة هو تـأجيل النتيجة الحاسمة حتى يلتقطوا أنفاسهم ، لأنهـم فقـدوا أملهـم في الحياة ، وكانوا متعبين ومنهوكي القوى في العمل المرهق على السور الجديد أمـام مقـالع الحجـارة ، وكانت النسـاء والبنات والأولاد قد أخذ منهم التعب كل مأخذ من حمـل الحجـارة التـي يلقيهـا الأعداء ، بواسطة آلات الحصار تسقط عليهم من الخارج . ولم يكن هنالك نهاية للاضطرابت المحيقة بهم ، لذلك فكر الاسقفان أن يرتبـا هدنة ليحصل أهل المدينة على بعض الراحة ، ويتأجل ولو الى فتـرة وجيزة الغضب الذي كان ينتظرهم ، وقد رأيا السور وقد هـدم مـن جميع جوانبه بفعل آلات الحصار ، وفي المقلع الشمالي اتلفت أسس السور ووضعت في مكانها العوارض الخشبية وقطع الخشب بالنفط والزيت والكبريت حتى تحترق كالمشاعل عند اللزوم ، وبذلك يسـقط السور ، وعند ذلك قام رجل جاهل ، وهو تاجر حرير يدعى حسنون ومد يده بمزق الرسالة ، فحدثت ضجة عظيمة وجلبة وفسـدت هـذه الخطة الحكيمة ، ومع أن زنكي كان قد قـال:« اذا رغبتـم في هـدنة فاننا سنهبكم ذلك فاذا اتتكم النجدة ، او لم تأتيكم عليكم أن تسلموا المدينة وتنقذوا أرواحـكم » ، فهـو لم يكن راغبـا في اتـلاف المدينة ، لكنه رأى الا فائدة ولا جدوى من الاقناع ، ولذلك كمـا قيل في الكتاب المقدس « لقد جعـل الرب قلب فـرعون قـاسيا كيمـا يدمره » .

وأصدر زنكي الأوامر باشعال النار تحت السور ، وهكذا أصبح هدم السور أمرا محتوما ومقضيا ونادى المنادون في المعسكرات يحثون الجند أن يستعدوا للقتال وأن ينقضوا عندما يرون السور يسقط على المدينة ويدخلوها من خلال الثلمة ، وقد سمح بنهب المدينة لمدة ثلاثة أيام والتهمت النار الزيت والكبريت وتسربت للعوارض الخشبية وصبوا الزيت عليها ، بينما هبت ريح شمالية فدخل الدخان في أعين رجال الحامية في الأعلى ، وترنح السور العظيم وسقط وكان الخندق الموقت غير كاف لصد التركمان ، فقد ظهر بأنه قصير لأن الجزء الذي سقط وردم كان أطول من الجزء الذي بنوه وقاتلت الحاميةفي الثغرتين من الفجر حتى الساعة الثالثة من مساء عيد العذراء (ام الرب)(٢٤ كانون الأول) ، وبعد أن قتل الكثيرون اقتحم التركمان المدينة ـ لأن الرب كان غاضبا على أهاليها ـ وبدأوا بالذبح بالسيوف ولم يوفروا أحدا ، وقتل في ذلك اليوم حوالي ستة الاف شخص.

وعندما دخل التركان هرب النساء والأطفال والشباب الى القلعة العليا لينجوا من القتل ، وكان الباب مغلقا وذلك طبقا لتلك العادة السيئة التي اتبعها الفرنجة بألا يفتح الباب إلا بناء على امر من الأسقف ، وألا ينفذ الأمر ما لم ير رجال الحامية الأسقف بنفسه ، ولهذا فقد ا نسحق الحشد سحقا وذلك خوفا من القتل والأسر ، فأخذوا يدوسون بعضهم ،وانه لمنظر يستدعي الشفقة منظر مفزع مخيف ، فقد أصبحوا كتلة واحدة مسحوقة مؤلفة من حوالي خمسة آلاف شخص اختنقوا بهذا الشكل البائس ، واقتيد حوالي عشرة آلاف ولد وبنت الى الأسر ، وعندما وصل زنكي الى القلعة ورأى منظر أولئك المختنقين تأثر كثيرا وأمر بايقاف المذبحة ، وقد قتل الأسقف الفرنجي بضربة فأس وهو في طريقه الى القلعة ، وقتل كثير من الكهنة والشمامسه والرهبان.

وكان عندما وصل زنكي الى بوابة القلعة تكلم مع الحامية

برفق ، وطلب منهم التسليم ووعدهم أن يوفـر أرواحهـم ، فخـرج قسم منهم يطلبون الأمان للفرنجة الموجودين في القلعة ، وكان بينهم الكاهن بارصوما (الذي غضب عليه الرب) الاشماعيلي ، وكان قد تمكن بتأثير حديثه من جعل نفسه رجلا بارزا في القلعة ، واقسم لهم زنكي قسما مغلظا ان يحفظ أرواحهم فسلموا بعد يومين من سقوط المدينة ، وفي اليوم التـــالي اســـتعرض زنكي الأسرى في جميع المعسكرات ، فأختير بعضهم وارسلوا الى الرق ، وامـر بـوضع الحرس على الابواب لمنع أي شخص غريب من دخول المدينة،ورجع اهالي الرها الباقون الى بيوتهم ، واعطاهم زنكي كل ما يحتاجونه من الطعام وشجعهم وواساهم وهكذا استقروا في بيوتهم.

ولنعد الآن الى ما حل بأولئك الذين كانوا في القلعة عندما سـلمت للاتراك ، وعندما هلك جمع غفير مـن النسـاء والأطفـال بعـد أن اختيروا للأسر ، وكان عددهم حوالي الفين ، وقد قتل ستة آلاف او اكثر بحد السيف او الاختناق امام القلعـة ، واطلق الحـاكم سراح حوالي عشرة الاف من الجنود ، أمـا أولئك الذين اختبـأوا تحـت الأرض او في الحصنين فقد نجوا ايضا ، وعندمـا سـقط الحصـن الشمالي بعد أن وعدوا بالحفاظ على أرواحهم احضر زنكي المطران باسيلوس الذي كان تحت الحفـظ يحـرسه احـد الجنود وبـــداوا باحضار الفـــرنجة الذين كانوا في الحصـــن مـــع نســـائهم واطفالهم ، وكذلك الكهنة والشمامسة واحضروا معهـم كثيرا مـن الذهب والأواني الفضية وما شاكل ذلك ، وقد التحق بهـم الكثيرون لأن زنكي اقسم أن يأخذهم عبر نهـر الفـرات ، ويطلق سراحهـم ويسمح لهم بالذهاب الى حيث شاؤوا ، ودخل القائد صـلاح الدين الى القلعة وأخذ المطران من يده وقـال :« نريد مـن قـداستكم ان تقسموا على الصليب والانجيل أن تكونوا صادقين معنا ، وتخلصو لنا ، لأنكم تعلمون جيدا انكم تسـتحقون القتـل لأنكم قـاومتمون واحتقرتم نبينا ، ونحن مستعدون أن نعاملكم معاملة حسـنة ونطلق سراح جميع الأسرى ، وأنتم تعلمون انه منذ الزمن الذي اسـتولى المسلمون به على هذه المدينة ، بقيت تحـت سـلطتهم مـئتي سـنة

ازدهرت خلالها واصبحت مدينة كبرى ، ولكن اليوم بعد ان حكمها الفرنجة مدة خمسين عاما ، اتلفوها وخربوا اراضيها كما ترون ، وإن الحاكم هنا مستعد ان يعاملكم معاملة حسنة ، وهكذا عليكم أن تعيشوا بسلام وان تلجأوا اليه، وان تصلوا لأجله»(١١٠).

وخرج من القلعة جميع من كان فيها من رجال المدينة من السريان والأرمن ، وذهب كل منهم الى بيته ونهب التركمان كل ما كان يملكه الفرنجة من الذهب والفضة والأواني في الكنائس والكؤوس والطاسات والصلبان وكثيرا من الجواهر ، ثم جمعوا الكهنة والنبلاء والزعماء ونزعوا منهم كل ما يملكونه ، وارسلوهم أسرى الى حلب ، انما الآخرون فقد اختاروا أصحاب الحرف وشغلوهم في حرفهم سخرة ، لكنهم عذبوا حوالي مئة شخص ، وبعضهم الآخر ذبحوهم بالسيوف ، وهكذا فقد أصبح كل شيء معطلا ، وبعدها دعا زنكي المطران الأعظم وحمله مسؤولية الاخلاص والصدق مع المسلمين ثم أعطى لرجال الرها بعض المواشي والثيران والعلف ثم عين التركماني زين الدين علي كوجك صاحب إربيل وشهرزور حاكما للرها ومعه سبعة زعماء آخرون ، وشكل حامية قوية للدفاع عن المدينة ، وبعد اربعة ايام من الحصار سار زنكي مارا بحران الى الرقة على الفرات ، وقد افتدى أهالى الرها أسراهم فأعيدوا الى المدينة ، وكان الحاكم زين الدين رجلا عادلا واظهر لهم منتهى العطف.

وبعد أربعين يوما من سقوط الرها أرسل زنكي جيشه الى سروج ففر المسيحيون الى البيرة ، واحتل التركمان سروج ، ثم ساروا الى البيرة في أول الشهر القمري من شهر أذار عام ١٤٥٥ (١١٤٤ م) وحضر زنكي بنفسه ووضع الات الحصار حول المدينة ، وقام بهجوم ضار مركز ، وظل القتال دائرا دون انقطاع من يوم عيد الفصح (يوم الخميس حتى مساء يوم أحد - القيامة) في اليوم الرابع والعشرين ، وحطم التركمان السور الخارجي ، وفي هجوم تال احتلوا القلعة الخارجية ، وقد حدثت

ضجة عظيمة مزقت السكون في الأرض ، لكن الحامية كانت قوية وشجاعة فاستل افرادها سيوفهم وقفزوا على التركان وردوهم على اعقابهم خائبين.

وحضر الى قلعة الروم وهي قلعة على الفرات على مسيرة يوم أو اقل من البيرة ، حضر أحد قادة الكونت (جوسلين) واسمه روبرت السمين ومعه قائد آخر يدعى روبرت ، وكان كل منهما محاربا عنيدا ومجربا ، وقد قدما ومعهما مؤنا وأسلحة وكل ما يحتاجونه ، وابحرا في النهر ، وعندما إقتربا من القلعة قاما بعمل سخيف يدل على الحمق ، فقد نفخا في الأبواق ، وعندما سمع التركمان اصوات الأبواق ذعروا واندفعوا من جميع الجهات ، فعندما راوا أن القاربين قادمين لنجدة الحاميةهاجموهما من كلتا الضفتين ، وارسلوا قوارب ضدهما ، ولم تعلم الحامية بما كان يحدث وحل بها الخوف عند سماع نفخ الأبواق لأن أفرادها ظنوا أن هذا هجوما من قبل العدو ، وعندما اقترب القاربان من ضفة النهر لم يكن هناك من أحد يرمي حبلا او يمد رمحا لمساعدتهما وقفز من كان بهما واحدا تلو الآخر الى الماء وخرجوا بسرعة وهم في خوف شديد ، وبعضا منهم جرفه التيار وامسكهم العدو وبعضهم الآخر غرق ، وقد انجرف القارب الذي به روبرت السمين الى القلعة ، ووصل الى منتصف معسكر العدو اذ لم يكن هناك من يوقفه ، وفقد الفرنجة الأمل ، وقفز بعضهم الى الماء ليموت غرقا ، بينما قتل التركمان كل من بقي داخل القارب ، ورمى روبرت السمين بنفسه الى الماء ، ومشى في الوحل حتى وصل الى قرية على الضفة الغربية ، ولما كان عاري القدمين وثقيل الحركة ، لم يستطع أن يذهب بعيدا فاختبأ في مخزن مليء بالتبن والقش ، واتى في ذلك اليوم بعض التركمان الى القرية لجلب التبن(١١١)فوجدوهفي ذلك المخزن ، فقبضوا عليه وأرسلوه الى زنكي الذي ارسل به مع الأسرى الى حلب ، وأما روبرت الآخر ومعه بعض من نجو فقد وصلوا الى الحصن ، وفي أثناء القتال اصابه سهم في عينه فمات على الفور ، وقد دام حصار القلعة اربعون يوما .

وبينما كان الحصار على اشده أتى رسول راكبا على جمل وهو مسرع كالعاصفة ، وافضى بنبأ أن نصير الدين(١١٢)القائد الذي عينه زنكي في الموصل قد قتل وأن بلاد اقور قد ثارت وتمردت ، وهو قد ترك الموصل بسرعة ولايدري ماذا حل بالمدينة ، وخاف زنكي لأنه فكر أن ابن السلطان قد نصب نفسه ملكا واستولى على كل اقاليمه ، وكان يخشى من الجيش الذي معه فاستدعى في الحال زين الدين صاحب اربيل وحاكم الرها وأرسله بسرعة الى الموصل ليحل محل نصير الدين المقتول.وترك تلك الليلة زنكي البيرة وذهب الى حلب اذ كان يخشى اندلاع عصيان هناك.وفي الصباح افاق أهالي البيرة فلم يجدوا أي أثر للمعسكر الذي كان يحاصرهم ، ولم يجدوا اثرا لأي رجل أو خيمة ، وقد رأوا المعجزة وهم في أعلى الحصن ، لقد شهدوا لهب الحرب قد انطفأ والخطر قد زال عنهم ، وهكذا نجت البيرة من زنكي بعد حصار دام أربعين يوما.

وكان نصير الدين قبل مصرعه متمركزا في الموصل لدعم مركز زنكي بعدما أصبح نائبه هناك ، وقد كان محاربا شجاعا وحاكما عاقلا وحكيما ، وكان ولدا السلطان التركي العظيم الذي كان يحكم في بلاد خراسان ، في عهدة زنكي ، وكان عندما استولى عمهما مسعود على العرش في أصفهان أرسلهما مع زنكي الى تلك المنطقة لحماية هذه البلاد ، وقد أخذهما زنكي كما لو أن هذه المنطقة قد أعطيت لهما من قبل عمهما ، وأنه هو الوصي عليهما ، وهو قائد جيشهما ، وقد كانا يتمتعان بكل الاحترام الذي ينبغي للملوك أن يتمتعوا به ، فأحدهما كان يعيش في الموصل ، والآخر كان يتنقل مع زنكي الذي كان يحكم البلاد باسمه ، فبالاسم كان خادما لهما ، وبالحقيقة كانا هما الخادمين ، وعندما كبر أحدهما وهو الموجود في الموصل ذكره بعضهم أنه هو الملك ، وأن الأراضي والبلاد تابعة له ولأبيه ، لأنه لايملك حولا ولاقوة فهو كالعبد ، وأنه يجب أن يتصرف كالملوك بدلا من أن يطيع أوامر العبيد ، وقد أعارهم أذنا صاغية ، فقام مع أعوانه بحبك مؤامرة لقتل نصير الدين والاستيلاء على الموصل وطرد آل زنكي ، وفي الصباح حالما أتى نصير الدين كالعادة

ليقدم فروض الاحترام لابن السلطان قتله عبيده بين أبواب القاعة الكبيرة في القصر ، وخيم الرعب على الموصل ، لكن فرق جيش الأكراد في الموصل اتحدت مع غلمان نصير الدين وقوت عزيمتهم ودخلوا القاعة الكبرى وقبضوا على ابن السلطان وسجنوه في أحد أجنحة القصر ، وبعد عشرة أيام وصل زين ومعه تفويض بالحكم من لدن زنكي فسلموه المدينة والحصون وخزينة الدولة وكل مظاهر السلطة ، وقد استلم مقاليد الحكم بقوة ، وألقى القبض على الكثرين ممن تسببوا في الفتنة وأعدمهم على الخازوق ، وأمر بقتل ابن السلطان سرا ، واصبح عين الدولة صاحب (شبختان) حاكما على الرها بعد زين الدين ، وكان فضل الله بن جعفر رئيس حران الذي كان سببا في سقوط المدينة موجودا هناك (أي في الرها) ، هذا ولابد لي أن أشير أن جميع الذين عاشوا في الرها بعد الاستيلاء عليها لأول مرة ظلوا أشرارا ولم يتحولوا عن آثامهم ، مع أن الأسقف كان قد وعظهم ، وذكرهم بالمصيبة والكارثة التي حلت بهم ، وقد ظل عبدون مصرا على ممارسة أعماله الشريرة ، مع أنه كان قد بلغ من العمر ثمانين عاما ، وكان بارصوما هو الآخر رجلا شريرا ، وقد تزوج بعض نساء الرها من رجال التركمان ، وبذلك خالفوا روح الرب وآنوها ، وقبل ان تمر سنة على احتلال التركمان للرها اقترن حوالي مئة امرأة برجال « وثنيين » وهكذا حلت عليهن نقمة الرب الذي هجرهن وسبب لهن المصائب .

وبعد ان مكث في حلب مدة سنة واحدة انتقل عماد الدين زنكي بن آق سنقر الى الرها في موسم الحصاد في السنة الثانية وترك جيشه على ضفاف نهر (الجلاب) بين كاساس وحران ، ودخل المدينة ومعه قواد جيشه ومستشاريه والولاة في اليوم الخامس ، وكان يوم الثلاثاء ،وفي منتصف ايام عيد العنصرة ، ودلف المطران والكهنة والشمامسة وجميع المسيحيون لاستقباله من جهة واحدة اما من الجهة الأخرى فقد أتى جميع المسلمون الموجودون هناك ، والذين تجمعوا من الأماكن المجاورة لاستقباله ، وقد حيا المسيحيين بحرارة ، وقبل الانجيل وسلم على المطران واطمأن على صحته

وأحواله ، وقال انه اتى ليطمئن على أحوالهم ويمدهم بما يحتاجونه ، وقد مر من البوابة الشرقية ليدخل المدينة من البوابة الشمالية التي حدث اختراق المدينة وفتحها منها ، وكان اهالي المدينة قد رمموا الثغرات والأبراج السبعة التي دمرتها آلات الحصار ، وجعلوها أقوى مما كانت قبلا ونقشوا عليها باللغة العربية قصة سقوطها واسم الحاكم ، وهدموا كنيسة الاعتراف واستعملوا حجارتها لترميم السور وبدأوا يبنون حصنا للحاكم بجانب كنيسة القديس يوحنا الجميلة ، حيث سكن الحاكم ، ووضعوا حراسا على الكنيسة لحمايتها من الضرر لأن الفرنجة قد جملوها وغيروا السقف وجددوا القرميد ، وكان بها حوالي مئة نافذة كبيرة زينوها جميعها بالشعريات الرصاصية ، لادخال النور ، ومنع الطيور من الدخول وقد دفن فيها كثير من الأساقفة والبطاركة ، وقد دفن الأساقفة الفرنجة بما فيهم (بابياس) الذي قتل أثناء الحصار ، دفنوا جميعا خلف المنبر وقد غطي ضريحه بقطعة من المرمر الاحمر نحتت بحيث تمثل صورة الأسقف ، وكان جسم آداي Addai الرسول والملك أبجر في تابوت مطلي ومموه بالفضة ، وعند سقوط المدينة سرق التابوت وتناثرت العظام ، ولكن الرجال المؤمنين جمعوا هذه العظام ووضعوها مع نتف من بقايا القديسين في جرة من الفخار في كنيسة السريان التي تدعى كنيسة القديس ثيودور ، وقد استولى المسلمون ايضا على كنيسة القديس اسطفان وجعلوا كنيسة القديس توماس اصطبلا ، وكنيسة القديس اسطفان مخزنا للعلف والواردات الأخرى التي تصل للحاكم ، وهدموا ايضا كنيسة القديسين ثيودور وميكائيل الملاك في شرقي المدينة ، واستعملوا حجارتهما لترميم الثغرات في السور من تلك الناحية ، والقلعة الشمالية حيث هلك الجمهور واختنقوا ، وأصلح المسلمون المسجد الذي كان قد استعمل كمقر للمطران الفرنجي ، ودخل زنكي من البوابة الشمالية بوابة الساعات ، وذهب باتجاه كنيسة القديس يوحنا ثم انحدر باتجاه الينابيع وعاينها بدقة ، وذهب الى كنيسة توماس الرسول وأفطر هناك ، ثم امتطى حصانه وذهب الى الينبوع المستدير

المدعو « أبجروس » حيث كان هناك في السابق مقر قصر للملك أبجر قد دمر منذ مدة طويلة ، وقد غرست هناك حديقة لاتزال تدعى حديقة المطران ، وفي أواخر الليل ذهب الى كنيسة القديس يوحنا حيث بات تلك الليلة ، وقد نصبت حولها خيام قواده ، ودعا في الصباح المطران واستفسر منه عن البئر الموجودة في جنوب المدينة حيث كان يشفى منه المصابون بالجذام فأخبروه قصة هذا البئر من اولها .... (١١٣)

كان زنكي يشكو من مرض داء الفيل (تورم القدمين) الذي اصاب قدميه ، وعندما سمع قصة البئر اعتقد ان بركة المسيح يمكن ان تفعل المعجزات فركب وذهب الى البئر ، واخرج منه ماء غسل به قدميه ، وكان كل مابقي من الكنيسة هو المذبح في الشرق ، لذلك امر زنكي ببناء دار ضيافة ومأوى للمرضى الذين يفدون الى ذلك المكان للاستشفاء ، وأوقف على هذا المأوى ريع الحقول المجاورة ، ولكن الرب لم يرغب ان يتم هذا العمل لذلك عجل بموته قبل ان يتمه .

وزار كنائسنا السريانية وتأمل في جمالها ، وامر بوضع ناقوسين كبيرين يعلقان فيها كما كانت العادة عند الفرنجة ، ثم استعد للذهاب واوصى المطران ان يكون حريصا على حراسة المدينة ، وأن لايخون الحكومة ، وترك المدينة يوم الجمعة بعد انتهاء عيد العنصرة ، وذهب الى الرقة عن طريق حران وارسل بعض الجنود لنهب اراضي قلعة جعبر ، ثم اسكن ثلاثمائة عائلة يهودية في الرها ، وبعد اقامة قصيرة في الرقة تقدم زنكي على رأس جيشه بكامله لحصار قلعة جعبر ، فهاجمها بضراوة ولكن دون جدوى لأنها كانت قلعة حصينة وضايق القلعة بهجوم شديد لانه كان قد اقسم الا يرجع حتى يستولي عليها ، وفي ليلة الاحد وهو يوم عيد الصليب المقدس الموافق ١٤ أيلول ، وبينما كان زنكي نائما لايشعر بأي هم من هموم الدنيا ، ويحلم ان يعيش سنوات وسنوات اذا باثنين من خصيانه المقربين ينقضان عليه ويقتلانه وهو في فراشه ، ثم يهربان الى القلعة ، وانتشر الخبر في تلك الليلة ان زنكي قد قتل ، وخيم

الرعب على المعسكر وانتشرت الفوضى فيه ، فأخذ كل شخص يقتل الأخر ، وكل من كان يحمل اي حقد على جاره ويملك اي سلطة ، كان يقوم بالانتقام فورا ، اما القادة والزعماء الذين فقدوا صوابهم وتشوشت أفكارهم واصبحوا يضربون اخماسا بأسداس ، فقد عقدوا اتفاقات سرية وهربوا الى بلادهم ، واما بقية الجند وجماهير الشعب والتجار فقد نهبوا ، ونهب الحراس خيمة زنكي ومعسكره وامواله ومخازن اسلحته واملاكه الشخصية ، وإبله وخيوله التي لاتعد ولاتحصى ، وكلها نهبت واصبح ذلك الشخص الذي كان يرهب العالم في الأمس وحيدا في الصباح دون ان يجد من يدفنه ويواري جسده التراب ، وكان له اربعة أبناء ، وكان الاكبر غازي سيف الدين في بلاد العجم مع سلطان« ميديا» (١١٤) وبابل« والثاني نور الدين محمود كان معه في المعسكر عند قتله ، والابنان الآخران وهما قطب الدين مودود وميرميران كانا في الموصل ، ولكن الزعيم العاقل صلاح الدين ، حالما سمع بمقتل زنكي بادر بأخذ ابنه محمود والقواد الآخرين الذين كانوا معه الى حلب ونصبه حاكما عليها ، وقد استولى على الأموال والثروات الموجودة هناك ، ولم يدفن احد زنكي بل تركوه حتى قيض الله له بعض الرجال الذين حملوه الى الرقة ودفنوه هناك ، وحكم قطب الدين مودود في الموصل وكان زين الدين هو مستشاره ، وحكم نور الدين في حلب ومابين النهرين في عام ١٤٥٨ (١١٤٧ م) ، واستولى على حماه وحمص ودمشق مع أن والده لم يستطع ذلك ، وعقد هدنة مع الفرنجة حيث قابل جوسلين وعملا عهودا موثقة بالقسم ، وكان اكثر دهاء وبراعة من والده ، ولهذا زادت قوته ، واخذ اعزاز ، وبعلبك التي استولى عليها حاكم مصري يدعى الضحاك .

وبقي الفرنجة في كل مكان واخلدوا للراحة والسلم ، وقد حزن جوسلين من أجل الرها ، ولكن لم يستطع ان يعمل شيئا ، وعندما سمع بمقتل زنكي فرح فرحا شديدا لأنه ظن أن المسلمين سوف يتنازعون ولاينتبهون للرها ، وعمل خطة تقضي بأن يقوم بلدوين

صاحب كيسوم ومرعش بمد يد المساعدة له ، ولكن بيتا بين صاحب انطاكية أهمل المساعدة وذلك لأنه كان حنقا عليهما لأنهما لم يعترفا به سيدا ، وبعد اربعين يوما من موت زنكي جمع بلدوين وجوسلين قواهما في دلوك واستعدا للزحف على الرها ، وفكرا أن يباغتا المدينة ليلا ، وسمع حكام حلب ماازمع عليه جوسلين وماجمعه لهذه الغاية ، فأرسلوا رسلا لحكام الرها يقولون لهم ان الفرنجة يجمعون الجموع ، ولانعلم الى أين هم ذاهبون ، فاذا اتجهوا نحوكم فنحن قد جمعنا قوانا ايضا وسنأتي بالسرعة الكلية ، انتبهوا لأنفسكم وحافظوا على المدينة ، اجعلوا المسيحيين يقسمون بالولاء لكم وخذوا منهم رهائن ، وعندما وصلت هذه الأوامر الى الرها اخذ حكامها رهائن من المسيحيين حوالي خمسين رجلا من رجال الحرف كالبنائين والصناع والحدادين ، وأعدوا كل ماهو مفيد ويمكن ان يحتاجونه في الحصون في المدينة ، وسرعان ماحضر الفرنجة في السابع والعشرين من تشرين الأول (بعد سنتين من سقوط المدينة) وقد اختبأوا في أحد الوديان حتى المساء ، وعندما هبط الليل ارسلوا بعض الرجال الأشداء على الأقدام فاقتربوا من المدينة من جهة الغرب ، واختاروا احدى الزوايا حيث لم يكن هنالك حرس فيها ، وتسلقوا السور بسرعة ، ثم انزلوا الحبال واخذوا يسحبون السلالم مع بعض الرجال من رفاقهم ، وعندما تقدم الحراس ليروا من أتى الى السور هاجموهم وقتلوا قسما منهم ورموهم الى خارج السور وسمعت الأصوات وحدثت ضجة عظيمة وجلبة ، وصرخ الفرنجة على السور صراخ الفرح ، وأخذوا يسبحون بحمد الرب فسمع الجنود في الكمين المنصوب على مسافة ، فاندفعوا بشكل كتلة موحدة ووصلوا الى المدينة في الساعة الثالثة ليلا ، ثم نزلوا وفتحوا الأبواب : الباب الغربي بجانب النافورة ، ودخل فرسان الفرنجة ومشاتهم الى المدينة ، وفي الحال توقف هؤلاء الحمقى عن القتال واهملوا الحراس المسلمين والمسيحيين واخذوا يضعون ايديهم على كل مايجدونه ، وحالما رأى المسلمون هذا الخطأ ، هرعوا الى الحصون ففتح لهم من كانوا في الأبواب واستقبلوهم واستقبلوا اطفالهم

ومقتنياتهم دون ضجة او فوضى ، ولم يرتكبوا الخطأ الذي ارتكبه الفرنجة عندما سقطت المدينة لأول مرة بأن اقفلوا الأبواب وسببوا الفوضى والتشويش والاختناقات ، وقفز كثير من المسلمين من السور ليلا وهربوا الى حران لأنه لم يطاردهم احد ، وعندما طلع الصباح استدعى الكونت المطران السرياني وطلب منه أن يهيء آلات الحصار للهجوم على القلاع ، ووضعوا آلات الحصار ونصبوها وهاجموا القلعة السفلى بضراوة ، ولكن دون جدوى او نجاح لأن القلاع كانت تعج بالرجال وكانت عالية وقوية ـ ولم يستطيعوا أن يهاجموا القلعة العليا لأنها كانت مليئة بالرجال الأشداء ، وهكذا ظلت المدينة عرضة للشدة والكرب ستة ايام ، وعندما راى الفرنجة انهم لايستطيعون ان يستولوا على الحصون ، وأن أعداءهم كثيرون وهم يتقاطرون من كل حدب وصوب ، حلت بهم المخاوف ، واستولى عليهم القلق ، وتجمع في كل ليلة أهالي المدينة حول المعسكر الفرنجي قرب كنيسة ابجر ، وذلك خوفا من التركمان ، وفي يوم السبت أتى جاسوس قادم من جهة العدو وحذر جوسلين من أن فرقا من الجند قد تحركت من حلب ومنبج ومعها كثير من التركمان ، وقد انتشروا فوق السهول الشرقية والتلال ، وقرر الفرنجة

ان يخلوا المدينة في الليل دون علم المسلمين في الحصون أو التركمان في السهل الشرقي والتلال الشرقية ، ولكن هل من الممكن ان يخرج الألوف من الرجال والخيول من بوابة واحدة دون ان يشعر بهم احد ؟ ولو خرجوا ليلا لأوقفوا حركتهم ، ولكنهم انتظروا حتى مضت ثلاث ساعات من الليل ، وفتحوا البوابة الشمالية وهي باب الساعات وبدأوا بالخروج ، وعندما رآهم أهالي المدينة المسيحيون ونساؤهم وأطفالهم ، وعلموا ان الفرنجة قد تركوهم تحت رحمة الطغاة الوثنيين ، بدأوا بالصراخ والعويل ، وغرقت المدينة في لجة من الفوضى وساد عويل النساء والأطفال الضائعون يتجولون وهم شاردون في كل مكان ، وهم يصرخون بألم طلبا لأمهاتهم دون جدوى ، وهم يتراكضون بين جماهير الرجال وسنابك الخيول التي

كانت تدوسهم وتفتك بأجسامهم وتمزقهم بحوافرها اربا اربا دون ان ينقذهم أي انسان ، وكانت السماء مظلمة ولم يكن هنالك اي نور او ضوء ، واندفع الجميع باتجاه البوابة الشمالية راسا من خلال الشارع الذي يؤدي الى بوابة الساعات ، وهنالك كنت ترى الجنود والرجال المدججين بالسلاح والدروع والخيول والحيوانات ممتزجة بالأولاد والنساء والأطفال يتدافعون ويدوس بعضهم بعضا دون شفقة أو رحمة ، والماشية والبغال والحمير التي كانت تحمل الأسلاب التي اخذها الفرنجة من المدينة ، وسقطت هذه الحيوانات على الأرض ولم يستطع احد أن يرفعها او أن يرمي ما عليها من اثقال واحمال ، وقد انسحق الأطفال بين هذه الحيوانات ولاقوا حتفهم بشكل بائس مريع ، وفي كل طريق كنت ترى الكثيرين يلقون على الأرض : رجال ، حيوانات ، نساء واطفال ، شباب كلهم لاقوا حتفهم بشكل بائس وليس هناك من يمد لهم يد العون ، وهكذا كانت نهاية هذا الخروج المعيب ، وقد تركوا بيوتا مملوءة بالمؤن والحاجيات ، أبوابها مفتوحة والمصابيح فيها مضاءة والفرش ممدودة.وغادرت العساكر الفرنجية ومن استطاع اللحاق بها المدينة وتجمعت حول احد الأبراج وهو ، عمود النساك امام كنيسة الاعتراف حيث شكل التركمان نطاقا حولهم وامطروهم بالسهام التي اخترقت اجسادهم ، وقد اختلط الحابل بالنابل فلم يكن يسمع الا صوت السيوف وهي تضرب فيما يشبه جذوع الأشجار ، وارتفعت الأصوات في الظلام ، ولم يكن من السهل على المسيحيين التفريق بين التركمان والعساكر الفرنجية ، واختلط جنود الفرنجة بالجمهور وكان كل واحد منهم يحاول أن يخفي نفسه بالاندفاع نحو الوسط ، وصاح قادة الفرنجة بسخط وفزع: اكراما للرب تعالوا نحو الخارج وقاتلوا برجولة وقاوموا هجوم العدو ، وإلا فإننا سنضيع وترجل الفرسان وأحاطوا بالحشد وظلوا هكذا حتى طلوع الفجر ، وعندما طلع النهار ركب بلدوين وجوسلين مطاياهما واعادا النظام بين صفوف الجند ، وتقدم بلدوين الى الامام وقاد جوسلين المؤخرة ، بينما كان المشاة على يمين ويسار

الحشد ، وعندما بزغ النهار في يوم الاحد الحزين هذا في الثالث من تشرين الثاني ، وهو عيد القديس جورج ، ساروا بهدوء في طريقهم الى قلعة (سميساط) ، وكان العدو الذي يعد بالالوف لا بل عشرات الالوف قد أحاط بهم وقتل كثيرا من الجنود ، ومن الرجال غير المقاتلين ، ولكن الجنود حاربوا ببسالة ولم يعطوا مجالا للعدو للتقدم نحو الحشد ، لأنهم كانوا رماة أشداء ، وتحرك الفرنجة وقد اخذ التعب منهم كل مأخذ فضلا عن الخطر الشديد الذي كان يحدق بهم ، إذ ليس باستطاعة القلم أن يعبر عن الحزن الشديد ولا أن يصف ذلك المنظر المشؤوم لشعب أصيب في الصميم مثل شعب الرها ، فقد ساروا حفاة على الحجارة الصلبة والأشواك والحسك والمسامير ، وقد مزقت اقدامهم كما لو بالسكاكين وسال الدم من أرجلهم مما سبب لهم الآلام المبرحة ، وكانوا يتدافعون دون أيما نظام ويسقطون بعضهم فوق بعض ، وكان الواحد منهم يجر قدميه جرا ويتقدم ويندفع ثم يسقط ويمد جسمه نحو الشرق ، وبالوقت نفسه كان المطاردون يذبحونهم كالغنم ، وكان الأطفال يركضون حفاة الأقدام بين الأشواك ، والسنتهم متدلية من شدة العطش ، وافواههم مرة كالصبر او العلقم ، واسنانهم سوداء كالسخام ، شاردون ، منساقون بين الحشود تدوسهم سنابك الخيل ، وهم يهلكون ، زد على ذلك أن طريقهم لم تكن لتمر على ارض معبدة ، بل كان عليهم أن يمروا بالادغال ، وكان أمامهم غابة كبيرة تقع في السهل ، واشعل العدو النار في الغابة فأصبحت النار تتوهج أمامهم وحولهم ، ولم يستطيعوا أن يتحولوا عن الطريق بل تابعوا السير بأقدام محترقة ، وظلوا في هذا العذاب حتى الساعة التاسعة من اليوم التالي ، وكان التعب قد حل بالعدو أيضا لأنهم ظلوا يحاربون طوال الليل والنهار يقاتلون ويزحفون ، لذلك استعدوا للعودة خشية أن يباغتهم الفرنج من بعض الحصون ، يضاف الى هذا أن قسما منهم رغب أن يساهم في نيل الغنائم من المدينة ، لأن كثيرا من المشاة بقوا هناك حيث كانت حاميات الحصون قد بدأت في نهب المدينة ، وهكذا رجع العدو ولم يبق الا قليل من التركمان.

وارتكب الفرنجة خطأ فادحا فقد صمموا على مهـاجمة الأتـراك الذين كانوا لا يزالون حولهم ، ولذلك هاجم الكونت جوسلين ورجاله الذين كانوا في المؤخرة ، هاجموا العدو قربهم وعن يســارهم أي في الغرب وعندما راى بلدوين أن جوسلين قد بدأ الهجوم وأن الأبـواق قد بدأت تنفخ هاجم الفرنجة من اليمين وتقدم فرسان الفرنجة بشكل متهور وسط جموع التركمان الذين التفـوا عليهـم مـن المؤخـــرة وكسروهم ، ولم يعد الفرنجة يفكرون بالنظام والتماسك ، بل أصبح كل منهم يبغي النجاة لنفسه بشكل هزيمة معيبـة مخجلة ، ورمـوا برماحهم ودروعهم وسوابغهم المصنوعة من الزرد وكل ما لديهم مـن سلاح ، وحتى السيوف التي بأيديهم ، وذلك نتيجة للفزع الذي حل بهم ، ووصل المشاة الى قلعة متهدمة قـريبة على يســارهم على تلة الدسور حيث التجأ اليها حوالي الفــان وكانوا مــن شــباب الرهـــا المنعمين المترفين ، أما النساء والأطفال والرضع فقد تركوا للنهـب والأسر والعبودية ، واصيب جوسلين بجرح في يده من رماية بســهم لكنه نجا ووصل الى قلعة سميساط في حالة تعيســة ، وأمــا بلدوين الذي كان شابا وسيما أشقر طويل القامة ، عريض المنكبين ، شديد المراس في الحرب والقتال ، لم يعد يعرفه أحد من شدة ما نزل به من الضربات بالسيف والطعنات والسهام ، وقــد هلك كثير مــن الكهنة والشمامسة والرهبان الذين نجــو مــن الحصــار الأول ، واحتــل التركمان المدينة بكاملها ، ونهبوا أموال جــوسلين وبلدوين وجميع أموال الشعب.

واصبح التركمان والقبائل المختلفة أسيادا لتلك المدينة الشــهيرة التي لم تنهب أبدا منذ تــأسيسها مــن أيام ســـلوقس قبـــل ألف وخمسمائة وستين سنة ، ففي المرة الأولى استبيحت للنهـب مـدة يومين فقط ، وقد انقذت من النهب والسلب على يد زنكي عندما أمر بأن يرجع الجميع الى بيوتهم وديارهم ، ولكن في هذه المرة اســتمر النهب سنة كاملة بدلا من يومين ، فكان التركمان يتجولون في المدينة ويحفرون ويبحثون في الأماكن السرية والأسس والأسـطحة ، وقــد

وجدوا كثيرا من الكنوز التي خبأها الآباء وقدماء السكان ، والتـــي لم يكن يعرف عنها الأهالي الحاضرون شيئا.

وأما أولئك الذين نجوا من الهلاك والتجأوا الى القلعة فقد تفرقوا بأعداد صغيرة تبلغ الخمسة أو العشرة رجال عند حلول الليل ، وقد قتل بعضهم ونجا الآخرون ، ووصـلوا الى سـميساط لأن أمـلاك الفرنج كانت قريبة منها ، وقبض على الأسقف الأرمني وبيع عبـدا في حلب ، وأما بـاسيلوس المطـران السرياني فقـد هـرب الى (سميساط) ولكن لم ينج الكثير من الكهنة فبعضهم قتل وبعضـهم اسر ، وأما رئيس الكهنة وراس الفتنة والفوضى ومخرب الكنيسـة وهو (عبدون) فقد القي القبض عليه في تلك الليلة المشؤومة خـارج بوابة المدينة ، فسـقط في الخندق لكنه ظـن أن المسـيحيين سـوف ينتشلونه فصاح « مـن يريد أن يكسـب مـائة دينار فلينتشـلني » وسمعه أحد التـركمان فنزل إليه وقتله واخـذ كيس نقـوده الذهبية الذي كان معه ، وكل ما كان في حوزته من الأمـوال ، واكلت الكلاب جثته وذهبت روحه الى العقاب الأبدي ، وإذا لم يعف الرب عنه فإن مصيره الى جهنم وبئس المصير ، وبدأ جميع الذين نجوا من الأسر والدمار بالتجوال والاستجداء من اقـاربهم المسـتعبدين ، غير ان المسيحيين الذين كانوا في الشرق والغرب وخصـوصا الذين سـكنوا ماردين وشبختان وفي (سبابرق) كانوا كرماء ورحماء نسأل الرب أن يرحمهم ، ونذكر بينهم الفضائل التي يعجز عن وصفها اللسـان التي امتاز بها يوحنا أسقف ماردين وهو من أهل الرهـا ، نسـأل الرب أن يعلي اسمه ويكتب عاليا في بيت المقـدس ، امـا في غربـي الفرات فكانت الرحمة معدومة بين المسيحيين ولم يظهر منهم سـوى الشر والقسوة وعناد الراس والعقـول المتحجـرة ، خصـوصا عند الكهنة والرهبان والأساقفة.

(الحملة الثانية)

وفي عام ١٤٥٨ (التاريخ الصحيح ١١٤٨ م) بعد سقوط الرها للمرة الثانية اجتمع ملك الألمان وملك فرنسا على رأس جيش قوامه ثلاثمائة وخمسة وتسعون الف مقاتل ، ووصلوا الى القسطنطينية عاصمة الاغريق عن طريق البحر ، وغرر الامبراطور بهم وارسل معهم ادلاء قادوهم الى الصحراء حيث لاماء ولا طعام ، وبعد ان تقدموا مسيرة عشرة أيام عن القسطنطينية نفد منهم طعامهم ، ولم يجدوا بيوتا او قرى يستطيعون أن يشتروا منها أي شيء ، وحتى الماء نفد منهم ، فهاموا في صحراء جافة مجدبة ، ولم يعلموا ماذا يفعلون ، فقد هجرهم مرشدهم ليلا واخطروا تركمان كبدوكية ، فخرج الأمير مسعود مع جيشه ، فوجدهم في الصحراء منهوكي القوى من الجوع والعطش ، ونجا الملكان ومعهما قليل من الجند ، ووصلا الى البحر ، ثم تقدما حتى انطالية وذهبا بالسفن الى انطاكية بعد ان خسروا كل شيء ، اماالتركمان فقد غنموا غنائم لا تعد ولا تحصى من الذهب والفضة التي كانت بين أيديهم كالحصى ، وفي أواخر العام وصل الى عكا امير اخر يدعى الفونسو (الفنش) ومعه زوجته وعائلته وتبعه الف من الخيالة وكان من اقرباء كونت طرابلس الذي كان يخشى أن يطالبه هذا بحصة أرضه واملاكه ، لذلك دس له السم الزعاف مع واحد من أفراد بيته الذي ناوله اياه فمات.

وكان بلدوين على عرش القدس انذاك ، وقد قابله ملك الألمان وملك الفرنجة في بيت المقدس ، واتفقوا جميعا على مهاجمة دمشق ، والقاء الحصار عليها ، وعندما احاطوا بالمدينة ، شددوا الهجوم عليها وخصوصا الألمان ، وارادت الحامية ان تستسلم بعد ان شعرت بالضيق والخطر ، ولكن الحسدوالغيرة التى امتاز بهما الفرنجة سببت اخفاق الحصار ونجاة المدينة ، فقد بدا ملك بيت

المقدس يفكر بنفسه أن الفرنجة الغرباء إذا استولوا على المدينة فانهم سوف يصبحون أقوياء ، وربما أخذوا بلاده منه ، ولذلك ارسل رسالة الى رجال الحامية يسألهم كم يعطونه إذا جعل الملوك الغرباء يرتحلون عن المدينة؟ وسبب هذا العرض السرور لدى جند الحامية ، فوعدوا باعطاء ملك القدس مئة الف دينار ذهبية ، فنصح الملكين أن يحولا معسكريهما ، وهكذا انتقلا من موقع حصين الى موقع غير مناسب ، وعندما راى الملكان ان ملك القدس غير مخلص غضبا ، وتركا دمشق وذهبا عائدين الى عكا ، واستلم ملك القدس مئة الف دينار ، لكنه وجد بعد وقت قصير انها كانت من النحاس الأصفر وليس ذهبا ، هذا وقفل الملكان راجعين الى بلادهما بحرا ، وعندما سمع (عين الدولة) بن غازي بن دانشمند صاحب ملاطية بما حل بجوسلين في الرها ، وتأكد أن بلدوين صاحب كيسوم قد مات ، وبما انه هو الذي كان يحكم اراضي زوبر ومنطقة التلال حتى حدود ملاطية ، فقد جمع جيشا وهاجم به الأديرة في(زوبر) ، وكانت ارمينية ، وهي دير روبير الكبير وتاجنكار وشمانج وشيكار ، فاستولى عليها جميعا مع القرى والأديرة التي كانت حولها في مدة ثلاثة ايام ، وكانت هذه الأديرة قوية وغنية ، ومليئة بالمحاصيل الزراعية ولم يفتحها اي عدو منذ زمن طويل ، وقد استباح السكان ، وجعلهم عبيدا ، وعددهم سبعة آلاف واربعمائة نسمة ونهبهم ، وقد كان جنوده مشدوهين لما رأوه من الثروات ، فأصحاب هذه الثروات لم يساعدوا الفقراء ولا المحتاجين ، وبعد أن نهبهم استعبدهم واشعل النار في المباني وأراق الخمور واتلف الزبيب والتين والجوز واللوز والأعلاف والأطعمة ، وكانت بكميات لا تحصى ، وأحرق كثيرا من الكتب من جميع الأنواع ، وفي تلك الأثناء استولى التركمان على قلعة تدعى تل ادنا أو اجنجاتل (تل أعذي) وهي فوق سميساط فقتل رجالها واستعبد عددا كبيرا من نسائها وأطفالها ، ثم دمر القلعة بالنار وايضا قلعة أخرى تدعى سروج في أرض(تل باشر) ، وقتل الرجال واستعبد النساء والأطفال واستولى أبناء داود الأرتقي على تل ارسينوس على نهر(١١٥) يسمى بذلك الاسم ، وهو أحد روافد

الفرات ، وبعد موت الوالد تفاهم الأبناء ، فالأبناء الأقوياء استولوا على ذلك المكان بالقوة واستعبدوا خمسة الاف سرياني مسيحي ونهبوا كل شيء ورحلوا ، ونهب جوسلين دير القديس بارصوما .

وفي عام ١٤٦١ (التاريخ الصحيح نهاية عام ١١٤٨ م) جمع نور الدين جيوشه وحاصر يغرى(١١٦) وهي جوار انطاكية وكان صاحبها في (جبلة) على البحر ، وعندما سمع الخبر سار بجيشه وضرب التركمان فجأة وقهرهم ، وهرب نور الدين ومعه خمسمائة فارس إلى حلب ، وقتل حوالي عشرة الاف ، واستولى الفرنجة على معسكر نور الدين والذهب والفضة والعبيد الذكور والاناث والطبول والأبواق والجواري المغنيات والموسيقيين ، واستولى الفرنجة على كل هذا ورجعوا إلى انطاكية مسرورين ، وعندما خرج سكان انطاكية لاستقبالهم حدث ما لايمكن وصفه من الابتهاج بين جميع المسيحيين ، وكان مع الفرنجة سيد من أسياد العرب يدعى علي بن وفاء الذي كان يحقد على نور الدين ويخدم في انطاكية .

وبعد ثلاثة أشهر من هذه الهزيمة جمع نور الدين جيشه وحاصر إنب ، وعندما علم بيتابين صاحب انطاكية بذلك جمع جيشه واستعد لحربه ، ولدى سماع نور الدين بمجيء الفرنجة ترك القلعة وانسحب إلى التلال وعسكر الفرنجة في السهل حوالي إنب ، وقد أخبر الكشافة نور الدين أن عدد الفرنجة صغير ، فاستعد للقتال ونفخت الأبواق ، وانحدر جيشه واطبق على الفرنجة وكان الرب غاضبا على الفرنجة ، ولذلك هزموا وهربوا ، وقد قتل غودفري صاحب مرعش وعلي بن وفاء ، واخذ نور الدين كثيرا من العبيد ، وانزل اضرارا جسيمة بأراضي الدوق (جوسلين) واستولى ايضا على حارم وعم وارتاح ، وجميع القرى حول حارم ، وقد قتل حاكم انطاكية ، وكان انكسار الفرنجة هزيمة منكرة ، فقد أخذ التركمان عبيدا واسرى وخيولا وبضائع لاتقدر بثمن ، وكان جوسلين صاحب الرها في أعزاز عندما علم بمقتل حاكم انطاكية ، وهكذا جمع بعض الرجال من هناك ، وذهب الى انطاكية ليحكمها ، وعندما وصل إلى قورس

واستعد للعبور إلى شـيخ (١١٧) (الدير) ، هناك انقض عليه بعض التركمان وقبضـوا عليه بعـد أن كانوا مختبـئين بين الأشـجار ، فوعدهم أن يعطيهم كل مايريدونه إذا أوصـلوه إلى اعزاز ، لكنهـم أخذوه إلى قرية تدعى شيح الدير ، ولم يكن التركمان يعـرفونه لكن المسيحيين عرفوه وأرادوا أن يشتروه من التـركمان ، فـاتفقوا أن يكون الثمن سـتين دينارا ، عندهـا حـدث بمشـيئة الرب الذي لا اعتراض على حكمه فهو يفعل مـا يريد ، أن مـر يهـودي صـائغ بالقرية ، وعرفه فأخبر التركمان أنه جوسلين ، وهكذا أخـذوه إلى حلب فأمر نور الدين بسمل عينيه ورماه في السجن مقيدا بالسلاسل والأغلال ، وقد بقي تسع سنوات في السجن ثم مات هناك (١١٨).

وفي عام ١٤٦٣ (التاريخ الصحيح ١١٥٣ م) اسـتعد بلدوين ملك بيت المقدس وحاصر عسـقلان ، وكان أحـد رجـال الفـرنجة البارزين قد أبلى بلاء حسـنا في حصـار عسـقلان ،واسـمه ريمون (١١٩) وقد طلب هذا مـن ملك بيت المقـدس أن يزوجـه أرملة صاحب انطاكية المقتول ، فوافق الملك على ذلك وأذن له بالذهاب إلى انطاكية لاتخاذ سيدتها زوجة له وليصبح حاكما للمدينة ، وغادر هذا متوجها إلى انطاكية وبلدوين مايزال يحاصر عسقلان وشدد الفرنجة الحصار ، وبنوا برجا من الخشـب كان أعلى مـن سـور المدينة ، ووضعوا جنودا على البرج ، وآلة لرمي الحجارة والسهام على المدينة مباشرة ، فأصبح كل من يخرج من بيته أو يأتي إلى الشارع معرضا للقتل ، وهكذا شعر أهالي المدينة بالكرب من الجوع والقتال ، وكان الحصار طويلا ، ولما رأوا ألا منفـذ لهـم ، لأن حـكام مصر كانوا يحاربون بعضهم بعضـا كمـا سـنذكر ، ولم يكن هناك أي أمـل بالمساعدة من أي جهـة أخـرى ، طلب أهـالي المدينة أن تحفـظ أرواحهـم ، فنزل الأعيان منهـم وقـابلوا الملك والبـطريرك اللذان أعطياهما وعدا معززا بـالقسم ، وهـكذا اسـتسلمت المدينة وخير الناس من أراد أن يبقى في المدينة تحت حكم الفرنجة سمح له بذلك ، وأما الذين رغبوا بالذهاب إلى مصر فأخذوا أسرهم وأموالهم ورحلوا بسلام .

وحدث في تلك السنة زلزال هدم مدينة (شيزر) بكاملها ، وقد هلك حاكمها وأولاده وأهل بيته ، واربعون الفا من الرجال الآخرين ، وسقط نصف الصخرة التي بنيت عليها القلعة وقتل كثيرون في حماه والسلمية وفي معظم القرى المجاورة ، وحدث أيضا ان استولى نور الدين على حران وانتزعها من اخيه (ميرمران) وكذلك على بيت هسنا (بهسنا) بعد حصارها واستولى التركمان على دير البارد وقتلوا أربعة من الرهبان ، واستولى نور الدين على عين تاب ايضا عنوة ، ودمرها كليا ، ولم يظهر أي رحمة ولاشفقة واخذ الأسرى والغنائم إلى حلب .

وفي عام ١٤٧٠ (التاريخ الحقيقي ١١٥٧ م) اتى إلى بيت المقدس رجل شهير ينتمي إلى ملوك الفرنجة ويدعى كونت فلاندرز ، ومعه عدد كبير من الجند ، وكون جيشا عظيما بعد أن جمع معه ملك القدس وكونت طرابلس وطوروس الأرمني صاحب كيليكية ، وحاصر شيزر واستعبدوا كل من فيها واستولوا على الحصن ، ونهبوها كليا ، وقتلوا الكثيرين ، واخذوا حوالي خمسة الاف امرأة وطفل عبيدا لهم ، واخذوا كميات من الذهب والفضة لانهاية لها ، ثم زحفوا إلى حارم التي استسلمت لأن المسلمين فيها قد ذهبوا إلى حلب ، وفي نهاية العام اتى مانويل امبراطور القسطنطينية إلى انطاكية وعسكر على ضفاف نهر (عفرين) ، وتظاهر انه يريد حلب وهكذا جمع نور الدين الفرق الاسلامية من أقور ومابين النهرين وأمد وماردين وميافارقين ليحارب الامبراطور ، وذلك لأن المسلمين كانوا شديدوا الخوف من الامبراطور ، ولكن الامبراطور سمع أن اندرونيكوس الذي كان واحدا من النبلاء قد ثار ضده في العاصمة ، لهذا بادر إلى عقد هدنة مع نور الدين ، وافق بها نور الدين على إخلاء سبيل الأسرى الذين في حلب بما فيهم ابن الفونسو الذي دس له كونت طرابلس السم ، ورجع الامبراطور إلى عاصمته ، ولم يحقق اي عمل ، أو اي انتصار في هذه الحملة .

وفي تلك السنة حدث زلزال هدم مدينة (جبلة) على الساحل ،

وتسبب في قتل حوالي الفين من الناس ، وفي تلك السـنة غزا أراضي حلب ونهبها رينالد صاحب انطاكية وجوسلين وهو ابـن جـوسلين الذي أسر في حارم ، وبعد أن عاثا في الأرض فسادا وأسرا وقتلا من شاءا ، رجعا إلى أماكنهما دون أن يحدث لهمـا اي ضرر ، وذهـب رينالد إلى انطاكية ، بينما بقـي جـوسلين في إحـدى القـرى يأكل ويشرب ، وإذا بجيش التركمان يداهمه ويلقي القبض عليه ويأخـذه إلى حلب حيث وضع وهو مقيد بالسلاسل والاغلال مـع والده ، وفي تلك السنة عاد رينالد لنهب وسلب أراضي حلب ، لكن في طريق عودته داهمه جيش تركماني وكسر جنوده عند النهـر الأسـود ، وأخـذه اسيرا وقيد بـالسلاسل ، وفي تلك السـنة أصـبح أحـد أبناء بيتابين(١٢٠) حاكما على انطاكية ، فطرد والدتـه التـي ذهبـت إلى اللاذقية .

وحشد في عام ١٤٧٥ (١١٦٤ م) نور الدين جيوشـه ، وجلب اخاه قطب الدين حاكم اقـور والموصـل وزين الدين حـاكم إربيل ، وحاكم سنجار ، وزين الدين صـاحب حصـن كيفـا وارض هنزيط وحسام الدين صاحب ماردين وشهاب الدين صاحب زندان والبيرة ، وابن عمه مجد الدين وسيف الدين صاحب منبج والرهـا ، وعندمـا تجمع كل هؤلاء حاصروا حارم ، وقد بلغ عددهم سبعون الف فارس واربعون الف راجل ، ووضعوا آلات الحصار وقاموا بهجوم ضـار على الحصن الذي كان يحكمه رينالد(١٢١) وكان محاربا ، وقد قاوم هذا بعنف وشجاعة وجمع الفـرنجة سـتمائة خيال وخمسـة آلاف راجل تحت قيادة كونت طـرابلس وصـاحب انطـاكية وطـوروس الارمني ، وزحفوا جميعا من انطاكية إلى حـارم ، وعندمـا سـمع التركمان خبر قدوم الفرنجة وتقدمهم نحوهم انتقلوا إلى قرية تدعى عم ، ووصـل الفـرنجة وعسـكروا في المكان الذي كان التـركمان يعسكرون به ونصحهم طوروس صاحب كيليكية وقال إنه مادام أنهم قد نجحوا في رفع الحصار عن الحصن ، يجب عليهـم أن يسـحبوا الجنود الضعاف من الحصن ويضعوا مكانهم جنودا اقوياء شجعانا ويرجعوا إلى انطاكية وينتظروا رجوع ملك القدس من مصر ، ولكن

كونت طرابلس لم يوافق على هــذه النصــيحة وأصر على القتــال ، وقهر التركمان لأنهم جميعــا كلاب حســب رأيه ، وهــكذا زحـــف الفرنجة من حارم إلى عم ، وعندما اقتــربوا رأى التــركمان الذين كانوا على التل أنهم قليلي العدد ، ونفخوا الأبواق وانحدروا نحوهم وهاجموهم ، واحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم وضربوهم ضربة قــاضية ، وهــرب كونت طــوروس الأرمني ، وأسر دوق الاغريق ، وقتل جميع الرجالة ، وأسر صــاحب أنطــاكية ومعــــه كثير مــــن الفرسان ، وهلك الكثيرون ومعهم خيولهم ومؤنهم بــأعداد كبيرة كل ذلك في آب من تلك السنة ، وبعد أن هزم الفرنجة حــاصر التــركمان حارم التي استسلمت ، ثم غزوا أراضي الدوق وأخــذوا الأسرى ثــم ذهبوا إلى دير القديس سمعان وهو دير اغريقــي مشــهور ونهبــوه وأخذوا منه الذهب والفضة والأموال وكل الأشياء الثمينة ، والكتب وصحن الخبز المقدس (صحن الجسر) وكؤوس القربان والعشــاء الرباني والصلبان والمباخر وتماثيل من الذهــب والفضــة ومــلابس الكهنة الرسمية الثمينة ، ونهبوا الرهبان وأخــذوهم جميعــا أسرى إلى حلب وقد قتل أكثر من عشرة آلاف افرنجي عند الهــزيمة التــي حلت بهم في حارم وعدد أكثر منهم من التركمان وبعــد هــذا زحــف التركمان إلى بانياس التي استسلمت كما استسلم صاحبها (١٢٢) ، وأما ملك القدس فكان في مصر (١٢٣) .

روايات المؤرخ
ميخائيل السوري الكبير

« زحف الفرنجة إلى بلاد المشرق »

لما استولى الترك على بلاد فلسطين وسورية أخذوا يفحشون في تعذيب النصارى القاصدين الحج إلى بيت المقدس ، ويتقاضون منهم المال عند دخولهم المدينة وزيارتهم جبل الجلجلة وضريح السيد المسيح ، ويبالغون في التضييق خصوصا على الزوار الوافدين من روميه وإيطاليا إلى بيت المقدس ، ويوقعون بأقوام منهم ظلما وعدوانا فتحمس ملوك الفرنج واقطابهم فحشدوا جيوشا كثيفة وخرجوا من رومية وانضم اليهم في الطريق الأمراء والقواد والعساكر من القواد والعساكر من جميع انحاء أوربا يريدون استنقاذ البيت المقدس من أيدي المسلمين ، وكان خروجهم من بلادهم ١٠٩٧ م وهي السنة الثانية والخمسين لظهور الترك (٤٩١ هجرية) وكان الكسس يومئذ ملكا على القسطنطينية .

وكان يضم جيش الأفرنج الوفا وربوات من العساكر والجنود والضباط والصناع واستصحبوا طائفة من الأساقفة ولفيفا من الأكليروس والرهبان وعلى رأسهم ملكان وسبعة قمامصة أما الملكان فهما بوهموندوطنركيد ، وأما القمامصة فهم روجر وبيموند وبلدوين وجوسلين وغالارن وغودفري وصنجيل فساروا إلى إسبانيا أولا وملكوها ، ثم توجهوا برا وبحرا إلى القسطنطينية ، فوصلوا إلى الخليج حيث يجتمع البحران ، وارسلوا وفدا إلى الكسس لينضم إليهم ، وليوصي أهالي مدن مملكته ليجهزوا المؤن للعساكر والخيل فوعدهم بذلك ، لكنه مالبث أن خلف بوعده ، فاتصل بالأمراء الترك في نيقية وغيرها ليرسلوا عساكرهم ويقاتلوا الأفرنج فاحتشدوا للحال وساروا بحشدهم وجموعهم وانقضوا عليهم في سواحل البحر ، وأعملوا فيهم السيوف قتلا ونحرا حتى أبادوهم برمتهم ، فانهزم الباقون إلى القسطنطينية وحاصروها سبع سنوات (١) ثم تحالف الأفرنج مع ملك الروم ووزرائه فخرجوا معا

من ناحية غلاطية ، ووصلوا إلى نيقية فحاصروها واحتلوها وملكوا عليها الكسس ، ولما ارتحلوا إلى قليقيلة ارتجت لهم الأرض وهلعت منهم القلوب وبات الملوك جميعا يحسبون لهم الف حساب ، ثم توجهوا إلى انطاكية لانها مفتاح بلاد سورية ، وخيموا في ضواحيها واخذوا يغيرون على الغادين والرائحين ، وقطعوا المؤونة عن البلد وعاثوا في الحقول والضياع والمزارع المحيطة بها فسادا وخرابا ، وقد بقي الأفرنج يحاصرون انطاكية تسعة أشهر .

في ذلك الزمان عندما كان الأفرنج يحاصرون انطاكية حدث فيها زلزال عظيم فقوض كثيرا من الأبنية الفخمة ، وقد ظهر في أساس احد ابراجها المتهدمة بيت قديم يشتمل على اشخاص من نحاس شتى بأشكال فرنجية تمثل رجالا ممتطين الخيل مدججين بالرماح والسيوف النحاسية ، متدرعين بأصناف الأسلحة فأمر يغسيان التركي أن يبحثوا عن أصلها وفصلها فلم يهتد احد إلى حقيقتها ، بل غلب على ظنهم أنها أصنام وثنية فأمر الوالي بتكسيرها وتحطيمها ، واتفق أن عجوزا عمياء اذاعت انذاك انها سمعت الكهان يقولون إن في أسفل ذلك البرج طلسمات لتمنع أمم الفرنج من الخروج ومن عبور البحر ، فلما سمع يغسيان الوالي قول تلك العجوز ندم لأنه حطم تلك التماثيل ، وسألها هل سمعت كيف يمكن أن ترمم فأجابت : لا ، فأمر بضربها وقتلها .

أما الأفرنج فبعد أن خرجوا من البحر إلى الساحل عقدوا مجمعا وعاهدوا الله تعالى أنه إن اتاح لهم الاستيلاء على بيت المقدس فإنهم سوف يعاملون بالحسنى جميع النصارى من أي مذهب كانوا ، وانهم سوف يهبون لكل طائفة تؤمن بالمسيح كنائس وأديرة .

« استسلام الرها للفرنجة »

لما سمع الرهاويون بقدوم الفرنج إلى بلاد المشرق ووصولهم إلى انطاكية طلبوا من الوالي ثاودوس بن هاتم أن يكاتبهم ويستحثهم القدوم إلى الرها ليحميهم من هجمات الترك أعدائهم ، فرفض ذلك في بادىء الأمر واخذ يثنيهم عن ذلك ، لكنه تخوف أن يتصلوا بالفرنجة سرا ، فأرسل إلى الدوق غودفري رئيس القواد وفدا حمله كتابا يطلب فيه أن يرسل جيشا ليتسلم منه ولايته ، ولما اطلع الفرنج على ذلك الكتاب ابتهجوا ابتهاجا عظيما واستبشروا خيرا ، وقالوا : كما أن الرها سبقت أورشليم في الايمان بالسيد المسيح هكذا شاء الله تعالى أن تدخل قبلها في حوزتنا ، فبعث غودفري بأخيه بلدوين وسيره في شرذمة من الجنود ، فخرج الأهالي لاستقباله مرحبين وادخلوه المدينة وملكوه عليهم مسرورين .

وما أن استلم بلدوين مقاليد الأمور في الرها حتى بدا الأهالي يتعرضون لثاودوس الوالي لحقدهم عليه ، ثم مالبثوا أن ثاروا عليه فهرب إلى الحصن الذي كان قد سلف له أن بناه فوق باب المدينة الشرقي فأحاطوا به وتسلقوا الحصن وقبضوا عليه وخلعوا عنه ثيابه سوى مايستر عورته ، ثم دلوه من أعلى السور على هذه الحالة فانقض عليه الأهالي وفتكوا به ، ثم صادر بلدوين أمواله وسيطر على الحصنين ، ووضع فيهما حامية .

« الاستيلاء على انطاكية »

عم الفرح بين الفرنج بعد الاستيلاء على الرها ، وقد شد عزائمهم هذا المكسب فزحفوا إلى انطاكية ، فاستدعوا روزبه الفارسي ، واخوين أرمنيين ، وكان هؤلاء الثلاثة يحرسون البرج من ناحية كشكروف واغراهم بوهيموند بمال كثير إن سمحوا لهم بالعبور فوق الجسر المبنى على قضبان حديدية ، وهكذا كان فاقبل الأفرنج ليلا وعبروا المضيق وتسلق بعضهم بالحبال إلى أعلى السور ، والتف الباقون حوله وقبل بزوغ الفجر شرع الأفرنج ينفخون في الأبواق فاستفاق يغسيان الوالي مذعورا معتقدا ان الأفرنج قد استولوا على القلعة ، فهرب من الباب الأعلى للحصن في ناحية الجبل الشرقية الجنوبية ، وسار باتجاه حلب بصحبة ثلاثة رجال ، لكنه سرعان ماأكتشف أن الفرنج لم يستولوا على القلعة بعد ، فحزن حزنا شديدا واخذ يعض انامله ندما ويقول : والهفي كيف تركت بلدي واهلي واولادي واموالي وخرجت وحيدا متشردا ، وكان طوال الطريق يلتفت نحو أنطاكية وينوح عليها إلى أن سقط عن حصانه ، فأركبه أصحابه ، فسقط ثانية فأركبوه ثالثة فتركوه وحده ، فمربه رجل ارمني كان يقطع حطبا في الجبل فقطع رأسه واخذه إلى الفرنج .

بعد ذلك دخل الفرنج انطاكية دون اكتراث بالعسكر التركي المتبقي في القلعة وبقي الأتراك داخل القلعة ثلاثة عشر يوما ، أجهدهم فيها الجوع الذي كان يفتك بهم وبدوابهم حتى اكلوا لحم خيولهم ، واشتدت المجاعة حتى بلغ ثمن راس الحمار عشرين دينارا تقريبا .

في هذا الوقت اقبل كربوقا التركي في مائة الف فارس من أطراف بغداد والموصل ، فمر بالرها واستباح ضواحيها قتلا ونهبا واستأنف

المسير إلى حلب فبلغه ان الفرنج قد احتلوا أنطاكيسة فغضب غضبا شديدا وعجل لاستردادها ، وكان العسكر التركي الذي في القلعة مازال محاصرا يقاوم الفرنج ليل نهار ، فوصل كربوقا مع جيشه وخيموا عند بغراس حيث كان معسكر الفرنج قبل دخولهم البلد ، فأصاب الفرنج يأس شديد ، وأخذوا يقيمون الصلوات ويثابرون على الصوم ، ويتضرعون إلى إلله ليساعدهم على الغلبة ، في ذلك الوقت راى طنكريد رؤيا فحفروا في احد أمكنة بيعة القسيان وعثروا على مسامير صليب المسيح ، فسكبوا منها صليبا وسنانا لواحد من رماحهم ، وخرجوا لقتال الترك وأعملوا فيهم السيف وملأوا الأرض من جثث القتلى ، ودحروا من بقي إلى مابين النهرين (الجزيرة) حدث ذلك في ٣ حزيران عام ١٠٩٨ م وتولى أنطاكية بوهيموند وابن أخته طنكريد .

ثم اتى الافرنج إلى المعرة وسروج وكانتا لبني عطير .

استيلاء الفرنج على بقية سورية وبيت المقدس

كان المصريون قد صعدوا واخذوا بيت المقدس من الترك قبل خروج الافرنج ، فتوجه الافرنج اولا الى يافا ، واخذوها بالسيف ، ثم توجهوا الى بيت المقدس ، وكان بها والي الافضل المصري فاقاموا برجين احدهما عند باب صهيون في الناحية الجنوبية وثانيهما عند مار اسطفانس في الجهة الشرقية ، فبادر المسلمون والقوا النيران في برج باب صهيون فاندلعت وانتشرت ، لكن ماان انتهى الحريق حتى وقعت في البلد صيحة عظيمة ان الفرنج قد اقتحموا المدينة ودخلوها من الناحية الشرقية .

وقد استطاع الفرنج ان يدخلوا بيت المقدس في تموز سنة خروجهم (١٠٩٩ م) وقد اعملوا السيف في العسكر والاهالي واوغلوا في سفك الدماء اسبوعا كاملا ، حتى بلغ عدد القتلى ثلاثين الفا ، وقتلوا في المسجد الاقصى نيفا وسبعين الفا ، وامتلأت شوارع المدينة من جثث القتلى فكوموها واحرقوها .

وكان اول ملك افرنجي بها هو غودفري وقد ملك سنتين ثم ملك بعده بلدوين مدة سبع سنوات .

ولما انتهت تلك المعركة الدموية ، اخذت امور الفرنج تقوى وتتحسن ، وتمت لهم الغلبه فتوجوا الدوق غود فروي ملكا على القدس ، ثم جالوا في اطراف فلسطين واحتلوا ضياعا وحصونا ومدنا شتى ، وساروا الى حبرون ، وابتنوا فيها كنيسة ضخمة ، واوحي الى بعضهم وهم قانتون صائمون عن مغارة الاباء حيث اضرحه ابراهيم واسحق ويعقوب فابتنوها على اجمل طراز .

ولما تمكن الفرنج في بيت المقدس وصلحت احوالهم اخرجوا الروم من الكنائس الكبرى ، وابعدوا اساقفتهم واقاموا من شعبهم

بطريركين احدهما لأور شليم والثاني لانطاكية ، فنصب البـطريريك الانطاكي اساقفه لطـرسوس والمصـيصة والرهـا ودلوك وافـاميا وطرابلس واللاذقية وجبلة وقـوروس ومـرعش وحـارم ،ونصـب بطريرك اورشليم اساقفه لبيت لحـم وحبـرون والسـامرة ويافـا والناصرة وقيسارية وصيدا وبيروت ، وكان جملة الاساقفة الفـرنج عشرون اسقفا ، ولما استولوا على صـور رسـموا لهـا ايضـا اسقفا .على ان مدينتي صور وعسـقلان بقيتـا في حـوزة المصريين زمنا .

معارك صنجيل مع الطرابلسيين والدمشقيين والحماصنة

في عام ١١٠٣ استولى صنجيل (القائد الفرنسي) على طرطوس فبلغ الترك ان عسكره قليلون ، فوجهوا اليه من طرابلس ودمشق وحمص جيوشا ضخمة ، والتقى الجيشان الفرنجي والتركي . فانكسر الجيش التركي وهرب جنوده وقد سقط منهم كثير من القتلى .

فتوجه صنجيل الى طرابلس واستطاع احتلالها بعد حصار طويل ، فنظم احوالها ثم ولى عليها اولاده وعاد الى بلاده حاملا الحربة التي استخرجها الفرنج في انطاكية ـ كما ذكرنا من قبل ـ وعند وصوله الى القسطنطنية التمس الكسس الملك منه ان يعيره اياها لكي يتبرك منها ، فأعطاه اياها صنجيل ، لكن الكسس صاغ من تلك الليلة حربه مثلها وارسلها الى صنجيل واحتفظ بالحربة الحقيقية ، وهذه الحربة هي التي طعن بها اليهود في طبرية يقونة السيد المسيح تهكما وسخرية فسال منها للحال دم وماء .

احتلال الاتراك ملطية

كان الروم قد وضعوا جبرائيل الرومـــي (الملكي) على ملطية ، وكان الامير دانشمند صاحب كبدوكيا التركي يضايقه ويقلقه ويغزو بلاده اثناء الصـــيف وينقلب الى حـــاضرته ، فعـــول جبـــرائيل على التملص من مساوئه وعدوانه ، فكتب الى بوهيموند صاحب انطاكية يستقدمه ليسلمه البلد ، واقسم له على الوفاء بذلك ثلاثا ، مصرحا له بأنه يروم بكل خاطره ان يزوجه ابنته كيرا مورفيا ويوليه على ملطية بدلا من جهازها ، فـــوثق بـــوهيموند بـــكلامه وســـار اليه في جيش جرار ، بيد ان ولاة الارمن مثل باسيل صاحب كيسوم وابناء روبين واصحاب ارمينيا تخوفوا من الفـــرنج متـــوهمين انهـــم اذا اخـــذوا بلادهم اخرجوهم عنها ، فارسلوا الى اسماعيل بن دانشـــمند سرا ليكمن لهم ويمنعهم من الدخول ، ولما اقترب بـــوهيموند مـــن ملطية وخيم في قرية جفنة اوفد الى جبرائيل يطالبه بـــانجاز وعده ، فـــراح يؤجله من يوم الى يوم حتى وصل ابن دانشمند في عســـكره وكمـــن لبوهيموند حتى تمكن منه ، واوثقه واوفده مـــكبلا الى ســـبسطيه ، وتوجه هو الى ملطية وشدد عليها الحصار ، فسار وجهـــاء البلد الى السيد يوحنا سعيد صابوني اسقف المدينة يتوسلون اليه ليشير على جبرائيل الوالي ان يسلم المدينة صلحا ، مع ان المطران المشـــار اليه كان فيما سلف يشجعهم ويبعث في قلوبهم النخوة ليقاتلوا التـــرك ، بيد ان جبرائيل ابى الا التصـــلب في رايه واســـتشاط ســـخطا على المطران وطعنه بيده ، ففاضت روحه حالا ، وعمـــد الى طـــائفه مـــن وجهاء المدينة المسيحيين ، فقتلهم ظانا ان فعلته هذه ســـوف تمـــكنه من التشبث في بلدته ، لكنه مالبث ان هجم عليه قائدان قويان اتفقـــا مـــــع التـــــرك ، فســـــــلموهما البلدة يوم الاربعـــــــــاء في ١٨ ايلول ١٤١٣ يونانيه (١١٠٢) فـــــــانقضوا على ملطية التعيسة ، واخذوا اموالها لكنهم ابقوا على سكانها واعادوهـــم الى بيوتهم .

بعد هذا اوفد ابن دانشمند فاستحضر من بلاده الذخــائر والمؤن والغنم والبقر ، واجزل الخيرات للاهالي ووطنهم وولى عليهم باسيل التقي الورع .

بعد ذلك اقتصت العدالةمن جبرائيل فصار يعذبه التــرك بقســاوة كذلك قام كثير من المسيحيين ، واخذوا ينتقمون منه فضربوه وعذبوه واخذوا يذكروه بقتل المطران القديس والرؤســاء المظلومين ، وبقية الفظائع التي كان يقترفها وبعد ان اشبعوه احتقــارا وســقوه مــرا اخذوه الى قلعة متمردة مقطوعة كانت امراته فيها ، فأمره الترك ان يقول لامراته ان تسلم القلعة فحاول القيام بحيله شيطانية ليضــللهم فقال لها لك علامة ان ارسلت الفتى ميداس ، فاعطيهم القلعة ، لكن هذا الاسم في اللغة الارمنية يعني لاتعــطي ، فلمــا عرف التــرك انه يخدعهم قتلوه ورموه للكلاب فأكلته الكلاب .

اما الدانشمند فقد امر بإحضار الملك بوهيموند من سبسطية عام (١١٠٣) وقبض منه في ملطية مــــائة الف دينار ، وارســـله الى انطاكية فولى عليها ابن اخته ، اما هو فرجع الى بلاده وهناك انجب ابنا دعاه باسمه ، وقد خــرج هــذا بعـــد زمـــان قليل وتملك على انطاكية .

مجمـــــــــل احـــــــــداث ١٤١٢ ـ ١٤٢٥ يونانية ١١٠١ ـ ١١١٢ م

فيما مضى كان يملك في خراسان الترك اما في بلاد اثور والجزيرة ومابين النهرين فكان التـرك مختلطين مـع العـرب الذين رجعـوا وضبطوا هذه الاماكن .

اما في مصر فكان العرب المسيطرون ، لكن لما اندلعت الحـرب في خراسان كانت هذه الحرب بين الاتراك ولذلك قويت شـوكة العـرب. وفي سنة ١٤١٢ يونانية خرج ابن ملاعب العربي مـن حمص واخـذ أوفيمية (افاميا) .

وفي تلك السـنة ملك على دمشـق دُقـاق الغُـزّي وملك على حلب رضوان بن الملك الغزي .

وفي سنة ١٤٢٠ اخذ عمر بن سالم العـربي سـوكره وصـابوره واشتعلت الحروب بين الترك والعرب .

اما الترك الذين في كبدوكية والبيتونية فلم يكن بينهـم احـد مـن العرب لانه كان قد انطفأ كليا حكم العرب من هذه المناطـق بسـبب قتالهم مع اليونانيين ومع بعضهم بعضا .

ومات بسبسطية دانشمند بعـدما ملك ملطية لمدة عامين ، فـأقبل بعد ذلك السلطان قلج ارسلان الى ملطية وكان بهـا يغسـيان بـن دانشمند ، فنزل عليها في ٢٨ حـزيران وحـاربها حـربا شـعواء واقاموا المنجنقيات على البرج المجوف الواقع في الناحية الغربية من شرقي المدينة ، ولما علم الذي كان بهـا انه قـد دنت ان تـؤخذ طلب الامان وسلمها ، وتملكهـا قلج ارسـلان ودخـل ملطية في ٢ ايلول سنة ١٤١٧ يونانية .

في هذا الزمان وقع انشقاق بين الترك والعرب الذين في اثور ، لان سلطان خراسان غياث الدنيا ارسل رجلا اسمه ابو منصور جاولي لمجابهة الافرنج ، ولما وصل لبغداد توجه الى الموصل وكان بها في ذلك الزمان جكرميش ، لكن هذا لما سمع بزحف جاولي نحوه حصن المدنية وجهز عساكره للحرب ، واشتبك مع جاولي وانتصر عليه واعتقله وادخله الموصل موثقا لكن بعد ايام يسيره مات جكرميش فخرج جاولي وجمع عسكراً في بلاد صابورا ليعود الى المكان نفسه لان اهل الموصل اقاموا عليهم ابن جكرميش رئيسا ، لانهم خافوا ان لايستطيعوا الوقوف في وجه جاولي ، ولما سمعوا ان قلج ارسلان قد استقر بملطية ارسلوا يطلبون منه النجدة ويعطوه بالمقابل الموصل ولما سمع جاء وقطع الفرات ، وكان حكام مدائن مابين النهرين اتراكا من قبيلة ارتق حين سمعوا بمجيء السلطان خافوا وكلهم اتوا لخدمته :

ابن شافك من قلعة زياد وابراهيم من آمد وإلغازي من ماردين ، فلما نظر جاولي هؤلاء لم ينزل الى الموصل .

اما قلج ارسلان فقد دخل الموصل وحكمها ، اما جاولي فقد حكم على الرحبة ولما سمع السلطان اتى بعسكر عظيم وصار الحرب على نهر الخابور لكن وبفعل الاعداء وقع انشقاق بين عساكر السلطان فتركوه وهربوا،وبقي يحارب وقام في الحرب ببطولات عظيمة،اخيرا دخل في النهر ليجتازه لكن بسبب ثقل الحديد الذي يلبسه اختنق في النهر ومات .

وملك جاولي على الموصل وعلى نصيبين واخذ يضطهد اعداءه بقساوة،وجمع مالا كثيرا ورجع الى خراسان حينئذ غازي عم الذي نزل في ماردين واخذ مدينة نصيبين .

في سنة ١٤١٧ في اول جمعة من صيام الاربعين ظهر كوكب في المغرب وكان ذنبه باتجاه المشرق وبقي من أول المساء حتى آخر الليل

المصاعب التي تزايدت في ملطية بعد موت السلطان

لما اتى خبر موت السلطان قلج ارسلان اقاموا بملطية ابنه الصغير الذي كان اسمه طغرل ارسلان،وصار مدبره رجل شيخ اسمه برميش وكان هناك رجل آخر اسمه ارسلان ،فاتفقت معه أم الصبي ان قتل برميش تتزوجه وهكذا كان ، لكنه صنع شرورا كثيرة بأهل المدينة فأخذ يجمع الذهب ، ثم اخذ يعتقل الجميع ليمضي الى بلاد الروم ولما عرفت به المراة اتفقت مع ابنها وامسكت بأرسلان ، وحبسته وظن الناس انه قتل وبعد سنة أخرجته وارسلته للسلطان،وكان لطغرل ارسلان ثلاثة بنين اخرين كبار هم : عرب ، وملكشاه ، ومسعود ، اما عرب فقد قتله الأمير إلغازي بن دانشمند،وتنصب ملكشاه سلطانا وأمسك اخاه مسعود وحبسه ودخل القسطنطينية عند الكيس الملك ، لكن رئيس عسكر ملكشاه مالبث ان عصى عليه فأخرج مسعود واتوا لعند الأمير غازي ابن دانشمند ونصبوا مسعود سلطانا ، ولما خرج ملكشاه من القسطنطينية وهو يحمل الذهب صنعوا له كمينا وامسكوه وقلعوا عينيه ، ولما نظر الافرنج ان الترك يحاربون بعضهم بعضا اشتد ساعدهم،واتى بوهيموند واخذ ابلستين وبلاد جيحان وخضعت له كل بلاد ملطية ، حينئذ اجتمع بالرها جمع عظيم للاحتفال بالانتصار وقد بقوا اياما كثيرة يتخاصمون مع بعضهم بعضا لأجل قسمة المدن ، ولما طالت هذه المشاجرة اجتمع الترك لمهاجمتهم فخرج الأفرنج وهم مختلفون مع بعضهم حول قسمة البلاد ، ولما وصلوا الى حران خرج أهل حران لاستقبالهم واحضروا لهم المفاتيح لكن بلدوين حاكم الرها لم يأخذها لأن حران كانت حصته ، وقدر انهم اذا دخلوها اولا فسينهبونها ويقتلوا شعبها ، فتركوها وهم مختلفون خصوصا لأنهم لم يدخلوا حران ، فلما التقى بهم الترك وحدثت معركة انكسر فيها الأفرنج وأسر الأتراك بلدوين وجوسلين وأخذوهما للموصل،اما تنكرد فقد هرب للرها ووضع بها شرد

رئيسا ، هذا صار في سنة ١٤١٤ على نهر البليخ الخارج من فدان آرام (٢) ، والذي هو اليوم مسجد للعرب ، ويدعونه بيت ابراهيم، ويجري ليختلط مع الفرات عند قالينيقوس،اما تنكرد فقد ترك الرها بيد شرد وقد ابتلى هذا الرهاويين بشرور كثيرة ومضى لانطاكية ولم يكن يريد خلاص جوسلين بسبب الفتنة التي صارت بينهم،لكن اناسا من تل باشر تبرعوا ان يجلسوا في السجن رهنا ليخرج جوسلين ويحضر الذهب،غير ان أولئك المسجونين كسروا البيت المحبوسين به وهربوا وخلص جوسلين دون ان يدفع دراهم ، اما بلدوين فقد كان غرضه سبعين الف دينار ، فأخذ جوسلين ثلاثين الف ومضى الى قلعة جعبر وجلس هو رهنا على الباقي ، فأخرج بلدوين ، ولما سمع سلطان الموصل ان جوسلين سلم نفسه ليدخل السجن تعجب وطلب ان يراه لانه لم يره من قبل وانما سمع عن حسن قامته ، فمضى جوسلين الى الموصل ، ولما راه السلطان حذف من جزية بلدوين عشرة آلاف ، فسجد جوسلين ووضع وجهه على الارض،حينئذ ولاجل هذه السجدة ترك عشرة آلاف أخرى ايضا ، ثم ارسلوا وابتهجوا ، وخرج في الصباح السلطان مع عسكره فأمر ان يركب جوسلين فركب وحمل سلاحه ، ولما نظر السلطان حسن جوسلين وقوته تعجب هو وكل الشعب ، فسمح له بكل ماتبقى من غرامة بلدوين ، ولما خرج بلدوين من السجن صعد ليصلي بالقدس ، وحين وصل وجد أنه في يوم الأربعاء الذي يتقدم على عيد الشعانين .

وفي تلك السنة التي هي ١٤٢٨ كان قد وقع بلدوين الملك عن فرسه ، ولما علم انه سيموت امر أن يصير ملك مكانه بلدوين هذا حاكم الرها الذي هو ابن اخته ، وكان قد وصل فجأة وبدون معرفة بما جرى ، فعرف ان الرب قد اختاره ففرح به الجميع ، ونصب يوم الثلاثاء الذي يتقدم على يوم الجمعة العظيمة في ٩ نيسان ، ولما صار ملك اعطى الرها لجوسلين الشجاع الجبار .

وفي هذه الأيام اتفق بعض الارمن مع الأتراك عندما رأوا أن

الاتراك قد سبوا بلاد الرها ووصلوا الى السور ووقفوا ، فـأدخلهم هؤلاء الارمن بأحد الأبـراج لأن الأرمـن ظنوا بـأن التـرك يأخذوها ، لانه ليس لها رئيس لكن الله تعالى صنع تـدبيرا فـوجد جوسلين ان الاتراك قد صعدوا الى راس البرج،فـدخل وحـده وكان يلبس درعا فقتل ثلاثين رجلا بالسيف فـوقع الذين كانوا يتسـلقون عليها وتكسروا وهكذا نجت المدينة ٠

قبل هذا الزمان اي في سنة ١٤٢١ خـرج مـن خـراسان رئيس للجيش اسمه مودود ومعه مائة الف ، وحل على الرها ثلاثة اشـهر، فأجتمع الافرنج ليهاجموه فتركها الترك وهربوا ٠

كمل هذا ايضا بعون الرب صلوا علي ٠

في سنة ١٤٢٩ تراءى في بلاد جيحـان نور في نصـف الليل كنور الشمس وبقي نحو ثلاث ساعات ، وفي الرابع من نيسـان مـن تلك السنة حدث،ظلام على وجه الأرض ، وغطى قرص الشمس نوع من الرماد من اول ساعات الصباح وحتى ثالث ساعة ، ومن ثالث ساعة الى الساعة العاشرة أضاء قليلا قـرص الشـمس ثـم انظلم ثـلاث ساعات اخرى من النهار ، ثم صار قرصا مثل الناورلم تعد للضـياء، وبقي هذا الظلام اثني عشر يوما .

في ٢٥ من أيار اظلمت ثلاث سـاعات،وفي أول حـزيران تـراءى كوكب بذنب،وذنبه كان كالرمح ممتـد لناحية المشرق،وبقـي خمسـة عشر يوما وكل يوم كان يمشي للأمام ، وفي تلك السنة في شهر ايلول حدث زلزال شديد،وتهدمت اماكن كثيرة .

انخساف مرعش بالزلزال

في سنة ١٤٢٥ في ٢٩ تشرين الثاني ليلة الاحد ارتجت الأرض، وصار زلزال قوي جدا وقد غارت مدينة مرعش كليا وانقلبت اساساتها وابنيتها وصارت قبرا لسكانها ، وقد انهارت بهذا الزلزال بيعة ماريوحنا في كيسوم ، وبيعة الأربعين شهيداء وبإدارة ماريونوسيوس اسقف كيسوم اعيد بنيانها ، وايضا سقطت شميشاط بهذا الزلزال واختنق بها كثيرون ، ومن جملتهم قسطنطين صاحب قلعة جرجر، وتهدمت في جميع المدن والقرى اماكن كثيرة .

وفي سنة ١٤٢٧ اتى ضباب معتم ومظلم وحدثت زوبعة هدمت ابنية وقلعت صخورا وقلبت الأشجار، كذلك صار في الرها سيل وثقب السكر المدعو سكر أوفى الرسول .

وفي هذا الزمان جلب ابن جالبي عين ماء الرها .

خبر اخوانية الرهبان الفرنج المدعويين داوية

وفي اول عهد مملكة بلدوين الثاني ملك القدس (١١١٨) خـرج من رومية رجل فرنجي اسمه دفزين في ثلاثين فـارسا مـن الأخـوة الرهبان يريدون الحج الى القدس ، وعاهد ذلك الرجل نفسه انه لن يعود في اصحابه الى وطنه الا بعد ان يساعد ملك بيت المقـدس مـدة ثلاث سنوات في جميع المواقع الحربية،وانه اذا وفقـه الله تعـالى في بغيته عكف بقية حياته على اعمال الرهبنة في المدينة المقدسة ، فلمـا وصلوا الى القدس واكملوا الفروض الدينية اخـذوا يختلفـون الى المعارك الحربية،فابلوا بلاء حسنا مدة الأعوام الثلاثة .

على أن بلدوين الملك وأرباب دولته لما رأوا ماهم عليه من البسالة والشجاعة أشاروا عليهم ان يستخدموا في الجندية ليصونوا الأراضي المقدسة من هجمـات الأعداء ، ويعـدلوا عن الانقـطاع الى احـد الديرة ، فأجاب ذلك الرئيس ورهبانه الى مشورتهم فخصصوا بيت سليمان الملك لاقامتهم وعينوا لهم بعض القرى لمعيشتهم ، وتـكرم عليهم البطريرك بشيء من ريع الأوقاف الكنسية .

بناء عليه ابرم اولئك الرهبان عهدا على نفوسهم أمـام الله ، أن يسيروا سيرة الرهبـان،وقـرروا انهـم لن يتشـبثوا بزواج ، ولايختلفون الى حمـام ولايستبدون بملك او عقـار بـل يجعلون اموالهم باسرها عمومية مشاعة ، ومامر القليل من الزمـن حتى اشتهروا شهرة عظيمة وضاع شـذا اعمـالهم المجيدة في جميع البلاد القريبة والسحيقة،واقبل الملوك وابناء السـلاطين والعـظماء والعوام وانخرطوا في سلكهم واتخـذوا معهـم إتحـادا اخـويا روحيا ، وكان كل من ينضم اليهم يتنازل لهم عما ملكتـه يداه مـن المال ، فأزدادوا في برهة من الزمان ونموا نموا عجيبـا واسـتولوا على أمكنة شتى في فلسطين وايطاليا ورومية ، وانشأوا لهم قوانين وضوابط حتموا ان يقوموا بها .

وكانوا اذا قصدهم احد للانضمام في سلكهم اضطروه ان ينزوي في قلايته سنة كاملة يعمل الروية في مانواه ، وكانوا يتلون عليه تلك القوانين سبع مرات،ويقولون له في كل مرة احذر وانتبه لئلا تندم فيما بعد او يتعذر عليك الثبات حتى النهاية في حفظ هذه القوانين ، والا فالخليق بك ان تطلعنا على مكنونات قلبك وتعود الى بيتك .

وكانوا اذا وافق احد على تلك القوانين ورضي بها طوعا ونذر ان يحفظها ويعمل بها صلوا عليه ووشحوه بثوبهم ، واذا اتفق فنكث احدهم وخالف نذره ضربوه بالسيف واستعملوا قتله .

اما قانونهم فكان يشتمل على عدة بنود : اخصها أنه لايجوز لكائن من كان منهم ان يملك شيئا خصوصيا لابيتا ولاذهبا ولاقناعا ، وان لايذهب الى اي محل كان دون اذن الرئيس ، ولا يرقد الا في بيت الرهبان ، ولايأكل على مائدة العوام ، وان يذهب طوعا الى حيث يؤمر مهما كلفة ذلك من المشقة ، ولو افضى به ذلك الى الموت ، ويلزمه ايضا ان يوفي بنذره هذا فيخدم في الجندية حبا للدين حتى الممات .

وكان اذا توفي احدهم أقام له كل فرد منهم أربعين قداسا، واطعموا لأجله أربعين مسكينا مدة أربعين يوما ، وذكروا اسمه في قداساتهم على مدى الأزمان ، واعتبروا من مات منهم في ساحة الحرب شهيدا ، أما من كان يخفي عنهم شيئا ويحتفظ به لنفسه فكانوا لايحتفلون بدفنه ، وكانت ثيابهم جميعا بيضاء بسيطة لايجوز لهم ان يتزينوا بزي أخر ، وكانوا اذا رقدوا رقدوا لابسين ثوبهم الرهباني وزنارهم .

وكانوا يأكلون اللحم أيام الأحد والثلاثاء والخميس ، وكانوا يقتصرون في سائر الأيام على اكل الحليب والبيض والجبن ، وكانوا يشربون الخمر يوميا وقت الغذاء فقط ، أما قساوستهم وشمامستهم فكانوا يمارسون الصلوات والطقوس في الكنائس ، وكان قوادهم وضباطهم وفرسانهم يصلون صلواتهم وهم مزاولون مناصبهم الجندية ، وكان رجالتهم يقضون فروضهم

الدينية وهم في ساحة الوغى ، أما الصناع والفلاحون فكانوا يمارسون فروضهم وقت العمل،وابتنوا لهم في كل مدينة وقرية بيتا خصوصيا يتولى شؤونه رئيس ومدبر يأتمر كل من فيه بأمر ذلك الرئيس ونهيه ، أما رئيسهم العام فكان يسكن في القدس وكانت أوامره تشمل الجميع على حد سواء ، ولم يكن له ان يتمتع ويتفرد بشيء خاص أصلا ، واتصف هؤلاء الرهبان خصوصا بأعمال الرحمة فكانوا يوزعون على المساكين عامة عشر مايصيبهم من الغلال كالقمح والخمر وغيرهما ، وكانوا كلما خبزوا خبزا في أحد ديرتهم أو بيوتهم وزعوا على الفقراء عشره مع كل ما كان يفضل من طعامهم . وكانوا يوزعون ايضا خبزا وخمرا على المساكين مرتين في الاسبوع.

وفي عنفوان امرهم اخذوا يتولون حراسة الجنود أثناء اختلافهم الى تأدية فروض العبادة والصلاة وقت خمود نيران المعارك ، ثم أخذوا يخرجون مع ملوكهم لمحاربة الترك فنموا نموا عجيبا حتى بلغوا مائة الف راهب ، وامتلكوا قلاعا وحصونا منيعة في جميع البلاد التى احتلها المسيحيون ، وازدادت لديهم الأرزاق والأملاك والأسلحة ، وتوفرت عندهم القطعان والغنم والبقر والخنازير والجمال والخيل أكثر من جميع الملوك ، وعلى الرغم من كثرة املاكهم كانوا زاهدين متجردين كأنهم لا يملكون شيئا البته ، وكانوا يعتبرون ويحبون على حد سواء كل من آمن بالصليب وسجد له.

وانشأوا في جميع الاماكن التي شغلوها ولا سيما في القدس مستشفيات أو ملاجىء للمرضى أقاموا فيها خداما يعتنون بهم ويسهرون على شفائهم. فكانوا ينقلون اليها كل غريب أصيب بمرض ويعالجونه حتى يصح. فاذا تعافى اعطوه زادا وسرحوه بسلام واذا توفي شيعوه باكرام (٣)

واتفق لهؤلاء الأخوة الرهبان الداوية انهم حين حدوث المجاعة الشديدة في القدس واصلوا توزيع الخبز على المساكين كمألوف

عاداتهم الحميدة حتى كادت تنتهي مؤونتهم وتفرغ اهراؤهم. فـأبلغ الوكلاء رؤساءهم ومديريهم وسألوهم أن يشرفوا على تلك المخـازن استدراكا للخطر ، فيروا بأم عينهم ما تبقـى فيهـا مـن الذخـائر الزهيدة،فعقدوا مجمعا وتفاوضوا في ذلك الأمر الخطير فقـالوا :إننا إذا حرمنا المساكين ما تبقى لدينا مـن المؤن فـلا تعـود تـكفي لنا ايضا ، فالأجدر أن نواصل التوزيع كعادتنا اذ اننا مساكين ويلزمنا أن نحاكي المساكين في شدتهم إن جاعوا جعنا معهـم ، وان مـاتوا متنا معهم . وبعد أن أبدوا اتفاقهم هذا واثبتوه جميعا ثـابروا على التوزيع كعادتهم فتعهدهم الله بغزير مراحمه كما تعهد الوف الجياع في القفر وأشـبعهم بقليل مـن الأرغفـة ، على أن الوكلاء تفقـدوا الأهراءات يومئذ فالفوها مشحونة بالقمح والشعير والخمر وسـائر الحبوب ، وذاع أمر تلك الاعجوبة الباهرة في جميع البلدان. وحمـد الله تعالى كل انسان

وفاة تنكرد

في سنة ١٤٢٥ مات تنكرد حاكم انطاكية وملك بعده ابـن اختـه روجيل وقد كسر هذا برسق التركي وكان ذلك في ٢٦ ايلول مـن تلك السنة.

وفي السنة عينها كان تركي يتولى قلعة زياد فمضى وسبى سـكان البلد وباعهم عبيدا.

كذلك ابراهيم سبى بـلاد عرقـة وامتـلات ملطية أسرى ، حينئذ أظهر المؤمنين حرارة الأمانة فخلصوا الجميع.

(احوال الأرمن)

كان امراء الارمن يتولون بعض الجبال والقلاع والمدن في بلاد الجزيرة وقليقية ، وكان الفرنج تارة والروم طورا يستعملونهم عليها ، وكانت امراة باسيل يومئذ تتولى سميساط ومرعش وكيسوم،وتحت امرتها عدد كبير من الفرسان والمشاة،وكانت تدفع لكل فارس اثني عشر دينارا ذهبيا في الشهر ، ولكل جندي من المشاة ثلاثة دنانير ذهبية ، وكان اولاد قسطنطين بن روبين في قليقيه وميخائيل واوهنس في جرجر. وباسيل اللص في رعبان وكيسوم وقلعة الروم ، وقسطنطين وتبتوغ وبيستفور ابناء سنبل في سميساط ، وكان ابناء سنبل سريانا مخالفين لباسيل اللص، وباسيل الفتى الذي تربى عند امراة كوغ يبغض السريان بغضا شديدا ، فاحتل الدير المعروف بدير الاحمر عند كيسوم ، وكان هذا الدير لجماعتنا منذ اجيال بعيدة ، فطرد الرهبان وولى عليه غريغوريوس الجاثليق ، ونفى رهبان دير حصن عرنيش وأنزل بهم الوان العذاب ، واقام فيه الحراس والعسكر فلم يتيسر للفرنج أن يتغلبوا عليه فزوجوه امراة افرنجية يقال لها كلاماري فأماتته مسموما.

وما دمنا سردنا اخبار الأحداث حسب تسلسل السنين دعونا نوضح انه في سنة ١٤٢٣ استولى اتابك سلطان ملطية على بلاد جيحان من الافرنج.

وفي سنة ١٤٢٤ خرجت امراة قلج إرسلان من ملطية وتركت أولادها عند اتابكهم،ومضت الى بلك أمير بابولا وقالت له : إني سمعت السلطان يقول ان ليس بين أمراء الترك في هذه البلاد مثل بلك رجلا جبارا وحكيما ، ولهذا السبب وثقت به وبوساطته حفظت مكانتي وهو عظيم جدا .

ولما رجعت خاتون من عند بلك طردت الأتابك وجلست هي وابنها بالقلعة حينئذ تضايق ذلك التركي الذي في قلعة زياد فباعها لسلطان ملطية ، واخذ عوضها ذهبا وأماكنا ، ولما دخل رجال سلطان ملطية الى القلعة قدم نحوهم ابن سلطان خراسان فجأة بجيش عظيم ، فسلموا حصن زياد هذا لابن سلطان خراسان دون حرب، وللحال تم الصلح.

وفي سنة ١٤٢٩ اغار أمير منبج وحاكم قامح على بلاد ملطية في ١٥ اذار فنهب وسبى ، فأرسلت خاتون ملكه ملطية الى جوسلين حاكم الرها واقامت معه صلحا لكي يساعدها.

وتوفي في سنة ١٤٢٨ يونانية(١١١٧ م) الخليفة المستظهر ، وفي شهر أب في هذا العام توفي ايضا الكيس ملك الروم ذلك الحكيم الجبار،وهو بحكمته نجى مدينتهم من الأفرنج ومن القوفيين والصربيين والبلاكيين ، وقد جاهد ضد كل هؤلاء وحفظ مملكته ودبرها بالاستقامة تسع وعشرين سنة ، ثم ملك بعده ابنه يوحنا في سنة ١٤٢٩، فتآمر عليه أخوه وأخته وامه فوضع اخوه واخته في السجن وجعل أمه راهبة،وعندها استتبت له المملكة.

في تشرين الأول عام ١٤٠٦ توفي اغناطيوس المؤرخ مطران ملطية ورسم عوضا عنه مار اثناسيوس سعيد بن الصابوني المتبحر بالعلم والكاتب الماهر في خطنا السرياني هذا والخط اليوناني ، وقد ارتسم في عيد الصعود في تلك السنة في قان قرن بنواحي أمد ودعي يوحنا ، ولأن انتخابه تم بموافقة جبرائيل الحاكوز ، فقد دخل المدينة وهي محاصره من الترك ، وفي اليوم الذي دخلها اغلقت ابوابها و كان يحاصرها ويعزلها سلطان قونية قلج أرسلان ، فطلب جبرائيل من المطران أن يشترك مع الحراس في الحراسة ، فشرع يداوم على ذلك طوال العام بكل اخلاص.

ثم ارسل السلطان رسولا من عنده شماسا فقال للمطران وكان جبرائيل موجودا في المقابله :

يقول لكم السلطان أن تعطوه المدينة سلما وهو يعاهدكم بـالامن وسيغدق عليكم الخيرات ، والا فسوف يأخذها بحد السيف ، عندها فان الله سوف يطالبكم بدم كل الشعب،فأجاب المطران البار الشماس: لم يستطع احد أن يأخذ هذه المدينة بالحرب منذ القدم وحتى الآن ، وإن فيها خبزا لعشر سنوات واكثر ، ثم اطلق الشماس ، لكن جبرائيل التفت الى المطران البار وقال :اسمع مني ياسيدي انه لخير لنا أن نسلم المدينة بإراد تنا ، لكن المطران البارحين سمع ذلك رفض ، فابتدأ جبرائيل يبغض المطران. اما اليونانيين فأخذوا يحتقرون كثيرا هذا البار لأنه كان يخزي الأفرنج في تعليمه ، وكانوا يتهمونه بانه يريد أن يسلم المدينة للترك ، وصدف أن كان البار على السور يوم الجمعة يحرس وأثناء خدمة ثالث ساعة اخذ يتكلم بين الشعب بكل محبة ووداعة ، وكان الشعب يلتف حوله فاغتاظ جبرائيل واليونانيون من محبة الشعب له والتفافهم حوله ، ففكروا أن يقتلوه ، ولما نزل عن السور قالوا له : إن جبرائيل قد امر أن يقتل رجل مؤمن بحد السيف ، فذهب اليه ليلا ليتشفع لذلك المظلوم عنده ، فوجد جبرائيل الأثيم على فرس خارجا بين السورين وحوله جنود فأخذ يتضرع له المطران البار قائلا : اشفق على المساكين ، من الخارج قتل ، ومن الداخل قتل ايضا،لكن المنافق ملكونه نوى أن يقتل المطران البار ، فقال وانت يا كذا وكذا تريد أن تسلم المدينة للترك ، حينئذ قال لأحد الجنود ، وكان يحمل حربة :إضربه فلم يتجرأ ، فأخذ الحربة بيده وضرب بها البار على رأسه فقتله ، وكان ذلك يوم الجمعة في تموز سنة ١٤٠٦،اما القساوسة الذين كانوا هناك فقد هربوا وتبددوا وضجت المدينة كلها واجتمعت الجموع حيث استشهد البار ، اما جبرائيل القاتل فقد خاف لما راى هذا الجمع الحاشد فأصر على أن يدخلوا البار الى البستان ويخفوه بين القصب ، وبعد يومين سجي جسده في بيعة الساعي الكبيرة.

فاما البطريرك أثناسيوس لكونه لم يقدر أن يدبر امور البيعة بسبب تدخل عبدون المتمرد فقد سافر الى بغداد وقابل الخليفة ابو

جعفر عبد الله القائم بالله ، واحضر منه كتابا الى كل الحكام وولاه المملكة في أثور والجزيرة وبين النهرين وكل سورية كبدوكيه والى العرب والترك يأمر أن يقبل اثناسيوس ويعزل عبدون.

عبدون المتمرد رسم أربعة اساقفه هم: اياونيس أسقف تلمحرون الذي أكلته الكلاب ، وأبدوخوس اسقف عرقه الذي طرد وصار هرطقيا،وايجنا اسقف ماردين الذي انقبل بالتوبة ، وابن كوريزا الذي أسلم في آمد.

اخبار البيعة في هذا الزمان

بعد ان رجع البطريرك من بغداد بفترة قليلة توفي عبدون العاصي في حصن منصور ، فأمر ان يقبر أمام باب البيعة لكي يدوسه كل من يدخل اليها ، لأنه اخطأ بحق بيعة الرب ، فأما البطريرك ماراثناسيوس فقد جمع الأساقفة وصنع له جنازا وصلاة للغفران وقد قال : صحيح انه أحب الرئاسة وداس القوانين المقدسة لأجل ذلك ، لكنه لم ينحرف عن الأمانة المستقيمة المجد ، فيجب أن نصلي له ليرحمه الرب ويرحم كل خاطيء .

وبعد ان قتل سعيد بن صابوني وخرب الأتراك المدينة أدخل البطرك ديونيسيوس اسقف غوبوس ابن المعترف وأقامه مطرانا لملطية ، لأنه كان معلما وحكيما وذلك في أول كانون الأول عام ١٤١٣ ، وكان ديونيسيوس الذي أدخل الى ملطية قد تتلمذ في دير ابن جاجي عند مار يوحنا البطريرك ابن شوشن ، ثم ارتسم اسقف لغوبوس ، ولما خربت بلاد غوبوس اثناء الخروج الأول للترك اتى هذا الى دير مار برصوم حيث نظم الدير ورتب الخدمة كما كانت في دير ابن جاجي ، وفي شيخوخته رسمه البطريرك على كرسي ملطية ، فلما وجدها فقيرة في العلم اهتم بها ، وجدد بها التعليم ، وكان يعلم في العهدين القديم والجديد ، وكتب المعلمين الأوائل ، وكذلك كان يعلم الكتابة ، وبعد هذا رسم البطريرك مطرانا للرها ابو غالب ابن صابوني أخو سعيد الذي قتل في ملطية ، لأن هذين الأخوين كانا مشهورين بالعلوم الكنسية ، وفي المعارف الخارجية وفي الكتابة باللغتين ، وبالجدال ضد الهراطقة ، وبالاختصار كانا المع كل افراد جيلهم من المستقيمين المجد . وكان سعيد الذي ارتسم لملطية قد دعي يوحنا ، لكن بعد اربعين يوما من رسامته قتله جبرائيل بملطية كما اوضحنا من قبل .

وابو غالب الذي رسم مطرانا للرهـا دعي بـاسيليوس لكن قبـل كمال الاربعين يوم حدثت مشاجرة بينه وَبين البطريرك فحرمه وبقي بعيدا عن الخدمة لكونه قام في وجه البـطريرك ، لكن بسـبب هـذا الخصام صار انشقاق في البيعة كما سنوضح .

ولما ملك الأفرنج أنطاكية اخـرجوا اليونانيين مـن البيع الكبيرة وطردوا رؤساء كهنتهم ، وأقاموا بطريركا مـن شـعبهم ووضـعوا مطارنة في طرسوس والمصـيصة والرهـا ومنبـج وافـاميا ، كذلك وضعوا مطارنة في طرابلس واللاذقية وجبلة وقورس ومرعش وحارم وأقاموا لهم بطريركا في القدس ، ورسم اساقفة لبيت لحم ولحبرون والسامرة وليافا والناصرة وقيسارية وصيدا وبيروت ، ولما استولوا على صور رسم لصور اسقفا ايضا لأنهم لما طلبوا نفقة من بـطريرك انطاكية على رحيلها لم يعطهم ، وكان اسم أول مطران قام للفـرنج في الرها مبارك ، وقد تراءت له رؤيا حول جسدي أري وابجـر حيث وجدهما في صندوق ماريوحنا .

وخلال السنوات الثلاث التي حاصر بها الدانشمند ملطية حـدث بها جوع عظيم وبيعت حنطة الحاكم بدينار للمد .

وفي سنة ١٤١٣ تبلبل بدء صوم المسيحيين بملطية وفي البلاد كلها بما فيها القسـطنطينية فصـام السريان والأرمـن في ٨ شـباط، ووضعوا الفصح في ١٣ نيسان ، امـا الخلقيدنيين فصـنعوا العيد في ٢٦ نيسان ، ولما علموا ان النور قد فاض على القبر في القـدس في ١٣ نيسان صار اليونانيون يجدفوا على النور لأنه تطابق مع عيد السريان والأرمن .

وفي سنة ١٤١٤ في بدء الصوم ، أي في الأسبوع الأول من شهر شباط حدث زلزال كبير دام يوما في كل مكان ، وقال الجميع ربمـا صار هذا لأجل اختلاف المسيحيين حتى في الصوم ، وهذا دلالة على غضب الرب.

فصل ثان عن اخبار البيعة

يارب اعن.لما اخذ الافرنج فلسطين اخرجوا منها المصريين واتوا الى حبرون جيث بنوا هيكلا مجيدا ، كذلك انوجدت مغارة المضاعفة التي اشتراها ابراهيم ، وكان بها ثلاثة قبور للآباء فزينوها ببنيان عجيب .

اما سبب الخلاف الذي صار بهذا الزمان في بيعتنا فكان ان لما ارتسم ابن صابوني مطرانا للرها طلب البطريرك منه ومن الرهاويين الأناجيل التي كانت في خزانة البطركية ، لكن لما وقعت بيد عبدون العاصي وضعها رهنا بالرها ، واخذ ذهبا ورشى الحكام في ذلك الزمان ، فلما طالبه البطريرك وعد ابو غالب مع الرهاويين الذين حضروا رسامته انهم بمجرد رجوعهم الى الرها سيرسلون هذه الكتب المصفحة بالفضة والذهب ، وقد كتب ابن صابوني تعهدا بيده انه ان لم يرسلها فلن يكون له سلطان أن يخدم رئاسة الكهنوت ، ولما ارتسم ومضى رفض ان يعطيها ، وكان يحتج بأن اكابر الرها منعوه أن يعطيها ولهذا السبب زرعت بذور الفتنة وحرم البطريرك ابن صابوني قائلا : كما وكتبت بيديك فأنت محروم وليس لك سلطان لأن تخدم ، أو تدعى رئيس كهنة اما هو فقال : ان هذا الحرمان لايسري عليه لأنه ليس بارادته أمسك الكتب .

واما الرهاويون فصاروا فرقتين منهم من كان مع البطريرك وضد المطران،ومنهم من كان مع المطران ويشجعه على التمرد ، حتى انه تجرأ ورسم قساوسة وشمامسة وهو محروم ، حينئذ صار اضطراب بكل البيعة وخاصة بالرها ، وكان حاكمها الفرنجي يساعد المطران وقد ارسل مرارا كثيرة القساوسة ، وأكابر المدينة ومعهم اناس من الأفرنج ليطلبوا من البطريرك ان يحل حرمانه فلم يقبل ، ثم أتى أيضا مطران ملطية مارديونسيوس ومعه سبعين

رجلا مؤمنين الى البطريرك في دير ماربرصوما وخروا على وجوههم أمام رجلية وقالوا : مانرفع وجوهنا عن الأرض حتى تحل حرمان مطران الرها ، ولم يقبل وبعد هذا اجتمع الأساقفة كلهم وسالوا البطريرك ان يعيده الى حظيرة الكنيسة واجابهم قائلا : في نيسان تعالوا جميعكم ويأتي هو أيضا وعندها يصير الحل ، وبهذه الحجة ارسلهم فارغين ولم يجمع مجمعا ليغفر لابن صابوني ، بل عزل الشيخ ابن المعترف من رعاية ملطية لكونه كان يدافع عن ابن صابوني ، وقد خدم المطران ديونسيوس رئاسة الكهنوت بملطية اثنتي عشرة سنة وعلم ورتب ووضع بها عادات مستقيمة ، واغناها بالعلوم التي مازالت الى اليوم يعلمون بها بعد ان تسلسلت من جيل الى جيل ، ولما أخرجه منها البطريرك بقي وحيدا ، اما السبب الذي لأجله لم يجمع البطريرك مجمعا كما وعد فهو أنه لما خرجوا من عنده مشككين لعدم قبول طلبهم،كتب ديونسيوس مطران ملطية وطيماثاوس اسقف قليسورية وديونيس اسقف جيحان وقرروا ان عقد البطريرك مجمع كما وعد فسيشهدوا ان ابن الصابوني مظلوم ، وان لم يصنع جمعا فان ابن الصابوني سيكون ايضا محلولا من حرمانه ، فلما سمع البطريرك اغتاظ جدا خصوصا من المطاردين ، ولم يجمع جمعا بل واخذ ملطية من غوبوس ابن المعترف ودعا اليشع راعي دير البارد ورسمه عليها ، ودعاه اياونيس فوصل اليها في تشرين الثاني ١٤٢٥، ثم طلب منه الحاكم ذهبا فدفعت عنه اهل المدينة مائتي دينار وقبلوه عندهم ، واخيرا لما أحسوا انه يحب معاقرة الخمر احتقره جميع الناس ونبذوه

حروب الأمير ايلغازي بن أرتق

وفي سنة ١٤٣٠ في شهر ايار جمع الامير غازي ابن دانشمند (٤) سبعة الاف من الترك ودخل الى بلاد انطاكية فخرج الى لقائهم رجيز صاحب انطاكية مع رجال كثيرين ، فكمن لهم الأتراك ووقع الأفرنج في الكمين فأحاط بهم وقتل كثيرا منهم ، وقد قتل غازي بن دانشمند رجيز صاحب انطاكية وسبى الترك البلاد ، واحتلوا كثيرا من القلاع ، وقتلوا جملة من الرهبان في الجبل الأسود ، وبقي الأتراك ايام كثيرة في تلك البلاد ، وقد صنعوا قطاعات مروعة ، وحين سمع بلدوني ملك القدس اتى ، فلما سمع الترك بان الملك قادم كمنوا له ايضا،لكن الملك اكتشف الترك ، وطاردهم وكسرهم لكن الذين كانوا يكمنون من الخلف انقضوا على العساكر الرجالة وقتلوا كثيرين منهم الى أن احس الملك ، فكر عليهم وقتل الذين كانوا يكمنون كليا ، ثم طارد غازي فهرب مع الترك ، فذهب بعضهم الى حلب وبعضهم الآخر مع غازي ، وقد لحقت بالترك ضربة عظيمة .

وفي ذلك اليوم خلص الأفرنج الذين نجوا من القتل خلصوا الأسرى الذين سباهم الأتراك في البلاد ، ودخلوا مع الملك الى مدينة انطاكية .

وفي تلك السنة تملك سلطان ملطية ضيع بلاد جيحان وابلستين .

وفي شباط من تلك السنة سبى الأفرنج بلاد جرجر ، واما اليونانيون فقد اصطفوا على ساحل البحر مقابل الترك مدة شهرين ثم عادوا دون حرب .

وغزا سلطان ملطية مع ملك بلدة قماج ، فهرب صاحب تلك البلاد ابن قلج ارسلان الى طرابزون ، والتجأ لليونانيين فاتى معه

جيراس ، ثم ان بلك وسلطان ملطية غازي بن دانشمند اتفقا ، ولما صـــارت الحـــرب انكسر اليونانيون واسر جيراس وابـــن قلج أرسلان ، فبيع جيراس بثلاثين الف دينار ، اما ابن قلج ارســلان فخلصه غازي لأنه كان ختنه،وبهذا صارت عداوة بين السلطان مــن جهة وبلك وغازي من جهة ثانية .

وخرج يوحنا ملك اليونانيين في تلك السنة واخذ ثلاث قــلاع مــن الترك .

وجمع غازي عسكرا ، ودخل الى بلاد الرها واحرق الغــلال واذ لم يجد عساكر تمنعه أو تصدمه تابع سيره الى بلاد انطاكية وســبى ورجع الى بلاده وتملك بلك قلعة زياد والبلاد التي حولها ، وصــارت ملطية تحت امره وكان يخيف كل الأمراء .

اما الأرمن الذين في جــرجر فــكانوا يخـــربون بـــلاده بالسرقة ، فأرسل الى ميخائيل الذي في جرجر يتعهد ان يعـطيه كل سنة الف حمل حنطة ان كان يمنع الأرمن مــن السرقــة ، واعطــاه ثلاث قــرى في بــلاده فحلف ميخــائيل عدة مــرات لبلك لكنه لم يف بعهده ، وذات يوم بينما كان يرسل الحنطة هاجم لصوص ميخائيل واحرقوا قــريتين بهنزيط ونهبــوا كثيرا وقتلوا التــرك الذين كانوا يرافقون ارسالية الحنطة وكانوا غير مسلحين معتمــدين في ذلك على الصلح الذي صنعوه وعلى هدية الحنطة التـــي يرافقــوها ، ولما علم بلك بما جــــــرى غضـــــــب واحتـــــال على الأرمــــــن واصطادهم ، واهلكهم ، ففي الشتاء القــاسي حيث كانت الجبــال مملوءة بالثلج الكثير واهل جرجر قابعين لا يفكرون بشيء ولايضعون حراسا،عبر بلك على مياه الفرات المتجلدة الى جوباس ، وخدع أهل جرجر فأوهمهم بانه ماض الى ابعد من منطقتهم وسير امامه الوف الخيل الى جبل العسر المكني الشمعة ، وهكذا اندثــر الثلج وســار العسكر وخلال يوم واحــد وصــلوا الى دير مــاربرصوما ، وفي تلك الليلة عبروا جبل جرجر،وفي الصباح هجــم بلك على البلدة الشــقية وســـــــــباها،وكان ذلك يوم الاثنين في أول كانون الثـــــــاني

سنة ١٤٣٢ ، ولم ينج من ايادي الترك لابشر ولابهائم ، لقد حرقوا كل شيء وخرجوا ، وبقيت البلد خالية ، وأما بلك فقد صنع رحمة كثيرة مع الشعب ، فلم يسمح أن يهلك منهم أحد ،ولم يجعلهم اسرى بل هم وبهائمهم وكل ما لهم حفظه لهم ،واعطاهم قرى واسكنهم في بلدة هنزيط وحلفهم أن لايرجعوا لجرجر ، اما من يهرب ويعود الى جرجر فانه متى اقبل مرة ثانية اليها فسوف يؤخذ عبدا ، وهكذا صار لأن بعد سنة اتى بلك لجرجر وقد اخذ كل الذين وجدهم عبيدا ، واحرق القرى والكروم والزيتون ثم اتى عليه جوسلين فهرب بلك للجبل فلم يقدر عليه الأفرنج فرجعوا ، اما هو فرجع الى بلده .

وفي سنة ١٤٣٣ ارسل سلطان خراسان مائة الف من العسكر ودخلوا الى بلاد الترك لكي يملكوا هناك ايضا،فسد عليهم ملك الأتراك المعابر من كل جانب وقتلهم كلهم بحد السيف .

وفي تلك السنة سبى جوسلين بلاد جوباس ، وفي تلك السنة ايضا قتل يوحنا ملك اليونانيين شعب القومنيين « الكومان »وصاروا عبيدا لليونانيين ، وقد كتب البار بسيليوس مطران الرها عن القومنيين لأنه كان هناك ، فقال : لما اتى القومنيون الى القسطنطينية احتال الملك يوحنا وعقد معهم سلاما ، ولما اختلطوا ودخلوا المدائن والقسطنطينية اصدر الملك امرا بان يمسكوا بوقت واحد كل من يجدوه منهم اينما كان ، فأمسك منهم بمعسكر الملك نحو ثلاثة الاف ، وفي كل مدينة الذين وجدوا منهم ، وفي اليوم الذي امسكوا به مضى الملك وعساكره الى معسكرهم ، فاما هم فحسب عاداتهم فقد احاطوا معسكرهم بأبراج من خشب وصاروا يحاربون، فنزل الملك عن فرسه وأمر كل الفرسان ان ينزلوا عن مطاياهم ويحاربوا،وهكذا اشتد الحرب وقفزوا ودخلوا وقتلوا اكثرهم، وأمسكوا اكابرهم وغيرهم كثير،وجروهم عبيدا للقسطنطينية وصار هدوء عظيم في عهد هذا الملك بعد انتصاره على هؤلاء القومنيين.

اما القومنيون فهم جزء من الاتــراك ولســانهم تــركي لكنهـــم لأيؤمنوا بموسى أو بالمسيح أو بمحمــد او بــالأنبياء كافــة ، كانوا حيثما يذهبوا يأخذوا نساءهم واولادهم وبيوتهم معهم ويضعوهم في الأبراج الخشبية التي يصنعوها حول مقر سكنهم .

وبهذا الزمان صعدوا مــن شــاطىء نهــر بجيس واتــوا ليملكوا القسطنطينية الى ان كسرهم هــذا الملك كسرة عظيمــة،ومــن ثـــم اصبحوا عبيدا في مملكة اليونانيين ٠

اسر بلك ملك بيت المقدس بلدوين

في سنة ١٤٣٤ دخل الأمير بلك الى بلاد انطاكية واجتمع الأفرنج لمقابلته وقد بقي الجيشان معسكران وجها لوجه مدة اربعة اشهر ثم تفرقوا بغير حرب .

فاما جوسلين الوالي لما توفيت امـراته وهـي ابنة رجير حـاكم انطـاكية،اراد ان يأخـذها الى الرهـا فصـنع له بلك كمينا في الطريق ، وامسكه وارسـله لبـولا وصـار لبلك اسـما كبيرا عند الأتراك ، فاجتمعت اليه الشعوب ودخل ايضا الى بـلاد الأفـرنج ، اما ميخائيل الأرمني الذي كان في جرجر فلما رأى الترك قد تسلطوا اعطى جرجر للملك واخذ له مكانا في بلاده فلمـا أخـذ الملك جـرجر ووضع محارس وجمع عساكره اتى ليطرد الترك مـن بـلاد حصـن منصور وكيسوم .

وحين كان الأفرنج متوجهون على نهر سنجة خرج عليهم فجـأة بلك من كمين كان قد نصبه لهم،وخربوا معسكر الأفـرنج وامسـكوا الملك،وقتلوا الذين معه،وكذلك امسـكوا جـوسلين وغاليران ، وكان ذلك ليلة عيد الصليب كذلك اعتقلوا بلدوين الملك يوم الأربعاء جمعـة البياض من تلك السنة ، ولما صار ملك القدس اسيرا وبقيت البـلاد بغير رئيس او سـيد اراد المصريون أن يملكوا القـدس وبـاقي البلاد ، فأرسلوا جيشين واحدا في البر وآخر في البحر ، امـا جيش البر فقد انكسر وفقـدوا جمـالهم وكل امـوالهم وادخلوهـا الى القدس ، وقد فرح الأفرنج ووقفوا للصلاة والصوم واحـد وعشرين يوما .

اما الجيش الآخر والذي كان يبحر على ظهر السفن،فعندما وصل الى عكا،كان شعب البنادقة قد وصـلوا في ذلك الوقـت للزيارة،فلمـا

رأوا العرب في البحر اصطفوا مع الأفرنج وحدثت معركة انتصر فيها الأفرنج ، حينئذ عادت الثقة لأهل القدس فهجموا على صور .

أما بلك فإنه لما أمسك ملك الافرنج نزل على حصن منصور فأعطوه إياه صلحا ، لكن الترك القساة سبوا الشعب واحرقوا المدينة والبلاد ، حينئذ انسحب الأفرنج من جرجر ايضا ، فدخلها الترك ايضا،أما بلك فسجن الملك وجوسلين وباقي الأفرنج في قلعة زياد في قلب بئر عميق ، ونزل فاستولى على حران وحلب من العرب وتل باشر ، وثلاث قلاع أخرى من عرب الأفرنج ، حينئذ حدث تمرد عليه في قلعة زياد ، فأناس من الارمن كانوا داخل القلعة يعملون في البناء ، ولما نظروا أن القلعة فارغة وليس فيها الا القليل من الحراس اجتمعوا عند الباب وصاروا يدمدمون لأجل اجرتهم ، ثم هجموا فجأة وحملوا السيوف التي كانت موضوعة عند الباب ، وقتلوا ثلاثة رجال من حراس الباب ، واخرجوا الملك وجوسلين والباقي ، وقتلوا العرب واستولوا على القلعة فاجتمع اهل المدينة واخذوا يقاتلونهم ، حينئذ تحيل جوسلين وخرج ليلا برفقة رجل ارمني وأقسم للملك أن يجمع عسكرا يعود لأنهم لم يستطيعوا لاأن يحافظوا على القلعة ، ولاأن يأخذوا الملك معهم ، ولما مضى جوسلين وصل بلك ونصب أربع منجنيقات وهدم الأسوار ، حينئذ خرج الأفرنج وبعد ان عذبوهم بمرارة قتلوا منهم سبعين رجلا ، ثم اخذ معه الملك وغالران ابن اخته ، ورجع عاجلا لأنه كان يريد ان يستولي على كل المسكونة ، ولما حل على مرعش أرسل المرعشيون يستنجدون بجوسلين ضد بلك مقابل ان يؤدوا له جزية ، فأتى جوسلين واشتبكوا في حرب من الصباح الى المساء ، فقتل حاكم كيسيوم المدعو مونيجوفري ، وقد كان هذا بعدما خرج من رومية راهبا ادى بطولات في القدس أثناء الحرب ، فصنعوه رئيسا للعسكر ، ولما تجول الملك ليحفظ البلاد احضره واعطاه كيسوم ورعبان ومرعش ، وقد قتل بهذه الحرب فأوقفت المعارك ، وفي الصباح قام بلك وتقدم الى السور ليريهم اين يجب ان يضعوا المنجنيق فأتاه سهم من حارس كان يقف في أعلى

السور فأصاب منه مقتلا ، فهربت العساكر الى حلب واقـامت لهـا رئيسا هو ابن عم بلك ، لكن هذا باع الملك بمائة الف دينار ، فرجع الملك بلدوين الى القدس ، ورجع بعض الاتراك الى قلعة زياد واقاموا لهم رئيسا اسمه سليمان رئيس اسرة الأراتقة .

من نظر خطأ في هذه الاسطر الذميمـة فليصـل لراحـة كاتبهـا الكسلان .

في سـنة ١٤٣١ يوم الخميس اول كانون الأخير صـارت زلزلة صعبة دامت ثلاث ساعات وافسدت أماكن كثيرة .

بهذا الزمان صار جـوع عظيم في القـدس وكان أولئك الأخـوان الذين يسمونهم داوية ـ أي الهيين ـ يعطون المسـاكين ويقـدمون كعاداتهم بغير نقصان ، ولما قلت الغلة التـي كانت مـوجودة ، ولم يبق سوى القليل قالوا فيما بينهم : إذا أوقفنا اطعام المساكين فـان مابقي يكفينا ، ثم قرروا وقالوا لن نقطع عن المساكين شيئا بل نحن والمساكين نفقات سوية بما تبقى الى ان ينتهي ، وحينئذ نموت نحن والمساكين ، لكن الرب افتقدهم ، وهو الذي اشبع بالبرية من خبز قليل كثير من الناس ، فدخل فجأة الوكلاء لبيوت المخازن فوجدوها مملوءة بالحنطة والشـعير والخمـر والحبـوب ، وانتشرت هـذه الأعجوبة في كل البلاد،ليتمجد اسم الرب .

وفي اول كانون الثـاني سـنة ١٤٣١ سـقطت نار في وسـط القسطنطينية وافسدت عشرة الاف بيت وحانوت ، وأتـى الى ملطية جراد طيار وأكل الزروع ، فأقاموا صلوات متصـلة فلجـت افـواه الجراد ولم تعد تأكل شيئا ، فسـلمت المزروعات،وبعـد قليل خـرج جراد ناعم وأكل الأشجار والكروم لكنه في الحال اضمحل .

وفي هذه السنة غرقت مدينة بفارس اسمها اردبيل فجأة وصارت بحيرة ماء ، وكل سكانها اختنقوا بداخلها .

وفي سنة ١٤٣٢ صار شـتاء قـاسي اربعين يومـا،وتجلدت مياه الفرات وباقي الأنهر وصار الناس يمشون على الأنهر .

وفي ٣٠ ايار من تلك السنة في ليلة الاثنين تراءى قوس كامل وهذا امر لم ير قط منذ اجيال ، واظن انه خارج عن الطبيعة او لعله فوق الطبيعة ، وكان يظهر كالقوس بالليل ، لأجل ذلك صار الأمر عجبا لكل من يشخص به ، ولكن كل شيء سهلا للقادر على كل شيء ، وهو كل مايشاء يصنع .

كمل هذا الخبر عن عجائب يصنعها الرب :

في سنة ١٤٣٣ في ١٨ كانون الأول صارت زلزلة اربع مرات بالليل وأربع مرات بالنهار ، وتشققت الصور في بلاد صمحا على شط الفرات ، وغرقت أماكن كثيرة ، وصارت قبورا لساكنيهم.

وفي سنة ١٤٣٤ صارت قلة في المطر وصار في كل موضع جوعا عظيما ، خصوصا في ناحية المشرق .

وفي تلك السنة ايضا وقعت نار بالقسطنطينية واحترقت فيها بيوت ودور وصار انكسار وانتصار ، أما لماذا هذا الأمر وكيف صار ، لاأحد يعرف علته الا ذلك الذي وحده عالم بكل شيء ، وهو يعرف بالصحيح وقد صار على الشكل التالي . فجأة ابتدات تجتمع طيور الشامهرج،اي ابو الحودنج،من موضع وأخذت تلتئم ، وكذلك اجتمع الكراكي وصاروا مجموعتين على نهر تالاكوم وظلوا مجتمعين لمدة أيام كثيرة ، واخيرا كما شهد كثيرون من الذين راوهم كانوا يرسلون مثل الرسل من معسكر لمعسكر خمسة أو عشرة من الطيور،وبعدما تقاولوا كثيرا قفزوا بغتة وصرخ الجانبان صرخة عظيمة ، وصاروا يضربون بعضهم بعضا ويقتلون الواحد مع الآخر،والذين كانوا يضعفون كانوا يقعون ويموتون ، وهكذا سقط من الشامهرج ومن الكراكي الافا ، وتكونوا تلالا تلالا على الأرض، وقد دامت بينهم هذه الحرب العظيمة من ثالث ساعة من النهار الى تاسع ساعة ، واخيرا انكسرت طيور الشامهرج واكثرهم ماتوا ، اما الذين بقيوا فقد هربوا ثم طار الكراكي في أثرهم فلحقوهم في أوكارهم ، ومات لهم صغارهم في الأعشاش .

مجمــــــل الأحــــــداث التـــــي وقعـــــت بين عامي ٥٠٠ ـ ٥١٦

هذا القسم فيه أخبار كان يجب ان تقدم لأنها مقتبسة من كتــاب تاريخي مكتوب بلغة عربية ويؤرخ بالسنة الهجرية القمــرية ، وقــد أدى هذا الى اختلاف في ترتيب الأعوام سببه الاختلاف بين الأعوام العربية القمرية،وبين الأعوام اليونانية الشمسية .

ومن هنا على القارىء ان يفهم ان الخبر المكتوب لاحقا حول نجم الدين الأرتقــي ، الذي ملك على حلب يجــب ان يكون متقــدما على اخبار بلك التى وردت مقدما ، لأنه بعد موت نجم الدين ملك بلك على حلب .

شروحات من كتـــب عربية في اثـــور وبـــابل قـــــالت انه في سنة ٥٠٠ للعرب كان ابو العباس أحمد المستظهر ، هو خليفة للعرب في بغداد ، وكان سلطان خراسان غياث الدنيا وقد قتل الاســماعيلية وزيره المسمى أبو مــظفر (٥) وفي تلك الســنة قتــل الاســـــماعيلية كوسدكين احد رجالات السلطان،فتحرك السلطان غياث الدنيا وقتل كل الاسماعيلية ، الذين كانوا من العرب ، لكنهم طــائفة لاتتبــع لا العرب ولا الترك لا بالايمان ولابالعوائد ، ويقــولون عن المســيح انه هو الذي تنبأ عنه الأنبياء لكنه لم يصنع خلاصا لأن اليهود لما قاموا عليه ليقتلوه هرب الى السماء ، وهو مزمع ان يأتي وحينئذ يصـــنع خلاصا ، اماعن محمد (ص) فيقولون أقــوالا ســمجة ولايقبلون القرآن،ويقدمون انفسهم للقتل بغير شفقة لكي ينتقموا من أعدائهــم، على رجاء الذي سيصير لهم في العالم الأخير

وفي سنة ٥٠٠ للعرب ملك سيف الدولة صدقة بن دبيس على العرب، فأخذ تكريت .

وبهذه السنة كان في تكريت ديلمي اسمه قباذ بن هزارسب ، وكان ظالما شريرا وقد خرب مسجد العرب الكبير الذي كان قريبا من القلعة ، ولما علا ضجيج العرب اخذ بيعه المسيحيين الكبيرة واعطاها للعرب .

وفي سنة ١٤٣٣ اخذ الحسين بيعة تكريت الكبيرة البهية المدعوة بيعة الجرداء مع اثاثها ودورها وحوانيتها واعطاها للعرب ، ولما كثرت المصادمات بين المسيحيين والعرب ارسل السلطان الكبير غياث الدين اميرا اسمة أق سنقر فتحارب مع تكريت سبعة اشهر، ولما تضايق حاكمها سلمها لصدقة ملك العرب وخرج منها،وبعد أربعة عشر يوما مات ، ولما سمع السلطان غياث الدين ان صدقة بن دبيس قد تملك على تكريت وتمرد عليه ، جمع عساكر الأتراك وزحف ضده ،

حينئذ جمع صدقة عساكر العرب وصار الحرب على النهر المدعو **نقهرني** (٦) ، **فانكسر العرب وقتل صدقة ملكهم وههنا انتهت مملكة العرب كليا.**

وفي سنة ٥٠٠ هجرية سنين العربية اي سنة ١٤٣٣ يونانية بعد ثلاثة سنين من خروج الترك،وفي سنة ٥٠٢ للعرب خرج امير يدعى مودود بن التونتكين بمعرفة السلطان غياث الدين ليمضي ويقاتل الأفرنج،وأعطاه الموصل والجزيرة ونصيبين ، وأمر جملة امراء أن يمضوا معه ، ولما وصل الى الموصل رفض جاولي ان يعطيها له، فأقام عليها المنجنيقات وشن حربا عنيفة ، وفي يوم الجمعة وفيما كان العرب في صلاتهم صعد رجال اقوياء الاسوار،لكن جاولي ورجاله تحصنوا بالقلعة ، حينئذ اقسم لهم مودود ان يعطيهم الأمان ، فخرج جاولي ورجاله ومضى الى نجم الدين بن ارتق في ماردين،فاجتمعوا وصعدوا ليتحاربوا مع الافرنج ليكون يد لهم عند السلطان الكبير،لان مودود لم يركب على الأفرنج لكنه رجع الى السلطان ، فاتفق جوسلين حاكم الرها مع جاولي لانه تكرم عليه

بالموصل ، ورضوان حاكم حلب اتفق مع ذلك الملك وانكسر جاولي وجوسلين .

وفي سنة ٥٠٠ للعرب اخذ الفرنج طرابلس التي على شاطىء البحر من ابي علي بن عمار بعد حروب كثيرة اخذوها بيومين ، ولما دخلوا قتلوا العسكر وسبوا الشعب وكل البلاد وباعوهم عبيدا .

وفي هذه السنة وقع سكمان بن ارتق من الفرس ومات،وخرج الافرنج واخذوا الاثارب وقتلوا بها الفين،واتوا الى منبج وسبوا وتملكوا ايضا على المدينة،ووصلوا حتى بالس واحرقوها بالنار ، ولما وجد رضوان صاحب حلب ونظر انه لن يستطيع ان يلاقي الافرنج ارسل لهم اثنين وثلاثين الف دينار وعشرين بغل واربعين ثوب اطلس،وارسل لهم ظهير الدين طغتكين اتابك دمشق عشرة الاف دينار،وحاكم حماة الفين وحاكم عسقلون اربعة الاف دينار،وعقدوا صلحا . (٧)

وفي سنة ٥٠٥ هـ ايضا ارسل السلطان غياث الدين عساكر مع مودود ليتحارب مع الأفرنج ، ولما وصلوا الى شبختان اخذوا قلاعا كثيرة،واتوا على الرها لكنهم لم يستطيعوا ان يأخذوها ، وهاجموا تل باشر ، كذلك لم يستطيعوا اخذها ، وتوجهوا الى حلب لكنهم لم يتركوهم يدخلوها ايضا .

ومرض سكمان (٨) حاكم اخلاط فحملوه ليأخذوه،لكنه مات في الطريق .

واجتمع الفرنج وهجموا على مودود ثلاث وعشرين هجمة في يوم واحد وتحاربوا،وكان قد غلبهم في اول هجمة مودود لكنه انكسر فيما بعد وهرب الى دمشق ، وفي يوم الجمعة بعد الصلاة خرج وهو يتفرج ويمسك بيد حاكم دمشق فوثب عليه اسماعيلي فقتله . (٩)
وفي سنة ٥٠٨ للعرب خرجت عساكر السلطان غياث الدين مع

ابنه ابو الفتح مسعود وقسيم الدولة أق سنقر البرسقي ليتحاربا مع

الأفرنج،ولما وصلوا الموصل خرج لخدمتهم تيمرك بن أرسلان وزنكي ابن آق سنقر واتفقوا ايضا معهم ، وحين وصلوا الى ماردين خرج نجم الدين لخدمة ابن السلطان وارسل معه سبعمائة وثلاثين فارسا ، ولما جازوا الذبك أرسل نجم الدين الى الأفرنج وساعدهم ، ولما عرف ابن السلطان بهذه المسألة امسك ابن نجم الدين ورماه في الحديد وسبى بلاده ، ونزل على دارا ، ولكن نجم الدين مضى الى شهرزور وجمع شعبا كثيرا واتى اليه ركن الدين ابن عم حاكم كيفا وبلك بن بهرام أخوه الأكبر ، وجمع رجالا يفوقون العدد،واتى بقوة عظيمة ليلتقي بابن السلطان ويخلص ابنه،ولما وصلوا القرديس بقرب دارا كان هناك شرذمة من عسكر ابن السلطان نازلين وغير عارفين ، ولما رأوا فرسان قليلين من عسكر نجم الدين اتوا عليهم واشتبكوا كلهم ، وكان بينهم حاكم شبختان وحاكم نصيبين وحاكم مكسين .

ولما علم ابن السلطان ان عساكره قد انكسرت ترك دارا وهرب لنصيبين ونزل نجم الدين واخذ الخيام وكلما كان لهم ، فأما ابن نجم الدين لما رآهم مرتجفين وصار الليل وليس من يعتني برفيقه ، وكانت رجلية بالحديد وهو راكب ، فطرح نفسه من على البغلة واختفى بين جماعة من اليهود،واذا بكردي اتى واعلم أبوه فأرسل عشرة رجال وحملوه فأحضره،وصار فرح عظيم لبيت ارتق. فأما ابن السلطان فتوجه نحو أبيه واشتكى على نجم الدين فأرسل السلطان تهديدا لنجم الدين كونه حقر سلطنة الترك ، فصنع نجم الدين مسالمة مع الأفرنج ، ومع أتابك حاكم دمشق،وتحالفا انهم يساعدان بعضهما بعضا،فمضى كل واحد لبلده،وبقي نجم الدين وحده ، ولما اتى حاكم حمص عليه ليلا وجده سكران وغير عالم اين هو فحملوه ووضعوه في حمص وارسلوا أعلموا السلطان ، ولما ابطأ الجواب ، أعطى نجم الدين وعده ، وترك ابنه،فأما هذا فجلب عسكرا من السلطان ، ولما وصل اصطلحوا وأطلق ابن نجم الدين (١٠) ودخلت عساكر السلطان الى بلاد الأفرنج ليسبوا فالتقى

بهم الأفرنج وقتلوهم كلهم ، يقولون إنهم احرقوا منهم ثـلاثة الاف بالنار .

وفي سنة ٥١٣ سلم حاكم حلب مدينته لنجم الدين لأن الأفرنج قد أضعفوها ، وفي تلك السنة أخذ نجم الدين الغـازي نصـيبين ، ولما مضى الى حلب ليصنع صلحا مع الافرنج ولم يقبلوا فجمع جملة مـن الاتراك لأنهم كانوا يطيعونه جدا ، يقولون أنهم أرادوا أن يحصدوهم فمـــــــا قدروا ، الف أمير كان فيهم ، ولما اصطفوا لم يصبر حاكم انطـاكية حتى يأتي الملك فانكسر ، وأخذ نجم الدين نحو الشرق ، ولما رجـع الى ماردين سمع أن أهـل حلب قـد عصـوا عليه فتـوجه الى ميافارقين ، ومات في الطريق وأمر أن يملك ابنه بعـده وكان اسـمه حسـام الدين تمـرتاش ، ولأنه لم يكن مسـتعدا ، وكان سـليمان حاضرا هو الذي ادخله الى ميافـارقين وقبـره ، ولذلك ملك هناك ، وملك أخوه تمرتاش في مـاردين ، وكان هـذا في سـنة ست عشرة وخمسمائة للعرب . وهذا الفصل يجب أن يسـبق الذي قبله لأنه ملك بعد نجم الدين على حلب بلك(١١).

احـــــــــــــــداث مـــــــــــــــــــا
بين ١٤٣٥ - ١٤٤٦ يونانية ١١٢٤ ـ ١١٣٥ م ٠

نتابع في مطلع هذا القسم الحديث حـول حصــار ملطية لاننا إلى هذا الزمان تحدثنا في المقالة المتقدمة عن موت بلك الذي كانت باسمه تحفظ ملطية بأيادي ابن السلطان ، ثم انقسمت بلاد بلك بين حـكام عديدين : مدينة حلب أخذها حسـام الدين تمـرتاش ، وقلعـة زياد أخذها سليمان،وسلطان ملطية اخذ مسرا وجرجر،ولأجل هـذا وقـع خصام بين حكام قلعة زياد وبين حكّام ملطية ، وبهذا انفتح البـاب امام الأمير غازي ابن دانشمند حاكم سبسطيه الذي اراد أن يأخـذ ملطية،وعقد عهدا مع السلطان مسعود الذي كان ختنه،فجمع شـعبا كثيرا وهجـم على ملطية يوم الجمعـــة في ١٣ حــــزيران سنة ١٤٣٥ وسبى قراها،ونزل على المدينة شـهرا،ثـم مضى غازي وترك ابنه محمد في قرية ساحان التي هي قـريبة مـن المدينة ومعـه عسكر عظيم وامرهم أن يحرسوا أبـواب المدينة ولا يتـركوا احـدا يدخل أو يخرج منها،حينئذ جلب المأساة لسكانها من الجوع والمرض حـتى وصل قفيز الحنطة الى ستة وثلاثين دينار واخيرا فني القوت كليا،وصار الأسكان يأكلون ورق الأشجار وقشور الشـجر الرطـب واينما وجدوا قططا أو حميرا ميتـه كانوا يأكلونهـا ويلعقـون الدم ايضا،وكانوا يأكلون الجلود والأحذية وما شابه ذلك ، لقد تسلط على المدينة ثلاثة سيوف : سيف من الخارج كان يسقط على رقبة كل من يريد أن يهرب ، وسيف الجوع الذي لا يطاق،وسيف الحكام الأشرار داخل المدينة الذين ما فتئوا يعذبون الناس ويرمونهم بالسجون لأجل جمع الذهب،ومن هنا صارت تحدث مناظر بشـعة فقـد كان الأولاد يبادون أمام عيون اهلهم من الجوع وهم عاجـزون عن مسـاعدتهم سوى البكاء عليهم،ثم أخذهم للقبور،اما العجائز والمشـايخ فـكانوا مطروحين بالأسواق متورمين يئنون لانهـم لا يسـتطيعون الصراخ،

حتى أن الناس لم يعودوا يتكلمون سوى بالبكاء،أما الحاكم فقد خرج بالليل ومضى فاستأجر الافرنج بثلاثين الف لكن بعد أن وافقوا معه لم يأتوا لانهم كانوا متوجهين الى حلب . حينئذ جمعت أم السلطان ايزابيل الثانية كل الأحرار ومن كانت تظن أن لديه مالا والقت بهم بالسجن،وكانوا يعذبونهم بغير رحمة ويأخذون الذهب وقد استعدوا ليقتلوا بالسيف كل المسيحيين ويذهبون . لكن الرب لم يترك اهل المدينة في هذه الضيقة طويلا فارتحلت هذه الملعونة خاتون وابنها،وكان ذلك ليلة الاربعاء ١٠ كانون الأول سنة ١٤٣٦، ودخل الأمير غازي ولما نظر المدينة فارغة من السكان والذين بقيوا بدوا وكأنهم قائمين من القبور شجعهم،واعتق الأسرى الموجودين والذين يجتمعون ويأتون.وأعطى قمحا للفلاحين يزرعوا،واحضر البقر والثيران والأغنام،واخذت المدينة تنتعش . وفي تلك السنة مات سليمان بميافارقين وملك عليها حسام الدين تمرتاش حاكم ماردين وهو أخوه،ولما كانت قلعة زياد لسليمان المكنى شمس الدولة ذهب الأمير غازي نحوها أيضا لكي يملكها،لكن الأمير داود من أسرة أرتق كان قد سبقه فقام الأمير وسبى اهالي بلاد هنزيط واحضرهم الى بلاد ملطية،ثم ذهب مرة ثانية وسبى كل ما بقي،وأخذ قلعة مسرا ، حينئذ أتى داوود ليتحارب مع الأمير غازي ، ولما عرف بأنه لن يستطيع أن يقاومه هرب وأخذ يحرق القرى التابعة له .

وفي تلك السنة (١٤٣٦) يونانية مات الخليفة المستظهر في بغداد(١٢) وقام ابنه المسترشد ، واتفق الأمير العربي المسمى صدقة(١٣)مع الأراتقة ، اما الخليفة في بغداد فقد دخل الى بيوت ابيه وطرد ألاف المغنين ، وجمع كل أنواع الات الطرب واحرقها امام الباب ، واخرج ثلاثة الاف امرأة من المغنيات والزانيات وكان الناس يقولون لأن رؤوساء الدين يبدأوا ينحرفون عن طريق الايمان الصالح زالت السيطرة منهم ومن العرب .

ثم ان الأمير صدقة تمرد وأعلن العصيان على الخليفة .
أما الترك فكانوا يساعدون الخليفة ويطاردون دبيس ابن الأمير

صدقة ، فترك المسلمين والتجـأ الى الافـرنج وقـادهم ضـد حلب ليأخذوها له ، أما البرسقي(١٤) حاكم حلب فجمع عسـكرا ليهـاجم الافرنج،حينئذ رجع الفرنجة الى بـلادهم ، فـدخل البـرسقي حلب واطمأن وظن انه كسر الأفرنج فسار ضد أعزاز ليأخـذها ، حينئذ اتى ملك القدس وجمع الأفرنج وشنوا حربًا على البـرسقي فهـزمه وقتل عساكره ، وخلص هو مع قليلين ، وهرب لحلب وظهـر بهـذه السنة كوكب عظيم من اليمين الى الشمال طوله كثير وعرضه بعمـق بلاد الفرس ، وبقي يظهر مدة شهرين ، وفي سـنة ١٤٣٥ ظهـرت كواكب متناثرة من بداية الهزيع الثالث من الليل الى الصـباح ، وفي سنة ١٤٣٦ صار جوع عظيم في كل المشرق .

وخرج البنادقة الذين هزموا المصريين من عكا تحت لواء رئيسهم الدوقس،وتـوجهوا بحـرا الى مـدينة صـور المبنية في قلب البحر ، وشرعوا بحصارها ، وكان هؤلاء البنادقة يعملون لصـالح بطريرك القدس الفرنجي .

وبهذا الزمان خلص بلدوين الملك من أيادي الترك ، وقـد افتـك بمائة الف دينار .

وفي سنة ١٤٣٧ قتل الأفرنج حاكم حماه عند كفر طاب ، واحتل الأفرنج جبلة من ابن عمار ، ونزل ملك القـدس يسـاعد البنادقـة لاحتلال صور،لكن المصريين سلموا صور لحاكم دمشق ، ولما أتـى حاكم دمشق أي طغتكين ليتحارب مع الأفرنج لاقوه في مرج النحاس وقـاتلوه وكسروه وخلص قليل مـن عسـاكره ، وذهبـوا الى دمشق ، بعد ذلك اخذ الأفرنج يضايقون صور بـكل أنواع الحـرب بالبر والبحر ، واخيرا أخذوها في سنة ١٤٣٧ .

وفي تلك السنة صعد البرسقي مـرة ثـانية ضـد الأفـرنج فانكسر ، وهرب ثم اتى للمرة الثالثة فأتى عليه بلدوين ملك الرهـا فكسره وقتل اثني عشر الفا .

وبعـد ان اخـذ الامير غازي ملطية جمـع الملك عرب ثـلاثين الفا ، واتى ليحارب اخيه مسعود لكونه لم يمض يسـاعد اخـاه في ملطية ، فتركها لغازي ، وهرب مسعود الى القسطنطينية والتجـأ الى يوحنا ملك الروم .

فأما الملك عرب فنزل على قونية مدينة مملكة السـلطان مسـعود اخوه ، واما الملك يوحنا فتقبل مسـعود بـالفرح ، واعطـاه ذهبـا كثيرا ، ولما خرج اتى الى عند الامير غازي ، وانطلقا معا ضد عرب فهرب الى طوروس الارمني في قليقلة .

وفي سنة ١٤٣٨ بالصيف جمع عرب الترك والارمن ووضع كمينا وامسك محمد بن غازي ، واتـى الامير يونس على عرب ، وانتصر عرب وامسك يونس ، لكن غازي اتى سريعا ولما التقوا مع بعضـهم انكسر غازي في البداية ، ثم صعد الى مكان مـرتفع ونصـب خيام معسكره وامر ان يضرب بـالابواق ان عرب قـد انكسر ، فـاجتمع عسكر عرب على اصوات الابواق وراوا خيام غازي ، وكان قد حـل الظلام فتبددت عساكر عرب ، حينئذ طاردهم غازي ، واخذ خيامهم وخيولهم ووصل الى قومان وانقـرة وقـاتلها بشـدة حتـى تملك عليها ، واخرج ابنه محمدا الذي كان معتقلا هناك ، وبعد هذا جمع عرب ايضا العساكر وبدأ يضطهد الناس ويحتل القرى ، وقد احتـل قلعة وجد فيها ولد من اولاد غازي اسمه يمن فقتله ، فغضـب غازي جدا ، وجمع جيشا ومضى ضد عرب ، فانكسر عرب وهـرب،واخـذ الامير غازي يخرب القرى بغير رحمة،ثم جمع عرب عسكرا وزحـف ايضا نحو الامير غازي فانكسر ثانية عرب وهـرب ليمضي الى بـلاد اليونان فهلك .

كل ذلك صار بين الترك الذين في غضـبتهم على بعضـهم بعضـا كانوا يحتمون بالمسيحيين .

في سنة ١٤٣٨ خرج من رومية بوهيموند بن بوهيموند الذي كان ابوه اميرانطاكية وحمل الاسم نفسه وكان واحدا مـن الاوائل الذين

خرجوا وملكوا ، فأتى هذا متكبرا متغطرسا ، فـأراد ان يسـتعبد الأفرنج فانقسموا على بعضهم ، وحدثت بينهم حـروب ، فـاستغل ذلك جـوسلين ، وغزا ضـواحي انطـاكية وسـبى كل شيء وجده ، فغضب بطريركهم واغلق البيع وابطل القرابين والصـلوات والنواقيس ، وامر أن لايقبروا الأموات،ولما تضايقوا اصطلحوا ورد جوسلين كل ماسباه .

وفي سنة ١٤٣٩ اجتمـع التـرك والأفـرنج في منطقـة حلب للقتال ، ولما خاف الترك تعهدوا ان يعطوا لجوسلين كل سـنة اثني عشر الف دينار ، وعقدوا صلحا معه ، وبعد ذلك دبر الترك مـؤامرة مع اناس من أعزاز فسقوا جوسلين سما هو وسـتة مـن فـرسانه فمات أولئك الستة ، أما جوسلين فبـوساطة الأطبـاء وبعناية الرب نجا فقتل الذين أعطوه السم هم وأولادهم .

ودخل في تلك السنة يوحنا ملك اليونانيين الى بـلاد الاونجـريين واستعبدهم .

وفي تلك السنة خرج السلطان الذي كان في ملطية،وسبى أطـراف البلاد البرانية،ومضى ولم يتراءى .

وايضا في شهر آب نهب الترك العصاة بـلاد ملطية،فلحقهـم داود من قلعة زياد وضربهم وخلص الأسرى وردهم .

وفي تلك السنة مات السلطان الكبير غياث الدين وكان هذا حسن السيرة عادلا وشريفا في انتصاراته ، وكان في ايامـه امـن دائم في بلاده ، ثم ملك أخوه سنجر بن ملك شاه وابنه محمود .

وفي سنة ١٤٤٠ دخل جوسلين الى بلاد آمد وقتل الترك والأكراد الذين في الجبل الأسود ، ونهب القرى حتى باب المدينة لأنه لما دخـل الترك الى بلاد الرها كان جوسلين بأنطاكية،دخلت مع الترك عساكر آمد الى بلاد الرها .

وفي هذا الزمان كان عند حسام الدين حاكم ماردين فارسين افرنجيين : واحد اسمه بررنول ، والآخر جلارن ، ولم يرد أن يقتلهما لكن الزمه البرسقي واقسم ان لم يقتلهما فسوف يخرب بلاده،ولما قتلهما اتى خبر ان البرسقي ضربه بينما كان يصلي يوم الجمعة في المسجد اسماعيلي بسكين ، فما دخلت به لأنه كان لابس زردية ، فأمسك الاسماعيلي ، ولما تضايق صرخ لرفاقه الأثنين اللذين معه وقال : اضربوا من تحت فضربا البرسقي تحت بطنه فمات ، عند ذلك ندم حسام الدين على قتل الفرنجيين •

كمل هذا الخبر بعون الرب .

وفي سنة ١٤٣٨ كان الشتاء شديدا ، افنى الحيوان والبهائم ، وحدثت ايضا زلازل في شباط .

وفي سنة ١٤٣٩ في تشرين الثاني حدث زلزال مرتين بالنهار ومرتين بالليل،وبقيت الأرض ترتج أربعين يوما واربعين ليلة ، وتراءى كوكب مضيء في ثامن ساعة من النهار ، واخيرا انتفخ كالتنين وسقط .

في سنة ١٤٤٠ تراءت نار في ناحية الشمال في كانون الثاني ، وفي اذار ، وفي نيسان وكان يظهر على شكل أعمدة شبه منفصلة في ناحية الجنوب .

في سنة ١٤٤١ اجتمع الافرنج وخيموا حول دمشق لأن حاكمها طغتكين المعروف بفضائله قد مات ، وملك ابنه تاج الملوك ، وامسك اهل بانياس لكي لاتدخلها قوات الأفرنج،فأرسل الأفرنج الوفا من الفرسان والمشاة ليحضروا مايحتاجون من القوت ، والتموين ، فصنع الترك كمينا فتضايق الأفرنج وأخذوا من حاكم دمشق عشرين الف دينار ، وعقدوا صلحا ، وعادوا الى بلادهم على أن يعطوا كل سنة للافرنج خراجا .

ثم مات طوروس الارمني حاكم قليقلة في تلك السنة وقام بعده اخوه ليون فبدأ القتال معه بوهيموند حاكم انطاكية .

فـأما الأمير غازي لما كسر جميع التـرك الذين في كبـدوكية ملك وحده ، ووصـل الى سـاحل البحـر ، وكان هناك يوناني اسـمه قيساذس حاكم ذلك البلد ، فخرج هذا من تلقـاء نفسـه الى الأمير غازي وسلمه جميع القلاع التي في بحر بنطس ، واعطـاه مـكان في بلاده ، واعتبر نفسه من عداد جنوده ، فلمـا قـويت شـوكة الأمير غازي في ذلك الزمان سمع بأخبار طـوروس فـأرسل عسـاكره الى قليقلة،وكان بوهيموند ايضا والأفرنج قد وصلوا من الجانب الأخـر، لكن لا الفرنج كانوا عارفين بوصول الترك ولا التـرك كانوا عارفين بوصول الأفرنج ، ولما وصلوا الى منطقة عين زربة رأى التـرك انه مع بوهيموند قليل من الفرسان ، فاستغلوا هذه الفرصة وهـاجموه فصارت معركة حامية وطويلة انسحب على اثرها الأفـرنج الى تـل عال ، فأحاط بهم الترك من كل جانب وقتلوهم جميعهم بمـا فيهـم بوهموند لأنهم لم يعرفوه أولا ، ثم أخذوا راسه واسـلحة الأفـرنج ايضا وخرجوا عائدين ، اما ليون فظل قابعا لم يتدخل لصـالح اي من الطرفين ، وقتل معظم الفرنجة ، وبعـد مـاتوقف القتـال امـر الامير غازي بسلخ رأس بوهيموند وأرسله مـع كثير مـن الهـدايا والخيل الى الخليفة في بغداد فقابله الخليفة بالرضا ورفعه الى مكانة علية خاصة .

وفي تلك السنة اعطى سـلطان خـراسان الموصـل لابـن البرسقي ، وقد قيل عنه انه كان مـاهرا جـدا في الحـكمة والعلوم وعارف بتـركيب النسـج والبنيان،وكذلك شـجاع وجبـار في الحروب ، لكنه لم ينجح لأن النجاح والنصر هو من الله ، وقد عاش ثلاثة اشهر فقط في السلطة ، ولما وصل الى الرحبـة ادركه الأجـل ومات ، ويظن انه قتل بالسم .

وزحف بعده ضد الرحبة مسعود بن آق سنقر ، واقام وحـاربها حربا قاسية ، وهذا مات بالسم ايضا .

اما جوسلين فقـد هـاجم راس العين ، وقتـل عددا كبيرا كان اغلبهم من العرب مات اكثرهم خنقا والباقي سباهم رجالا ونساء .

ولما مات مسعود بن البرسقي حاكم الموصل كان بها والي اسمه جاولي من غلمان السلطان الكبير ، فاشاروا عليه ان يأخذ مال من خزانة حاكم الموصل ، فأخذ مالا جزيلا وارسله الى السلطان مع القاضي بهاء الدين الشهرزوري ومعه الأمير صلاح الدين محمد بن ايوب،وارسل يقول للسلطان اني انا امير لكم ههنا لأني من عبيدكم ، ولما دخل الرسل الى بغداد وقبل ان يواجها السلطان التقى بهما رجل اسمه نصير الدين جقر بن يعقوب ، وكان من جنس صلاح الدين فأعلماه سبب مجيئهما،فأشار عليهما ان يطلبا عماد الدين اتابك زنكي قائلا : بهذا يرتضي السلطان لأن اتابك من جنسه ، وكان جبارا ومشهورا وتليق به السلطنة فقبلا مشورته ، واجتمعا اولا مع زنكي فحلف لهما اذا انتصب فسوف يلبي لهما كل مايطلبان ، فطلب ذلك القاضي ان يكون قضاء الموصل له ولنسله من بعده مادامت ثابتة في مملكة بيت أتابك ، وان يكون كلهم قضاة ولكافة البلاد التي تحت حكمه فتأمر بأمره وامر اولاده ، فحلف لهما على ذلك وثبته بكتاب .

وطلب صلاح الدين منه ان يكون حاجبه الخاص ونصير الدين نائبا عنه بالموصل،وان يكون أمره على كل الرعية .

وعندما تقدما الى السلطان كانا قبلا قد غمرا كل الذين حوله بالهدايا ، فاعطى السلطان الولاية لزنكي،وكذلك فعل الخليفة،ثم خرج من بغداد ، وخرج معه عسكر ، ولما اقترب من الموصل سبقه القاضي بهاء الدين والأمير صلاح الدين ودخلا على جاولي وقالا له : لم نقدر ان نأخذ لك البلاد فأخذنا لك امرا ان تكون واليا بهذه القلعة ، وامرك في كل البلاد ، وامر السلطان أن يكون زنكي هذا هو واتباعه امامك رئيسا للعسكر ، ولما طاوعهم دخل زنكي الموصل (١٥) وقد فتحوا امامه ابواب المدينة والقلعة وملك في سنة ١٤٤٢ ، وحينئذ صعد واخذ الجزيرة ، وملك رويدا رويدا كما يقولون ، ويحكون أنه حفظ على تسلسل الزمان عهود بهاء الدين وصلاح الدين ونصير الدين وزين الدين بتمامها ولم ينقض منها شيء قط .

وفي تلك السنة قتل بوهيموند حاكم انطاكية فاتى الملك من القدس واتى جوسلين من الرها ليتملكا على انطاكية ، فاغلق اهل المدينة الابواب وتركوهما خارجا ، وبعد ان بقيا عدة ايام يتشاوران واخيرا سلم الانطاكيون المدينة لجوسلين لكي يحفظها حتى تتزوج ابنة بوهيموند فتعطيها الى زوجها ويصير حاكما لانطاكية .

عندما كان الافرنج متوجهين الى باب انطاكية اتى زنكي حاكم الموصل ونهب بلاد تل باشر وبلاد انطاكية ، وضرب الفرنجة وقتل اتباعهم وبعد ذلك دخل الى بلادهم وقتل منهم اعداد كبيرة واخذ قلعتين .

وفي تلك السنة خرج يوحنا ملك اليونانيين ليتحارب مع الترك وبنى مدينة على شاطىء البحر، ولما استعد ليلاقي الاتراك غدر به اخوه وجماعة من عظمائه ، ولما ارادوا ان يحبسوه هرب الى الامير غازي ففرح به جدا، واكرمه كثيرا، وارسله الى عند جيراس الى طرابزون .

لكن لما رجع الملك الى القسطنطينية ارسل الذين غدروا به الى المنفى .

اما الامير غازي فقد نزل على سمندو التي كانت مع اخته واخذها حربا ، ومن هناك دخل الى بلاد قليقلة على ليون الارمني ، واخذ القلاع، اما ليون فقد اقسم انه لن يدخل او يرسل لصوصا الى بلاد الامير غازي ، وكذلك ان يعطي كل سنة جزية لغازي فصدق كلامه ، وتركه وخرج ، اما ليون فكذب ولم يعطه شيئا، ثم اتى الامير غازي الى ملطية ، فاتى اليه السلطان مسعود ختنة واسحق اخو ملك اليونانيين الذي رجع من عند جيراس ، وبقيوا كل فصل الشتاء، ثم مضى اسحق الى ليون فاعطى ليون ابنته لابن اخي الملك مع مدينتي المصيصة واذنة ، لكن وقعت بعد ذلك مشاجرة بينهما ، واخذ ليون من اليونانيين كل متاعهم وهرب اسحق وابنه الى عند السلطان مسعود .

وفي سنة ١٤٤١ ولد اربعة أطفال من بطن واحدة ، وبعد عشرة ايام مات جميعهم فجأة في يوم واحد.

في سنة ١٤٤٢ في تشرين الثاني تراءت نار في ناحية الشمال كانت تلتهب كالجبال ، واخيرا صارت كالأعمدة ، وفي ذلك الوقت سقط كوكب واحد عظيم ومخوف جدا ودوى اثناء سقوطه كصوت الرعود الشديدة.

في سنة ١٤٤٣ تراءى قوس كالغمام بالليل ، وفي هذه السنة اصيبت الكلاب بداء الكلب في اكثر البلاد ، وقد أصابوا الناس والبهائم واحدثوا فيهم ضررا فادحا ، وقال المنجمون : إنه عندما يرى الكلاب الكوكب المدعو (كلب الجبار) سيكلبون .

وتجرأ في هذا الوقت رجل فارسي من اهل ملطية ، وخطف الصليب من يد أحد المسيحيين ووضعه على احليله ، حينئذ ثار المسيحيون واجتمع اهل المدينة وذهبوا الى الوالي واخبروه ، فأمر الوالي باعتقال ذلك الفارسي وتسليمه للمسيحيين لينتقموا منه كما يريدون ، حينئذ شحروا وجهه واركبوه حمارا ودوروه بالأسواق ، وبعد هذا سمع غازي أيضا فضرب الفارسي وطرده من ولايته.

وفي سنة ١٤٤٤ يونانية حدثت زلزلة في ليلة الثالث من شباط ، وفي اليوم الثاني من اب خسفت الشمس ، وفي ايلول حدث زلزال في وضح النهار ، وبعد هذا تراءت اية مخيفة تشبه النار ، وحدث بعد هذا لمدة سنتين قلة بالمطر وجوع في بلاد كثيرة لا سيما في جزيرة قبرص ، ومن شدة الجوع أكل المسيحيون لحما في الصوم الكبير .

وفي الوقت الذي به خسفت فيه الشمس مات أربعون فارس من الأوبئة ومعهم أربعمائة رجل مسيحي وابن توما الشماس .

وفي تلك السنة أيضا ولد بملطية اربعة اطفال في بطن واحدة ثلاث ذكور وفتاة واحدة ، فمات الذكور وعاشت الفتاة .

وفي ذلك الشهر ولد خنزير له جثتين وراس واحد ومات للحال.

وفي هذا الزمان مات اربعمائة تاجر فارسي ، واربعة رجال مسيحيين كانوا قد خرجوا من القسطنطينية ، ماتوا كلهم بالثلج وحدث ذلك في عيد مارتا ودورس.

ومضى جوسلين الى القلعة التي بين حلب ومرعش ، وكان فيها عرب يغيرون في تلك البلاد ، وقد حفروا تحتها نفقا ، فدخل جوسلين ليراه فانهدم عليه للحال ودفن تحت التراب فأخرجوه وهو على أخر رمق ، ثم حملوه الى تل باشر ، ولما سمع الأمير غازي جمع الأتراك ليدخل لبلاده فأمر جوسلين ان يجتمع الأفرنج وحملوه على حماله وخرجوا ليقاتلوا الأتراك ، وفي الطريق مات جوسلين الثاني ، ولما سمع غازي أن جوسلين قد مات ابدى موقفا نبيلا ، فأوقف الحرب وأرسل وفدا للتعزية وكتب الى الأفرنج قائلا :

اليوم لن احاربكم لئلا يقال إنني قد انتصرت عليكم بعد أن مات ملككم ، فالآن اذا تدبروا أموركم بكل هدوء،واقيموا لكم راس وفق نواميسكم،ودبروا بلادكم بالأمن،ولا يكون لكم فكر من ناحيتي ولا من ناحية عساكري.

أما ملك اليونانيين فقد خرج حانقا على الترك وعلى الأرمن ، وقتل عددا كبيرا من الترك على شاطيء البحر وأخذ قلعتين ، ثم مكر به ايضا عظماؤه وارسلوا ليأخذوا أخاه ويملكوه ، ولأجل ذلك رجع عاجلا. أما الأتراك فقد اجتمعوا ودخلوا الى زوسو بولس ولما نفد زادهم ، وعضهم الجوع ، ولم يستطيعوا أخذها نهبوا البلاد ورجعوا.

أما الأمير غازي فأخذ معه السلطان مسعود ودخل الى شاطيء

البحر فحلا على قلعة اسمها زينين فحارباها لكنهما لم يستطيعا ان يأخذاها،غير انهما اخذا من الروم الذين فيها أربعة الاف دينار واصطلحا معهم.

في هذا الزمان ارسل خليفة بغداد وسلطان خراسان رئاسة لغازي ليكون ملك الشمال ودعي الملك غازي.

فأما جوسلين الثاني فقد مكر به الأفرنج و استعدوا ليمسكوه ، وصارت بينهم فتنة ، ثم اصطلحوا مده قليله ، لكنه ما لبث أن انفجر بينهم خلاف لأن جوسلين الثاني أراد أن يملك على انطاكية مكان ابيه،لكن اهل المدينة وبطريركهم لم يسلموه بل كانوا يحتفظون بها لابنة بوهيموند.

في سنة ١٤٤٤ يونانية (١١٣٣ م) صعدت عساكر زنكي حاكم الموصل على الرها،فخرج الأفرنج فانكسروا وهربوا.

وايضا في هذا الزمان أتى امير يسمى محمد شمس الملوك كان يبغض المسيحيين،فطلب من حسام الدين حاكم ماردين موضعا فأعطاه بلد شبختان ليحارب الأفرنج،وكان دائما يدخل الى بلاد الرها ويسبي ، فصادفه ستوت فارسا من الا فرنج وحدثت معركة قتل فيها الف تركي ثم امسكوه واحرقوه على باب الرها بعد هذا اخذ جوسلين قلعة شبختان وهدمها كليا.

وكان الترك مجتمعون في بلاد حلب فدخل عليهم جوسلين ، اما هم فانسحبوا ودخلوا الى بلاد تل باشر فسبوها فخرج عليهم سبعون فارسا كانوا يتولون حفظ البلاد ، لكن الترك كمنوا لهم وامسكوا بهم كلهم.

وأيضا دخل بلاد الترك الافرنج وسبوا،ولم يوجد احد يقف في وجوههم ، لأن الافرنج كانوا مختلفين مع بعضهم.

وأيضا خرج يوحنا ملك اليونانيين واخذ قسطمونه بالصلح والقلعتين القريبتين اليها،اخذهما بالقتال ثم هدمهما. (١٦)

أما غازي الملك فقد اخذ قلعة اليونانيين المدعوه البـرا بالحرب واحرقها بالنار وجعل الشعب عبيدا.

وفي سنة ١٤٤٥ دخل الترك بلاد انطاكية فلاقاهم جوسلين وقتل اكثرهم،وحينئذ اصطلحوا.

وفي كانون خرج حاكم طرابلس نحو قلعة اسمها بارين فحاصرها الترك حالا واستطاع بصعوبة أن يعود الى القلعة ثـانية ، فـاجتاح الاتراك البلاد الى جبـل لبنان ، وشـددوا الحصـار على القلعـة ثانية ، فتضايق الأفرنج الذين بداخلها من الجوع والعـطش ،حينئذ وصل ملك بيت المقدس فهرب الترك ، ونزل الملك على قلعة القصـير قرب انطاكية وأخذها بالحرب ، ومن هناك تـوجه الى عم واجتمـع هناك الترك كالجراد ففزع منهم الملك أول الأمر ، فـطلب جـوسلين فاتى وكان مبتعدا لانه كان يخاف من مـواجهه الملك ، فلمـا اتـى جوسلين اخـذ يشـجع الملك،واشـتعلت الحـرب فنزل الاثنان عن فرسيهما وطلب الغفران الواحد مـن الآخـر على المشـاجرة التـي صارت بينهما ، وحينئذ حاربا التـرك وغلبـوهما وطـاردوهما الى القلعة،ولما رجع الملك من الحرب وصوتت الأبواق طلب جـوسلين فلم يجده فصرخ الملك وكل الشعب صرخة عظيمة،لكن جـوسلين أتـى في منتصف الليل.

أما الملك غازي فرجع الى قسـطمونه وأخـذها بـالحرب وقتـل اليونانيين الذين وجـدوا بهـا ، فتـألم كثيرا يوحنا الملك وخـرج بحدة ، ولكن حدته لم تغير شيئا لأنه ورد عليه خبـر مـوت أمـراته وابنه الذي كان خليفة له ، وكان مريضا ايضا لذلك رجع سريعا الى مدينته.

في سنة ١٤٤٥ أتى جـراد مثير الى الرهـا وبـلادها فـالتجأ المسيحيون بالمنتجب ماربرصوم ، وارسلوا واخذوا يمينه،وفي حـال وصولها صارت اعجوبة وارتحل الجراد ولم تتضرر البلاد أبدا.

فأما اليونانيون كعادتهم الرديئة فقد التهبوا حسدا ، فحرضوا بطريرك الافرنج ليفتح الصندوق لكي يروا اليمين ، فرفض الرهبان أن يفتحوا الصندوق وقالوا : إذا فعلنا فسوف يحل الغضب على هذه البلاد ، فصاروا يستهزئون بهم قائلين لايوجد شيئا في الصندوق ، عند ذلك اضطر الرهبان أن يفتحوه في بيعه الافرنج ، وللحال أرعد الجو وخيم على السماء سحاب مظلم ، ونزل برد هائل امتلأت منه الأسواق ، وصار الشعب كله يصرخ باكيا : يارب أشفق ، أيها القديس ماربرصوم تحنن •

اما الافرنج من الكهنة والشعب والبطريرك فقد خروا أمام الصندوق باكين،اما اليونانيون فقد هربوا واختفوا،ولما هدا البرد اجتمع الشعب واقاموا الصلوات لمدة ثلاثة ايام.

اما اهل حران العرب فانهم لما سمعوا بهذا الاعجوبة اتوا وطلبوا من الرهبان أن ياتوا بالذخيرة الى عندهم فلم يفعلوا ، ولما رجعوا الى الدير مضى أهل ملطية وجلبوا رفات القديس ، وخرج كل الشعب بالدعوات والصلوات ، وفي ذلك الوقت لجم فم الجراد ولم يعد يؤذي الزروع قطعا،بل خرج الى الاراضي البور والمفلوحة والتهم القش فتعجبت كل الشعوب وكل لسان مجد الله حين رأوا هذه الأعجوبة، وازداد مجد الله بقديسيه ، فأما الشعب فبقي يصلي وكان يفرق الصدقات ، ورجع عدد كبير الى طريق البر ، وقد صنع الرب اعجوبة اخرى وهو انه كان يدخل الجراد الى حقل القطن ويأكل القش ، ولا يضر بالقطن ، وهكذا كان يفعل في حقول الحبوب والسمسم وغيرها.

في سنة ١٤٤٦ خرج من ايطاليا فرنجي اسمه دي فوتيرس وأخذ ابنة بوهيمند الذي قتل وملك على انطاكية.

وفي تلك السنة مات بلدوين ملك القدس.

وفي تلك السنة أتى زنكي حاكم الموصل الى سورية وحل على حلب،وكان بها والي عربي فأغلق الابواب ، لكن اهل المدينة كانوا

يعرفون والد زنكي الامير اقسنقر ، وكان قد ملك عليهم وكانوا يشيدون باستقامته وعدله في احكامه ، وكانوا يعرفون زنكي ايضا لانه ولد بالمدينة وتربى،فتوجه الشعب بحماس وفتح الأبواب وادخلة.(١٧)

اما الوالي فقد هرب الى القلعة فحاربها واخذها ، وامسك بالوالي وقلع عينيه وارسله للموصل،وبالمقابل صنع مع اهل المدينة خيرا ، واصطلح مع الأفرنج ، ثم رجع الى الموصل بسبب مشاجرة بينه وبين الأمراء.

وفي تلك السنة أرسل خليفه بغداد وسلطان خراسان للأمير غازي حاكم ملطيه اربعة أعلام سوداء وطبولا تضرب امامه كالملك ، وطوق ايضا من ذهب يوضع في عنقه وصولجان من الذهب ليضرب به بين أيادي الرسل لكي تتثبت له المملكة ولذريته من بعده،فلما أتى الرسل وجدوه مريضا فمكثوا ينتظرون ، لكن ما لبث أن دنا موته ، واعطيت الرئاسه لابنه محمد فالبس الذين اتوا الهدايا محمدا ونادوا به ملكا.

وكان الأمير غازي هذا رجلا سفاكا قاتلا يقتني النساء ويحب الجواري،وكان قبل موته بفترة وجيزة قد أتوا له بامراة ، فأمر اهل ملطية أن يزينوا لها الأسواق ، لكنه كان شجاعا جبارا وصاحب حيله وذكاء وفطنة ، وقد فتح بلاد الروم ، وقتل الاتراك العصاة الذين كانوا بها ، وقد نشر الأمن في بلاده ، وقد حارب وقضى على اللصوص وقطاع الطرق ، وكان يحب الجنود،وكان في وقت موته يزار كالاسد.

ولما ملك ابنه محمد بدأ يسلك ناموس العرب،فكان لا يشرب،وكان يكرم المسلمين ويحكم بالعدل والقسطاس،وكان متفهما جدا ، لكنه كان يهدم البيع.وقد جدد بناء مدينة قيساريه كبدوكيه التي كانت قد تهدمت من مدة طويلة ، وقد بناها بنيانا جميلا بحجر من الرخام الأبيض كان يأخذه من الهياكل الجميلة التي كانوا يهدومونها ، وقد

اتخذها عاصــمة له ، ثــم انتقــل في تشرين الأول الى ملطية أي في السنة التي ملك بها،وهي ســنة ١٤٤٦ وكان أهلهــا يتــوسلون أن يخفف عنهم المظالم التي وضعها أبوه .

لكنه ما لبــث أن مضى في تشرين الثــاني وقــد اســتعجله في ذلك السلطان مسعود ، وخــاصة عندمــا أخبــره بـــأخبار ملك اليونانيين ، ولم يصنع خيرا لأهل ملطية،بل على العكس أخذ معــه أولاد الأحرار رهائن.

وفي هذه الســنة عصى ابــن داوود أرســلان طغميش في قلعــة زياد ، وامسكه أبــوه ووضــعه في الســجن ، كذلك عصى على الملك محمد أخواه : يجن ودولت،فقتل يجن،أما دولت فقد نهب بلاد ملطيه.

في هذه السنة أخــذ زنكي مــن الافــرنج دارا وزردنا بمعــاهده سلام ، لكنه أخذ فيما بعد يضايقهم ليعلنوا اسلامهم ، وتزوج بابنة حاكم القلعة (١٨) ، ولما اتى الافرنج هرب زنكي.

وفي تلك السنة دخل أتراك ملطية الى بلاد الافرنج وسبوا ورجعوا

كان في دمشق بهذا الزمان حاكم يسمى تــاج الملوك بــوري بــن طغتكين وكان له وزير يسمى أبو علي (١٩) من طائفة الاســماعيلية وبسبب هذا صار للاسماعيلية دار في دمشق تدعى دار الدعوة ، وقد قووا بوســاطتها لأن كل من كان يدخل إليها ويتفق معهم كان لايدفع الجزية ، وكان فيها مدبر من القدموس ، وهذا ايضا كان اسمه ابو علي ، ويدعى الشيخ ، فعرض فجأة أن واحــدا مــن عظمــاء المدينة اسمه ابو الذواد ، او ابن الصوفي أن قتل الوزير بالاتفاق مع الأمير، فغضب الاسماعيلية كثيرا ، واجتمعوا في دارهم واستلوا ســيوفهم وبدأوا يقتلون ويذبحون ، ثم اجتمع أهــل المدينة وكل الشــعب بــلا استثناء في ذلك اليوم وكان عددهم سبعين الفا مــن العــرب ، وقــد تمكنوا من إفناء سائر الاســماعيلية ، ثــم دخلوا سرا وقتلوا الأمير بوري،وأخيرا بقي رجلان من الاسماعيلية .

وفي سنة ١٤٤٦ سار من مصر بهذا الزمان ملك إلى دمشق ، وكان من العرب ، وكان يملك في مصر،لكن هذا مكربه ابنه واراد أن يقتله ويملك مكانه ، ولكن لما وجد هذا الملك أن شعب العرب يتبع ابنه ويجله استنجد بالارمن الموجودين في مصر وكانوا قد دخلوها منذ أن صعدوا لسورية ، وقد كثروا وصار لهم في ارض مصر جاثليق واساقفة،وكان اسم الجاثليق هذا بهرام ، ولما اجتمعوا عند الملك اشتبكوا بحرب مع التابعين لابن الملك ، وفي رشق السهام انكسر العرب وقتل منهم الوف،وامسكوا ابن الملك وقتلوه بموافقة والده . (٢٠)

وفي هذا الزمان أيضا تحارب زنكي عماد الدين حاكم الموصل مع امراء ماردين وحصن كيفا تمرتاش وداود ، ولما كان حسام الدين تمرتاش بين دارا ونصيبين في موضع يدعى سرجه اتى إليه ركن الدولة ابن عمه،فحاصروا زنكي بجيش عظيم،فخاف منهم لأنه علم انه لن يقدر أن يقاومهم ، فأمر أن يلبس كل واحد من عساكره درعه ، ويسل سيفه ويقف في باب خيمته،فوقفوا كلهم مثل سور حديدي وبقوا من الصباح إلى الغروب ، حينئذ وفجأة حدث خلاف بين حسام الدين وابن عمه،عند ذلك أخذ ابن عمه عساكره وصعد إلى ناحية الجبل فتبددت العساكر ، وقوي زنكي وطارد حسام الدين ، فهرب الفرسان الى ماردين وهلك من الرجال خلق كثير،وبعد هذا اصطلحوا بوأسطة الرسل (٢١) ، لأن زنكي احتاج أن يمضي الى سورية ، لانه كان هناك الأمير سيف الدولة دبيس بن صدقة ، وكان هذا منذ زمن بعيد يريد زنكي أن يمسكه ، لان هو وحده فقط بقي من العرب ، ثم اعتقل هذا في أرض فلسطين ، فأرسل زنكي وأحضره إلى الموصل واقام عليه حراس (٢٢) .

وفي هذا الزمان اختلف الخليفة المسترشد بالله مع زنكي لأنه رفض أن يرسل له دبيس بن صدقة ليقتله ، لأنه كان يبغضه ، فجمع عساكره والتقى الجانبان مع بعضهما فانكسر زنكي وهرب فطاردته عساكر الخليفة حتى سور تكريت ، لكنهم رفعوه من السور بالحبال

وخرج ليلا من تكريت ومعه فارسين فوصل الموصل ، واخرج الأمير دبيس من الحبس واعطاه مالا وأرسله ليجمع العــرب ، وكان زنكي يجمع الترك ويتاهب ليزحف نحو الخليفة ، ولما اجتمعــت العســاكر جمع الخليفةقواته أيضا ، وبعد حروب متفــرقة انكسر أيضـــا زنكي وهرب دبيس الى سلطان خراسان ، اما الخليفة فصعد الى الموصل ليخرج زنكي من المملكة ، اما زنكي فقد حصن المدينة وأقــام فيهــا نائبه نصير الدين جقر ، ولم يستطع الخليفة قهره فقفل راجعا (٢٣) .

وبعد هذا بينما كان الخليفة المسترشد راقدا بالخيمة وقت الظهر عند باب مدينة مراغة وسط معسكر مسعود سلطان خراسان ، دخل عليه عشرة رجال فقتلوه ، فقام الراشد بعده (٢٤) •

في سنة ١٤٤٦ صار زلزال عنيف في بداية تموز وايضا في نصف تموز ، وفي منتصف الليل شــوهد كوكب يمشي سريعــا فــوصل إلى القمر وبدا وكأنه قد شقه وجاز في وسطه .

وفي شهر اب ظهر أيضـــا كوكبـــان مثـــل هــــذا النوع ، وأخيرا سقطا •

وفي ٢٣ ايلول جاء مطر غزير وبرق فأحرق سبعة ثيران وصبي ، وقد أحرق هذا البرق في بلاد سمندو في تركيا واحدا ، فتركه الأتراك ولم يقبـــروه ، إذ كانوا يعتقـــدون أن الذي أحـــرقه الله لايســـــتحق الدفن •

وفي تلك السنة صار زلزال في أرمينية الكبرى ، وخسفت بها مدينة اسمها دوكوف •

وفي تلك السنة حدث شتاء قاس ، ونزل في بلاد ملطية ثلج أحمـــر وكان عجيبة جديدة .

وفي أيار جاء جراد لكنه لم يفسد شيئا .

وفي ٢١ تموز نزل نور في منتصـــف الليل كالقنديل وانتقـــل مـــن

المشرق إلى المغرب واختفى ضياء القمـر والكواكب ، وبقـي إلى أن انبلج الصبح .

وفي هذا الشهر في بلاد خراسان كان المسلمون في مـدينة اسـمها كاشغر مجتمعون يوم الجمعة ليصلوا كعـادتهم في المسـجد الكبير ، فصارت فجـأة زلزلة ، وانفتحـت الأرض ، ونزل فيهـا كثير مـن الاحياء ، وقد هلك في هذه الحادثة اكثر من عشرة الاف إنسان .

وفي سنة ١٤٤٧ كان الشتاء معتدلا ، وكان طير الحجل يدخل مع طيور اخرى إلى داخل البيوت ، وكان الناس يتعجبون من ذلك ، لكن بعد ٢٦ كانون الثاني أخذ الشتاء يشتد ، وتجمد الفـرات وبـاقي الأنهـار ، واتـى ثلج كثير ، وفي أمـد دخلت الطيور والحيونات إلى داخل المدينة ، فأمر السلطان بأن لايؤذيها احد وصـاروا يعـطونهم قوتا إلى نيسان ، ويقولون إن الطيور التي أكلت من المدينة والقـرى لما صعدت إلى الجبال اضمحلت في أوكارها .

بمثل هذا عرفنا بأن هذا قد حدث بأمر من عليين ، وذلك لتـأديب كل جنس حي،ولا احد يستطيع أن يمنع ذلك .

اخبار البيعة في هذا الزمان

في سنة ١٤٣١ يونانية ، وفي ٢٦ نيسان منها توفي ديونوسيوس ابن المعترف ، وسجي جسده في بيعة ملطية الكبيرة ، وقد خدم رئاسة الكهنوت خمسين سنة منها اثنتين وثلاثين سنة اسقفا ، واثنتي عشرة سنة مطرانا في ملطية ، وست سنوات بعد أن اخذت منه

في هذه السنين عاشت بيعتنا المستقيمة المجد بهدوء وراحة لأن اليونانيين والخلقيدونيين كانوا محصورين داخل بحر بنطش وملك بني ماجوج ، ولم يعودوا يستطيعون أن يضايقوا المستقيمين المجد ، ولا أن يفسدوهم بهرطقتهم ، وعلى الرغم من كون اليونانيون القساة كما قلنا كانوا محصورين داخل البحر فقد كانوا يرسلون رجالا للأفرنج أي الرومانيين الذين كانوا مسيطرين على أنطاكية والقدس كما قلنا من قبل رؤساء كهنة في منطقة حكمهم ، وكان رعاتنا بينهم بغير اضطهاد،وبغير حذر لأن الأفرنج ، ولو أنهم متساوين مع اليونانيين بازدواجية الطبائع لكنهم متميزين عنهم بانواع كثيرة،وبعيدين عنهم كليا في الأمانة وفي العادات ، وكان الأفرنج في هذا الزمان مسيطرين على بلاد فلسطين وسورية ، وكان لهم رؤساء كهنة في كنائسهم ، ولم يطلبوا من أي طائفة قط أن تلتزم بايمانهم لأنهم اعتبروا كل من يسجد للصليب مسيحيا.

وعد الاتراك،الذين كانوا ضابطين لاكثر البلاد ،المسيحية عقيدة ضلال ، ومع هذا لم يميزوا قط بين المذاهب ، ولم يكن شرعهم ينص على الاضطهاد بسبب الايمان كاليونانيين الشعب الشرير المهرطقين.

وعندما لم يعد أمام اليونانيين الأشرار فرصة ليضطهدوا

المستقيمي المجد كما كانوا يصنعون من قبل ، لم يتوقفوا مع هذا عن قساوتهم ، بل كانوا في انطاكية ومصر يقيمون لشعبهم بـطريرك في اراضي المسلمين ، وكانوا يتحركون لكي يشـقوا السريان والقبـط والارمن كالحية الرقـطاء المضروب راسـها ، لكنهـا تحـرك ذنبها ، فلمـا كانوا بسـورية وارمينية وفي فلسـطين ومصر مـع بطريركنا واساقفة شعبنا واخوتنا الأرمن والقبـط كان اسـاقفتهم اليونانيين والخلقيدونيين يعملون بقدر استطاعتهم على تمزيق هـذه الشـعوب الثـلاثة ، وكان اليونانيون الذين في القـدس وانطـاكية يداومون على الشرور ، وكان رؤسـاء الكهنة الفـرنج يميزون بين كهنة الطوائف الثلاث ويرعون المستقيمي المجـد ، وكانوا يقـومون ضد اليونانيين ايضا.

اما على حدود الاتراك فكان بهذه الأيام جميع المسـتقمي المجـد مرتاحين من ضرر الخلقيدونيين ، وكانت البيعة هـادئة.

اما عن فتنة البطريرك مع ابن صابوني ومع المطـارنة الشـيوخ الثلاثه وهم: ابن المعترف الذي اخرجه من ملطية واسقف قليسـوره واسقف طور عبـدين الذين حـرمهم البـطريرك ، ولم يكونوا مـن اصحاب البدع ، ولم يجاوزوا القـانون وانمـا فعـل ذلك لأنهـم حقروه ، وكان قد توسط لهم اناس كثيرين ولم يقبل ، فقـد مـات أولئك المطارنة وهم محرومون ، ولهذا السبب ضـعفت الأمـانة بين كثيرين

وكان اثناسـيوس السـادس بـطريرك السريان (١٠٩١ ــ ١١٢٩) وهو المعروف بأبي الفرج بن كامرا قد غضـب على ابي غالب باسيل بن صابوني مطران الرهـا وحـرمه وابـطل الصلوات والطقوس في كنائسه من نصف الصوم الكبير حتـى أحـد العنصرة ، واعاد جميع الرسامات التي اجـراها المطـران ، فحنق المطران باسيل على بطريركه وسار الى انطاكية ورفـع الدعوى عليه الى بطريرك الفرنج واساقفتهم واربـابهم فـأوفدوا في طلبـه مندير اللاقشر في كوره قاسينا ، وادخلوه الى كنيسة القسيان مرحبين بـه

وسألوه أن يغفر لمطرانه ويصلي عليه ، فـأبى ، فثقـل ذلك عليهـم واستوضحوه السبب بواسطة ترجمان فقال لهم ان المطـران مـذنب ومجرم ، غير ان الترجمان نقل اليهم كلام البطريرك على غير صحته فقال :لقد نعته بالمجرم لأنه مديونا له بذهب وافر ، فقال الفـرنج إن كانت المسألة مسألة مالية فتلك شيمة سيمون الساحر ولا يحـق للبطريرك أن يتشبث بها ، وبعد أخذ ورد طويل وعدهم البطريرك بأن يصليَ على مطرانه ويغفر له ، فألح عليه رؤساء الفرنج أن يكتـب له صكا بذلك ويطلقه ، ودفعـوا اليه قـرطاسا ليكتبــه حـالا دون توقف ، فلما أخذ البطريرك القلم التفـت الى ابـن صـابوني وكان واقفا بـالقرب منه وقـال له : انظـر يا ابـا غالب الى أي ذل أوصلتني ، فقال له أبو غالب منتقما : إن كنت أنا ابو غالب فـأنت أبو الفرج ، فما كان من البـطريرك إلا أن القـى القـرطاس ومـد عنقه ، وقال للحضور اقطعوا هـامتي فإني لن أحله ، فتـأثر أحـد الأساقفة وقـال لأعضـاء المجلس : دعوا البـطريرك ومـطرانه وشأنهما ، فأرفض ذلك المجمـع دون جـدوى ، وخـرج البـطريرك اثناسيوس من الكنيسة وخـرج معـه جميع الملتـئمين وانطلق الى كنيسة والدة الرب بيعه السريان في انطاكية.

أما رؤساء الفرنج فأرسلوا يحرجون عليه مغادره انطاكية قبل ان يعقدوا مجمعا ثانيا لاعادة النظر في تلك الدعوى ، فـظل البـطريرك محجورا مده خمسة ايام لا يسوغ لأحد أن يفاتحه في المسألة قـطعا. غير أن بعض الكهنة السريان قصـدوا عبـد المسـيح الفيلسـوف الرهاوى الملكي صديق البطريرك ، وسألوه أن يسعى في حسـم تلك المشكلة فسار اليه وتفاوضا مليا ، ثم ان البطريركُ قصد الملك رجير صاحب أنطاكية في تحـف وتقـادم واسـتأذنه في العـودة الى ديره ، فأطلق له الحرية في ذلك بموافقة البطريرك الأنطاكي.

لكن البطريرك اثناسيوس بعد ان خرج من انطـاكية بـالتهديد لم يعد يرضى أن يبقى تحت حكم الافرنج فترك بـلاد انطـاكية ، ومضى الى مدينة امد التي بين النهرين التي كانت مرعية مخصصـة لكرسي

البطركية . ولما جلس في دير قنقرت (٢٥) زادت الضغوط على الرها فأغلقوا بيعتها ونزعوا ناقوسها بسبب ابن صابوني ، ولذلك صار فساد كثير بين الرعية في الرها وتمرد الكهنة وقاموا ضد بعضهم بعضا ، وصار الشعب يترك بيعهم ويمضي الى الكنائس المخالفة لنا في الايمان ، ومن هذا اعتاد الرهاويين أن يعمدوا أولادهم في كنائس الافرنج دون أن يتألموا أو حتى يهتزوا بل لم يخطر على بالهم هذا قط ، وقد تضررت كثيرا بيعة مستقيمي المجد بهذا الاضطراب الذي صار بين الرعاه..

اما مار اثناسيوس فقد ظهر له في آمد عدو شرس ،فقد كان في رعية آمد اناس معروفين يدعون بني قربا يسكنون في قرية قنقرت، وكان اباء هؤلاء في الماضي قد اختلفوا مع أبوي البطريرك ، وكانت عشيرتهم تدعي بني كامرا وكان لبيت قربا هؤلاء دور وحقول ، وكانوا متسلطين بالمكان ، ولما مضى البطريرك وجلس في دير قنقرت صار بينهم وبين البطريرك خلاف حول بعض الحقول وصاروا يذمون البطريرك امام الحاكم ، فطلب الحاكم من البطريرك ان يغفر له فرفض،فاستشاط الحاكم غضبا وامره ان يلزم دير قنقرت والا يخرج منه ، فما كان من البطريرك الا ان حرم الشماس ابن قربا الآمدي فاحتدم الشر ، وكثر الاضطراب بينهم ، وامتد ايضا الى آمد وباقي نواحي الأبرشية ، فتضايق كثيرا البطريرك كما سنوضح هذا فيما بعد،وفرض الحاكم على البطريرك اثناسيوس بسبب حرمانه لاسحاق ابن قربا ان لايخرج من آمد لأنه طلب منه مرارا كثيرة ان يفك حرمانه ، ورفض كذلك عندما أتى ايضا الأمير بنفسه الى دير قنقرت وسأل البطريرك ان يفك حرمان اسحاق ، فلم يقبل لكنه اطفأ غضب الأمير بالذهب الذي أعطاه له ، وحينئذ أشار اسحق الشماس على الأمير أن لايترك البطريرك يخرج من أمد قائلا ان البطريرك رجل شيخ وسوف يموت قريبا هنا ، فتأخذ أنت متروكاته ، فبقي البطريرك مقيما في آمد كأنه مسجون ، لكن البطريرك اثناسيوس استغاث بجوسلين حاكم الرها وطلب منه ان يتوسط عند امير آمد ، فأرسل جوسلين عاجلا الى حاكم آمد يقول:

أن لم تطلق سراح البطريرك فإنني سوف اخرب بلادك ، فأذن للبطريرك ان يمضي فخرج من آمد ، وذهب مباشرة ليشكر جوسلين ، ومن هناك صعد الى دير مار برصوما ، وكان يوم أحد الفنطيقوسي ، فابتدأ بالقداس ولما وصل الى دعاء الروح القدس اضطرب ، وتغير وجهه ، وذهب عقله فأجلسوه على الكرسي ، واكمل مطران جرجر القداس،لكنه مالبث ان عاد الى وضعه الطبيعي ، فرسم مطرانا لشبختان ، غير أنه مالبث ان مرض فبقي سبعة ايام ثم دنا وقت انتقاله،وكان ذلك يوم السبت ٨ حزيران سنة ١٤٤٠ في الساعة الثالثة حيث توفي فجنز وسجي جسده في بيت خزانة الدير .

وفي السنة التي توفي فيها مار اثناسيوس البطريرك توفي ايضا مار قربوس بابا الاسكندرية .

ولما وصل خبر موت البطريرك اثناسيوس الى الرها اجتمع الكهنة بحسب القانون لجنازته ، وفيما كان يشارك ابن صابوني بالخدمة سقط وذهب عقله فحملوه لقلايته ، وبعد ذلك استعاد رشده، ولما اجتمع المجمع في كيسوم اتى ابن صابوني الى سميساط ليذهب الى المجمع فوقع هناك عن الفرس الذي كان يركب عليه ، فحملوه وارجعوه الى الرها ومات وتوفي وهو محروم .

وكان راس المجمع في ذلك الزمان ديونسيوس اسقف كيسوم،ولما اجتمع الأساقفة وأقاموا قرعة وقعت القرعة على المعترف رئيس دير الدوائر الذي في نواحي انطاكية ، ثم مضى اسقفان ليأتيا بالمدعو، فتوفي خلال ذلك ديونسيوس اسقف كيسوم واتى بعده الشيخ ديو نسيوس المفريان ، فمضى كل الأساقفة مع المفريان الى تل باشر بعناية جوسلين الذي احاطهم بالخيالة ، ورسموا ماريوحنا المعترف راعي الدير بطريركا وذلك يوم الاثنين من الأسبوع الثاني للصوم في ١٧ شباط ، ووضع عليه اليد ديونسيوس المفريان في بيعة الأفرنج الكبيرة ، وكان جوسلين وعظمائه واقفين بالخدمة ، وبوساطة جوسلين صنع البطريرك والمجمع حلا لابن

صابوني وايضا لمطران شبختان الذي كان قد تـرك رعيتـه فحـرمه البطريرك بمرارة ، وأمر أن لاينقبل في البيعة ، وقد عاد وقبلوه بعـد توسط جوسلين ، وأعطوا له كرسي سمندو الذي كان راعيه قد توفي فانقبل هناك مدة قليلة ، لكنه مالبث ان طرد مـن هناك فمـكث بغير رعية كل زمان حياة ماريوحنا ، وبعد موت هـذا البـطريرك ايضـا اشفقوا عليه فأعطوه سميساط في رسامه البطريرك الذي صار بعـد ماريوحنا ، وهناك ايضا انقبل مـدة يسـيرة ، لكنهـم مـالبثوا ان طردوه تائها من مكان الى مكان ، ومضى الى القدس لكنه لم يستطع البقـاء في ديرنا هناك ، ثـم مضى الى عند الأفـرنج المدعويين داوية ، واخيرا سقط في تنور النار واحتـرق ، وصـار عبـرة كيف تكون اخرة الذين يدوسون قوانين البيعة المقدسة ، ويحرمون الرعية من الرعاية لأن البطريرك قال له ان تتـرك رعيتـك في شـبختان فلن تستحق الا المقبرة .

فصل أخر حول أخبار البيعة في هذا الزمان

بعد رسامة ماريوحنا البطريرك وقــع شـجار بين الأســاقفة في المجمع لأن ديو نيسوس المفريان كان يريد زيادة على رعيته ، فقــام كل الأساقفة في وجهه عند ذلك خرج غاضبا ، ووصل الى آمــد وأراد ان يقيم بطريركا أخر ويعزل الذي قام ، لكن الرب المهتم ببيعتــه في كل وقت ومزيل الأفكار الآثمة أوحى الى حاكم آمــد في ديار بــكر ان يطلب اعتقاله،وبصعوبة استطاع ان يفلت ، ولما رجع الى رعيته بقي صامتا لايأتي بأي حراك .

أما في كرسي الاســكندرية ومصر وبعــد قــريوس قـــام مقاريوس ، وبعد ان توفي هذا في تلك الســنة التــي تــوفي بهـــا ماراثناسيوس ارتسم تاودوروس ، لكن هــذا وجــد بعــد مــدة انه هرطقي تابع للشقي يولياني الخيالي ، ولأجـل هــذا نفــي وصــار ميخائيل بطريركا لكرسي القبط ، وبعد هذا اصبح جبرائيل بطريركا لكرسي الاسكندرية ، وكان هذا متعمقا بالعلوم وماهرا جدا في الخط واللغة العربية ، لكونه رأى ان كل الشــعب القبــطي يتــكلم اللغــة العربية ويكتب بالخط العربي ، لأن مملكة العرب تثبتــت في الزمــن الذي تقدم في كل تلك الأرض ، فاهتم وتعب ونســخ كتــابي العهــد القديم والجديد وباقي الكتب ، ورتب الخــدمات الكهنوتية في الخــط العربي لكي يفهم السامعون ، ويقرأ كل الشعب الكتب المقدسة .

واما البطريرك ماريوحنا فقد مضى الى دير مار بــرصوما وجمــع الأساقفة وحرم المطــران مــاريوحنا بــن اندراوس لأنه لم يقبــل البطريرك لما مر في رعيته ، لكن كل الناس اجمعوا ان هــذا الســبب لايوجب الحرم الذي قطعه عليه .

ترك بهذا الزمان بسيليوس بــن السـمنة أسقــف كيســوم رعيته ، بعدما ابدى شكوكه حــول صــحة حــرمان ابــن

اندراوس ، وامتنع من الرعاية ، كان ليس بالناموس واجب تدبر امور البيعة ، ومضى الى دير المتوحدين الذي على شاطى الفرات المدعو دير القناة وجلس هناك بالخلوة،وعندئذ اشار اناس على البطريرك ان يجعل من كيسوم كرسي البطريركية عوضا عن آمد لكونها في حكم المسيحيين ، وبعد ان صارت كيسوم باسم البطريرك خمس سنين،وبعدما رسم البطريرك لآمد مطران هو بسيليوس ، رجع ابن اندراوس الى رعيته ، وبناء عليه رجع ايضا بسيليوس بن السمنة الى كيسوم،وفي هذا الزمان ارتسم للرها مطران اسمه باسيل ، وكان رئيسها وقد دعي باسم اثنا سيوس ، وبعدما استقام بها سبع سنين توفي في سنة ١٤٤٧ ، وفي تلك السنة توفي ايضا اياونيس مطران ملطية ، وهو المعروف باسم اليشع ، ووقع بعد موته خصام كبير بين جماعة الاكليروس حول انتخاب راع لها ، لأن باسيليوس اسقف جيحان ، الرجل الماكر الكثير الحيل ، والذي كان دائما من قلاية البطريرك جالس لاجل امور الكتابة وتدابير البيعة ، كان يمانعهم لئلا يرسموا مطرانا لملطية ، لانه كان مصاب بمرض الشراهة،وطمع ان يأخذها زيادة على رعيته ، وكان البطريرك القديس في وداعته ينجذب خلف باسيليوس وتدابيره ، وهكذا بقيت ملطية ثلاث سنين بلا راعي ، لان كل من رؤي اهلا للمنصب ورشح لكي يصير مطران ، كان ينقصه اسقف جيحان عند البطريرك ويسمه بكل نوع من انواع المذمة ، والبطريرك كان يصدق كلامه ، حينئذ اختار اهل ملطية ان يرعاهم المطران الربان يشوع الشماس المعروف بابن قطرة من المدينة، وارسلوا رسالة اتفاقهم وعمموها ، فلما نظرها اسقف جيحان كتب على لسان البطريرك حرمانا كبيرا على يشوع

مقتل دبيس بن صدقة

هرب الامير دبيس الى عند السلطان ، لكنه لما احس أنهم يريدون ان يقتلوه تحيل ليفلت ولم يقدر ، ثم قال كلمة محزنة الى

متى اتشرد واطارد ، ليس هناك افضل من الموت ، وذات يوم بعد ان اكل خبزا من مائدة السلطان ودخل السلطان للبيت الداخلي ، خرج احد الخصيان وقال له ان السلطان يأمرك بان لاتمضي بل اجلس واقرا هذه الرسائل ، ولما بدا يقرا الرسائل قام احد الواقفين خلفه فضربه وقتله .

نهاية ميخائيل الارمني

في سنة ١٤٤٧ ابتدا الخصام بين الارمن والافرنج ، وكان ميخائيل الارمني قد خرج بأيام بلك من قلعة جرجر وتركها ، ثم عاد بعد مقتل بلك ايضا فسرقها وسكن بها ، وحينئذ وقفت بوجهه الطائفة المدعوة سيبرك وصار ينهب قراهم وهم ينهبون قراه ، وفي احد الاوقات ادركه الترك في كور زيزونا وهو على شاطئ الفرات فأحاطوا به من كل جانب،ولما لم يجد سبيلا للخلاص طرح نفسه من اعلى الصخور الى النهر ، وكان يلبس درعه ويمسك ترسه في يده فغرق بالماء ، لكن مالبث ان انقذه زورق كان حاضرا هناك ونجا ولم يمت ، حينئذ اعطى جرجر لجوسلين ، واخذ سفرس ، لكن جوسلين باع جرجر لباسيل اخي جاثليق الارمن بخمسمائة دينار ، ثم ندم ميخائيل واراد ان يرجع اليها ، ولما رفض ان يعطيه اياها جوسلين جمع عسكرا ودخل ونهب بلاد كيسوم ، فخرج عليه الافرنج ، وقتل بغير قصد بل عرضا .

اما باسيل حاكم جرجر فإنه لما اخرجه الافرنج مضى الى لاون الارمني الذي في قليقيه وصار ختنه،وجمع رجال الأرمن واتى ليحارب الافرنج النين في فرمازن [٢٦] لكن هناك قتل جملة من الأرمن ، ثم لما رأى الترك الحروب بين الأرمن والافرنج ارسلوا واحدا اسمه افشين كان قاسي القلب فنهب بلاد كيسوم ، ولما رأوا ان ليس من يردهم دخلوا ايضا ونهبوا البلاد الى انطاكية ، وبعد قليل ايضا دخلوا ووصلوا الى اللاذقية واخذوا غنائم كبيرة ، ورجعوا الى نهر

العاصي فصادوا سمكا واكلوا منه فمات في الحال اكثرهم وقد صارت هذه اما بفعل ما ، او بضربه من العلي ، اما الذين بقيوا على قيد الحياة فأسرعوا بالهرب خوفا من الموت وتركوا المنهوبات .

مصرع الخليفة الراشد

بعد ان اتفق مسعود سلطان همذان مع داود السلطان ، ولما سمع الخليفة انهما اتفقا فزع ففرقهما بالسر ، واتى ليحارب مع مسعود ، ولما نظر ان داود ختنه لم يات ليساعده علم ان الخليفة وعده ان يعطيه المملكة وحده ، فتحارب مسعود مع الخليفة اولا وكسره وامسكه وربطه بالحديد ، ثم طارد داود وهنا صار كما هو مكتوب ان الخليفة قتل في معسكر مسعود على باب مراغه وقام بعده الخليفة الراشد ، ثم طارد مسعود داود لانه هرب الى ارمينية وسبى ، وخرج الى الموصل الى عند زنكي ، اما هذا فلكونه ند لمسعود حمى داوود ، ونزل معه الى بغداد وارسل الخليفة ان تعطي السلطنة الى داود اما هو فكان يخاف من مسعود ، وظل يعدهم من وقت الى وقت مدة عشرة اشهر ، حينئذ امتلأوا غضبا ونهبوا بغداد الشمالية كلها ، وعند ذلك التزم الخليفة واوجب السلطنة لداود ، فسمع مسعود وصعد ، اما الخليفة فقد ترك بغداد واتى مع زنكي الى الموصل ، ولما وصلوا وسمعوا ان الوالي الذي في نصيبين تمرد على زنكي وصار مع حسام الدين حاكم ماردين ، اتى زنكي على نصيبين وكان معه خليفة بغداد والسلطان داود ، فأصلح نصيبين ورجع الى الموصل ، اما الخليفة فنزل الى بغداد واصطلح مع مسعود بوساطة الرسائل ، ونزل الخليفة الراشد الى خراسان وانتهت مملكة العرب كليا وصار الخليفة مستعبدا للاتراك .

اخبار البيعة لهذا الزمان

انتقل بهذا الزمان باسيليوس بن السمنة من كيسوم الى الرها وكان يلام لانه لم يكن مأمورا بذلك ، وقد كتب مقاله دافع فيها عن نفسه ، ونفى ان يكون قد صنع ذلك حتى كتب له البطريرك والمجمع ، وانه لم يفعل ذلك تنفيذا لامر السلطان او الرهاويين – كما قال – .والحقيقة ان الرهاويين كانوا ضد البطرك ومختلفين معه وكانوا يرفضون ان يعترفوا به او يرفعوا رئاسته في البيعة اذا لم يصبح باسيليوس مطرانا فاختار البطريرك اهون الشرين وثبت ابن السمنة مطرانا للرها ، فاسكتهم بذلك ، ولما رجع جوسلين من القدس بعد ان شارك في تتويج ملك جديد ، ذهب البطريرك وكل الاساقفة اليه وقابلوه فأعطاه انية الكنيسة وجرة الميرون وهي الذخائر التي كان قد خطفها من دير مار برصوم من قبل .

في سنة ١٤٤٨ هاجم يوحنا ملك اليونانيين بعنف قيليقيه غاضبا على لاون الارمني واخذ مدائن طرسوس واذنة والمصيصة وغيرهم وبعد ان اخضع كل البلاد امسك لاون وامرأته وبنيه وارسلهم الى القسطنطينية حيث مات لاون هناك ، اما امرأته وبنيه فقد خرجوا فيما بعد وملكوا ايضا على تلك البلاد.

اما ملك اليونانيين بعد أن ملك في قليقية وارسل لاون الى القسطنطينية ، زحف نحو انطاكية وهاجمها لكنه لم يقدر أن يأخذها لذلك اتى اليه جوسلين واصطلحا على شروط: ان أخذ الملك بلاد سورية ، اعني حلب وغيرها ، يعطيها للافرنج والافرنج يعطوه انطاكية ، كما سلف ووعدوا ابيه الكسيس ، وعلى هذا العهد خرج اليه ريمند حاكم المدينة ودخل الملك يوحنا الى انطاكية ، وفيما بعد لما نظر انهم يريدوا أن يضللوه رجع الى قليقية ، فمضى اليه الافرنج واتفقوا ايضا واتى الملك معهم ، ونزلوا الى حلب واخذوا قلعة بزاعا

ووضع المجانيق ضد شيزر ، حينئذ خرج السلطان مسعود من قونية ودخل الى قيليقية واستولى على اننة بالحرب ، وسبى كل سكان البلاد وكذلك الاسقف واحضرهم الى ملطية ، فلما سمع الملك احرق المنجنيقات ورجع الى قيليقية ، واصطلح مع السلطان ودخل القسطنطينية.

وفي تلك السنة هجم بدمشق رئيس العسكر البغش ايضا على سيده شهاب الدين وقتله (٢٧) . وجمع زنكي عسكرا ودخل ناحية طرابلس ، ولما خرج حاكمها ابن صنجيل نصب له الترك كمينا وقتلوا جميع الافرنج ، وقتلوا معهم ايضا ابن صنجيل واحرقوا طرابلس العالية بالنار ، وسبوا كل البلاد ، وحلوا على طبريه ونهبوها ووصلوا الى نابلس التي هي السامرة ونهبوها وخربوها ، فخرج ملك القدس على صوت الضجيج واتى الى رفنيه ليطرد منها الترك الذين كانوا يقاتلوها ، لكن هاجم زنكي معسكره بالليل وقتل اكثر رجاله،أما الذين نجوا فكانوا الملك وقلة من الفرسان ، وقد دام القتال اربعين يوما ، فأما الملكة فارسلت تتضرع الى ريمند حاكم انطاكية وجوسلين،ولما سمع زنكي انهما يستعدان لياتيا اليه اصطلح مع الملك ورجع .

بهذا الزمان طرد الملك محمد ايضا اخاه دولت واخذ منه ابلستين وبلاد جيحان ودخل دولت لهنزيط ، ومن هناك الى أمد الى عند جوسلين ، وبقي يجول من ناحية الى ناحية .

وفي سنة ١٤٤٩ كانت الرها سجينة الاتراك الذين كانوا يسبونها دائما ، وكانوا لايتركون سكانها يدخلون ويخرجون بسهولة ، فاجتمع في سميساط عدد كبير من الناس ليدخلوا اليها قوت ونخيرة، وكان معهم نحو ثلاثمائة فارس من الفرسان الافرنج المسلحين بالرماح ، وكانت جملتهم نحو اربعة الاف نفر ، وكان معهم ابو سعد الشماس الطبيب وفيلوس ، وبينما كانوا ماشين خرج عليهم الترك من كمين بالليل بقيادة حسام الدين حاكم ماردين ، فقتل اكثرهم

واخذ الباقي عبيدا ومعهم ابو سعد وميخائيل ابـن السـمنة وابنه ، ولم يقدر ابو سعد ان يدرك من خلال صناعة التنجيم البـاطلة مـاذا سيحدث في ذلك اليوم ، واخيرا اخـذ حسـام الدين تمـرتاش مـن الافرنج ايضا قلعة كسوس .

وفي هذا الزمان دخل السلطان مسعود الى بـلاد كيسـوم ونهـب وسبى وخرج ، وبعد قليل دخل ، ولما راى ان الجميع هاربون احرق القرى وتركها رمادا ، ومن هناك مضى الى مرعش .

في هذا الزمن تعرض للخـطر دير مـار ابحـاي الذي هـو دير السلالم ، فقد كان في قلعة سويرك اناس من الارمن مـالكين بهـا ، وكان جدهم بو غوص قد مضى في ابتداء خروج الترك الاول الى بغداد وخراسان واسلم ، واخذ رسائل من سلطان التـرك الكبير ، ومـن الخليفة ان يبقي ذلك الموضـع ميراثـا لاولاده ، وقـد صـارت كل اجيالهم بالتسلسل مسلمين .

وفي هذا الزمان كان هناك امير اسمه عيسى مـن بني بـوغوص ، وكان دجالا وشريرا ويبغض المسيحيين بغضا شديدا ، وكان يحقـد على ميخائيل وقسطنطين الارمنيين اللذين في جرجر ، وكانا يسرقان ويخربان بلاده ، وهو كان بالمقابل يسبي وينهب بلاد جرجر.

ولما راى ان الافرنج قد ضعفوا جمع الاتراك ودخل ونهب كل بلاد جرجر،فلما لم يجد في كل البـلاد مـايكفي للاتـراك مـن العلف والذخائر ، لان البلاد كلها كانت خرابا توجه الى الكنائس والاديرة لكي يؤمن حاجته منها ، فاتى اولا على دير مار ابحاي ، ولما لم يقدر عليه من ناحية شـاطىء الفـرات اصـعد بعض الرجـال الى اعلى الصخور ، ومن هناك نزلوا بالحبال ، وكانوا يقذفون حجـارة كبيرة حتى كسروا جانب الهيكل ، وحينئذ خاف الرهبان فخـرجوا اليه ، ولما تسلط كليا على الدير نهب واستولى على كل مقتنيات الدير من كؤوس وصواني فضة وصلبان ، وباقي الاشياء الموجودة هناك مـن زمان مار يوحنا بن عبدون .

وكذلك استولى ايضا على دير القناة واجلي المتوحدين الذين بـه الى دير شيرو ، وهم الربان داود ورفاقه ، ولم يبق سوى ابـو غالب في دير مائده الملك .

لما مات محمود سلطان خـراسان ملك اخـوه مسـعود الدجـال القاسي ، وهذا حالما تملك خرج الى بلاد اشـور وجعـل طـريقه على اذربيجان ، ودخل الى مابين النهـرين،ولما وصـل الى دارا نصـب خيامه عند البصرة .

وفي سنة ١٤٥٠ ملك محمد وجمع عساكره ودخل الى بلاد قيليقية واخذ من اليونانيين قلعتين،قلعة هاجاني وقلعة جينو فيرت،ثم دخـل الى بلاد قاسينوس التي على شاطيء بحر بنطس ونهـب وسـبا كل الشعب وباعهم عبيدا،وفي تلك السنة صعد زنكي الى دمشق وضايقها جدا ، فالتجا الى ملك القدس ، وزاد له الخراج فجاء لمعونته فهـرب زنكي .

وفي سنة ١٤٥٢ في تشرين اول دخل اتراك ملطية الى اديرة زوبـر وهي اديرة بيت قصب ونهبوها وخرجوا ولم يوجد من يردهم .

وفي شهر أيار اتى الافرنج لينتقموا لنهب الاديرة من اهل ملطية ، فوصلوا الى زبطره وعرقه فنهبـوا ممتلكات المسـيحيين لانهـم لم يلتقوا بالترك ، وبعد ان مضى الافرنج دخل الترك في إثـرهم فنهبـوا وخرجوا ، وهكذا كان المسيحيون ينهبون من الطرفين .

ودخل الافرنج الى ابلستين ونهبوا ممتلكات المسيحيين ، وقتلوا كل من صدفوه من الترك ، او اخذوهم اسرى ، فخـرج التـرك مـن هنزيط الى بلاد الافرنج فالتقوا بعشرين مسـيحيا منهـم القـديس مطران قليسورا ، وكان يعبد في جبل ابدهور ، ولكثره حنقهـم على المسيحيين ضربوا المطران ومن معه وربطوهم ليقتلوهم ، لكن فجاة سقط عليهم الخوف فهربوا وتركوهم مربوطين ، لكن المطران ومـن معه استطاعوا ان يحلوا اربطتهم وهكذا نجوا ، امـا التـرك فلمـا

دخلوا الى تلك البلاد قتلهم الافرنج جميعهم بالسيف ، وكان الافرنج منتصرين في تلك الايام لانهم كانوا متفقين .

وفي سنة ١٤٥٢ ايضا خرج ملك اليونانيين ليتحارب مع الترك ، فخرج للقائه الملك محمد وبقيت عساكرهم وجها لوجه ستة اشهر ، ثم ابتدأ الملك يتقدم نحو نوقيسارية ، عند ذلك غضب الاتراك على المسيحيين الذين في بلاد مملكتهم ، فكان كل من يتلفظ باسم الملك ، حتى ولو بدون قصد ، كان يقتل بالسيف هو وبنيه وبناته وكل اهل بيته ، وكانوا يمارسون ذلك في باقي البلاد في ملطية ، الى ان عاد الملك الى مكانه ، لكنه لم يصنع لا قتالا ولا صلحا ، اما الملك محمد فقد دخل الى مرعش ونهب .

وفي تلك السنة خرج زنكي حاكم الموصل وصنع صلحا مع حسام الدين حاكم ماردين ، وقد تلاقى زنكي وحسام الدين وهما يركبان فرسيهما فنزل زنكي اولا عن فرسه ، ثم نزل حسام الدين وتحالفا وثبتا الصلح واستعدا للحرب مع داود حاكم حصن كيفا وطارداه ، فوجداه متوجها الى آمد ، ولما احس بهما احتمى بسور المدينة ، فاتيا من جنوب المدينة اولا ثم هجما عليه ، ونشب القتال من الصباح الى الغروب ، وفي وقت المساء انكسر داود وهرب،اما عساكره فبعضهم قتل ، وبعضهم اسر ، وبعضهم هرب ، اما ابن داود سليمان فقد اعتقله زنكي واعطاه الى حسام الدين فارسله حالا الى ماردين ، ثم عادا من باب آمد ونزلا على قلعة الصور (٢٨) قرب ماردين تحت حكم داود ، فاستعملا المنجنيقات الثلاث وصنعا بها ثغرة ، وبدءا الحرب فضعف الذين في الداخل ، وطلبوا عهدا للسلام ، لكن الحاكمان رفضا حتى اخذوها حربا ، فقطع الوالي وعبيده كل واحد الى اربع اجزاء ، واعطى زنكي تلك القلعة لحسام الدين ، ثم زاد فاعطاه سيجا وذو القرنين وساكن ، ومن هناك توجها لبرعية،ولما علم بهما حاكم برعية خاف كثيرا وسلم القلعة الى حاكم آمد ، ولما اتيا ونظرا حصانه الموضع الذي اعتصم به ، وكان كثيرون قد هلكوا في تلك الحرب تركوه وحلوا على آمد واقسما ان

يخربا كل البلاد إن لم يسلموا القلعة،ولما تضايق حاكم امد سلمه لحسام الدين ومضى كل واحد لمكانه (٢٩)-

في سنة ١٤٥٠ في تشرين اول تراءت آية حمراء في السماء ناحية الشمال ، وفي ذلك الشهر صار زلزال ضرب ابراج بزاعا وابراج حلب ، كذلك كان الشتاء قاسيا من كانون الاول الى شباط ، وتجلد الفرات وصار الناس يمشون عليه وماتت البهائم والطيور من البرد في المدن.وفي برية الرقة كان اربعون فارسا يمشون فانخسفت الارض وابتلعتهم وبقي واحد لانه كان قد خرج لقضاء حاجة التغوط ، فلم يهلك معهم وبقي صوت صراخهم يتعالى وقتا ، وبهذه الزلزلة انشقت بيعة حارم ايضا وقرية الاثارب التي في تخوم جبل قورس ، انشقت في وسطها فخرج سكانها ، ثم انهارت .

وفي تلك السنة لم يات المطر الى نصف ايار ، فصارت الغلة متاخرة ، وقد صار في يوم احد العنصرة برق شديد ، قتل امرأتين في ملطية واحدة كانت على السطح والاخرى في وسط السوق وطائري حر وذلك في تسع ساعات ، وفي ليلة ٢٢ حزيران ظهرت نيازك حمر من الجانب الشمالي الى الجانب الغربي .

وفي سنة ١٤٥٢ في ٢٩ تشرين اول صارت زلزلة وكان في العاشر منه قد كسف القمر ، وحصل موت في ملطية ففني الدجاج اولا ، ثم الطيور ، واخيرا صار الاطفال يموتون بمرض الجدري .

وفي شهر ايار في عيد مار برصوم اتى برد صعب في هنزيط وفي قلعة زياد ، كسر الاشجار والكروم ، وفي ذلك اليوم احرق البرق صبي وبغل .

وفي حزيران من تلك السنة هبت ريح صرصر قلعت الاشجار ، وسقط في بلاد ملطية في ذلك الوقت برجان في قراها

وفي ذلك الشهر وقعت زلزلة في شاطيء البحيرة في مدينة قيليقية الصغيرة التي تدعى كالينج ، وفي باقي الاماكن من تلك البلاد ، وفي كل ساحل البحر ،

وفي سنة ١٤٥٢ يونانية منذ منتصف شهر اب الى بداية شهر ايلول كانت تتراءى اشعة نورانية من الناحية الشمالية ، وفي الليلة الثانية من ايلول خرج نور من الشمال الغربي ، وبرق كالشمس ، فظن الناس ان السماء قد انشقت ،

وفي سنة ١٤٥٤ حرق البرد سميساط كلها

اخبار البيعة في هذا الزمان

في سنة ١٤٥٤ يونانية اوفد البابا الروماني اونوريوس (٣٠) الثاني (١١٢٤ ـ ١١٣٠) احد كرادلته الاثني عشر الى بلاد المشرق للنظر في احوال الكنائس والاديرة في البيت المقدس وغيرهما ، غير ان ذلك الكردينال ما ان وصل الى القدس وباشر البحث والتفتيش حتى ادركته المنية ، وقيل انه قتل بالسم ، فغضب البابا واوفد بدلا منه احد مندوبيه الاربعة الكبار،فاصلح ما اصلح، وعزل البطريرك الانطاكي،واقام بطريركا اخر عوضا عنه وتوفق في الحصول على رغباته .

بيد ان الروم اللئام المعتادين على المساوىء والشرور قصدوا مندوب البابا المذكور ، واتهموا السريان شعبنا والارمن مدعين انهم هراطقة ، فارتحل المندوب البابوي الى دلوك وزار غريغور جاثليق الارمن واستحضره الى القدس ، وعقد مجمعا صباح الاثنين اليوم الثاني لعيد القيامة بحضور وليم بطريرك القدس واساقفه الفرنج والجاثليق واساقفة الارمن واغناطيوس مطران السريان وفئة من الرهبان ، وجوسلين وسائر الامراء والاعيان وارسلوا يستدعون اساقفة الروم ويقولون لهم انكم قد ادعيتم ان السريان والارمن هراطقة فهلموا اثبتوا لنا دعواكم ، فكتبوا لهم الجواب اننا لانحضر المجمع لان ملكنا غير موجود فيه ، لكن الفرنج ارسلوا ثانية وثالثة يطلبون حضورهم فابوا وبذلك ابدوا بطلان مزاعمهم .

ثم ان الارمن كتبوا دستور ايمانهم ، وكتب السريان ايضا دستور ايمانهم ، وعرضوهما كليهما على المفوض البابوي وعلى اباء المجمع فنقلوهما الى الايطالية وتلوهما على مسامع الحضور اجمع ، فائذنوا عليهما ، واعلنوا انهما يشتملان حقيقة على دستور الايمان الارثوذكسي، ولم يكتف الفرنج بذلك بل سالوا الارمن

والسريان ان يبرموا القسم بانهم لايعتقدون قلبا اعتقادا مخالفا لما ورد في ذيذك الدستورين ، فالسريان ايدوا ذلك اما الارمن فلامتزاجهم بالخياليين والسيمونيين رفضوه ، وهكذا ارفض المجمع .

في سنة ١٤٥٣ صعد البطريرك ليصلي بالقدس فقام الترك ونهبوا كل البلاد بشكل فظيع فخربوا واحرقوا قرية حارم .

وفي تلك السنة مات حاكم قونية وملك عليها الملك محمود وفي سنة ١٤٥٤ في كانون الأول مات الملك محمود في قيسارية وامر ان يملك ابنه ذي النون ، فقامت امراته واحضرت اخاه يعقوب أرسلان وتزوجته وملك على سبسطيه،فهرب ذو النون إلى سمندو وصارت له قيساريه وملطيه،فأما دولتالأخ الأكبر فأتى واتفق مع يونس حاكم مسارا ، وهاجما ملطيه فلم يفتحوا لهما لكي يدخلا ، ولم يكن لهما القدرة على القتال فرجعا إلى عرقة ، وعند ذلك ارسلت الخاتون ارملة الملك محمود بألفي رجل لكي يحفظوا ملطيه ، ولما عرف الذين بها ان مع هؤلاء امر بأن يخرجوهم ويخرجوا أولادهم من بيوتهم ويجلوهم إلى سبسطيه ويستوطنوا موضعهم غضبوا وتسلحوا بالسيوف ، وبينما هم يتجمهرون في الأسواق خاف المسيحيون كثيرا ، واخذوا يختبئون في الآبار وتحت الأرض لأنهم لم يكونوا يعرفون ماذا يجري ، وكان يوم الأربعاء الأولى للصوم في ١٧ شباط ، فاجتمع الأتراك الذين في المدينة أمام القلعة وطلبوا من الوالي مفاتيح الأبواب لكي يخرجوا ويحاربوا القادمين ، فرفض الوالي أن يعطيهم المفاتيح ، حينئذ هجموا وكسروا قفل الباب بالفؤوس وكان يسمى الباب بوريديه ، اما الذي كسر القفل فكان اسمه (بوري) ، وقد تزعم الذين ذهبوا ، اما الباقي فقد وقفوا يحرسون الباب ، فمضوا واحضروا دولت في اليوم عينه ، ولما نظر الذين في سبسطية هربوا ، وخرج الوالي وسجد لدولت الذي دخل وملك المدينة فاصطلحت واستراح الأهالي .

وبعد مدة مضى دولت إلى اخيه يعقوب ارسلان واتفقا ، واتى اخذ

ابلستين وملك ايضا على بلاد جيحان ، ولما سمع السلطان زحف غاضبا ضد يعقوب ارسلان ، فخاف ذاك وهرب إلى الجبل أما السلطان ، فخرب سبسطيه ، ورجع وارسل دولت لكي يأتي فيقدم طاعته فيعطيه بلادا اكثر ، لكن دولت لم يذهب وارسل زوجته التي هي بنت اخي السلطان ، وتضرعت إليه ، لكنه لم يقبل ونزل على ملطيه في ١٧ حزيران ، وبعد أن نصب عدة ابراج للحرب سقطت ، فتردد وفتر عزمه ولم يحارب بشدة ، وبقي ثلاثة أشهر ، كان دولت خلالها يصادر اهل المدينة وخاصة الرؤساء ويعطي جنوده ، وحدث فجأة في ليلة عيد الصليب في ١٤ ايلول ان احرق السلطان المنجنيقات ، وارتحل فشعر أهل المدينة بالراحة .

في نيسان من تلك السنة خرج يوحنا ملك اليونانيين إلى قليقية ليصطاد كالعادة واخذ سهما مسموما ليضرب به خنزيرا في الغابة فأخطأ في ضربته ، ودخل بيده فسار السم في جسمه ومات .

وبعد مدة خرج ايضا ملك الأفرنج الذي بالقدس ليصطاد فطارد ارنبا فسقط من عزم الضربة عن الفرس ، ومات،وعندما لحقوا به وجدوا راسه داخل جثته .

وفي هذه الأيام مات داود حاكم قلعة زياد ، فهؤلاء الأربعة ماتوا في تلك السنة : ملك اليونانيين ، وملك الأفرنج ، والملك محمود ، وداود .

لما توفي يوحنا ملك اليونانيين في قليقية كان ابنه الكبير بعيدا عنه في مدينة المملكة ، فأمر ان يملك ابنه الأصغر فملك منويل ، وكان ذلك في نيسان سنة ١٤٥٥ يونانية .

ولما دخل القسطنطينية قبله أخوه وسجد له وثبتت له المملكة ، وفي تلك السنة مات ايضا ملك القدس وملك ابنه بلدوين لكنه كان طفلا فأخذت امه تدبر المملكة .

وفي هذا الزمان توفي داود الأمير حاكم قلعة زياد وقام بعده ابنه

الأصغر قرا ارسلان ، وكان ابنه الأكبر عند زنكي فلما سمع زنكي قدم ومعه أرسلان طغميش بن داود وقدم السلطان مسعود فأخذ حاني ، ثم تحرك فأخذ ابلستين وكل بلاد جيحان ، وبعد هذا حل على ملطيه ، وجاء معه يعقوب ارسلان ، ولما كان السلطان متوجها إلى ملطيه اتى إليه قرا ارسلان بن داود وطلب منه أن يساعده لمواجهة زنكي الذي توجه نحوه ، فأعطاه السلطان عشرين الف فارس ، فمضى للقاء زنكي ، ولما سمع زنكي أن عسكر السلطان متوجهين نحوه رجع إلى ارضه ، ورجع كذلك قرا أرسلان فاسترجع بلاده التي كانت انتزعت منه فجلس السلطان في ملطيه ثلاثة اشهر دون اي قتال .

وفي منتصف اب ليلة عيد انتقال والدة الرب أمر عساكره ان يستعدوا للرحيل ، فجهز كل واحد حاجاته ، ورحلوا صباحا بعد ان نهبوا البلاد بأسرها ، وخلال هذا الصيف ، عندما كان السلطان متوجها إلى ملطيه ، اتى جوسلين إلى دير مار برصوم ليصلي ، فرأى شعب بلاد قلوذيه هاربين من أمام جحافل السلطان ، فلما سمع بكثرة عساكره رجع مسرعا إلى ارضه .

وفي سنة ١٤٥٥ في ٢٦ من تشرين الأول ليلة الجمعة صار زلزال فتشققت البيوت في مدينة قونية القريبة من مملكة القسطنطينية ، وخاف السكان وجف النهر الداخل إلى المدينة ، وبعد ثلاثة أيام وبينما كان يجتمع ماتبقى من الشعب ليصلي صار زلزال وفاض النهر وعاد للجريان .

وفي تلك السنة في ٢٣ آذار ليلة خميس الأسرار تراءت آية مخيفة في الغرب بعد غروب الشمس شبه الرمح ، ومكثت نحو ثلاث ساعات وقد تراءت سبعة أيام ، وقيل إنها تدل على الدم .

انتزاع الرها من يد الافرنج

حول زمان المحنة الأليمة التي نزلت بالمدينة الواقعة بين النهرين ، مدينة المسيحيين المجيدة التي ضربها سيف الترك ، وقد سمحت العدالة بذلك لأجل خطايانا .

لما طرد زنكي حاكم قلعة زياد ذهب إلى جوسلين واعطاه قلعة بابولا (٣١) لكي يعينه على زنكي كما ساعده السلطان مسعود ، لكن جوسلين لم يحسب انه ليس من مصلحته أن يعادي الترك لأجل هذا ، وارسل عسكرا لمساندة قرا أرسلان فحقد عليه زنكي .

ولما مضى جوسلين إلى انطاكية وصار بعيدا ، أعلم أهل حران زنكي أنه لايوجد عسكر في الرها ، فجمع زنكي جيشا عظيما ، واقبل سنة ١٤٥٦ يونانية يوم الثلاثاء في ٢٨ تشرين الثاني على الرها بألوف ، واقاموا معسكراتهم عند باب الساعات بجانب بيعة المعترفين ، وارسل إلى اهل المدينة قائلا : سلموا حتى لاتهلكوا لأنه ليس لكم مهرب،وكان بها رئيس من قبل بابا الفرنج فأجابه إننا لانسلم ، وقد قال ذلك لأنه كان قد أرسل رسلا إلى أنطاكية والقدس ليأتوا ويخلصوا المدينة المحاصرة .

فأما زنكي فقد بدأ حربه في أول كانون الأول بعد ان هيأ سبعة منجنيقات يلقون الحجارة والوف وربوات من العساكر يرمون السهام كسقوط حبات المطر ، وكان أهل المدينة والشيوخ والصبية والرجال والنساء ورهبان الجبل يقفون على السور ويقاتلون ، ولما راى زنكي ان الشعب يقاوم بكل جبروت امر أن يحفروا تحت الأرض نفقا يصلهم بالسور ، وحفر اهل المدينة نفقا مقابلا من الداخل واشتبكوا داخل النفق وتكومت جثث القتلى ، فعزف زنكي عن ذلك وعاد الرهاويون وبنوا سورا داخليا ثانيا وخاصة حول الحفرة التي حفروها ، اما الأتراك فقد حفروا حفرة تصل بين

البرجين وملؤوها بالخشب ثم أرسل الأتابك من يقول للرهاويين خذوا منا رجلين وأرسلوا لنا رجلين ينظرا الحفرة تحت البرجين اللذان أخذا يتداعيان ، وانصحكم أن تسلموا المدينة قبل أن آخذها بالسيف .

أما هم فقد هزئوا وسخروا به لأنهم كانوا مطمئنين إلى قدوم الفرنج لنجدتهم ، عند ذلك أشعل الأتراك النار بالأخشاب ، فتداعى البرجان ، وحدثت معركة طاحنة امتلأ فيها الجو بالدخان ، واختلط فيها صليل السيوف بصراخ الرجال والنساء والأطفال .

ولما اكتمل احتراق الخشب وسقط السور والبرجين وظهر السور الجديد اندهش الأتراك لكنهم وجدوا أنه قد بقيت فجوة بين السور الجديد والسور العتيق ، فاجتمع عسكر الترك حول هذه الفجوة يريدون الدخول منها فتصدت لهم جموع المدينة مع الأسقف والمطارنة من الداخل وحدثت معركة طاحنة امتلأت فيها الثغرة بجثث القتلى المهاجمين من الخارج والمدافعين من الداخل ، وبينما كان الشعب كله مشغولا في الدفاع عن الثغرة بقي السور فارغا من المقاتلين ، فنصب الأتراك السلالم وصعدوا ، وكان أول المتسلقين مقاتلا كرديا ، ولم يشعر الناس إلا والأتراك في وسطهم فوهنت عزائمهم وولوا هاربين إلى القلعة الداخلية .

وهنا وقعت المجازر ، ولست أدري كيف يستطيع اليراع أن يصف هول وفظاعة ماجرى خلال ثلاث ساعات من يوم السبت ٣ كانون الأول ، لقد كانت مذبحة شرب فيها الأتراك دم الشيوخ والصبيان والرجال والنساء والكهنة والشمامسة والرهبان والراهبات والأطفال والمرضعات والعرائس . ياللخطب المرعب لقد استولى الخنزير الآثوري على الرها وداس العنب الحلو ، يا للفاجعة الكبرى ويا للهول المؤلم ، لقد كانت فاجعة مروعة ألمت بمدينة أبجر خليل المسيح ، داسها العدو بسبب آثامنا ، فقتل الكهنة وذبح الشمامسة ، ولقد تهدمت الهياكل والبيع . وكانت بالحق فاجعة سي

فيها الآباء الأبناء ، والأمهـات الأطفـال أمـام السـيف الذي كان لايميـز أحدا ، ولقد كانت الأمهات يجمعـن أولادهـن كمـا تجمـع الدجاجة فراخها انتظارا للموت أو السبي ثم العبودية ، اما بعضهم الأخر فقد فر إلى رؤوس الجبال .

اما الكهنة فكانوا يتراكضون مرددين قول ميخا النبي: إني احتمـل غضب الرب لأني أخطأت اليه (ميخا ٧ : ٩) ولم يوقفوا صلواتهم وابتهالاتهم حتى أسكتهم السيف ، ومن ثم وجدوا وقـد ضرج الدم ثيابهم وصناديق عظام القديسين بين أيديهم.

اما الذين هربوا الى القلعة فلم يستطيعوا الدخول لأن الحـراس الافرنج اغلقوا ابوابها وقالوا لن نفتحها حتـى نرى الأسـقف لكن الأسقف لم يستطع تخطي الناس ، فمـات عدد كبير مـن الناس بين الزحام وتحت الأقدام وتكومت جثث القتلى الذين قضوا بها تلالا عند باب القلعة ، وعندما وصل الأسقف انفتـح البـاب لكنه لم يسـتطع الدخول بسبب الجثث المكومة امام الباب من كثرة الزحام فاصطاده احد الأتراك بسهم وقتله.

ولما راى زنكي تلك الفـظائع أمـر أن يتـوقف القتـل ، حينئذ احضروا المطران باسيليوس وهـو حـاف وعار ، ويجـره تـركي بحبل ، ولما راى زنكي أنه شيخ وقور سأل : من هذا ؟ فأعلموه أنه مطران فأخذ يعذفة لأنهم لم يسـلموا المدينة ، امـا هـو فـأجاب بشـجاعة. لقد كان لك شرف غلبتنا ، لكن يجب أن يكون لنا شرف عندك لأننا لم نغدر ولم نحنث بأيماننا ، وكما حفـظنا عهـدنا مـع الأفرنج فإننا الآن سنحفظ عهدنا معـك بعـد أن صرنا عبيدك ، ولما راى جراته وهو يتكلم باللغة العربية الفصحى أمر فألبسوه قميصـه وادخلوه الخيمة وجعله مسـتشاره لاعادة بناء المدينة ، ثـم أخـرج مناديا يقول على كل من نجا من السيف أن يرجع الى بيته.

وبعد يومين طلب الأمان كل مـن كان بـالقلعة فـأعطى لهـم الأمان ، لكن فقط لمن بقـي على قيد الحياة مـن شـعبنا ومـن

الارمن ، أما الافرنج فقد قتلوهم كلهم ، اما ما تبقى من قصص تلك الكارثة فلن نرويه ، بل نترك لارميا النبي ولامثاله الذين أفاضوا في المراثي ان يعودوا وينوحوا على ذلك الشعب الذي يستحق كل شفقة ورحمة.

وفي الوقت الذي استولى فيه زنكي على الرها كان الوالي على نصيبين اسمه تمرتاش،فلما انتصر زنكي هذه الانتصارات وقوي كثيرا خاف هذا الوالي أن يهاجمه زنكي ، ويأخذ أراضيه ، فأمر بهدم كل قلعة لم يستطع أن يحميها ، فتهدمت في هذا الزمان قلعة جرجر وقلعة تلبسمه ، وقلعة تل شيخ والقلعة التي بقرب دير مار حنانيا ، والمدعوة قلعة المرأة.

وحاول ان يخرب سرجه عند نصيبين فلم يستطع أبدا وذلك لقوه ومتانه بنائها العتيق ، فهدم فقط البناء الجديد الذي كان قد بناه هو ثم تركها خاليه .

في هذا الزمان تمردت قلعة تدعى الهتاخ ، وهذه القلعة لم تكن بأيدي الترك بل كانت بيد واحد من سلالة بني مروان الذين كان لهم اسم مملكة ، وكرسي بميافارقين ، وقد حدث بين حكامها خلاف تلته حروب انشقوا فيها على بعضهم،فلما رأى حسام الدين أن ليس لديهم أكراد يحاربون في صفوفهم ، وهم في الوقت نفسه منقسمون على بعضهم بعضا حاصر قلعة الهتاخ لمدة سنة واربعة اشهر ، ثم طلب احمد بعض الأراضي. فأعطاه تمرتاش ذهبا وقرى من اقطاعاته مع القلعة،لكن هذا الكردي مالبث أن ندم فالتجأ الى حاكم أمد لكي يعيد له القلعة ، لكنه لم يفلح.

وبعد أن سقطت الرها خرج أرسلان طغميش بن داود صاحب حصن زياد من عند زنكي ، وحل على تل أرسانيوس طالبا أن يسلموه له ، لكنهم رفضوا لأن أولادهم كانوا رهائن في قلعة زياد ، وقد نسيوا ما حدث لأهل الرها عندما عاندوا الترك وجابهوهم دون أن يكون هناك من يساعدهم فصاروا جميعهم

عبيدا ، وهكذا حارب أهل أرسانيوس واستعبدهم وباعهم وكانوا نحو خمسةعشر الف،بعضهم اجتمع خارج البلدة وبعضهم الآخر مع اسقفهم،وكان اسمه طيمثاوس.

وفي تلك السنة عندما أخذ الافرنج يتجمعون لنجدة مدينة الرها ، وصل اليهم خبر خرابها ، فحزنوا جدا عليها ، لكنهم مضوا نحو تل أعذى (تلعدا)(٣٢)فاجتمع عليهم الترك هناك ومنعوا عنهم القوت ، فتضايقوا من الجوع وهربوا،وحينئذ ترك أهل سروج المدينة وهربوا فدخل اليها الترك.

اما زنكي فبعد أن احتل الرها توجه الى البيرة ، واما جوسلين فقد ذهب الى القدس ليجمع جيشا ، لكن فتنة اشتعلت بالموصل واخرجوا الصبي ابن السلطان الذي كان محبوسا وقتلوا نصير الدين نائب زنكي ، ولما سمع زنكي ترك البيرة ومضى الى حلب ، واصطلح مع الافرنج ، وبذلك نجت البيرة منه.وبعد هذا ارسل زنكي رئيس عسكره زين الدين واصلح الحالة بالموصل ، ووضع ابن السلطان بالسجن مره أخرى فعاد وتقوى مركز زنكي ثانية.

لما ظهرت صحيفة مطران ماردين لتوضح أن خراب الرها لم يكن بأمر الله ، قام اياونيس أسقف كيسوم وابن اندراوس وعدد كبير اخر كتب كل واحد كتابا رد فيه على كلام مطران ماردين ، ولما وصلت الصحيفة التي كتبها مطران ماردين الى ملطية تصدى لها القسيس صليبا ايضا ، وهو معروف بأدبه وطلاقته.، وكان علما في جيله ،وضع كتابا رد فيه على مطران ماردين ، وكان قد ورد في كلام مطران ماردين ، انه ليس كليا بإرادة الله تأتي القربات والألطاف فيلقي عنايته الكل ، واذا علينا أن نفهم أن الارادة لها انواع ، والأمر له انواع والسماح له انواع ، وهذا كلام باطل يثبت بطلانه بشهادات الآباء الألهيين الذين يقتدي بهم.

إن السبيل المقصود لنا في هذا الكتاب ليس هذه الأمور بل لنوضح

فقط ماذا صار وماذا حدث في كل زمان حتى لا يكفر القارىء إن انتقل الضمير من خبر الى خبر ، وهذا ماقصد ايضاحه.

اما من يريد ان يفهم الصحيح حول هذا الخبر فليقرأ الكتاب الذي جمعه البار مار ديونسيوس مطران أمد ، أي يعقوب بن الصليبي ، لأن كل شيء مفصل فيه بشكل جيد وموضح بالتحقيق وفقا لرأي المعلمين الحقيقيين.

وكتب ديونسيوس المطران ، وكان بعد شماسا للطية قصيدتين بلحن مار يعقوب حول سقوط الرها.

وكتب ايضا باسيلوس مطران الرها ثلاث قصائد عن الرها لأنه كان حاضرا بها في المحنتين ، وقد كتب بالتفصيل حول ذلك ، وكل من يريد أن يتعرف على ما حدث فليقرأ هذه الميامر الخمس.

ويوم الخميس في ١٣ كانون ١٤٥٦ اي في الشهر الذي سبيت فيه الرها وقعت نار في دير القراريط في بلاد خرشنة،واحترق بها شيخ راهب،أما البقية فقد نجوا من هذه النار •

وفي ذلك اليوم ايضا احترقت قرية في بلاد مرعش.

كذلك يوم الجمعة من الشهر عينه أيضا وقعت نار في دير مار برصوم فأحترقت فيه ثلاث غرف.

وفي أول أيار تراءى كوكب مذنب في الساعة الحادية عشر من الليل ، وكان ذنبه تجاه اليمين ، وبقي سبعة أيام ثم تراجع وعاد فتراءى في المغرب سبعة أيام أخرى ، وفي ٢٤ أيار يوم عيد الصعود وقع زلزال شديد.

وابتدأ في هذا الزمان بلدوين الفرنجي حاكم كيسوم ببناء سورها بحجر وكلس ، وكان من قبل مبنيا بالطوب المجفف والطين ، وقد أثقل نير الظلم على المسيحيين ، حتى انه حول الكهنة الى عبيد ، وقد بنى نصف السور فقط ، ثم قتل فأوقف البنيان.

مقتل زنكي

في سنة ١٤٥٧ لما رأى الفرنج انهم ضعفوا مضى ريمـوند حـاكم انطاكية القسطنطيني الى منويل ملك الروم اليونانيين وطلب الغفران عن الخطيئة التى أخطأها مع ابيه ، لأنه سمع أن أباه أمره أن ينتقم من الأفرنج ، ولما أظهر التذلل والندم اكرمه واعطاه ذهبا ، واغدق عليه الهدايا الكثيرة ، وارسله الى مدينته ، لكنه طلب من الملك أن يهب لمعونه المسيحيين.

اما زنكي فقد جاء الى الرها ومكث يومين أحتفى بالسريان الذين بها ، وعامل المسيحيين المجتمعين فيها بكل محبة ورحمة وشفقة ، ثم مضى الى قلعة جعبر على شاطىء الفرات ، لكن المولى العالي سخط عليه ، وحكم عليه بما لا يعرف،فقام احد عظماء عسكره مع اثنين من الخصيان المقربين اليه وقتلوه بعد أن أكثر من شرب الخمرة ونام ، وكان ذلك ليلة الأحد في ١٥ ـ ايلول بعد أن ملك في الموصل وفي البلاد الأخرى تسع عشرة سنة وملك على الرها سنة وعشرة اشهر ، فأما الذين قتلوه فدخل واحد منهم الى قلعة جعبر ، ونجا ، وهرب الآخر الى قاليتيقوس ، اما العساكر فتفرقوا.

أما اولاد زنكي فقد تفرقوا وتولى كل واحد منهم ناحية :حيث ملك محمود المدعو نور الدين مدينة حلب ، وملك الآخر المسمى غازي سيف الدين مدينة الموصل.

وقد صارت فوضى في البلاد ، فخرج لصوص الأتراك في كل مملكة زنكي ونهبوا بغير شفقة كل ما وجدوه.

وبهذا الزمان سبي دير قرتمين (٣٣)وقتل منه أربعة رهبان ، ودخل بهذا الزمان قرا أرسلان صاحب قلعة حصن كيفا

- ٢١١٧ -

الى طور عبدين (٣٤) لانها كانت فيما مضى لأبيه ، ثــم انتــزعها منه زنكي ، فعاد وتسلط عليها بعد أن قتل بها خلق لا يحصى عددهم

وقام في الموصل اناس اجتهدوا أن يملكوا بها لأن ابن الســلطان كان محبوسا بها ، فقــام زين الدين بــكل عنف وكسرهــم وقتـــل اكثرهم ، وعاد فحبس ابن السلطان ، وملك بعد وفــاة زنكي ســيف الدين غازي ابنه •

واقعة الرها الثانية

لما عرف الأفـرنج بمقتـل زنكي عام ١٤٥٨ اجتمـع جـوسلين وبلدوين حـاكم كيسـوم في تشرين الأول وارتحـلا الى ناحية الرها ، فتلسق رجال الأفرنج ليلا على سلالم كانت مع رجـال مـن الارمن كانوا يحرسون السور ، ودخلوا المدينة فلما فوجيء التـرك هربوا والتجأوا الى القلعـة الداخلية ، وفي الصـباح فتـح البـاب المسمى بـاب الماء ، ودخـل منه جـوسلين ، وكان ذلك يوم الاثنين في ٢٦ تشرين ، لكن الأتراك سرعان ما أرسلوا يطلبون النجدة مـن حلب والموصل ، ولم تمض ستة أيام كان الأفـرنج فيهـا مـا زالوا يفكرون كيف سيقتحمون القلعة الداخلية ، حتى أطبق عليهم الأتراك من كل ناحية وصوب كالجراد الذي لا عدد له ، فلمـا راى الافـرنج ذلك خافوا وارتعدوا ، لقد ابتعدوا عن طريق الرب واندفعوا في طريق الخطيئة ، فصار الله خصمهم ، فجمعوا كل شـعب المدينة الشـقي وساقوه امامهم ، وكان ظنهم أن يفلتـوا مـن بـراثن التـرك الذين كانوا يحيطون بهم في كل مكان ، ولقد كان شـعبنا الذي لا يعـد ولا يحصى يساق سوق الأغنام والدواب ، وفجـأة لم يروا الا الاتـراك حولهم ، فعندما كانوا وراء الاسوار وخلف المتاريس لم يسـتطيعوا أن يقاوموا الترك ، فكيف سيجابهونهم في وسـط الصـحراء؟ لقـد قسيت قلوب الافرنج فجروا هذا الشعب المغلوب في الساعة الثـانية بعد منتصف الليل بعد أن اشعلوا النار في بيوتهم ومدينتهم ، وعندما شاهدوا ذلك اخذوا يصرخون ويبكون ويترحمون أو يحسدون الذين ماتوا في المرة الأولى ، لأنهم لم يروا تلك النار التى اشعلها الافرنج لتحرق ارزاقهم واموالهم والسيف المسلط فوق رؤوسـهم ، ومـات العديد منهم دهسا تحت خيول الافرنج في قلب الظلام ، أما الذين لم يخرجوا بسبب ضعفهم أو شـيخوختهم ، وكذلك الذين اجتمعـوا في البيع وفي الاقبية والدهاليز فقد انقض عليهم الأتراك الذين في القلعة الداخلية واخذوا يعملون السيف في رقابهم ، فلم يبق منهم أحد ، اما

الذين اخذهم الفرنج الى الخارج فقد تركوهم وهربوا ، فأحاط بهم الاتراك ، وبالهول ما حدث وفظاعة ما جرى ، كانت الدماء تسيل كالأنهار والصراخ يعلو حتى يشق عنان السماء ، ولقد كانت ليلة ليلاء المت بالرهاويين ، لقد بقيت السهام تخرق اجسامهم وحوافر الخيل تسحقهم ، والسيف يقص رقابهم طوال الليل ولمدة ست ساعات.

اه يا اخوتي من لم يبك اذا سمع ، لقد هرب فرسان الافرنج الاشقياء وتركوا هذا الشعب الأعزل بعد أن ساقوه الى حتفه ووضعوه في جحيم المعركة ، والتجأوا الى قلعة خربة مهجورة تدعى حصن كوكب ، واستطاع أن يهرب معهم الف رجل من الذين استطاعوا الركض ، حينئذ وبعد أن تعب الأتراك من القتل وملوا اوثقوا الباقين بالحبال بعد أن نزعوا عنهم ثيابهم واسلحتهم ، اوثقوهم حفاة عراة رجالا ونساء بأذناب الخيل والعصي فوق رؤوسهم ليسرعوا مع الخيل ، اما من كان يقع على الارض فكانوا يشقون بطنه بالسيف.

لقد قسا الزمان على المسيحيين فتكومت جثث الكهنة والشمامسة والرهبان والراهبات والفقراء والأغنياء ، وعلى الرغم من أن موتهم كان مريرا لكنهم لم يتعذبوا كالذين بقوا على قيد الحياة ، لقد ملأت الجثث البراري حتى انتن الجو ، وصارت مأكلا للحيوانات المتوحشة وللطيور الجارحة ، وامتلأت بلاد أشور بالأسرى ، أما بلدوين حاكم كيسوم فقد قتل ولم توجد جثته ، اما جوسلين الأثيم فقد فر الى سميساط ، ونجا ، وكذلك هرب المطران باسيلوس ونجا ، أما مطران الأرمن فقد قبض عليه مع عدد كبير من جماعته.

وكان الافرنج قد التجأوا الى قلعة كوكب كما قلنا ، فلحق بهم الأتراك لكن المساء كان قد ادركهم فتركهم الاتراك وتوجهوا للنهب والسبي لأن هذه البقعة كانت مملوءه مالا وذهبا ، ومقتنيات منذ أجيال كثيرة ، حملها اصحابها من تلك المدينة المذكورة التي كانت تتعرض باستمرار للغزو.

وعندما عاد الترك الى القلعة الخربة كان الافرنج قد خرجوا تحت جنح الليل في الليلة نفسها ، ووصلوا الى سميساط ونجوا.

وقد كان تعداد الذين قتلوا في المرة الأولى والثانية ثلاثين الفا تقريبا ، وكان تعداد الذين أسروا ستة عشر الفا ، والذين نجوا الف رجل وامرأة واحدة ولم ينج أي ولد،وقد تبدد اهل الرها في طول البلاد وعرضها ، وبقيت هذه المدينة خالية خاوية تروع الناظرين وتقص عليهم ما جرى لها ، ثم اصبحت مأوى للوحوش وباقي الحيوانات ، ولم يدخلها سوى الذين كانوا يأتون اليها من اهل حران بحثا عن الخزائن المطمورة والمتاع والمقتنيات التي كان لها اصحاب يوم ما.

الحملة الصليبية الثانية

لما سمع من في ايطاليا اخبار الفظائع التي وقعت بالرها أجتمع الافرنج وتوجهوا الى المشرق بأعداد كبيرة لا تحصى ، وكانوا بقيادة ملكين كبرين وبعض القمامصة ، فأقبل ملك الألمان (٣٥) مع تسعمائة الف فارس وملك فرنسا مع خمسمائة الف فارس مع شعوب أخرى مختلفة الألسن.

فلما سمع بهذه الحملة الكبيرة ملك اليونان منويل خاف اذا دخلوا البحر وملكوا أن يطيحوا بمملكة اليونانيين ، فاتفق مع الاتراك على أن يعيق قدومهم ، واستطاع أن يؤخرهم سنتين لكنهم في سنة ١٤٥٩ يونانية هاجموا القسطنطينية بعد ما عرفوا باتفاق اليونانيين مع الاتراك وحاولوا تخريبها غير أن ملك اليونانيين أعطاهم ذهبا كثيرا ، وعاهدهم أن يرسل معهم مرشدين يدلوهم على الطريق فكفوا عن قتالهم له ، بيد أن ملك اليونانيين غدر بهم فساقهم أدلاؤه في طرق جبلية وعرة قاحلة لا ماء فيها ولا خضراء ، ثم تركهم اليونانيون وانسحبوا ، فتاه الافرنج وبقوا خمسة أيام يسيرون دون أن يعرفوا الى أين ، فهلك الوف منهم عطشا مع خيلهم ودوابهم ، ولما عرف الاتراك بهم وبحالتهم انقضوا على شتاتهم في تلك المسالك الوعرة ، واخذوا يفتكون بهم جمعا وفرادى حتى تعب الاتراك من كثرة القتل ، وقد امتلات بلاد الأتراك من ثياب الافرنج ومتاعهم ومقتنياتهم ، حتى بيعت الفضة بملطية بسعر الرصاص.

أما الفرنج الذين هربوا من المعركة فقد وصلوا الى شاطىء البحر منهكين جائعين ، فأخذ اليونانيون يخلطون القمح بالكلس ويطعموه لهم ، وسرعان ما كانوا يسقطون أمواتا ، وقد قتل اليونانيون الوفا منهم بهذه الطريقة.

وقد صار ما جرى حكاية للأجيال القادمة تحكي أن شعبا عظيما وكثير العدد قد غلبه شعب اقل منه عددا وعدة بواسطة الحيلة.

اما ملك رومية فقد مرض ومات ، ونجا ملك الألمان مع ثلاثة من القمامصة فذهبوا الى القدس ، وبعد أن أقام هناك عدة أيام زحف إلى دمشق فأرسل معين الدين أنر صاحب دمشق وأهل دمشق الى

ملك القدس سرا يقولون: أتظن أن هذا الملك الكبير اذا استولى على دمشق سوف يتركك في القدس ؟ نحن أخبر منك بهؤلاء ، خذ منا هذا الذهب وادفع بهؤلاء الى البحر لتتخلص منهم ، وتصون نفسك ومملكتك ، ثم أعطوه مائتي الف دينار ، وكذلك أعطوا حاكم طبرية خمسين الفا ، فلما أخذوا الذهب ورجعوا الى القدس وجدوا الدنانير نحاسا مطليا بذهب مصري فحزنوا وندموا على فعلتهم ، اما ملك الالمان لما نظر انه وقع ضحية حيلة فاضحة رجع الى بلاده يجر اذيال الخيبة والاخفاق ، وهكذا لحقتهم لعنة نهاية الرها التي خربوها ضد ارادة الرب.

قصة دمار الرها حسبما كتبها البار دونسيوس مطران أمد

قال : لقد حل بهـــا الخـــراب والفناء بســـبب المســـيحيين انفسهم ، لأن الله اراد أن يؤدبهم ، لأن الأعداء لايمكن أن يقهـروا المسيحيين بدون سماح الرب وموافقته ، وقد يقول بعضهم إن هـذا تجديفا ، لأن الرب لا يسمح بهلاك جبلتـه ، ولا يسـمح للأعداء أن يسبوا العذارى ويقتلوا الناس ، لكن الصحيح إن الرب أمـر بـذلك لاننا تركنا طريقه التي هـي تجلب لنا مـا نسـتحق ، فـإن اردنا الخير يعيننا الله العلي العظيم ويمسك بيدنا على كماله ، وإن أردنا الشر فيقودنا الشيطان الى هلاكنا مثل اهل الرهـا الذين نكبـوا في المرة الثانية نكبة أشـد وافـظع مـن المرة الأولى ، فيا ايهـا البشر لاتظنوا أن هذا قد حدث بسبب خطيئة شعبها فقط ، وإنمـا بسـبب خطايا كل الناس في كل مكان،مثـل عكار الذي أخـطأ وحـده فـأتى العقاب على كل قبيلته،وأولاد عيلي الذين قتل بخطاياهم اسباط بني اسرائيل ، فعندما يخطىء القليلون الحقيرون ينسحب عقـابهم على كل الشعب ، فكيف بالحري في هذا الزمـان الشرير الذي كل واحـد انحرف عن الحق ، وعمل الاثـم وابتعـد عن العفـة ، لذلك أدبـه الله ، ولذلك ياأخـوتي علينا أن نخـاف ونفـزع ونطـرح عنا الخطيئة ، ونفكر بالروح ، وليس بالجسد وإن ما حدث من الغضب يكفينا الآن.

قصة الرها من تاريخ باسيليوس مطرانها

بعـــد الطـــوفان الذي صـــار في أيام نوح بنى الرهـــا الملك نمرود ، وكان في بني كنعان ودعاهـــا « اور » اي القـــرية ثـم زاد الكلدانيون بها اللاحقة ـ «ها» فصارت تعني قـرية الكلدانيين مثـل أورشليم التي تتألف من أور وشليم ، أي قرية شليم .

وقد ازدهرت الرهـا وأخصبت وبقيت زمانا طـويلا هـكذا ، ثـم خربت وانتهت ، يقول يعقوب الرهـاوي عن خـرابها : على حسـب الظن ان الرهـا خربت في ايام صعود سنحاريب الى دمشـق ، وبقيت مهجورة الى أيام الاسكندر ، حيث أعاد بناءها العمال الذين صعدوا معه من مكدونيه وسموها « اديسا » اي المحبوبة على أسم مدينتهم التي في « مكدونيا » .

وبعد ثلاثمائة سنة ملك فيهـا الملك ابجـر بـن معنو الذي آمـن بالمسيح ، وبعد أبجر وأولاده حكمها ملوك رومـانيا ، وكانوا بعـد وثنيين يسجدون للأصنام ، وقد بقيت تحت حكم هؤلاء سبعين سنة أخرى وبهذا الزمان استشهد المعترفون المتشرفون شمونه وجـوره وحبيب وقزمان ودميان .

ولما ملك الملك قسطنطين عظمت بـالمسيحية ، وبنوا بهـا هياكل عظيمة ، وحين ملك يوليان الوثني لم يستطع ان يستعبدها ، لاهـو ولا أويس الهرطوقي ، وبعد هذا عاشت الرهـا في سلام أبان الفتـرة المسيحية وحتى عهد مرقيان الهرطوقي .

وكثر الاضطهاد في ايام يوسطنيان والذين بعده ـ

وفي ايام هرقل صـارت في أيدي العـــرب منذ أيام عمـــر بـــن الخطاب ، ثـم انتقلت الى ايدي التـرك وبقيت نحـوا مـن أربعين سنة .

وفي أيام العرب تهدم سورها الحصين الذي بناه سلوقس ، وقد وصفه مار افرام ،أما سبب هدمه فهو لما بنى المنصور الدوانيقي ، قصرا في الرقة ارسل فطلب من الرهاويين اعمدة صغيرة من الرخام من بيعة الخبيزة ، فرفضوا ان يعطوه فحقد عليهم ، لكن هؤلاء من خوفهم عصوا عليه ، فزحف ضدها وخرب هيكل مار سرجيس ، وحينئذ ذهب بعض أهاليها سرا اليه ، اما هو فأقسم أنه لن يقتل او يسبى او يغير اي شيء ، لكنه سوف يأخذ من المدينة حصانا ابيض وينبحه علامة للانتقام فقط ، أما هم فلم يفهموا ماذا كان يقصد بكلمة حصان حتى دخل وتملك ، حينئذ اخبرهم أنه قصد بالحصان الحصن الذي اسمه حصان فهدمه ، وكان سورا عجيبا ، ولم يترك سوى نبعا واحدا تخرج منه مياه الطواحين .

وبعد اربعين سنة في ايام المأمون أعاد بناءه ابو شك الجوني الذي عصى على المأمون .

وبعد مدة ملكها اليونانيون بواسطة رجل اسمه سالمون ، خان الأمير وسلم القلعة العالية التي كان يناوب بها الحراس الى رجل يوناني اسمه مانيج ، ولما أخذ العرب الذين بها اولادهم وهربوا ، أخذ المسيحيون أولادهم وخرجوا معهم لأنهم كانوا معتادين على العيش معهم ، فهم يتكلمون لغتهم العربية ويكتبون بخطهم العربي ، وكان ينفرون من اليونانيين بل يخافون منهم لأجل هرطقتهم وشرهم ، وبعد ان خرج العرب والمسيحيون فرغت المدينة وبقيت خالية بيد اليونانيين تقريبا بعد ان رجعت اليها شرذمة قليلة من الشعب والباقي تبددوا الى حد تكريت ، وبعد فترة يسيرة قام فيها مدبر من مملكة اليونانيين كان شريفا ومؤمنا واسمه ابو كنعب ، وقد ارسل هذا الى مار دونسيوس البطرك ورسم مطرانا للرها هو اثناسيوس ، وهو يشوع راعي دير مارابحاي دير السلالم .

وبعد هذا ملك فيها فيلاردوس ، وقد ازدهرت الرها في أيام هذا

المدير لانه كان يصغي دوما الى المطران ويسترشد بآرائه ، وقد جمع سكانها من كل الأمكنة التي تشتتوا بها ، كذلك مضى المطران الى ارمينية وحتى منبع نهر الفرات وجلب خشبا وبنى بيعه مريم والدة الاله وبيعة مارثاودروس الكريمتين .

وبعد هذا ملك فيها فيلاردوس ، ولما قوي الأتراك في تلك الأيام مضى فيلاردوس الى سلطان خراسان واعلن اسلامه ، ولما سمع بنو هرون ان فيلاردوس قد اسلم عند سلطان خراسان قتلوا واليه وكان اسمه فارجيكاس ، وبعد هذا ملك بها بوزان ، ولما قتل تتش بوزان ضبط تادروس بن هاتيم الحكم فيها سنتين في أيام أثناسيوس المطران بن يسى .

ولما خرج الأفرنج ونظر ابن هاتيم انه لن يستطيع ان يحفظها سلمها للفرنج ، فملكها الأفرنج وكان اول من ملك بها الكونت بلدوين الذي قتل ابن هاتيم ، ولما مات أخوه غودفري ، عندها صار الكونت هذا ملك القدس وصار بلدوين بالرها ، ولما مات ملك القدس استلم مكانه بلدوين فأخذ الرها جوسلين ، وبعد موته ملك فيها ابنه جوسلين الثاني وفي ايام هذا اخذها زنكي ، وفي ايام زنكي خربت كليا سنة ١٤٥٨ يونانية

تملك توماس الأرمني

لما مات لاون الأرمني في القسطنطينية كما أوضحنا من قبل صار آنذاك قسم من بلاد قليقية مع اليونانيين ، وقسم مع الترك ، ولما مات الملك يوحنا ، هرب احد اولاده واسمه توماس مشيا على الاقدام لايحمل شيئا معه ، ومضى سرا الى مار اثناسيوس مطران البلاد ، لانه كان يؤمن ببركة هذا الشيخ الجليل منذ أيام أبيه ، فطلب صلواته ليرد له الله بلاد أبيه فمنحه بركته والدموع تتساقط من عينيه ، وأعطاه فرسا ، ولما اقتنى مركوبا تبعه اثنا عشر رجلا أرمنيا ، وتوجه الى القلعة المسماه قلعة عامودا ، ولما احس سكانها ان ابن سيدهم القديم قد اتى اعتقلوا اليونانيين الذي بداخلها ، وسلموا القلعة لتوماس هذا فذاع صيته وبدأ الجميع يحسبون له حسابا ، من اليونانيين ومن الأتراك معا ، وقد ملك بلادا كثيرة في مدة وجيزة ، وتبعه شعب عظيم من الأرمن والأفرنج .

ثم ذهب توماس هذا الى رعبان عند سيمون الأفرنجي حاكمها ليتزوج ابنته ، فصدف ان هاجمه الأتراك لينهبوا البلاد ، فهاجمهم توماس وقتل نحوا من ثلاثة آلاف وخلص المسيحيين وأنقذ كل البلاد ، فعظم في ذلك وتشرف ، ولما رجع الى قليقية ترك اليونانيين والأتراك المدن والقلاع وهربوا من امامه ، وملك على عين زربة وباقي مدن قليقية .

وفي السنة التي تملك فيها توماس ١٤٥٩ يونانية غزا نور الدين ابن زنكي بلاد انطاكية ، وكان جوسلين حاقدا على ريموند حاكم انطاكية لأنه لم يساعد الرها ،وكان فرحا بهلاكه وهلاك بلاده ولما عرف بذلك نور الدين حاكم حلب فرح كثيرا ، وأرسل رسلا وعقد صلحا وعهودا مع جوسلين ، والتقوا في البقعة التي بين حلب

وأعزاز واتفقا وثبتا العهود واختلط الأفرنج والأتراك وأكلوا وشربوا سوية بالفرح ، وقد صار هذا لسقوطهم ، فبهذه السنة حنق ملك جزيرة صقلية على ملك اليونانيين لكونه خدع الأفرنج وأهلكهم بالحيلة فانتقم لشعبه ، فهاجم مدينة تابيس وقتل اليونانيين وهدمها واحتل أدرنة وفيلبة ، وخرج منويل ملك اليونانيين لينتقم من الرومان ، ولما نزل على إحدى القلاع أرسل ملك صقلية عساكر كثيرة من السفن في البحر ، فنهبوا وارتكبوا كثيرا من الفظائع باليونانيين ، ووصلوا حتى القسطنطينية وهاجموا القصر المبني على شاطىء البحر ، وأخذوا يرشقونه بسهامهم ، ولما سمع ملك اليونانيين ، ترك القلعة ورجع فالتقى اليونانيون والأفرنج وجها لوجه ، وصارت حرب عظيمة في البحر ، وقتل أناس كثير من الجانبين ، وأخيرا رجع الأفرنج إلى بلادهم ، ورجع اليونانيون وملكهم إلى القسطنطينية .

كمل هذا الخبر وأرجو من كل من يقرأ في الكتاب أن يدعو لي في صلاته لأني خاطىء وذليل وضعيف ، وله أجر من صاحب الجزاء .

في سنة ١٤٥٩ يونانية قل المطر في كل مكان وشحت مياه الينابيع ، ووقع الناس في شدة عظيمة وهجرت أماكن كثيرة ، وفرغت من السكان الأماكن التي نضبت فيها الأنهار والعيون وفي السنة التي تلتها لم ينزل المطر حتى نصف كانون الأول ، ومر شتاءان كالصيف ، وقد وقع الناس في شدة عظيمة من العطش ، حينئذ أشفق الرب ، وأرسل المطر فشبعت الأرض وارتوت ، وصار شتاء طيب ورطب وخصب كالربيع .

في ٢٥ كانون الثاني تراءى كوكب مذنب في نصف السماء قبل المغرب ، وبقي مدة شهر ، وفي ١٦ شباط تراءى آخر غيره من الشرق وقت السحر ، وبقي خمسة أيام وصار قلة في المطر حتى جفت أكثر الينابيع .

وفي تلك السنة ولد بالقسطنطينية ولد من جارية ، له في مقعده عيون وفم وأسنان وذنب .

وفي هذه السنة نبعت بالقسطنطينية بدعة رديئة جدا كانوا يسمونها فوجو ليموس ، وقد تبعها جملة رهبان وبعض الشعب حتى بطريركهم ، فنفي وصار غيره مكانه ، وكانوا يعتقدون أن المسيح إنسان ساذج توكل للعناية على هذا العالم ، ويقولون إن الشياطين يبنون لهم بيوتا ويعدوهم بمال وسلطان أيضا ، وكانوا ينفرون من السجود للصليب .

وقد انطبق على الخلقيدونيين ماقاله الرسول الالهي : لما ظنوا أنفسهم أنهم حكماء ، عندها جهلوا لأنهم مالوا عن الحق وسقطوا في وحل نسطور ، ومزجوا الحق بالاثم ليضللوا البسطاء ، فسمع الله بهم وسقطوا في أباطيلهم ، وصارت مدينة قسطنطين البار مقرا للشياطين ، واتسعت هذه الضلالة حتى أسقطتهم في وسط الجفرة ، وهكذا تمت عليهم كلمة صفنيا النبي القائل : من القدم إلى الرأس ليس فيهم موضعا صحيحا .

بعد مصرع الرها المروع ، هرب مطرانها باسيليوس إلى سميساط فأتى بعض من أهل الرها إلى جوسلين ، واتهموا المطران الشيخ قائلين: لقد طاب له حكم الترك ، وحالما سيشعر بالضيق عندك فانه سيمضي راجعا اليهم ، فأجاب جوسلين: من الخير أن يموت لئلا يعيد الذين بقيوا على قيد الحياة الى الترك ثانية ، عند ذلك امسكه جوسلين وحبسه في قلعة الروم مع الأسرى العرب وبقي هناك ثلاث سنوات ، وقد كتب فيها ميامره مع أمور أخرى ، كذلك كتب ضد الذين قالوا : من الآن انتهت البركه التي وهبها المسيح سيدنا للملك الأبجر ، وبعد أن خرج من الحبس كان يتجول ويجمع الصدقات ليفتدي أهله وقبيله في سجون الأتراك ووصل إلى أنطاكية والى القدس ، وقد استقبله بترحاب الملك والبطريرك الافرنجي ، ولما رجع ووصل الموصل وتواجه مع زين الدين الحاكم خليفة زنكي والذي كان يدبر الأمور مع ابن زنكي ، أيضا أكرمه ومنحه عطاء يكفيه لمعيشته ، وبعد أن بقي هناك مدة توجه نحو ماراثنا سيوس البطريرك الذي كان مقره في ذلك الزمان في آمد التي بين النهرين ،

وطلب منه أن يعطيه رئاسة مرعش وسيبارك (سويرك) والشمال وكانت منذ زمن تتبع لمطران الرها .

وفي سنة ١٤٥٨ يونانية نزل تمرتاش حاكم ماردين على دارا وأخذها ، حينئذ صعد غازي بن زنكي ونهب كل ما بين النهرين ، وعندما تواجه الجيشان وشعر الجميع ان لابد من المواجهة اجتمع قضاتهم وتوسطوا بينهم ، فأرجع حاكم الموصل المنهوبات وآخذ المدينة .

وبعد ذلك قوي الاتراك كثيرا ، واخذوا يدخلون بلاد الافرنج من كل جانب ودخل قلج ارسلان بن السلطان مسعود الى بلاد جيحان ونهب مرعش ، ثم عبر الاتراك الى بلاد كيسوم فخرج الى لقائهم رنجر الذي حكم كيسوم بعد مقتل أخيه بلدوين .

وفي هذا الزمان خرج منويل ملك اليونانيين ليقابل السلطان مسعود ، فجمع السلطان أمراء الاتراك والعساكر من بغداد ومن خراسان ، وفي باقي البلاد ولما تدانى العسكران للحرب علا صوت الفرنج فجأة ففزع الجانبان وخافا فاصطلحا ، ورجع ملك اليونانيين ليحصن بلاده ورجع السلطان الى ارضه .

« نهب جوسلين دير سيدنا مار برصوم في سنة ١٤٥٩ يونانية »

دخل جوسلين الدير في يوم السبت ١٨ حزيران سنة ١٤٥٩ يونانية ، وأخرج منه الرهبان يوم الاثنين في العشرين من الشهر نفسه ، ووصلوا يوم الثلاثاء إلى حصن منصور وذاع الخبر ، وغضب الشعب وهاج ، ونصحه بعض المقربين أن لايترك الدير بدون رهبان لأن الشعب يهم بالدخول إليه ، فطلب أن يعطيه الرهبان عشرة آلاف دينار ليعيد لهم الدير ، ومضى أناس من جماعة جوسلين وأحضروا الصندوق الموضوع به يمين القديس وأثاث ومقتنيات الأديرة الأربع ، والذين كانوا مخزونين في الدير نفسه ، وهم دير مار أبحاي ودير سرجيسيه ، ودير مانيق ، ودير البارد ، وبقي في الدير بعض الرهبان والعمال ، وصار راعيا للدير شيخ راهب اسمه مودعل ، ووضع جوسلين بالحصن العالي عشرين جنديا أرمنيا ، ومعهم آخرين ، لكن أولئك استولوا على كل ماوجدوه بالدير من حنطة وخمر وزيت وعسل وثياب وأواني .

ولما أخذ جوسلين بدون رحمة أو شفقة القديس والرهبان إلى تل باشر كان ضمنهم هناك أناس من الأفرنج ، ومن السريان ومن الأرمن وقد دفعوا ذهبا لخلاصهم ، وكان جوسلين قد أمسك أيضا مع الرهبان والقديس ثلاثة مشايخ هم : داوود ويعقوب وسرجس .

لكن في شهر آب رجع الباقي إلى الدير ، وغادره الأرمن الذين أتى بهم جوسلين وكان رئيس الذين رجعوا عازار الشيخ ، ومعه قسطنطين وأحضروا معهم مارايوانيس أسقف كيسوم ، ولما دخلوا الهيكل وجدوا أن المائدة المقدسة مقلوبة والدير كله مدنس ،فأجهش الجميع بالبكاء بأصوات شجية كل ذلك اليوم ، وبعد هذا طلب الجنود من الرهبان بأن يحلفوا لهم إذا جاء جوسلين مرة أخرى أو

ابنه أن لايغلقوا الباب في وجهه ، وكان عدد الجنود مائة وخمسين ، فرفض الرهبان أن يحلفوا لهم ، لذلك بقي الأفرنج والأرمن سبعين يوما في الدير وأوقفوا الصلوات والخدمة وأطفأوا المصابيح ، ثم ارسلوا خبرا إلى البطريرك في آمد ، فأصدر أمرا إلى مطران كيسوم بأن يقوم هو بالصلاة في هذه الأماكن المقدسة ، ثم أكمل التطهير والتجديد حسب الناموس وأقاموا راعيا للدير اسمه عازر بأمر البطريرك ، ووضع صائغ ومدبر وأناس لباقي الخدمات كالعادة وبحسب ناموس الدير المتبع منذ الأجيال الأولى ، وأعطى كل واحد من الرهبان والعمال ماعنده من الذهب إلى جوسلين وذلك لافتداء هذا المكان المقدس .

وهكذا رجع دير سيدنا مار برصوم بقوة الله الذي سمح بأن يكون هذا تأديبا لنا ، وأمر بهلاك الطاغيه جوسلين الثاني بن جوسلين ، الكافر العاتي الذي احتقر الكنيسة المقدسة والمذبح والأواني القدسية ، فضرب الله جوسلين في ذلك الوقت وأهلكه عقابا عادلا له كما أوضحنا القول .

إن ماكتبناه كاف لأن يوضح كيف ومتى سبي دير القديس مار برصوم ، ويجب أيضا أن نوضح ماحدث في ملطيه .

كان بذلك الزمان يملك في ملطية دولت التركي ، وكان يضع خراجا على الدير يعطيه لملطيه ، وقد وضع هذا الخراج بالقوه الأمير غازي دولت ، لكن لما سمع دولت أن جوسلين دخل الدير ظن للوهلة الأولى أن الرهبان سلموا القلعة لضيقهم من الخراج الذي زاد عليهم ، وكان يعرف أنهم كانوا يتشكون ويتضجرون من ارتفاعه ، لذلك صب الأمير غضبه على المسيحيين الذين في ملطيه قائلا لهم : إن أهل إيمانكم سلموا القلعة إلى الفرنجة ، وأخذ ينتقم منهم ، وكان أهل ملطيه حزانى على سبي الدير من جوسلين ، فأتى الضيق والاضطهاد ليزيد عليهم فوق الحزن شدة ، فأبطلوا الصلوات وأوقفوا قرع النواقيس في البيع لمدة ثلاثة أيام إلى أن تحقق الأمير أن الرهبان لم يسلموا القلعة الى جوسلين ، لكنه دخلها بالحيلة

والخداع ، فأوقف اضطهاد أهل ملطية ، واستعد جمع من العسكر ليذهبوا ويخرجوا الافرنج في القلعة ، وفي تلك الفترة تدخل التدبير الالهي فتطوع إثنا عشر راهبا وخمسين متعبدا كانوا قد أتوا من بلاد قلونية إلى ملطيه ، ومعهم ثيران وأواني ومتاع ومقتينات يستتروا بها ، وقد أطفأ موقف الرهبان هذا غضب الأمير ، وكان معهم شيخ تقي يدعى ابراهيم ويكنى سورديم استطاع أن يدخل إلى عند الأمير ويقنعه قائلا : ربما لن تستطيع أن تأخذ القلعة بالحرب ، لكن أعطنا الفرصة ونحن نحتال ونأخذ الدير ، فحسن كلامه عند الأمير وأخذ يفرق الخيرات والعطايا على أولئك الرهبان الذين أتوا ليستقروا عنده ، وأخيرا ساعد الدير وكل من فيه ، وأعفاهم من خراج تلك السنة ، ثم طلب منهم عهدا فأقسموا له ، وبعد ذلك أرسلوا طلبا إلى البطريرك المقيم في آمد ليغفر لهم بالعهد الأول الذي أقسموه بالقوة والغضب لجوسلين ، وإثر هذا أرسل جوسلين يقول للأمير دولت : لقد أخذت أديرة زوبر وهي لي وخربتها ، وأنا أخذت دير مار برصوم وهي قلعة تتميز عن كثير من القلاع عالية كعلو النسر عن بقية الطيور وها أنا أردها الآن لك وبهذا يكون قد بطل القسم الذي أعطاه للرهبان ، لأنه طلب الصلح من الأمير .

فرد عليه الأمير دولت بما يلي :
بما أنك طلبت الصلح فنحن نرضى به ، لكن قل لي : كيف ستحقق هذا الصلح وقد تبين لنا أنه ليس لك أمانة ، لأن المسلمين يحلفون بكتابهم والمسيحيون يحلفون بالصليب والانجيل ، فأما أنت فمزقت الانجيل وكسرت الصليب وبالتالي لم يعد لك أمانة كالمسيحيين ، فأوضح لي إيمانك هل أنت يهودي أم حنفي لكي نثبت معك القسم بحسب إيمانك ، وبهذا الكلام أفحم التركي ذلك المسيحي الكذاب وأخزاه ، وبعد ذلك سقط جوسلين ، وعاد الرهبان والقديس للدير المقدس وصارت استقامة الجانبين بالعناية الالهية .

لقد صنع جوسلين مثل سليمان بن داوود ،ترك إله آبائه المسيحيين(كذا) ، وسلم ذاته لخدمة الشياطين ، حين اجترأ على

القوة القادرة على كل شيء والمحلوله بـالقديس ، وحين دفعـه عقله المزنول ولم يحسب حسابا أن العظماء الذين معه هـم مسـيحيون ، وسوف يخبرون الرهبان بغشه ، فجمع عسكره وأظهـر وكأنه يريد أن يتوجه إلى بلاد الترك لينهب ، فأتى حـرتان ، وبعـد ثـلاثة أيام صعد هناك الجبل الأبيض وتوجه إلى العين المسـماة إيزا في رأسـه العالي في بلاد قلونيه ، وبقي هناك إلى أن سمع الشعب به فهـربوا خوفا منه ، فأخذ يتهم الرهبان بأنهم هم الذين خوفوا الشـعب ثـم قال لمن معه : إذا ضللنا طريقنا ندخل إلى الأديرة القريبة نصلي فيها ثم نرجع .

في صباح السبت ٨ حزيران سنة ١٤٥٩ دخـل جـوسلين الدير فجأة ، ففرح الرهبان لاعتقادهم أنه أتى للصـلاة ، لكن الأغبياء لم يعرفوا أنهم سقطوا في فخ محكم لأن جوسلين ظن أنه سيجد ذهبـا كثيرا ، والرهبان ظنوا أنه أتى يحمل ذهبـا ، فـاستقبلوه يحملون الصلبان والأناجيل ، وخرجوا لملاقاته عند الباب الرئيس ، ولما رأى الصليب نزل عن فرسه بكل غش وخداع وأظهـر خشـوعا ووداعه ، حتى دخل إلى داخل القلعـة حينئذ أرسـل بعض حـراسه وجنوده ليتفقدوا القلعة ، فشك بعض أهـل الدير بمـا يجـري ، لكنهـم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا ، ثم صعد خمسة مـن رجـال جـوسلين فوجدوا راهبا شيخا واثنين من المتنسكين فأمسكوهم ، ثم جمعـوا كافة الرهبان وحبسوهم داخل الهيكل ، واستدعى جوسلين الشيوخ وأخذ يعنفهم ويلومهم قائلا : لقد أخبرتم عنا بـلاد ملطية ، فهـرب الأتراك ، فاندهشوا وقالوا : ليس لدينا علما بذلك فـأضاف إن كان حقا لا تعلمون ولم تساعدوا الترك ، فأعطوني كل ما يخص الترك في هذا الدير فقد سمعت أن مالا كثيرا من بلاد الترك ، ومن الترك مخبأ هنا ، ويجب أن يعطى هذا المال للمسيحيين ليتقووا به وينتقموا من الترك الذين نهبوا أديرة زوبر ، فأجابوه قـائلين : إن فعلنا مـاتريد كيف يمـكننا أن نسـكن في هـــذا المكان ؟ حينئذ صرخ بـــوحشية وأخـرجهم مــن الهيكل وحبســهم في ذلك اليوم في بيت شـبا المدعو قاعدة ، وأرسل قساوسة الأفرنج فدخلوا إلى الهيكل وأخـرجوا كل

- ٢١٣٥ -

ماوجدوا به من صواني فضية وقوارير نحاسية وصلبان ومباخر وقناديل وإيقونات معدنية وأناجيل وكتب ، وبعد هذا توزع الجنود وأخذوا يفتشون بيوت الكهنة والرهبان وجمعوا كل ماوجدوه من ذهب وفضة ونحاس وحديد وثياب وأسترة ، حتى أنهم أخذوا من الهيكل أثاثه ، وكان معه أناس من الداوية الأفرنج ، فلما رأوا ذلك قالوا له : إننا أتينا معك لنحارب الترك ونساعد المسيحيين لالننهب البيع والأديرة ، فتركوه ومضوا ولم يأكلوا خبزا أو يشربوا شيئا ، أما الشقي وأتباعه فقد مكثوا كل يوم السبت ينهبون ، وحملوا كل مايستطيعون حمله بعد أن فتشوا كل شيء تفتيشا دقيقا ، وفي المساء ، وكان اليوم التالي هو الأحد ، أخرجوا الرهبان وكافة الشعب وأنزلوهم وقضوا الليل عند الكرم المدعو الفيل عند شاطىء النهر ، ووضعوا في الدير جملة من الحراس الأفرنج والأرمن ، لكن الشيطان عاد فعلمه أن يرجع للدير المظلوم ، فعاد وعاد معه الرهبان ، وعادوا يفتشون علهم نسيوا شيئا لم يأخذوه ، ثم صعدوا إلى المعصرة ، ودخلوا إلى أكواخ النساك ونهبوا كل شيء وجدوه ، ثم حملوا كل شيء على الجمال والبغال وخاصة أثاث الهيكل ، وحلل النحاس ، ومتاع من كل جنس وكان بينهم صليب ذهبي فكسره جوسلين الطاغي داخل الدير ووزعه على الذين كانوا معه ، ولم يكتف بذلك بل أخذ بغال الدير ، وكانوا إثني عشر بغلا ، وأخذ معه الرهبان الذين حضروا وكانوا نحو خمسين ، ويوم الاثنين وصلوا إلى جوتي .

فصل حول دير مار برصوم

صحيح ان القديس مار برصوم سمح بسبب خطايانا ان ينهب ديره ، لكنه لم يهملنا ولم يسمح ان نهلك كليا ، كذلك لم يسمح للطاغي أن يمر دون درس ، حتى إذا ما أراد أن يرجع للتوبة يستطيع أن يخلص ، فقد راى ثلاثة من جنوده حلما في ليلة واحدة ، حسبما هو مكتوب عن رواية شاهدين أو ثلاثة ، فقد رووا أن ثلاثتهم شاهدوا في الحلم أن دير القديس يبرق ، وأن القديس واقف على رأسه بمنجل لايوصف ، وقد دعاهم وقال لهم : امضوا وقولوا للككم إن غضبت على رهباني لانهم أخطأوا واغضبوا مولاي فقد نجيتهم ، إنني نجيتهم من يديه حتى يندمو ويتوبوا ، وقد أمرت الآن ان تتركهم ليرجعوا إلى ديرهم .

واجتمع هذا الجندي مع زملائه الاثنين الاخرين اللذان شاهدا الرؤيا نفسها وقصوا على بعضهم بعضا رؤيتهم ، ثم تشجعوا ودخلوا الى جوسلين الشقي وقصوا عليه الحلم ، فوعدهم فرعون الثاني بعدما سمع هذا الحلم أن يعيد الرهبان ، لكنه ماالبث أن غير رايه وبدل أن يعيدهم اخذ يعذبهم ليأخذ منهم بقية الذهب ، فقد كان قد استولى من قبل على خمسة الاف ، لكن الله مالبث أن دعاه مرة أخرى الى التوبة ، وهذه المرة بوساطة أهل بيته ، فقد رأوا الصندوق الذي يضم يمين القديس برصوم يشع ويضيء كالشمس ويخرج من قلبه سيف نار ، ثم انبعث منه صوت يقول باجوسلين إن لم تتركني وتترك رهباني فإني سوف أهلكك أنت وكل بلائك بهذا السيف ، فلما أخبره أهل بيته بهذه القصة ترك الرهبان والشيوخ ، وعاد داوود ويعقوب إلى الدير في ١٥ ايلول سنة ١٤٦٠ لكنه أخذ الصندوق الذي يحوي يمين القديس سيدنا مار برصوم ، وحجزه في بيعتهم في تل باشر حتى يحضر له الرهبان الآلاف الخمسة الاخرى كما طلب منهم ، وحينئذ سقط عليه سيف الغضب من عساكر

الترك ، أن ذلك عند الله فقط سهل ، وبقوته غير المحــدودة القــادرة على الكل يصنع من عظام وأوصال قديسيه وأحبائه متىٰ يشاء وكما يليق قوة لأجل خلاص أنفسنا

مقتل ريموند أمير انطاكية ورنجر اخو بلدوين حاكم كيسوم

في كانون الثاني من سنة ١٤٦٠ دخل نور الدين حاكم حلب إلى بلاد انطاكية ونهب كل البلاد ونزل على الشغر لكن ريموند حاكم انطاكية لم يكن موجودا فيها ، ولما سمع أتى مسرعا ولم يدخل لانطاكية بل جاز عليها ، وكان معه علي بن وفنام البدوي الذي انشق عن نور الدين ، وكان هذا مع عسكره قد ساعد الافرنج كثيرا حتى كسروا الاتراك وجعلوهم يهربون بحالة سيئة .

دخل في هذا الزمان قرا أرسلان حاكم قلعة زياد إلى بلاد آمد بوساطة الحيلة ، إذ اتفق سرا مع اناس من داخل القلعة على أن يسلموها له لكنه أخفق في ذلك ، وعندها أخذ يسبي أهل البلاد وقد ساقهم مسيرة يوم كامل ، لكنه عندما رأى حالتهم التعيسة على الطرقات المملوءة ثلجا وجليدا حزن عليهم ، وتساءل ماذا خطأهؤلاء فأعتقهم وردهم إلى ديارهم .

أما جوسلين فقد جمع عسكرا ودخل لينهب في بلاد الرها وحران ، ثم عاد الاتراك وأقاموا كمينا وقتلوا عددا كبيرا من جنوده

وعندما كان نور الدين حاكم حلب يتقد غيظا ويحتال ويجمع عسكرا ، كان الافرنج المتكبرون والمتغطرسون لايبالون بما حولهم ، وربما دفعهم الله الى هذا الموقف جزاء لأعمالهم الشريرة ، فاستهتروا باعدائهم الاتراك الذين اخذوا يتجمعون حولهم ، كما يتجمع الذباب حول الجثة ، فتركوا قراهم وكرومهم بغير سياج ، وكان شأنهم في ذلك كالذي يترك بيته بدون أبواب ، ومضوا إلى بلاد العرب كما يمضي الغزال الى الفخ ، والأيل إلى السهم الذي سوف

ينفرس في كبده ، وكان معهم علي بن وفاء العربي ، ولما رأى انهـم دخلوا الى اواسط اراضي اعدائهم قال البدوي : إلى أين أنت ماض ايها الملك واعداؤك يحيطون بك من كل جانب ، ابق في مكانك وتجمع أنت وعسكرك حتى يتفرقوا ويذهبون ، فإن أرادوا أن يدخلوا بلادك فحينئذ تلاقيهم ، اما هو فاحتقر كلامه ورفض نصيحته ومشورته ، ماكاد يهبط الليل حتى وجد نفسه في وسط الاتراك فأطبق الترك على الافرنج الاشقياء من كل جانب ، حينئذ قال له علي بن وفاء ثـانية : إنك لم تسمع مني ، وهاهو نحن الان في الفخ ، لكن اسمع مني الآن وتعال نهرب ، فعسانا نستطيع انقاذ ما أمكن ، لأن الاتراك يحيطون بنا بعسكر عظيم ، واذا أشرق الصباح ونحـن مـازلنا هنا فسـوف يهلكونا ، وعندما انبلج الصبح وقبل أن تشرق الشمس هجم الأتراك هجوما عنيفا ، وكأنهم جبل مـن الماء ، وأخـذوا ينبحـون الكبـار والصغار وكانوا يتساقطون كالاشجار عندما تقطع مـن أسـفلها ، وقتل ريموند حاكم انطاكية الأسد الشديد ، وسـقط رنجـر حـاكم كيسوم شبل الاسد ، ولم ينج واحد منهم لينقـل اخبـار مـاجرى ، وتحولت هذه العسـاكر الى اكوام مـن القتلى ، وفي ذلك اليوم نزلت ضربة قاصمة بالمسيحيين ، إذ لم يشعر اهل انطاكية الا والاتراك قد غنموا كل البلاد وسبوا اهلها ، وحل نور الدين على المدينة وارسـل رأس ريموند إلى بغداد ، وهنا وقع انشـقاق بين أهـل انطـاكية ، فقسم منهم كان يرضي بالاتراك ويتحمس لوجودهم ، وقسـم هـرع الى ملك القدس مستنجدا ، ولما أتى ملك القدس أبقـى على الشرائع التي كانت سائدة وأقام بطريكهم رئيسا .

اما جوسلين فانه لما سمع بمقتل حاكم كيسوم أتـى وملك عليهـا وعلى القلاع التي هناك ظنا من هذا الشقي أن كيسوم يجب أن تبقى لزوجة المقتول والتي هي ابنته ، وبهذا الزمان تحارب جوسلين بعقله المرذول مع قلج ارسلان بن مسعود حاكم أبلسيتن وبلادها ، وحـل على مرعش ، وبعد أن نهب البلاد وقتل أهلهـا وعدوا قلج ارسـلان بتلبية مايريده ثمنا لنجاتهم ، فملك السـلطان على مـرعش ، أمـا

الافرنج الذين كانوا بها والفرسان والاساقفة والقساوسة فقد تركهم يمضون الى أنطاكية حسب ما نصت الاتفاقية ، لكن الترك ارسلوا من يقتلهم في الطريق وفي نهبه لمرعش هذه المرة تبدد اثاث بيعتها : جرة الميرون ، والصواني والكاسات والمباخر الفضية ، واغطية المذبح والاستار ، اخذها العصاه على اسقفهم من ايادي القساوسة.

وفي هذه السنة لما رأى الأمير قرا أرسلان حاكم قلعة زياد أن الاتراك صاروا يدخلون من كل ناحية وتملكوا بلاد الافرنج الذين تخلى عنهم الرب لأنهم هجروه ارسل عساكره وأخذ الجبولة على شاطىء الفرات فخاف أهل بلاد جرجر وهربوا ليحتموا بجبل ماربرصوما وتحلقوا حول الدير رجالا ونساء مع أولادهم ومقتنياتهم ، وبدا عند ذلك عدد كبير من الرهبان المعتزلين والمتفرغين لعبادة الله يتضجرون ويدمدمون ، ولم يستطيعوا أن يطردوا هؤلاء اللاجئين لانه كان بينهم رهبان اقرباء لهؤلاء.

ولما دخل الترك لبلاد جرجر ونظروا ان القرى فارغة وسمعوا ان الشعب في جبل مار برصوم ، توجهوا الى ذلك المكان ، يوم الاحد في ١٥ اب وكمنوا في ثلاثة اماكن ، وفي الصباح هجموا وسرقوا الدواب والثيران وقتلوا ثلاثة من المتعبدين ، وقتل اثنان من الترك ، وحينئذ ارسل الاتراك رسلا يقولون اننا نكرم هذا القديس ونقدم له النذور ، وإننا لانضمر شرا لهذا الدير ، وإنما اتينا وراء الذين توجهوا الى هنا من بلاد جرجر ، فان تعطونا اياهم نرد لكم ما اخذناه ، وإننا نعد بان لانرسل الشعب الذي نأخذه الى العبودية ، بل ناخذه الى قراه ، حينئذ انقسم اهل الدير الى فرقتين : منهم من قال يجب ان نسلم هذا الشعب ، ومنهم من كان يصرخ رافضا تسليمه وكادت الحرب تقع فيما بينهم ، لولا حكمة احد المشايخ الذي اصلحهم بحكمته ، فقد اخذ مجموعة من الفريقين وخرج الى الاتراك وقال لهم : إن كنتم فعلا لاتريدون ان تسوقوا هذا الشعب الذي ستاخذوه للعبودية فلتأت معنا مجموعة من رؤسائكم ونمضي

سوية الى قلعة زياد ، ونثبت هذا العهد عند الامير ، لكن الترك كانوا في الحقيقة يريدون ان ياخذوا هذا الشعب الى العبودية ، ولما اتضح ذلك في ترددهم ، صرخ الجميع بفم واحد : كلنا شخص واحد ولن نسلم ولو متنا كلنا ، وعند ذلك احرق الترك كل ما هو موجود خارج الدير من بيوت ومعاصر واسيجة للكروم ، واخذوا الغنم والثيران ، ومضوا، اما الرهبان فقد مضوا الى قلعة زياد ، وبوساطة المؤمنين الذين هناك استطاعوا ان يواجهوا الامير قرا ارسلان ، فاعاد كل شيء للناس حتى الثيران والغنم ، وصار فرح عظيم في كل مكان ، ومجدوا الله كثيرا .

كمل هذا ايضا على يد عبد عبيد الله ، وخادم الخدام ابراهيم الاخرس من قرية صدد - حمص سنة ٢٠٧٥ يونانية (١٧٦٤ م) في شهر حزيران المبارك .

سقوط جوسلين

في هذا الزمان نبهت العدالة السلطان مسعود فجمع عددا كبيرا من الجنود الاتراك واستعدوا لإقتحام بلاد الافرنج الاشقياء ، فدب الخوف والهلع في قلوب الافرنج الذين يدعون ان الواحد منهم يهزم الفا ، فصاروا يرتاعون من صورة على الورق ، لانه حلت عليهم لعنة الكتاب ، وصارت كل الشعوب تصرخ بفم واحد : بامر من الله تجمع الاتراك ليبيدوا هؤلاء المسيحيين الذين تجاسروا على مار برصوم ، ولما راى جوسلين ان الترك قد حاصروه واصبح سجينا في تل باشر احس بذنبه واعترف ان هذه ضربة من الله ، فوعد بالتوبة والتجا الى سيدنا مار برصوم ، حينئذ تعطف عليه الرب الذي بعث السلطان ، فحلف جوسلين للسلطان بانه سيصير تحت طاعته ، وجاء هذا التدبير كله من عليين ، فارتحل السلطان الى بلاده ، وارسل جوسلين القديس مار برصوما (اي يمينه) الى الدير ، لكن ما لبث جوسلين هذا ان رجع الى اعماله الرديئة مثل الكلب الذي يرجع إلى قيئه ، فلم تهمله العدالة ولم تحتمله ايضا ، لانه نافق ، فصارت نهايته على أيادي الترك الذين تبعهم ، لان جوسلين الذي كان قد تعاهد مع نور الدين حاكم حلب دخل الى بلاده وقتل وسبى عددا كبيراً ، وأخذ قلعتين

وفي سنة ١٤٦١ ارسل قرا ارسلان حاكم قلعة زياد واحدا من قادته واسمه الضياء فنزل الى بلاد جرجر ، وفي احدى الليالي هجم فجاة على القلعة التي يقرب الدير والمدعوه تجنكر واخذها بالقتال ، واخذ منها خمسمائة شخص كعبيد ، ووجد هناك اواني وملابس كان قد سرقها جوسلين من الدير الذي سباه ، ومن هنا كشف لكل منهم انه بامر الله صار الغضب ، وكل موضع دخل به مسروقات من الدير جرفه طوفان الغضب، ثم احتال اليونانيون والافرنج ليدعموا الذين في جرجر فاجتمع مع باسيل حاكم (حصن منصور) وكيسوم

ومع جوتاي وغيرهم نحو خمسمائة فارس وكثيرا من المشاة ومعهم الوف من احمال الحنطة يريدون الدخول لقلعة جرجر، ولما وصلوا لقرب القلعة اكتشفوا ان الترك لم يعلموا بقدومهم ، فتركوا احمالهم خارج القلعة ونزلوا ليهاجموا معسكر الترك ظنا منهم انهم سوف يهزمون الترك ، لكن الله كسرهم ونصر الترك عليهم ، وكان الترك يفوقونهم عددا فقتلوهم وبددوهم،واسر باسيل حاكم جرجر وكيريكور حاكم جوتاي ، وما هي الفرنجي حاكم كيسوم ، ولم ينج من الفرسان احد واستولى الترك على الحنطة ، وعندما انتصر الاتراك هذا الانتصار العظيم قام الامير قرا ارسلان بعمل يدل على عظمة نفسه ، وكرم اخلاقه ، فاعتق كل الاسرى وارسل كل واحد الى بيته ، واعطى حكام القلاع اماكن في بلاده ، فاخذ من باسيل جوتاي واعطاه سجمان .

وهكذا ملك الاتراك جرجر وجوتاي وحصن منصور، اما جوسلين فخرج الى انطاكية ومعه مائتي فارس ، كان يظن انهم يقاومون الوفاء،وبينما كانوا سائرين عند اعزاز بالليل التقى بهم قليل من التركمان فهرب هؤلاء الفرنج من الصوت فقط ، لانه قد ابتعدت عنهم القوة ، اما جوسلين فقد هرب واحتمى بشجرة فالتقى به رجل تركماني ، لكنه لم يعرف انه جوسلين ، وقال له إنه يريد بيعه للمسيحيين ، ولكن التقى بهم رجل يهودي في احدى قرى المسلمين ، فاخبرهم ان هذا جوسلين ، فاخذوه بفرح الى حلب فاشتراه الوالي من التركماني بالف دينار ورماه بالسجن وهناك اكمل حياته بالعذاب .

وعندما دخل الى حلب مقيدا صار فرح عظيم وسرور لكل المسلمين ، وبقي في السجن تسع سنين ، وكانوا دائما يرغبونه ويهددونه بكافة الوسائل ويقطعون عنه الطعام لكي يعلن اسلامه ، لكنه كان دائما يرفض ، فحكموا عليه بالعذاب وكان دائما يجاهر بإيمانه وكان يعترف قائلا : لاجل خطاياي اذلني الله ، وارسل الى الدير والى باقي كنائس المسيحيين طالبا ان يصلوا لاجله ، ليقبل مع

التائبين ، ولما قرب موته وهو داخل البئر الذي كان مــرميا فيه طلب ان يجلبوا له اسقف المدينة ، فجاء الاسقف وقبل اعترافه وشــاركه الاسرار المقدسة ، ولما توفي اعطــوه للمــؤمنين فجنزوه وقبــروه في البيعة ، واجتمع على دفنه اكثر اهل المدينة من المسلمين والمسيحيين وكانوا يتعجبون مما حدث له .

تم هذا الخير ايضا .

كيف رجعت يمين سيدنا مار برصوم الى الدير

بعد ان ترك جوسلين الرهبان يعودون الى الدير ، ولم يرســل يمين مار برصوم زاد عليه غضب العدالة ، فارسل الرب من الشمال شعب ياجوج (الاتراك) واحــاطوا بتــل بــاشر ، حينئذ صرخ الافــرنج والسريان والارمن بصوت واحد ، فخاف جــوسلين الاثيم ، وامــر فاخرجوا القديس ، واخذوه للجبل وكانت رؤوس كل الناس مكشوفة وهم يبكون ، ثم احتفوا به امام معســكر الاعداء ، ومضى الرهبــان والمشايخ واتوا بالقديس مع تبجيل عظيم ، وكانت جمــوع الناس في كل مدينة وبلدة تسعى امــامه وهــم فــرحين مسرورين ، ومجــدين ومنشدين بالالحان والشمع المضاء ، وعطر البخور ، وانتهى طريقه كله بالتبجيل العظيم ، ثم وصل الى الدير في راس كانون الاخير يوم عيد المعلمين القديسين

استيلاء الترك على البلاد بعد سقوط جوسلين

في ٢٩ كانون الاول سنة ١٤٦١ يونانية وقع زلزال جعل الارض تهتز ، وفي ١٥ اذار كسف القمر من منتصف الليل وحتى الفجر ، وفي ٢٣ اب صار مطر وسيول جارفة اخذت اماكن كثيرة ، وخصوصا في قلعة زياد حيث اختنق صبي في وسطهم وكذلك بغلان وحمار .

في هذا الزمان ارتسم للخلقيدونيين بطريرك شيخ كان في صباه اسقفا لكن حب الرئاسة اغراه فاخفى ذلك وارتسم ثانية ، لكن بعد قليل انفضح وخزي ونفي هو والذين رسموه .

في سنة ١٤٦٢ يونانية صار شتاء قاس وثلج كثير ، وكأن ابواب السماء انفتحت ونزل كل ما فيها من ثلج حتى في الاماكن التي نزل فيها ثلج قليل جدا صار نحو ذراعين

وفي اذار ايضا اتى ثلج احمر ، وقد قال الطبيعيون : إن الرياح تحمل الغبار الاحمر الناشيء عن التربة الحمراء الى الغمام فيتراءى كلون الدم ، وعندما يسقط الثلج يختلط معه وكل هذا يصير لاجل تأديبنا .

وفي اذار صار بملطية ثلج كثير لم يسمع وينظر مثله قط .

وفي ٢٣ اذار ايضا ظهرت اية ، وهي عبارة عن شعاع ناري في الناحية الشمالية وفي تلك السنة في قلديسورا (٣٧) كان جبل تحت قرية فسقطت فجاة منه صخرة عظيمة ، وسحقت القرية مع سكانها وبهائمها .

وفي تلك السنة كثرت الامطار في كل الاماكن وافسدت الزروع وكل الغلال ، وخصوصا في شواطيء الانهار ، ومات الزرع كله ، ولم يبق شيء .

ولما سمع السلطان مسعود بسقوط جوسلين دخل يوم احد العنصرة وحل على كيسوم ، وكان بها افرنجيا اسمه رنجر ، وفي تل باشر اقاموا ابن جوسلين حاكما ، وكان بعد صبيا وكان ايضا يدعى جوسلين ، ولما راى الذين في كيسوم كثرة عساكر السلطان مسعود ذهلوا فارسلوا مطرانهم ايونيس الى القلعة ، واخذوا تعهدا من السلطان بشأن الافرنج ، سمح بموجبه لهم ان يصلوا الى عينتاب وهكذا صار ، وتملك السلطان على كيسوم وعلى القلاع ، وعلى رعبان وفرزمان ، وحل على تل باشر ، فقدم عليه نور الدين حاكم حلب ، فاعطاه السلطان ابنته التي كانت مخطوبة لابن اخي ملك اليونانيين ، واعطاها تل باشر ولما ترك السلطان تل باشر ورجع الى بلاده ، اتى ملك القدس واخرج من تل باشر امرأة جوسلين واولاده وجميع الافرنج وحملهم معه الى القدس ، واقام في البلدة اناس من مملكة اليونانيين وقد استطاع هؤلاء ان يضبطوا تل باشر وعينتاب واعزاز ، ثم حل عليها الاتراك واضطهدوا سكانها كثيرا - اعتقد كان ذلك بشكل نوع من انواع العذاب - ولما لم يستطيعوا المقاومة سلموا كل هذه الاماكن صلحا الى نور الدين ، وملك حاكم حلب هذا على تل باشر وعلى عينتاب واعزاز والبلاد التي بينها ، وبقي مع السلطان مرعش وقلاع فرزمان ورعبان وكيسوم ، وبقي مع قرا ارسلان ببولا وجرجر وجوتاي وحصن منصور.

اما تمرتاش حاكم ماردين فقد اخذ البيرة وسميساط وقورس وكفرسوت ، وهكذا تملك الاتراك على هذه البلاد ، اما قلعة الروم فقد كان جوسلين قد وضع فيها ارمنيا اسمه ميخائيل ، لكن هذا لما سمع ان جوسلين قد سقط ارسل امرأة جوسلين وابنه ، لانهما كانا في تل باشر ، وذلك ليقولا لكريكور جاثليق الارمن الموجود بهوزب ، اي البخترة ، ليأتي الى القلعة ويساعد ميخائيل ، لكن كريكور هذا لما اتى احتال وامسك بميخائيل وعذبه ، واخذ مقتناه وطرده ، وجلس كريكور الجاثليق في قلعة الروم .

وفي سنة ١٤٦٢ يونانية دخل يعقوب ارسلان الى بلدة اليونانيين المسماة فابرا وسباها وخرج .

وفي هذا الزمان هزم منويل ملك اليونانيين وانكسر من قبل الافرنج وهرب واستطاع ان يصل الى القسطنطينية بصعوبة بالغة .

وفي تلك السنة خنق حاكم ايزنجي بلد الارمن من قبل ابنته(٣٨) بوتر القوس ، وأتت بأخيه مخديباريجي فتزوجها وتملك .

وفي تلك السنة كان في دير اليونانيين المدعو سيريكا في بلاد بنطس ، صليب ذهبي كبير ، وكان فيه جزء من خشبة الصليب ، وكان يفعل عجائب في تلك البلاد ، فوضع الحاكم في ضميره ان ياخذ الصليب ، فتهيا له واحد اثيم من اليونانيين ، ودبر حيلة عصى فيها بالبلد ، فأتى الامير واخذ الصليب وكل شيء وجده ، واخرج الرهبان ووضع فيه الاتراك ، واخيرا ذكره بعض عظمائه ان اباءه كانوا يكرمون هذا الدير ، فقام بعدة وساطات كثيرة وبعدما اخذ من الرهبان ذهبا ضمانا بانهم سوف يعطوه خراجا ، فسمح لهم ان يرجعوا الى ديرهم ، وقيل لنا ان اليونانيين المجدفين لما سبى جوسلين دير سيدنا مار برصوم ، كانوا يصهلون كالخيل او كما صهل اليهود على مولانا عندما كانوا يستهزئون به ويجدفون عليه ، ولما تشرف خبر مار برصوما عند كل الشعب ورجع منتصرا على الذين سبوه فرح المؤمنون في كل مكان ، كما فرح الرسل بقيامة سيدنا ،ولذلك يجب ان يقال لهم : ياهؤلاء كفوا السنتكم عن التجديف على القديسين واذعنوا للحق فلولا اننا اخطأنا وارادت العدالة ان تضربنا لم يستطع جوسلين ان يسبيه من دير مار برصوما ، كذلك لم يستطع أحد ان يسرق الصليب المكرم من دير سيريكا ، ويهزأ به .

وفاة دولت حاكم ملطية

في سنة ١٤٦٣ يونانية خرج الافرنج من رومية غاضبين على اليونانيين يريدون الانتقام منهم لاجل ما صنعوه بأخوتهم ، فنهبوا وخربوا ووصلوا حتى باب القسطنطينية واحرقوا ثم خربوا كثيرا في مملكة اليونانيين ورجعوا .

ووصلت فرق منهم إلى فلسطين لينتقموا من العرب أيضا لكنهم لم يتفقوا لعدم وجود قائد لهم ، فقتلوا الذين وجدوه في قرى عسقلان من العرب بالسيف وأحرقوا القرى ، ثم عبروا في البحر وخرجوا إلى ارض القبط ، وهناك في نواحي مصر الغربية احرقوا المدن والقرى والسكان بالنار ، ثم رجعوا الى بلادهم .

وفي تلك السنة في ١٢ حزيران يوم الخميس مات دولت حاكم ملطية وملك ابنه ذو القرنين ، وفي ذلك اليوم خاف المسيحيون جدا وكثرت عليهم الشدائد ربما ليعودوا الى توبتهم ، اما اخو دولت يعقوب ارسلان فارسل يعزي ابن اخيه ووالدته طالبا ان يحتفظا بالمدينة ولايعطوها للسلطان فاعتمدا عليه وأرسلا مواشيهما الى بلاده لتكون في امان .

لكن لما سمع السلطان انهم اتفقوا ان لايعطوه المدينة ، اتى غاضبا على يعقوب اولا فلما راى ذاك كثرة العساكر استسلم سريعا ووعد ان لايساعد ابن اخيه فتوجه السلطان ضده ، لكن نزلت صاعقة في ٢٤ تموز احرقت الالوف من الاتراك ومن باقي الشعوب ، واحترقت القرى الجميلة وحقولها البهية بالنار ، وكانت عساكر السلطان تخرب البلاد من الخارج ، ومن الداخل كان الحكام والجنود يعذبون بغير شفقة سكانها بكل الانواع ، وكان المؤمنون محصورين بين هذين الوحشين ، ولما نظروا أن الكأس قد مزج

بالعلقم ، والسيف قد استل تذكروا خطاياهم وبداوا بالادعية الدائمة فاتى خلاص الرب المتعطش للرحمة ، وهكذا بشفاعة والدة الاله في عيد انتقالها صار الصلح ، عندما خرجت ام الصبي وهي ابنة اخي السلطان وتوسلت اليه وركعت عند اقدامه ، فقال لها السلطان · ان ياتي الصبي إلي خاضعا اترك له المدينة ، عند ذلك خرج الصبي فقبله وثبت له الرئاسة .

وعندما كان السلطان نازلا على ملطية ، دخل الترك الذين معه ليسبوا بلاد قلوذية ، فوجدوا الرهبان والمتبرئين الذين في دير بيت حنيش فاخذوهم اسرى ، حينئذ مضى الرهبان الى السلطان فاعادهم ، ولما رجعوا لياتوا الى جبل التفاح التقى بهم لصوص ، وتحاربوا معهم ، فقتل ثلاثة من اللصوص ، وقتل من المتبرئين طفل ومضى الباقي الى الدير .

ولما تثبت الرئاسة لذي القرنين بن دولت ، ملكت ام الصبي المدينة وكانت تعذب المسيحيين ، الاغنياء منهم والفقراء بغير رحمة بالخراج والضرائب المتنوعة ، ولم يستطع احد ان يتوسط عندها ، وكانت تقول ان المدينة لها ليس لان السلطان قد قبل تضرعها فقط ، بل لانها حفظت المدينة بوساطة السحرة والعرافين ، ثم اجتمع اليها جملة من النساء العرافات الفاحشات تنبأن لها بطول العمر مثل ولينيوس في زمانه ، وانها سوف تملك ، ولذلك حاولت ان تقتل ابنها وتملك هي لتتبع هواها ، حينئذ اشفق الرب على صراخ المساكين ، وقام غضب العدالة على ايزابيل الثانية ، فظهر مكرها وانكشفت لزعماء المدينة ، فطردوها ، وخرجت ماشية هي والنساء الفاحشات اللواتي كن يخدرنها بالسحر والشعوذة ، وقد انطبقت عليها اية النبي« امكثي على رقاك وانواع سحرك الذي عنيت به منذ صباك ، وقد اعييت من كثرة مشوراتك .(اشعيا ٤٧ : ١٢ و ١٣).

ولقد لبثت عدة ايام على باب المدينة ثم طردت اخيرا من هناك حافية عارية وثبتت الرئاسة لابنها الذي سارع وقتل كل السحرة

والعرافين الذين جمعتهم امه ، ونهب بيوتهم ، ووضع قانونا يحرق بموجبه كل من يتعاطى السحر ، فهرب اكثرهم .

ثم نادى بالصلح والسلام لاهل المدينة ، وابطل الضمانات والجوائز ، وصار فرج للمتضايقيين ، وفرح لكل المسيحيين ، واكتشف أن بعض افراد حاشيته كانوا متفقين مع امه على هلاكه فطردهم رويدا رويدا ، ونهب بيوتهم حتى لم يعد احد منهم في مملكته .

انتهت هذه المقالة حول نحو من عشر سنين ، واربعة عشر فصلا ، وقام بها ملكين لليونانيين والافرنج وملكين للترك ، وخليفة واحد للعرب .

في تشرين الاول سنة ١٤٦٣ يونانية صار مطر كثير بالليل واتلف كل الغلال التي كانت على البيادر واختنق كثير من الناس والبهائم في ذلك السيل لاسيما في بلاد قلعة زياد وبلاد سميساط ، وقد جرف السيل كثيرا من التراب والصخور العظيمة حتى انه سحب احجار الطواحين وانزلها الى الوادي ، اي الغدير الذي بين قرية ابدهار وبين قرية خرشنة ، وامتلا نهر الفرات مما نزل به من الجبل وتوقف مجراه ثلاث ساعات ، وقد نظرت الموضوع بنفسي ورأيت الناس الذين سعوا ليأخذوا السمك من ذلك المكان الى ان امتلأ بالماء ففتح مكانها في طرف جبل قلونية وجري.

في هذا الزمان بنى قسيس ارمني اسمه يوسف من بلاد هنزيط في قرية برغيش بيعه ، وزينها وصنعها وجعلها مشعشعة من الخارج بالبياض ، وذات يوم خرج الامير قرا ارسلان ليتنزه كعادة الملوك فرأى هذه البيعة تبرق ، فغضب وكان بعض الاتراك يبغضون ذلك القسيس ، فأغروا صدر الامير وقالوا له : كلما بنيت بيعة جديدة في بلدة يموت حاكم تلك البلدة ، عند ذلك امر فقلعوا هذه البيعة من اساسها بغير شفقة ، وحبسوا القسيس المظلوم في السجن ،

فاجتمع مسيحيو اهل قلعة زياد ليتشفعوا له ، لكنه كان قد امر بصلبه قبل ان يواجهوه ، وكان ذلك يوم عيد الصليب في ١٤ ايلول .

وبسبب هذا ومنذ ذلك الزمان صدر امر في كل بلاد مابين النهرين بأن لاتبنى بيعة جديدة ، وان لاتتجدد بيعه عتيقة ، وصار حزن بين المسيحيين لهذا السبب ، لكن بعد موت الامير اجتمع المسيحيون وذهبوا الى ابنه وقدموا له ذهبا كثيرا ، واخذوا أمرا ليجددوا كل جزء وبيعة عتيقة محتاجة الى تجديد ، وقد اثلج صدر المسيحيين في كل مكان لهذا الامر .

كل من نظر وقرا وتأمل يرسل لي قليل من صلاته ، لعلي اجد فرحا وسرورا امام الديان العادل ، واجره على المسيح .

في سنة ١٤٦٣ يونانية (١١٥٢ م) صار في ايلول برد ومطر وثلج فافسد الكروم والزيتون والقطن والسمسم ، وبدوا وكأنهم احترقوا بالنار ، وصاروا كالشحار الأسود ، ولم تكن هذه النازلة فقط في اثور وبين النهرين وإنما في بلاد فارس وارمينية وفلسطين وملطية ، وصارت كل المسكونة كالقش الذي اكلته النار ، حيث تحولت الى رماد ، لقد كان منظرا مخيفا ، ويجب ان يلقن اصحاب هذا الجيل الفاسد درسا لانه اصبح لايحس ولايشعر بالخطايا والآثام التي يقترفها ، ولاجل ذلك صار هذا الغضب.

اخبار البيعة في هذا الزمان

في سنة ١٤٥٥ سرق اسقف مرعش في كورة ملطية بيعة جـرجر فطرده البطريك وحرمه . ورسم المرعيث اسقفا لجرجر .

وبعد مدة يسيرة تقدم الاسقف الذي كان قد خرم بطلب استرحام وشفاعة وكان اسمه باسيليوس فـأعطاه البـطريرك اديرة زوبـر ، فبقي هناك زمانا قليلا ثم طرد من هناك لاجل علة السرقة نفسـها ، ثم اشفق عليه البطريرك فأعطاه مرعش سيبابرك ، وبعـد ان بقـي هناك ثلاث سنوات عاد فطرد من هناك لأجل علة السرقة ، وقد قـال البطريرك وبعض الناس انه مظلوم اما الصحيح فهو عند الله .

اما باسيليوس الذي انتقل الى الرها لما هاجمها زنكي واخـذها بالسيف ، فقد خلص هذا المطران من القتل عندما تقابل مـع زنكي ، ولانه وجده حكيما وشجاعا ويتكلم اللغة العـربية الفصـحى كرمـه وسلمه المدينة لكي يعيد بناءها وادارتها ، وترتيبها وقـد خلص عددا كبيرا ، وبقي المطران بهذا المنصب الى ان قتل زنكي ، وقـد نجـح كثيرا بهذا المنصب .

وفي محنة الرها الاولى قتل العديد ، وكان منهم البار باسيليوس ابن عباس الذي كان اسقف ماردين ، ثم ترك الرعية وذهب ليسكن في جبل الرها حيث توفي هناك .

وصار في ماردين مطرانا ماريوحنا ، الذي هو ايضـا ارتسـم في ايام مار اثنا سيوس ابو الفرج سنة ١٤٧٦ ، وكان هـذا شريفـا ومستقيما ومتعلما يقرأ كثيرا في الكتب ، اختص بالمعرفة الطبيعية ، وكان يكشف الاسرار ويعرف الخفايا ، وكانت هـذه المهنة مـرغوبة ومطلوبة جدا ولاسيما عند الملوك ، وقد اشتهر عند الملوك ، وتـكرم من كل الحكام ، ولاسيما حكام ما بين النهرين واثور ، وكانت له يد عظيمة تفيض بالرحمة على المساكين والمحتـاجين ، فبعـدما اخـذ

زنكي حاكم الموصل الرها ، وصار اهلها عبيدا ، ظهرت حــركة بين الناس فأخذوا يشترون اهل الرها ويعتقــونهم كل واحــد قــدر مــا يستطيع ، وكان هذا يتجــول ويشــجع افــراد الرعيه على تخليص المسيحيين من العبودية،وبهذه الاعمــال اشــتهر عند الجميع ، وذاع صيته في بلاد كثيرة ، وخاصة عند المسلمين .

ذكرى الربان توما المتوحد والمطران عبدو

الربان القديس توما المتوحد ، ومعلمه المطــران الســعيد عبــدو اللذان كانا في هذا الزمان في جبل زوبر .

لقد ذاع صيت الربان توما هــذا بين رؤســاء الكهنة ، واشــتهر فلنعرف من هو هذا الربان ، انه من قلعة تدعى سامره في بلاد ســود المجاورة لملطية ، ولما اشتد الجوع في ايام بوزان التركي ، خرج هذا الصبي المسمى توما واتى الى دير زوبر عند خاله الراهــب ولما رأى عيشه الرهبنه المقدسة احبها وانخرط فيها ونسي اهل جنسه .

وكان بهذا الزمان رجالا فاضلين بــالدير ، احــدهم البــار مــار ياونيس اسقف خرشنة ، وهو عبدو هذا ، وكان هذا شيخا فــاضلا سلك من طفولته طريق الصلاح وتتلمذ وتــأدب عند الرجــال المؤمنين وامتد وبقي يعيش وحيدا حتى بلغ سن الشيخوخة ، ثــم تقــدم الى درجة الاسقفيه بالتزام عظيم وبمبــاركة الروح القــدس ، وكان ذلك على يدي ماريوحنا ابن عبدون البطريرك ، وبعد مــده ســلمه الرعية على الرغم من ارادته ، وبعد ان تضرع كثيرا أعفوه منها ورســموا غيره ، اما هو فرجع الى خلوتــه ، ولما رأى هــذا الصــبي تــوما ، وتوسم فيه ملامح الروح القدس ، كان دائما يتفقده بعــد ان اصــبح راهبا متوحدا متبتلا يسكن خصا بعيدا ، وكان يعلمه المزامير وطرق وقواعد الرهبنه ، فبدأ يصارع الشياطين ، وكان هذا البار يقويه في صراعه مع الشياطين ، وقد قبل تــوما كل النصــائح والتــوجيهات

كالارض الجيدة القابلة للزرع الصالح التي تعطي الاثمار مضاعفة ، اعني التدابير الصالحة له .

وبعد ان خدم هذا الشيخ مع الربان تـوما انتقـل الى الحياة غير الزائلة ، فبقي توما يعيش وحيدا في مكانه مدة اربع وستين عامـا ، في الصـيف كان يصـعد الجبـل حيث زرع دالية له ، فيعتني بهـا ، ويقطف ثمرها ويصنعه زبيبا ، وكان يقايض الزبيب بالحنطة حتـى لاياخذ شيئا من احد ، اما في الشتاء فقـد صـنع له في قلب الجبـل مغارة بعيدة كان يعتزل فيها ، وقد وصل هذا الشيخ الى درجة عالية من القداسة حتى صار يشفي المرض ، ويكشف اسرار الناس ، وقد سمعت انا الضعيف ميخائيل من عمي مار اثناسيوس مـطران عين زربه ومن مار ايوانيس مطران كيسوم بانهما شاهدا وسمعا لما جاء زنكي الى الرها ، وقبل ان يأخذها ، ان الربان توما قـال . ان الله قد اعطى الرها الى الترك ، فقال له المطارنة اشفق علينا ولاتقـل هذا ، لكنه عاد وكرر القول وزاد : نعم نعم ايها المطارنة ان الله قـد سلم الرها ، وان عددا كبيرا من المسيحيين يقتلون بهـا ، وبعـد ان سبيت في المرة الاولى ، انا سمعت من فم عمي المطران يقول للجمع : ان الربان توما قال لي بعد سنتين من الان ستشرب الرها كأسا مرا امر من الكأس الاول ، وكذلك قال لي : ان دير مار بـرصوم سـوف يسبى مع اديرة زوبر ، فقال الحاضرون وماذا بقي من الرها ؟ فقال للحاضرين : انا لااعرف ، الربان توما قال لي هذا .

كل هذا سمعته بنفسي من ذاك البار ، وقبل زمن من حدوثه ، لكن بعد ان صار ذلك ، تحقق كثيرون ان الاكتشافات والتنبـؤات التـي صارت على يدي الربان توما هي من عند الله ، ولما دخل التـرك الى دير زوبر استشهد ذلك الشيخ بـالسيف يوم الاربعـاء ٢٧ تشرين الثاني ، في يوم عيد مار يعقوب سـنة ١٤٥٨ يونانية ، لتـكن ذكراه وصلاته وبركاته دوما معنا امين .

في سنة ١٤٥٩ مضى ايضا مار اثناسيوس البـطريرك الى آمـد

وجلس هناك ، ويوحنا اسقف منبج بن اندراوس ايضا غير رعيتــه بدون اذن ، فعندما كان البطريرك في تل باشر مــع الاســاقفة وقــع خلاف بين اندراوس وطيموثاوس اسقف خرشنة ، وبعد جــدل كثير انتقل ابن اندراوس الى خرشنة ، واتى ذلك الى تل باشر ، ولما مضى البطريرك الى آمد وابتعد ، رجع ابن اندراوس لعادته وتخاصم مــع فيلاردوس حاكم تلك البلاد.. وكان هذا ارمنيا في الجنس وا فــرنجيا في التدابير ويونانيا هرطوقيا في الايمــان ، لكن ابــن اندرا وس عاد فترك ايضا مرعش وخرشنة ومضى الى دير المتوحدين على شــاطىء الفرات لكي يتوحد ، فرجع مطران خرشنة الى موضعه.

في هذا الزمان اسلم اهرون الشبختاني اسقف الحــديثة ، وكان هذا قد خرج من بلده وسكن في دير مــار متــى ورســمه اغناطيوس المفريان اسقفا لتلك الرعية ، ثم اسلم ، لكنه مالبث ان رجع ، ولما لم تقبله الرعيه ولم تعط له درجة الاسقفية ، ذهب الى القســطنطينية ، وصار خلقيدونيا ، لكنه رجع ايضــا واتــى يطلب التــوبة فقــال له بطريركنا مار اثاناسيوس : نحن لانرد التوبة على طالبها ، فأذن له حينئذ تشاجر البطريرك مع المفريان ، فصار المفريان يلوم البطريرك لانه قبله قبل ان يكمل قانون التوبة ، وبالمقابل كان البطريرك يتهــم المفريان لانه كان قد رسمه دون ان يفحصه .

لكن مالبث ان رجع الى المسلمين بغير سبب ، وبقي مع الفقهــاء عدة اشهر ثم عاد فندم ايضا ومضى الى ابناء طــائفتنا في القــدس ، لكن ابناء طائفتنا لم يقبلوه هناك ، فمضى الى الموارنة في جبــل لبنان وبقي هناك حتى مات .

في شهر ايار سنة ١٤٦٠ يونانية تراءت في السماء حربة طويلة في ناحية الشمال ، وبعد ساعتين في حلول الليل اختفت ، وبعــد وقــت قليل ايضا تراءت في ناحية المغرب سيميون اي آية شبه الصــليب ، وبعد وقت قليل اختفت ، وفي يوم الاربعاء قبــل عيد الصــعود نزل في القدس ونواحيها مطر غزير ممزوج بقطرات مــن الدم ، وكانوا قــد

اخبروا عن الدم الذي صار في البلاد الافرنجية بهذا الزمان ، وحدث هذا في شهر ايار وقد صار ايضا عوض الفلك المرسوم على الارض دما ، وهذا يؤشر على كثرة القتل وسفك الدم .

بهذا الزمان سقط اساقفة في بيعتنا وكان واحد منهم اهرون الشبختاني الذي ذكرناه من قبل اذ كان قد رسمه المفريان اسقفا للحديثة فأسلم ثم صار يونانيا ثم مارونيا ، والآخر من قلعة زياد ، المتكني ابن الترك ، وهذا كان قد رسمه مار يوحنا البطريرك اسقفا لرعية تل باشر ، لما خرج منها ابن اندراوس ، لكن لما عاد فقبل ابن اندراوس ، ارسلوا ابن الترك هذا الى سمندو ، لكنه مالبث ان طرد من هناك فأرسلوه الى بلاد خابوراء ، لكنه ايضا اخطأ هناك وزنى فطردوه فمضى لبلاد ارمينية الكبيرة ، حيث خلع ثوب الكهنة وارتدى ثياب الجندية ، وصار يخدم عند واحد من الاكابر ، وعشق هناك امرأة زانية ، ولما نظر انه لن يستطيع ان يطعم نفسه والزانية التي تبعته من خدمته في الجندية ، وكقول الكتاب الالهي ، كان مشتاقا ان يملأ بطنه من الخروب الذي كانت الخنازير تأكله ، ولما تعرقل من شر الى شر ، عاد فلبس ثوب الرهبنه المقدس ، واخذ يدور في الاماكن التي لايعرفه احد ويجمع صدقة باسم الاديرة والقديسين ، وكان يأكل كل مايجمعه مع زانيته ، وكان يعيش عيشه بزخ وفسق وفجور ، فقام ضده اناس من المؤمنين وفضحوه ، كذلك كان رجل اسمه جبرائيل من مرعش ، يكنى غاماكير ، ومعناه في اللسان الارمني « مبتدىء بالصلاة » كان قد رسمه مار اثناسيوس اسقفا على سروج ، ثم قيل عنه انه سقط في دنس الزنا ، فأشفق عليه البطريرك ، وتعامل معه بطول الروح ، لكن انغمس في الشرور وارتكب الاثام الفظيعة كما سنوضح القول فيما بعد .

فصل عن الاعجوبة التي صارت بانطاكية والبيعة التي بنيت بها لسيدنا مار برصوم

نقص هنا خبر الاعجوبة التي صنعها القديس مار برصوم بكورة انطاكية : في سنة ١٤٦٢ يونانية صعد صبي من نبلاء الافرنج الى شجرة تين ، لان الاشجار في المدينة كانت كثيرة ، وكانت المدينة تبدو كالفردوس ، فحدث ان وقع وكسر حوضه فعالجه الاطباء كثيرا ، لكنهم لم يستطيعوا ان يشفوه ، فتحول الى مقعد ، وقد تألم والداه جدا عليه لانه كان وحيدا لهما ، وخافا ان تنقرض سلالتهما من شجرة نسب النبلاء والملوك ، وقد انفقا عليه ذهبا كثيرا ، وتعبا من كثرة التجول به على الاطباء ، لكنهما لم ينتفعا شيئا في هذا ، وبعد حوادث جوسلين اشتهر الطوبائي مار برصوم باعتباره قديسا يصنع العجائب وسرى اسمه على افواه الناس ، وكانت ام الصبي تقضي كل وقتها بالصلاة والنذور ، وتسأل الطوبائي شفاءا لابنها فحضر راهب من الدير يحمل ايقونة القديس كالعادة ، فادخلته الى البيت باحترام وتباركت من الايقونة ، وبعد يوم تراءى القديس للمراة وهو يشبه الملك بمجد عظيم ، فسألت في حلمها . من هذا الملك ؟ فقال لها الجمع مار برصوم وسمعت الطوبائي يقول هذا اريد ان تبني لي بيعة ،وكذلك كان الراهب قد رأى القديس يقول له : قم امض لدار هنري الافرنجي ، وفي بستانه اقم لي بيعة ، وجعله يرى ثلاثة مذابح ، ثم عاد فرأى الرؤيا عدة مرات ، ثم هدده ، حينئذ خاف الراهب واعلم المطران باسيليوس رئيس الرها بما رأى وبما قيل له لانه كان في تلك الفترة في انطاكية ، فتشكك الاثنان ، لكن سرعان ما اتى والدا الصبي ، واعلمنا بما رأت الام ، حينئذ اخذ الراهب المطران معه واخذوا ايقونة القديس ، ومضى الجميع الى بيت اولئك الافرنج ، ووقفوا يصلون فوق الصبي المريض ، ولما اكملوا الصلاة ، ورجعوا ، وبينما كان ابو المريض وامه يتضرعان

حوله ويطلبان له الشفاء ، نام ذلك المريض ، ثم بغتة صرخ بصوت عظيم ، وقفز واقفا على رجليه فخاف ، وفزع الابوان وكل اهل البيت ، ونظروا فرأوا يد الصبي منبسطة وكأن واحد قد امسك بها ، فعلموا انه رأى رؤيا ، وعند ذلك سألوه فلم يجب لكن مضى وقت طويل ويده اليمين ممتدة ، وهو ينظر الى فوق ، وكان مبتهجا ، فقام ابواه بسرعة وهيئا المصابيح واحرقا البخور ، واجتمع جمع كبير ، حينئذ اعلمهم الصبي قائلا : انه قد ظهر لي الطوباني مار برصوم ، وكان يمسك بيده صليب عظيم من ذهب يبرق كالشمس ، وامتلأ كل البيت نورا منه ، ومعه جمع من الرهبان ، ثم امسك بيدي واقامني وقال لي قم لاتخف لاجل ايمان ابويك وتضرعهما ، هاقد اتيت ، فقلت له : كيف اقدر ان اقوم وهاانذا كسيح؟عند ذلك مس مكان الكسر فشفي ، وقمت .

وهذا صار فعلا ، ولايقدر احد ان يشكك ان ليس المسيح ربنا هو الذي حل بسيدنا مار برصوم ، كما قال : ان من يحفظ وصاياي يعمل الاعمال التي اعلمها ، ويعمل اعظم منها ، لان الرب قد حل بقديسيه ، وهو يجعلهم يفعلون مايشاء ، وحينئذ اخذه ابواه وهما ممتلئان فرحة ، ماشيا ، والجموع تتبعه ومضوا الى البيعة الكبيرة ومن هناك الى عند الملكة ، واجتمع عندهم نبلاء الافرنج وباقي الجموع من أرمن وسريان وافرنج ، واتوا الى المكان الذي صارت به الاعجوبة ، حيث دل الصبي على المكان الذي ظهر فيه القديس ، فسترت الملكة وجهها ، واخذت تبكي ، وصارت الجموع تتبارك بالتراب ، ثم اخذوا من هذا التراب بركة الى كل الاماكن ، ثم ابتدأوا ببنيان البيعة ، وصار الراهب صليبا وكيلا ، اما العجائب التي صارت اثناء بنائها فلا يمكن ان تذكر هنا،ثم مضينا لتكريسها مع رهبان الدير ، وكان هذا يوم الاحد ٩ كانون الاول سنة ١٤٦٨ يونانية ، وكان ذلك في ايام رنجر حاكم انطاكية وبلدوين ملك القدس وهمفري بطريركهم ، ومار اثنا سيوس بطريركنا ، وحضر تكريسها حاكم قيليقية طوروس والملكة وهنري وامرأته ديما يزيل ، اعني اليصابات ، وباقي نبلاء الافرنج وشعوب الأرمن

والسريان ، وعدد كبير من كَهنتنا وشـمامسـتنا ، وكهنه الأرمـن والافرنج، اما اليونانيين المبغضين فقد احترقوا بجسدهم ،،وبحمـد الله في قدسيته ، الذي له المجد الى الابد امين .

ذكر المشاجرة التي نشـبت بين اغناطيوس المفـريان وبين رعيته

خرج من امد البطريرك اثناسيوس وتوجه الى قلعة زياد ، وبهذا الزمان مات الاسقف الذي هناك ، وحينئذ مـكث البـطريرك في ذلك الموضع ثلاث سنوات ، ورسم بهـا اسـقفا تلميذه سرجيس ، الذي دعي ايوانيس وبعد مارسمه ارسله الى امد ليتفقدها .

ولما كان البطريرك في قلعـة زياد اتـى اليه اغناطيوس المفـريان رئيس اساقفة تكريت والمشرق ، وكان مجيئه لهذا السبب : قضـت شريعة المشارقة منذ زمن قديم مضى ان يرسم مطران تـكريت ـ اي المفريان ـ مطرانا لنينوى والموصل ، لكن ماان يرتسم هذا وينتخب ويصير مطرانا لهذه الرعية الكبيرة يتوقف عن الخضـوع للمفـريان كباقي رؤوسـاء الكهنة في تلك الناحية ، لكن يصـير معـه بـالمرتبة نفسها ، ولهذا السـبب كانت تحـدث دائمـا خصـومات في ناحية المشرق ، ويوضح كتاب دانيسسوس التلمحري ان هذه العادة بدات منذ عهد قرياقس البطريرك ، ولما ضعفت في هذا الزمـان تـكريت ، وازدادت رعية نينوي وقويت اراد هذا المفريان ان يوحد رعية نينوي وتكريت ، وان لايضع مطرانا لنينوى ، فوقع خـلاف بين المفريان وبين اهل تكريت ، ولذلك اتى اغناطيوس المفريان الى اثناسـيوس البطريرك في قلعـة زياد ، لكنه وجـد ان البـطريرك لم يرض بهـذا الاقتراح ، فتـركه وانتقـل الى ملطية ، ومـن هناك ذهـب الى دير سرجيسيه ولما صعد البطريرك من قلعة زياد الى دير مار بـرصوم ، اتى ايضا المفريان وحاول ان يقنع البطريرك ان يصنع اتحـادا بين الموصل وتكريت ويصير المفـريان راعيا للاثنين ، وبقـي المفريان

جالسا في الدير كل الصيف دون ان يستقبله البطريرك ، وعند ذلك تركه في تشرين الثاني ومضى الى رعيته ، وبقي يكافح لانجاز هذا المشروع حتى حان الوقت المناسب ، واستطاع ان يحقق مايريد كما سنوضح ذلك فيما بعد .

اما البطريرك فأمضى في ديرنا – اي دير سيدنا مار برصوم – بقية حياته .

تنصيب اثناسيوس بطريركا

بقيت بيعتنا نحن المستقيمي المجد بدون رئيس عام مدة سنة وثلاثة اشهر ، وكانت خلال هذه الفترة تتم المراسلات لعقد مجمع وانتخاب بطريرك ، فقام من المطارنة المشايخ مطران كركر ، ومطران صمحا ، ومطران قلوذيه ، ومطران جيحان الذي انتقل الى ملطية،واجتمع هؤلاء الاربعة وحدهم ، وصنعوا قرعة كما قالوا ، وكتبوا اسماء ثلاثة كالعادة ، وفاز الربان يشوع الشماس ، فارسلوا اسقفين في طلبه ، فأما هو فخالفهم بالاسرار المقدسة ، فاثبتوا له ان اسمه كان بالقرعة ، وحينئذ مضى معهم الى دير المقرونة فالبسوه اسكيم الرهبنة ، واتاهم خبر ان المفريان وصل الى نواحي امد ، وان حاكمها يريدهم ان يجتمعوا في المدينة ، ولما وصلوا الى دير قانقرت رسمه مطران كركر قسيسا ، ثم صارت رسامته في أمد يوم الاحد ٤ كانون الاول في عيد القديسة بربارة ، ووضع عليه يده ديونسيوس وكان معه من المطارنة والاساقفة اثني عشر وجمع غفير من الرهبان والقساوسة والشمامسه ، ودعي مار اثناسيوس بطريرك انطاكية ، وفي يوم رسامته اقام والي المدينة وليمة لكل المجتمعين ، وكان بينهم مؤيد الدين بن نيسان الرجل العربي ، ويعقوب الرجل المسيحي اخو اسحق الشماس الذي كان قد تخاصم قبل مدة مع اثناسيوس البطريرك وكان هو الان يصرف بكل سخاء على هذا المجمع ، وبعد ذلك بيوم امر البطريرك ان يخرج

مطران جيحان من ملطية ويمضي الى رعيته وان يخرج باسيليوس من أمد ، واعطاه قلعة جعبر لكي تبقى امد كرسيا للبطريرك كما كانت في الماضي ، ومن ههنا تسرب الشك الرديء الى بيعة الله فقام باسيليوس ومطران جيجان وقالا للبطريرك : انك لم تصبح بطريركا بانتخاب صادق بل بالحزن والالم ، وقالا : ان مطران جرجر غش ، لانه قال له بانه لن يخرجه من ملطية ، ولأجل هذا كتب ثلاثة اوراق باسم واحد .

ولما انتشر هذا الخبر بين الناس تشككوا ، كذلك تشكك المطارنة الذين في بلاد غربي الفرات فاستعدوا ليقيموا اخر غيره ، وكان اخرون يقولون لانه طرد باسيليوس مطران جيحان كذب الانتخاب ، وكادوا يحرموه لاجل الشكوك التي زرعتها ، اما هو فتوجه الى ملطية ، وجمع القساوسة والشعب واظهر لهم الاوراق التي كتبها ومضى الى جيجان .

ثم خرج البطريرك من امد واتى دير مار برصوم ورسم مطرانا لملطية ابن اخته تاودورس الذي دعي اغناطيوس .

وفي يوم احد العنصرة في تلك السنة في تشرين الاول سنة ١٤٥١ رسم للقدس روانوس الذي من دير القدس ، وكان ميلاده في ملطية وهو ايضا دعي اغناطيوس .

وفي سنة ١٤٥٢ اجتمع مطارنة المغرب مع ابني إندراوس وابن السمنة والباقي في حصن منصور ، وهناك كتبوا صحيفة القوانين وارسلوها الى البطريرك قائلين : ان تحفظ هذه القوانين يقبلوك ، عند ذلك وعد ان يحفظها ، ثم اتوا اليه في دير مار برصوم ووضعوا تواقيعهم برضاهم في المنشور وصار الصلح .

لما وصلت رسالة الحرمان التي صنعها مطران جيحان الى ملطية ، وقرئت على المنبر تقدم الربان يشوع الشماس العذيف واخذها ووضعها على راسه ، فلما سمع البطريرك فرح لاتضاعه

وذكائه ، وفي ذلك الوقت كتب له صلوات الحبل ، وبقي أمر ملطية حتى توفي يوحنا البطريرك ، وكانت وفاته في ايلول سنة ١٤٤٨ في دير الدوائر ، وبه سجي جسده المقدس . اما مطران جيحان الذي كان كتب كما قلنا من قبل فقد احتال ضد النانموس ، وكتب دستورا ثبته وختمه بختم البطريرك المتوفى ، موضحا انه بصفته البطريرك قد ثبت قبل موته ملطية لباسيليوس مطران جيحان ، وحينئذ دخل اليها بحماية الحكام ، ورسم بها قسيسين وشمامسه ولم يكن للبيعة بطريرك ، ولما صار هذا المذكور باسيليوس مطرانا كانت معه مرعيث جيحان ايضا فصار جميع مسيحيي بيعتنا واكثر الاساقفة متشبكك بسبب افعال هذا المطران

اما الذين لم يعرفوا كيف زوروا ختم البطريرك ، فكانوا يلومون البطريرك، اما الذين كانوا يدركون ويفهمون ماذا جرى ، كانوا يعذرون البطريك المتوفى ، لكن اخرون كانوا يسوغون فعل مطران جيحان قائلين انه صنع ذلك بالغيرة الالهية ، ولاجل تثبيت اركان البيعة .

وفي سنة ١٤٤٣ توفي مار كبرئيل بطريرك مصر ، وارتسم مار اياونيس ، وجلس البطريرك مار اثناسيوس فقد اتى الى ملطية ، والتقى بمحمد الملك ، وجلس بالمدينة في بيعه مار ماماس واقام مراسيم الصلاه في البيعة الكبيرة ، وحينئذ طلب الى دير مار اهرون (دير البطم) واعطى الحبق لمطران ميافارقين ليدبر امد ، ولمطران طرسوس ليدبر انطاكية .

وفي تلك السنة نزل ديونوسيوس المفريان الى بغداد يتداوى من مرض الم به ، وتوفي هناك،وقد احضر اهل تكريت جسده المقدس وسجي في بيعه تكريت .

وفي تلك السنة خنق العرب اسقف حمص وطردت الرعية اسقف عبدين ، واما أسقف الجزيرة فاشتراه السلطان بالذهب ، وتخاصم

اهل دمشق ورعيتها مع اسقفها ، ثم ذهبوا الى البطريرك فأصلح بين الجميع.

وفي سنة ١٤٥٤ في تشرين الأول ارتسم مفريان لتكريت هو عازر من دير سرجيسيه ، وكان أصله من قرية العبر ، وقد درس في ملطية وارتسم في دير مار اهرون ، ودعي اغناطيوس، وقد اشتهر هـذا في البيعة شهرة كبيرة .

وفي تلك السنة رجع اثناسيوس البطريرك الى ملطية ، وكان فيها لما ملكها دولت بـن غازي ، وحين زحـف ضـدها سـلطان مسعود ، وبعد هذا مضى أناس الى جوسلين الوالي وقـالوا له: إن هذا البطريرك صار بغير حق ، وأما جوسلين فلأن البطريرك لم يأت اليه فقد اصدر امرا أن لا يذكر اسمه في الكنائس في كل الأراضي التي يحكمها قطعا ، واحضر طيمثاوس مطران جـرجر الى سـميساط وسأله كيف صارت القرعه في سميساط ، لكن مطران جرجر لم يقل إن كان مطران جيحان صادقا ولم يبين ذلك هـو أو غيره مـن الذين تكلموا.

وخرج البطريرك من ملطية وذهب الى دير مار برصوم لما سمع ان جوسلين قد نقل باسيليوس اي أبـو الفـرج بـن السـمنة الى الرها ، ورسم لكيسوم ايليا الراهب المعلم الكفـؤ في جبلة ، والذي دعي اياونيس ، وهو مشهور في البيعة.

استيلاء الفرنجة على عسقلان من المصريين

في هذا الزمان أصدر الأمير حاكم قيسارية الكبدوكية أمرا بتخريب البيع.

في سنة ١٤٦٤ يونانية (٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م) كان بلدوين الافرنجي ملك القدس طفلا صغيرا ، وكانت امه تحكم بالوصاية عنه وكأنها الملكة ، فلما بلغ بلدوين سن الرشد وأراد أن يملك فعلا تمردت أمه وتحصنت في برج داود ، فتوسط أعيان الافرنج ، فأعطوا لابنها قياده الجيش وحكم جميع المدن بينما اعطوها القدس فقط.

عندئذ توجه الى عسقلان وكانت تحت حكم العرب المصريين ، واقام المنجنيقات وأحدث فجوه دخل منها أربعمائة من الداوية. فهاجمهم العرب وكانوا يفوقونهم بالعدد ، إذ كان عددهم عشرين الفا وقتلوهم عن بكره أبيهم.

فيئس الملك وأراد أن يترك المدينة ، لكن شجعه من حوله ولم يتركوا العرب يسدوا الفجوه ، وفي الصباح حمل الملك صليبا ، وتوجه نحو المدينة صارخا من لم يتبعني لن يكون مسيحيا بعد الآن ، فهجموا على المدينة وقتلوا خمسة عشر الفا من العرب ، وعند ذلك ركب ما تبقى من العرب السفن وانهزموا الى مصر.

....(٣٩)قد صف المنجنيقات ونصب برجا من الخشب وصفحه بالحديد ، ولم يتوقفوا كل النهار وقد هلك عليها شعب كثير ، وكان فيها أمير تركي ، لكن عنده وزير يدعى ابن نيسان ، وكان كل شيء بيديه حتى الأمير جمال الدين الشيخ الوديع كان يطيع ابن نيسان ، الذي كان يعطيه خبزا ليأكل ، قد استطاع هذا الوزير بدهائه وذكائه

ان يتغلب على الجيش الجرار الذي كان يحاصر المدينة ، وكان يشجع من بداخل المدينة بالكلام المعسول والمواعيد الخادعة والعطايا الكثيرة ليدافعوا عن السور ، ويستميتوا بمحاربة الأعداء وكان يضع من الداخل جنودا أقوياء يلقون بالقاليع والسهام على الجنود الذين كانوا يحاصرون المدينة.

واقام مقابل المنجنيقات الخارجية منجنيقات أعظم منها واقوى واضخم ، وقد أرسل ليلا ثلاث مرات دوريات تنقض على المحاصرين وتهرب ، أما الابراج فكانوا يهدموها بضربها بالحجارة الضخمة في الوقت الذي كان يدعم الأسوار من الداخل بالأعمدة الرخامية الكبيرة والمدعومة بالكلس.

لكنه على الرغم من هذه المقاومة الشرسة ، كانت رسله تقابل كل واحد من الأمراء في الخارج ، وكان يهدف من وراء هذه الاتصالات السرية أن يؤجج نار العداء بينهم ، ويعمل على انشقاقهم ، وأخيرا استطاع أن يكسب واحدا منهم الى صفه وهو يعقوب ارسلان حاكم كبدوكية ، وكان حمو قدرا أرسلان ، ولكن لما وصلته الرسل والرسائل من أمد ، ورأى التعهدات وما يتبعها من قسم عظيم ، ثم الطاعة العمياء التي كانوا يقدمونها له ، ثقل على قرا ارسلان ، واراد أن يخلص أمد من يديه ، لينتقم منه على الذي صنعه معه في ملطية ، فعندما دخل الى بلاده أخذ يسبي وينهب ، وترك قرا أرسلان الأمير وانتقل كسير القلب بعد أن تعذب خمسة أشهر ، وصرف نفقات كبيرة ، ولما وصل الى بلاده وقلعته دعاه يعقوب أرسلان للصلح ، فلم يرض وسبى كيزان وقورس وتل بطريق ، واخذ قلعة شوموشكي بالحرب ، وسبى مئاته الف نسمة ، وساقهم رجالا ونساء وبهائم ، وترك القرى خالية خربة واخذ في جملة من سبى البار اغناطيوس اسقف تل ارسيانوس فأعاده من قماح الى ملطية ، كذلك اخذ ايضا مطران حصن زياد لكنهم تركوه بعد يومين

في سنة ١٤٧٦ يونانية صارت قلة بالحنطة في كل مكان ، وخاصة

في نواحي انطاكية وقيليقيه ، وصار نصف الكيل من الحنطـة يبـاع بدينار ، واخيرا فقدت الحنطة تماما.

وفي تلك السنة قتل جمال الدين الوزير الذي كان في الموصل ، وقد نكرنا انفـا انه ارسـل المفـريان الى ملك الكرج ، لكنه كان فارسيا ، وكان قد أقامه اتابك زنكي مدبرا في الموصل ، وكان يعطيه من كل دخوله ، وقد غني جدا وعظم كثيرا.

هروب امير ملطية مع زانية

وفي تلك السـنة ١٤٨١ يونانية (١١٧٠ م) كان امير ملطية محمد ما يزال صبيا ولا يستطيع التمييز بين الخير والشر ، فسقط في بؤره الفجور والجنس ، وتبع زانيه ساحرة ، وكانت هذه تـدفعه مستعمله كل شرورها ليضطهد اهل المدينة ، وجنده الاتراك ، لذلك اخذ العظماء يتململون ويدمدمون قائلين الى متى نحتمل مثـل هـذه الأمور.

اما هو فزاد على سوء تدابيره ، وحسب كل شيء وجده في خزائن ابويه ملكا له ، فأخذه واخذ معه تلك الزانية واتبـاعه وخـرج مـن المدينة ، واما رؤساء العساكر والجنود واهل المدينة فإنهم لما نظروا إلى ما قد انتهى اليه محمد الأمير الشقي،أسرعوا فأقاموا اخاه ابا القاسم رئيسا ، وقد اصطلحت المدينة على ايامه ، وبقي ذلك يتجول من بيت الى بيت ، اما اخرته فسوف نوضحها فيما بعد.

... (٤٠) الذهب الذي كانوا قد تعودوا أن يعطوه منذ زمن ، وقد سلموا رهائن لكي يضطروا أن يدفعوا في كل سنة الذهب ، ولما اخذ الرهائن رجع الى القدس وبقي اليونانيون في حالة من التعاسة ثم اتى الشتاء ليهلك العديد منهم ، وبعد صعوبة بالغة استطاع ان يرجع قليل منهم الى بلادهم .

إضـطهاد مليح الأرمني للمسـيحيين

ولما سمع في سنة ١٤٨١ ملك القدس أن مليحـا الارمني حـاكم قليقية يضطهد المسيحيين بكل الوسائل ويلحـق بهـم الشرور في كل مـكان ، خـرج ملك القدس ضده ، وزحف نحـوه فـاحتمى ذاك بـالترك الذين اتـوا

لمعونته ، ونشبت حرب ، فالرب بمعونته أعان الملك وكسرهم ،وهرب الاتراك ، أما مليح فدخل الى قلعته ، ولما حل الملك على القلعة ، وبدأ يقاتل تضايق مليح ، وندم وطلب الغفران ، ووعد أنه سيصير تحت طاعة الملك.

وفي تلك السنة مات عز الدولة حاكم قلعة أكل(٤١) ، وقام ابنه اسد الدين ، ونشب بينه وبين عمه حاكم أمد خصام ، وصارا يسبيان الفلاحين والقرى ويبيعانهم للعبودية.

زلازل عنيفة

في يوم الاثنين في ٢٩ حزيران حدثت زلزله قوية ، وكانت الأرض تهتز كما تهتز السفينة في البحر الهائج ، وانتشر الخوف والهلع والذعر بين الناس.

وقد حدث عندما كنا واقفين في هيكل دير مار حنانيا نتلو صلاة الصبح يوم عيد القديسين بطرس وبولس أن سمعنا بغتة صوت رعد قوي ، وسقطنا على وجوهنا أمام المائدة المقدسة وتشبثنا بها ، ونحن نميل هنا وهناك وبعد مده طويلة افقنا كمن يفيق من القبر،وتنبهنا انتباه من ينهض من رقاد ، وتدحرجت الدموع من عيوننا لا سيما لما سمعنا وتحققنا أن ما حدث لم يكن في الدير فقط وإنما عم البلاد كلها ، وقد صارت فظائع عمت البلاد والقرى،وعندما علمنا ذلك اطلقنا الألسنة بالشكر والتسبيح لله تعالى الذي أشفق علينا نحن غير المستحقين.

في هذه الزلزلة سقطت مدينة حلب وصار بها خراب كالخراب الذي حل على سدوم وعمورة ، وقد نظرنا بأعيننا الظلم الفظيع الذي كان يحل فيها على الأسرى المسيحيين ، فقد كان فيها الوف ، وكانوا يأتون بهم يوم الأحد الى البيعة والحديد بأرجلهم واعناقهم ، وكان صراخهم يتعالى ليشق عنان السماء ولا يستطيع

اللسان ان يتكلم عن الآلام التـي كانوا يقـاسونها ، وإذا أردنا أن نروي عن ذلك فاننا نحتاج الى أوراق كثيرة ، وقـد جـدف كثيرون على الله عندما نظروا وسمعوا عمـا يحـدث ، وقـد تهـدم في حلب سورها ودورها وانتن الفضاء وتلوثت المياه من الجثث ، وتشـققت المدينة وصارت شقوق وسراديب سراديب ، وصارت كلها تلا واحدا خرابا ، ولم يصر بغيرها كل هـذه الفـظائع ، كذلك سـقط سـور انطاكية على شاطيء البحر وبيعه اليونانديين الكبيرة كلهـا سـقطت، وبيعه مار بطرس الكبيرة سـقط مـذبحها وبعض البيوت وسـقطت بعض البيع في عدة أماكن ، ومـات نحـو خمسـين مـن الناس في انطاكية،أما جبلة فقد سقطت كلها ، وفي طرابلس سقط قسـم كبير منها بما فيها البيعة الكبيرة ،واحدثت الزلزلة اضرارا في باقي مـدن ساحل البحـر وفي دمشـق وفي حمص وحمـاة ، وفي القـرى ، لكن الشيء الذي صار في حلب لم يكن له شبيها قط ، ولم نسمع بـه في اي مكان •

وفاة أمير ملطية

وفي هـذا الشـهر كان عمـر أمير ملطية خمس عشرة سـنة فقط ـ هذا الذي ترك أخوه المدينة بطريقة مهينة ومذلة كمـا اشرنا من قبل ـ فأحضروا له ابنة قـرا ارسـلان حـاكم قلعـة زياد زوجة ، وبينما كانوا يحتفلون بالعرس ، خرج العريس يرقص على ظهر الخيل حسـب عاده الاتـراك ، لكن الحصـان قفـز عاليا فجأة ، فانقلب سرجه وطرح الأمير أرضا ومات للحـال ، فـانقلب العرس الى مأتم ، وفكر الناس أن يعيدوا أخاه الأكبـر والذي كان قد طرد ، لكن الترك رفضوا ذلك ، كذلك أجتمع المسيحيون ورفضوا ذلك فأقاموا عند ذلك الأخ الأصـغر رئيسـا وكان اسـمه فـريدون وزوجوه امراه اخيه بدون رضاها.

• • (٤٢) أما حاكمها فرينز فقد قص شعره ، ولبس المسوح ، وجمع

الشعب وصعد الى القصير وطلب الغفران من بطريركهم ، وتــوسل
إليه ليدخل المدينة لكنه رفض أن يدخــل حتــى يخــرج البـــطريرك
اليوناني ، فلما ذهبوا وجدوا ذاك مهشما بالزلزلة فحملوه وكان بـــه
بعد رمق من الحياة ، فأخرجوه من المدينة لكنه مات في الطريق،حينئذ
دخل همفري إلى انطاكية وبنى اسوارها وبيعهــا ، وكذلك بنى نور
الدين حاكم حلب أسوارها ،وحاكم سميساط بنى اســوارها ، وكل
واحد من الحكام الأتراك والأفرنج بنى أماكنه ، وقــد أشــفق الرب
على شعبنا الموزع في كل المدن والذي لم يعد له ملك أو حاكم منه ٠

وفي حلب سقطت المدينة لكن بيعتنا حفظت ولم يسقط منها حجــر
واحد ، وهكذا أيضا بيعه مار برصوما ، وفي جبلة حفــظت بيعتنا ،
وفي انطاكية حفظت بيعنا الثلاث ، وهن بيعــة والدة الرب ، وبيعــة
مار جرجس ،وبيعة مــاربرصوما،وفي طـرابلس وفي اللاذقية ، وذلك
حفاظا على شعبنا المستقيم المجد ٠

حملة نور الدين على الموصل

عندما وصل نور الدين الى محيط الموصل ونصب خيامه هناك ، كان فيها أولاد أخوته الخمسة،وكان القيم عليهم ومدبرهم خصي كانوا يسمونه فخر الدين عبد المسيح ، أصله أسير من انطاكية ، وكان يساعد المسيحيين سرا مثلما كان مردخاي يساعد ابناء شعبه ، وكان يبغضه العرب حسدا ، مثلما كان هامان يبغض مردخاي.

أما نور الدين فقد قال : لأجل هذا اتيت الى الموصل ، أما عبد المسيح فكان يسوس المدن بالحكمة والدهاء ، لكن عندما وجد ان العرب بأجمعهم يحبذون نور الدين ويريدونه خرج اليه وأخذ عهدا منه أن لا يأخذ المدينة من ابن اخيه سيف الدين ، فوعده بذلك ، حينئذ دخل نور الدين وصعد الى القلعة ووضع بها شحنة يدبر امورها ، وهو خصي اسمه سعد الدين ، ثم ترك المدينة والبلاد تحت إمرة ابن اخيه • أما الذهب والمقتنى الذي وجده في خزائن اخيه فقد وزعه على جميع ابنائه ، كذلك وزع البلاد على الأخوه.

أما في بلاد ماردين وكل مكان توجد فيه قلعه فقد اتبعها به ، ووضع عليها واليا من قبله.

وأثقل نور الدين كثيرا على المسيحيين فزاد عليهم الخراج ، وسن قانونا منعهم بموجبه أن يربطوا احزمه في وسطهم ، أو أن يسدلوا شعر رؤوسهم ليهزأ بهم العرب ، كذلك أمران يضع اليهود رقعه حمراء على اكتافهم لكي يعرفوا.

وفي هذا الزمان مضى عموري ملك القدس الى القسطنطينية ، وقابل ملك اليونانين فأعطاه ذهبا كثيرا ، وسلاحا ، ولما سمع نور الدين قفل راجعا بسرعة ومعه عاد عبد المسيح كي لا يبقى ويصير

عونا للمسيحيين ،ولما ارتحل ناحية حلب نشب صراع بين المسيحيين الموجودين في أثور وبين مسيحيي ما بين النهرين ، وقد حدث ذلك في شهر أيار سنة ١٤٨٣ يونانية .

وكما سلف وتكلمنا عن نور الدين ، لقد اسكره المجد والقوة والسلطان حتى بدأ يحسبه بعض العرب نبي ، وقد حاول نور الدين بشتى السبل أن يذل المسيحيين لكي يظهر أمام المسلمين انه يحافظ على الشريعة ، ويسهر على تطبيقها ، وقد استطاع أن يملك بلاد اشور بالاضافة الى سورية ومصر ، فاسكره الغرور ، واعتقد أن باستطاعته أن يتسلط على كل المسكونة ، فحاول أن يمحي المسحيين من الوجود ، فقام وكتب رسائل الى الخليفة ، وارسل رسلا بهذا الشأن الى الخليفة في بغداد يردد القول الوارد في القران: أن النبي محمد قد تنبأ أن المسلمين سيملكون خمسمائة سنة لا يؤذون المسيحيين بها ، أما الآن وقد كملت هذه السنين فيجب أن يباد المسيحيون من كل البلاد الواقعة تحت حكم المسلمين ، وكل من لا يعلن إسلامه يجب أن يقتل ، وقد كتب في إحدى رسائله الى الخليفة أنه مستعد أن يأتي اليه ، فارتاب الخليفة وعرف أن نور الدين يريد من كل ذلك أن يأتي اليه ليخلعه كما خلع خليفة مصر وجلس مكانه ، اضف الى ذلك فقد كان الخليفة يحتقره لأنه يسمي نفسه نبي.(٤٣)

في سنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) في شهر اب توفي أتابك قطب الدين حاكم الموصل وكل اثور ، وحينئذ جمع أخوه نور الدين حاكم حلب عسكرا ونهض بسرعة ، واخذ نصيبين بغير قتال ، ففرح فقهاء العرب لأنه كان يكرمهم جدا لأنه كان مؤمنا متدينا لا يشرب خمرا ، ويؤدي كل فروض الصلوات ، وكان المسلمون يسمونه " نبيا " ، وقد احسن الى العرب ، وغضب على المسيحيين ،وأمر أن يهدم كل بناء جديد في البيع والاديره ، فهدموا اساسا عظيما كان قد بني في بيعه مار يعقوب الكبيرة في نصيبين التي كان يتولاها النساطره من زمان برصوما المهراطق ، ونهبوا اوانيها ، وكان بها

الوف من الكتب ، وقد صنعوا الشيء نفسه في أمـاكن كثيره ، وقـد اقام فقيها يبغض المسيحيين من سلالته يدعى ابن عصرون ، ووكله أن يتجول ويهدم كل بنيان جديد يوجد في البيعة التي قد بنيت في أيام ابيه واخيه ، لكن نلك القاسي الذي أرسله كانوا يرشـونه ، فـكان يحلف على الموضع الجديد أنه بنيان عتيق ، وعندما كان لا يجد مـن يرشيه ويدفع له كان يهدم ويخرب ، الى أن سـمع بهـذا نور الدين فأقاله.

وبعد نلك حل نور الدين على نصيبين ، ووصل الى جبل سـنجار واحتله بغير حـرب ثـم حـل على الموصـل في كانون الأول سنة ١٤٨٢ يونانية.

وفاة الخليفة المستنجد

وفي تلك السنة توفي الخليفة المستنجد ، وخلفه ابنه المدعو المستضيء ، وقد أوقف الخليفة الجديد اضطهاد المسيحيين لأسباب سوف نوضحها فيما بعد.

قصة جر المياه الى دير القديس برصوما:

كان المسلمون الترك والأكراد وشعوب من أهل السنة اخرى ، تجتمع وتأتي لتزور دير القديس مار برصوما ، في كل وقت ، خصوصا في عيده ، لأنه كان يتفقد كثيرين بنعمته ، وكان يبرئهم ، لذلك كان يتجمع الناس اليه من بعيد ، وكانوا يبقون شهرا ، لذلك كانوا يجلبون الماء على ظهور البغال ، لكن مطران ماردين الذي سكن الدير من قبل ، كان يعرف طريقا قصيرا لجلب الماء ، فكان يأتي به بسهولة ، لذلك أراد هذا المطران أن يصنع خزانا بهذا الموضع المقدس ، ويجر الماء للدير بقنوات ، لكن الرهبان رفضوا وقالوا: لا يمكننا ونحن محاصرين بالأتراك من كل ناحيه أن نقوم بهذا العمل العظيم ، لكن في الحقيقة لم يصدقوا أنه يمكن أن تمر اقنية عبر هذا الجبل الوعر المسالك والمليء بالصخور والأحجار ، وقد قالوا له:إن الأولين كانوا احكم منا وأعرف بأضعاف ، ولم يقدروا أن يصنعوا هذا ، فكيف نحن إذا؟! وبعد فتره دعيت أنا الحقير ميخائيل ، واقاموا راعيا للدير فدفعني الرب الموضح قوته بالضعفاء اكثر من الأقوياء أن اكتب للمطران ماريوحنا عن ذلك ، فأتى ببشاشة وزار المكان وقدر انه يمكن أن يدخل الماء للدير ، حينئذ بدأنا العمل بحفر الأرض واستقدام اللوازم ، ثم أتى الشتاء فعاد المطران الى رعيته ، ليعود في نيسان.

وفي هذه الفترة بدا الأخوه الرهبان والشيوخ والصبيان يصرخون

ويولولون بدافع الحسد قائلين: لقد خرب هذ الدير وضاعت امواله ، لكنني صمدت بمعونه سيدنا مار برصوم ، حتى دنا الربيع ، واتى المطران كما وعد ، حينئذ عوض الحسد[٤] الذي كنا نلقاه من المحيطين بنا صار معونات ومديحا من المسيحيين والمسلمين ، وعند ذلك تشجع الرهبان وابتداوا برضاهم يعملون بقوة سيدنا مار برصوم ، فكانوا يتسابقون ليكون كل واحد اولا ، وخصوصا كانت تظهر علامات تشير أن القديس يريد أن يتم هذا العمل ، وقد تراءى القديس لبعض الرهبان والمبتداين الذين كانوا ضد اكمال هذ العمل ، وهو يحمل عصا ويشير بها قائلا: الى هنا اريد ان اتي بالماء ، وهذا ما صار فعلا لأنهم بينما كانوا يحفرون في الصخور ، وقعت صخره عظيمه جدا فوق رجل ، وكان اسمه برصوم فبدل أن تسحقه عاد واقفا ، وهذه كلنا نظرناها بعيوننا ولمسناها بأيدينا.

واعجوبه أخرى ايضا صارت عند انتهاء العمل ينبغي لي أن اكتبها،عندما اقترب الماء من باب الدير ، وكان الصخر عاليا وقفنا في حيره ، لكن ما لبث أن تراءى القديس لراهب غريب ، وقال له:امض وقل للفعله ولراعي الدير : في المكان الفلاني تجدون مسلكا للماء ، فلما قال هذا لم يصدقه احد لأن كل الجبل كان في ذلك المكان كله صخر صلب ، فأخذ الراهب وحده يحفر حيث دله القديس ، فوجد الجبل مشقوقا نحو خمسمائه قدم ، فتعجب جميع الناس ، ومجدوا الله ، وقال بعضهم: إن الثقب قديم ، لكن اخرون قالوا:إن الرب شقه من جديد ، فأما أنا اقول : إن كان في الأصل هو مشقوق او أنه انشق الآن فقوة الله الحالة بسيدنا مار برصوم أوضحت لنا أنه هو صنع هذا الفعل وليس نحن ، اما انا الشقي الذي رويت باقي الأمور التي جمعتها في هذا الكتاب لاأحد يظن بي أني كتبت شيئا غير صحيح بل قد تركت أشياء كثيرة لئلا تطول الرواية ، فليعلم القارىء أنه في سنة ١٤٧٤ يونانية في ٢٤ آب كمل هذا العمل •

تمت هذه القصة .

• • • • (٤٤)وبلادها ، وأخذ الدار التي لبيعتنا في ماردين واعطاها للعرب ، فأضافوها الى مسجدهم ، وقد سبب هذا كآبة لنا ولكل الشعب ، حينئذ أخذ بعض المكفوفين يجدفون على القديسين بدل أن يوبخوا أنفسهم •

إن الله سمح بذلك لأجل خطايانا ،وصار الشعب يعيرنا نحن الكهنة ، ويتجاسر على القديسين ، بل من الواجب أن يقول القديسون لنا :إن الشعوب تفتري على اسم الله لأجلكم.

وفي الحقيقة الويل للعبد الذي يحتقر اسم سيده من أجله ، وبعد ذلك سقط ذلك الخصي عن حصانه وندم ، لكنه لم يستطع أن يرد الدار لأنه خاف من العرب.

وفي السنة التي مات بها مطران سميساط مات ايضا يوسف الذي كان موضوعا بغير شريعة في تل ارسانيوس وانعتق منه المؤمنون الذين كانوا هناك ، لأنهم كانوا يشكون به كثيرا.

وفي هذه السنة ارتسم ابراهيم وكيل ديونسيوس ، وفي تلك السنة حفرنا في دير ماربرصوما وبنينا مساكن للبطاركة ولراحة القاصدين ، وفي تلك السنة تجددت بيعة ملطية الكبيرة المدعوه الساعي ، وكانت قبتها قد تداعت على مر الزمن ، وشارفت على السقوط ، وقد حاول المؤمنون أن يرمموها ، لكن الرعاة لم يسمحوا لهم مدعين الخوف من الحكام ، لكن الصحيح كانوا يخافون اذا بدأوا بالاصلاح أن لايستطيعوا أن يكملوه لأسباب تعود اليهم ، وليس للحكام كما يدعون ، لذلك اهملت الى الآن ، وقد اخبر بعض المؤمنين بطريرك انطاكية بتشقق بذيان الكنيسة ، فأرسل الينا اسقف طرسوس وقسيسا من عنده وطلبا مني أن أمضي معهما الى الكنيسة لأجل هذا الأمر ، ولما مضينا وشاهدا الجدران المتداعية أعطوني خمسين دينارا لأبدأ العمل ، فأحضرت العمال حيث هدموا القبة والبابين القبلي

والشمالي ، وابتداو بالبنيان ، لكن اقترح اثنان من مساعدي همـا ابو الحسن الارشيد ياقون(٤٥) ، وورومانوس الوكيل المتكني كوجان بهـدم البنيان كله ثـم اعادة بنائه ، وهـكذا كان ، فهـدمت الكنيسة ، ثـم أعيد بناؤهـا رويدا رويدا ، وقـد اشـتركت المدينة كلها ، فكانت التبرعات تأتي من الأرامل والمساكين بمقتنياتهـم سرا الى رومانوس الوكيل .

وكان أول بناء لهـذه الكنيسـة عام ١٤٨٠ يونانية بـرعاية مارأغناطيوس المطران المدعو الساعي .

اما هذا التجديد فقد بدأ عام ١٤٨٣ يونانية وطال ستة سـنوات وتكمل في سنة ١٤٨٨ وانفق عليه الفي دينار .

وفي هذا الزمان سقط اناس من الأفـرنج ، كانوا في تلك الأرض مشهورين بالرحمة على الفقراء والمحتاجين ، بتأثير الشـياطين في الهرطقة فكانوا يقولون انه لايمكن للخبز والنبيذ ان يصـيرا جسـد الرب ودمه ، وانه لافضيلة سوى الصدقات والرحمة على المحتاجين ومحبة الناس واتفاقهم مع بعضهم ، وقد تبعهم كثيرون حتى صاروا الوفا وربوات ، وصار لهم أساقفة وولاة ، واتحـد معهـم حـكام البلاد ، ثم زادوا على ناموسهم نوع كريه مـن الدعارة اذ اشـاعوا نساءهم للجميع ، وبذلك لم يعد للرجل امراة واحـدة ، ولا للمـراة رجل واحد ، ولماانتشر هذا النفاق قام بـابا رومية فجمـع مجمعـا مسكونيا ، وامر بايقافه وكانوا يسمون البابا افوسطوموس، وأمـا نحن فوضحنا بطرق متعددة ان لامكان لنا في هذا المجمع ولانريد ان نمضي الى تلك الناحية ، وقد كتبنا صحيفة كبيرة واوضحنا بها كيف ومتى اوجد الشيطان مثل هذه الأمور .

الخليفة المستضيء بأمر الله

بعد ان توفي الخليفة المستنجد بالله ، خلفه ابنه المستضيء بـالله وقتل هذا الخليفة الوزير لانه لم يرض به مـكان ابيه ، وكان هـذا الوزير القتيل يكره المسيحيين جدا ، ولذلك اخذ الخليفة الجديد يحب المسيحيين ربما ، بسبب حقـده على الوزير ، فـأخرج رؤسـاءهم المؤمنين أولاد توما من السـجن ، وأعاد لهـم بيوتهـم وبيعهـم واعتبارهم ، فأعلموه كيف احتقر والده الخليفة السالف رسـل نور الدين لانه اكتشف حيلتـه ، وانه أرسـل له تـأنيبا يعنفـه فيه ويقول : لايجوز لك ان تسمي نفسـك نبيا ، وتضـع نواميس كالاله لأنك لم تفهم كلمة النبي محمد حول السنين ، وان الله لم يأمـر ان تقتل الناس بغير ذنب ، وحينئذ خزي وكف عما كان يقوم به .

وبعـد أن تـولى الخليفـة الجـديد طلب نور الدين الاذن للقدوم ، وزيارة قبر الخليفة المتوفى ، فتيقن الخليفة الجـديد ان نور الدين اختلق قضية المسيحيين ليأتـي بحجتهـا الى بغـداد ، ويملك ولذلك رد جوابه بتهديد شديد ، ومنعه من القدوم الى بغداد .

لذلك علينا أن نفهم أن الرب لم يتركنا من رحمته ، ولم يهملنا في أي زمن من الأزمان ، وهو دائما يحفظنا برحمته ، ويحفظ بيعتـه من كل مبغضينا

في سنة ١٤٨٣ يونانية سمع السلطان قليج ارسلان بـالانشقاق الذي حدث في ملطية بعد ان توفي الأمير الصغير إثر وقوعه عن صهوة جواده ، فاستعد للتوجه اليها ، لكن الناس سارعوا الى قلعـة زياد مستنجدين ، فأتى الخصي سعد الدين ، وهـو رجـل مـدبر حـكيم وشجاع ، فوحد كلمة العساكر وثبت خطبة ابنته سمية على الأمير الصبي ، وصار الجميع كلمة واحدة ، فلما جاء السلطان لم يستطع ان يستولي على المدينة ، لكنه أخذ اثني عشر الفا مـن شـعب البلد

ومضى ، وقد حث نور الدين كافة الأحرار ليذهبوا مع عساكره وعسكر الموصل وماردين وقلعة زياد وعسكر الأرمني وغيرهم كثيرون حيث تجمعوا عند اسماعيل في سبسطية .

لكن السلطان الذي بقيسارية كان يماطلهم ويعدهم بالغزو ، ثم يؤخر من وقت الى وقت حتى انقضى وقت الصيف ، ولما نظروا انه قد قرب الشتاء ، وعرفوا انه كان يخادعهم توجهوا الى الباب الرئيسي لقيسارية يريدون الخروج للغزو والسبي ، لكن السلطان لم يطاوعهم ولم يخرج معهم للحرب ، وحينئذ طلبوا منه ان يعطيهم مقتنياتهم وأموالهم التي كانوا قد غنموها في بلاد ملطية ، وكانوا في حالة من الغضب والهياج ، ثم اخذوا يجمعون اسلحتهم وثيابهم .

أما الشرذمة التي كانت مع صلاح الدين فقد وصلوا الى مصر ولبسوا السواد وبقوا في حالة من الحزن .

وفي هذه الأيام لما علم الوالي التركي المتسلط على قلعة الروم ان حاكم حلب يستعد لاعتقاله وقتله عصى وتمرد والتجأ الى الأفرنج فوعده فرينز ان يدعمه ويساعده للبقاء في القلعة ، ولما جعل نفسه عبدا للأفرنج عاداه الأتراك ، وصاروا ضده ، لكن الأفرنج اخلفوا عهودهم ومواثيقهم معه ، وداسوا على اليمين الذي اقسموه له ، فأتوا من القدس ومن كل ساحل البحر : كونت طرابلس ، ورافان حاكم قيليقية ووالي فلظ ، ومضوا مع فرينز وكانوا جمعا كبيرا جدا ، وهاجموا حارم وحاصروها اربعة أشهر ، واخذوا يضايقون البر كله والمدينة ، وقد اوقعوا خسائر كبيرة ، وقتلوا عددا كبيرا من الخلق،لقد حلفوا بالصليب والانجيل كذبا ، وظنوا ان الغلبة تكون بقوة البشر ، ثم اخذوا يهاجمون القلعة كرا وفرا ، فضعف الترك الذين كانوا يدافعون عن القلعة وارسلوا يستنجدون بحاكم حلب ، واعطوه عهدا أن يسلموه القلعة ، اذا رد الفرنجة عنهم ، فأعطى حاكم حلب عشرين الف دينار الى فرينز حيث قفل راجعا الى انطاكية .

....(٤٦) وقد جمع البلاد التي اخذها من اخيه شاهنشاه والذي كان قد اخذها من ذي النون ، وكذلك أخذ أولاد أخيه الذين كانوا في السجن اما هو فأرجع شعب ملطية وأعطى لأخيه كل سنة عشرة الاف دينار ، لكنه لم يعط مكانا لأحد قطعا .

اما عن اخباره مع أولاد اخيه فقد كان معهم متوحشا الى أبعد الحدود ، فذبح واحدا منهم وشواه بالنار ، ووضعه على طبق وارسله لأبيه وأرسل معه خبزا وأرفقه برسالة تقول :إن كنت تريد ثلاثة اخرين مثل هذا فأنا على استعداد أن ارسلهم فورا لك ، فلما راى الترك هذا المنظر هلعوا وارتاعوا وتصالحوا ، وعاد كل واحد الى بلده لأنه كان قد دنا فصل الشتاء ، وكانت بلادهم خالية من العساكر .

ولما انيع خبر موت نور الدين بين العرب والترك ثاروا على بعضهم ، ووقعت بينهم حروب شرسة اقتتلوا فيها كثيرا ، وسقط منهم الوف ، وقد خاف المسيحيون ان يفنوا بعضهم بعضا ، وقد خلت القرى من الرجال والطرقات من المارة في سورية ومابين النهرين وأشور .

وفي تشرين رجع الأمراء والعساكر من كبدوكية الى بلادهم ، كذلك تعافى نور الدين من مرضه وظهر امام الناس فعرفت الشعوب انه حي ، فتبددوا وتفرقوا ، ثم اصطلحوا ، وخلال هذه المعارك التي صارت بين العرب والترك سبي من كيسوم نحو من الف شخص ، وقد اشتراهم اهل ملطية وتاجروا بهم وربحوا اموالا طائلة .

في سنة ١٤٨٤ يونانية قتل اسماعيل حاكم كبدوكية ، فالجوع الذي طال امره في كل البلاد ، والشتاء الصعب الذي أتلف كل شيء ضايق الناس كثيرا ، فتجمهروا وطلبوا منه قوتا بعد أن علموا أنه يختزن الحنطة ويمنعها عنهم ، ثم اعطاهم قليلا وطردهم بل وأخذ يهزأ بهم ، وحين تضايقوا من الجوع حاولوا ان يقتلوه ويأخذوا

الحنطة ليقتاتوا بها مع أولادهم ، فتحالفوا مع بعضهم ، وهجموا عليه وقتلوه هو وامرأته أخت السلطان مع خمسمائة من انسبائه ، ورموهم على الثلج دون أن يدفنوهم ، ثم تسلطوا على كل الطعام الذي خزنه واكلوه ، اما أخبار مصرعه فلم تعلم حتى شهر شباط لأن الطرق كانت مقطوعة بسبب تراكم الثلوج ، واخيرا انتشر الخبر في كل مناطق حكمه ، لكن الثلج الكثيف شل حركة الناس ، فلم يستطع ان يتحرك اللصوص او قطاع الطرق ، إنما سرعان ماندم قاتلوه واتفقوا ان يقيموا مكانه احد انسبائه ، فاتصلوا بعمه ذي النون ، الذي كان السلطان قد اطلق سراحه من قيسارية ، فسكن في دمشق ، والآن لما استدعي للسلطة اهتم به نور الدين ، اما ذي النون فقد اتى سيرا على الأقدام لأن الثلج كان قد غطى الطرقات ، وعندما وصل امام ديرنا خرج اهل الديروكسحوا الثلج امامه ورافقوه مسيرة خمسة ايام ، الى ان وصل سبسطية ، وعندما تملك هناك احضروا له القتلة فقتلهم ، لكن بعد هذا ظهر نورالدين بعد ان ظن الجميع انه قد مات وخرج لملاقاة السلطان ، وكذلك الأمير قلج ارسلان في كيسوم ، وهو خال السلطان ، ولما عرف ان السلطان مغتاظ منه ترك وعاد الى كيسوم من خوفه ، ومضى الى نور الدين ، ولما ملك ذو النون في كبدوكية زحف ضده السلطان ، وحينئذ جمع نور الدين ، وجاء فأخذ كيسوم وقلاعها ومرعش ، ودخل الى بلاد جيحان ، ثم ترك السلطان سبسطية وأسرع ليحارب نور الدين ، وقد نصب القائدان خيامهما وجها لوجه في بلاد جيحان ، لكنهما كانا خائفان لأنهما كانا متعادلين بالقوة تقريبا ، وأخيرا انتشر الجوع في كلا المعسكرين ، وفني منهم عدد كبير ، ولهذا السبب توسط المصلحون فيما بينهما فوافقا على الصلح ، فرد نور الدين كيسوم وكل المواضع التي أخذها من السلطان ، وبالمقابل سمح السلطان أن يملك ذي النون على كبدوكية ، وأن يطيع نور الدين ، واصطلحا ، ورجع كل واحد إلى بلاده ٠

وأباد الثلج الذي انهمر بغزارة في هذا الزمان الناس والبهائم

والطيور ، وقد قرر الجميع ان هذه الضربة الثلجية التي اتت في شهر ايلول وتشرين واتلفت الغلال ، كانت غضبا من الله لأنهـا اتـت في غير أوانهـا ، وقـد التجـأ الناس الى التنجيم والضرب بـالفال ليكتشفوا سر ماجرى ، فقد لف الظلام الجو ، وصار نور الشـمس يظهر كنور القمر ، أمـا الثلج فـكان يتسـاقط بغـزارة عظيمة ، فامتلأت الجبال والبقاع حتى أن الاقـوياء مـن الشـباب كانوا يذهبون من قرية لقرية بصعوبة عظيمـة ، بـل ومـن بيت الى بيت ، وهكذا امتلأت الأسواق والمدن والقرى بالثلج ، وكان الناس داخل بيوتهم وكأنهم في قبور ، وقد تجمـدت الأنهـار والعيون وكل الينابيع حتى أن الناس والبهائم والطيور كانوا يموتون من العطش كما يموتون من الجوع .

واي انسان يستطيع ان يصف الشدة التي حلت بهذا الزمان على كل مايعيش على الأرض من الحيوانات والطيور التي كانت تلتجيء الى البيوت ؟ أمـا الثيران والحمير والخيل فقـد مـاتت داخـل زرائبها ، بينما نفقت الأغنام والماعز تحت الثلج ، وانتن الجو مـن رائحة الجثث ، وهذه الكارثة لم تقتصر على بلاد الشمال فقـط بـل صار هذا في الهند ايضا .

وقد بقي الثلج يتساقط اربعة عشر شهرا وحيث لم يكن معتـادا ان يأتي قط ، أما القبائل العربية التي لم تتعود السـكنى في البيوت فقد غمر الثلج خيامها فبادوا ولم يبق من ينقل الأخبار من قبيلة الى اخرى ، وقد بقي الثلج يطمر كل شيء حتى شهر نيسـان وبصـعوبة كبيرة جدا عرف الناس الذين كانوا يسلكون في الطـرقات فـطمرهم الثلج ، وبقوا كل هذه الفترة تحته،أما الملوك والرؤساء فقد التجـأوا الى المنجمين الذين أخذوا يكذبون ويقولون ان هذه الشـدة سـوف تنتهي قريبا ولن تعود ، لأن الملوك هكذا يريدون ، ومثل هذا الكلام صدقه عدد كبير من الناس ولكن الله قد فضح كذبهم فصار في السنة التي بعدها ماكان قد صار نفسـه ، وامتـد مـن آذار الى نصـف حزيران ، فاعترف حينئذ الطالبون الذين يقرأون في عدد الكواكب ان

- ٢١٨٣ -
كل مايشاء الرب يصنع ، وقد كتبنا ذلك ليتعظ الناس ويعتصموا بالايمان .

وفي هذا الزمان سبى العرب بيعة الأربعين شهيدا في ماردين ، وقد سمح الله تعالى ان نعتبر بهذا ، لكن رجعت البيعة بعناية الله فيما بعد .

موت نور الدين

في عام ١٤٨٥ يونانية كان سلطان نور الدين يمتد من اشور وبين النهرين الى سورية ومصر ، وكانت كل هذه البلاد وكل امراء الامارات التي بها تخضع لأمره كالعبيد،فانتفخ غطرسة وجبروتا عندما خضع له ايضا الذين في كبدوكية وقيليقية،فتأهب في هذه السنة ليحتل المملكتين دفعه واحدة ، مملكة الافرنج في القدس وانطاكية ، ومملكة الأتراك في بلاد حران ، وكان رسله يجوبون كل مكان ساعين في تجنيد الرجال لهذه الحرب حيث كانوا يجمعونهم في دمشق بعد ان يأتوا بهم من داخل بلاد العرب ، وبلاد اشور ومن بين النهرين وأرمينية وكبدوكية وسورية وقيليقية ، وكانوا جموعا تفوق العدد والتصور، وعم الخوف والفزع والهلع كل مكان ، ولاسيما بين المؤمنين المظلومين ، لكن الرب المتسلط وحده على ممالك الأرض حكم فجأة على نور الدين وانتهت حياته وطموحاته وافكاره ، فعم الفرح ليس بين المسيحيين فقط بل وبين الأمراء الذين كانوا متضايقين جدا ، فقد منعهم أن يشربوا الخمر في معسكره ، وكذلك منع الغناء والرقص ، وكان يغلب على معسكره الطابع الديني ، فكان دائما يستمع الى القرآن والحديث ، لأنه كان يعتبر نفسه نبيا،وكان يدعي ان الله يتكلم معه مثلما كان يتكلم مع موسى .

اما العرب فقد اعتبروا أن مايدعي به هذيانا وخروجا فاضحا على الدين ، غير أن بعض المرائين والمنتفعين كانوا يقولون له : لقد رايناك في مكة أو في المسجد الفلاني ، وكان يتقبل كلامهم بفرح وسرور

وملك نور الدين ثمانية وعشرين سنة ، وملك بعده ابنه الصالح في حلب ودمشق

الملك الصالح اسماعيل

بعد موت نور الدين ملك ابنه الملك الصالح فقام الملك عموري ودخل الى بلاد دمشق وسباها ودخل على بانياس ، وخاف المسلمون كثيرا خصوصا انهم كانوا يستعدون ليطردوا الافرنج ، واذا بالافرنج اتوا ليملكوا على بلادهم ، لذلك أرسل اهل دمشق رسلا لهذا الملك طالبين ان يؤدوا له الجزية،كما كانوا فيما سلف،لكن الملك رفض ذلك ولم يقبل ان يعقد معهم صلحا قط ، بل تهيأ ليشن الحرب عليهم لكنه مالبث ان مرض ، ولما علم ان اجله قد دنا اسرع واخذ الذهب من الدمشقيين وعقد معهم صلحا،ورجع الى عكا ومات هناك في اول تموز سنة ١٤٨٦ يونانية،اي بعد اربعين يوما من وفاة نور الدين .

وقد احدث موته حزنا للمسيحيين الذين كانوا يأملون ان يعيشوا أفضل بعد موت نور الدين ، فخاب املهم بالموت الأليم لهذا الملك الذي كان في بداية الشباب .

ملك عموري اثنتي عشرة سنة ، وقد خلفه ابنه المسمى بلدوين باسم عمه المتوفى وكان عمره خمس عشرة سنة،ولما ملك ثبت الصلح الذي كان قد عقده والده مع ابن نور الدين .

في صيف هذه السنة اي ١٤٨٦ يونانية لما سمع قلج ارسلان بوفاة نور الدين هاجم بلاد الدانشمدنيين فخافوا كثيرا وتم فيهم قول أرميا النبي :« ملعون هو كل من اتكل على الانسان وصنع ابن اللحم ساعده،ويبعد من الرب اتكاله فيكون مثل الجذر الذي ليس له ماء»، واستطاع السلطان ان يتسلط عليهم ويقتلهم واخذ سبسطية ونوقيسارية وقومانا وباقي مدن كبدوكية وكل قلاعها ، وقد عظم السلطان قلج ارسلان هذا فهرب كل الأمراء من وجهه

واختبأوا ، أمـــا رئيســهم ذو النون فقــد التجــأ الى القسطنطينية ، واستنجد بملك اليونان ، فلم يقبله ، وانتهت عند ذلك زعامة بني دانشمند التي ابتدأت مع بداية خروج الأتراك لهـذه البلاد ، والاستيلاء عليها من اليونانيين سنة ١٤٦٢ يونانية ، وقد ملكوا مائة واثنتين وعشرين سنة قام خـلالها سـتة رؤسـاء مـن سلالتهم .

وبهذا الزمان انتهت زعامة بني دانشمند في كبدوكية .

وبهذا الصيف ابتدأ ينبت العشب وحسنت الغلات بعـد أن صـار جوع عظيم لمدة أربع سنين في كل من سورية وفلسطين ، وفي أثـور وارمينية وبلاد فارس ، ووصل الى سجستان ، وايضا وصـل الى الهند الكبيرة ، فالآن قد بدل الرب القادر على الكل ، فصـار شـبع لاسيما في ارض مصر حيث كثرت الغلال وخصوصا الحنطة فصـار حملان من الجمال بدينار واحد .

بعد موت نور الدين خرج ابن اخيه سيف الدين من الموصل،وأخذ نصيبين،ونقض النواميس التي وضعها عمه ، وكسر الحجـر التـي كان قد كتب عليهـا النواميس ، وكانت مـوضوعة بـالمسجد وأمـر بشرب الخمر علانية ، وأتى اليه أمراء ماردين وحصن كيفا ، كذلك مضى الى حران وملك عليها وأخذ سروج وقالينيقوس ، وخضـع له ابن عمه حاكم حلب ودمشق ثم رجع الى الموصل .

وفي تلك السنة ملك صلاح الدين الذي كان يملك بمصر ايضا على بلاد العرب الداخلية وعلى أماكن من ممالك النوبة ، ونجح نجـاحا عظيما .

وفي هذه السنة قام الأرمن اصـحاب جبـل سـاسون الذي كانوا يملكونه منذ عدة اجيال بالتخلي عن قلاعه الى شاه ارمـن صـاحب اخلاط،وذلك نتيجة لما تعرضوا له من ضغوط ومضـايقات مـن أمير ميافارقين. وفي هذه السنة انتزع الأتراك من الفرس مدينة آني.

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية في ١٥ كانون الأول قتل في قلعة ماردين الطواشي امين الدين مدبر البلاد ، وقد قتله الأمير قطب الدين ، واخذ راسه بيده ، ودخل على أبيه الشيخ وقال لقد اراد ان يقتلني فقتلته ، فأما الشيخ أبوه فقد أصيب بصدمة شلت لسانه فلم يجب .

وفي تلك السنة عصت على مليح حاكم قيليقية عساكره لمعاملته السيئة النجسة ، وحاولوا قتله ، ولما أحس خرج من المعسكر ليلا وهرب الى احدى القلاع،لكن حراس تلك القلعة كانوا متعاطفين مع العساكر فامسكوه وقطعوه عضوا عضوا ، واعطوه للكلاب فأكلته ثم احضروا روفين ابن اخيه اسطفان من طرسوس ، وكان مختفيا هناك خوفا من عمه وملكوه عليهم ، حينئذ قتل الذين قتلوا عمه لأنهم رموه للكلاب .

وفي هذه السنة صار في بغداد تمرد على الخليفة المستضيء من عبده قطب الدين ، فجمع عسكرا وحاصره في داره طالبا منه ان ينصبه سلطانا،فلما تضايق الخليفة صعد الى سطح داره واخذ يصرخ باعلى صوته باكيا متضرعا مستنهضا همة الشعب الموجود داخل المدينة ليجتمعوا وينجوه من ايادي هذا المتمرد ، فاجتمع اليه آلاف ، وبعد قتال عظيم هرب العبد ومعه ثلاثون الف فارس ، وتوجهوا الى البرية لينجوا فساروا خمسة أيام لم يجدوا فيها ماء ، فتضايقوا من العطش،فأرسلوا رسلا الى حاكم الموصل الذي وعد ان يصلح الأمر بينهم وبين الخليفة ، ولما توجهوا لكي يمضوا للموصل ادركتهم ريح حارة ومحرقة ، فيبسوا وصارت الناس والبهائم كالخشب الأسود حتى ان الحيوانات عافت ان تاكلهم لأن رؤوسهم متصلبة كالحجارة ، ثم استطاع ان يصل الى الموصل مائة رجل منهم ، لكن الأطباء لم يستطيعوا ان ينقذوا أحدا منهم فماتوا جميعا وصاروا عبرة لمن اعتبر .

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية ، يوم الأحد ١٥ شباط ، قتل امير

ملطية اخيه الذي كان قد ملك أولا ، ثـم تـرك الملك والمدينة وهـرب بحالة من الذل ، وبقي متشردا خمس سـنوات يعيش عيشـة بـذخ وفسق وفجور ، فأمسكه نور الدين وحبسه لكنه ما لبـث أن هـرب واتى انطاكية وتبع الافرنج ، لكنه لم يجد هناك راحة فعاد وهرب من هناك ورجع إلى الترك ، وجاء إلى عند السلطان فأعطاه هـرقلية ، وكان يريد ملطيه ، وعندما أصر على ذلك عاد فـأخذ هـرقلية منه ، فتوجه إلى الأتراك الذين في ناحية الشرق فأمسكه نور الدين وزجـه بالسجن في مدينة البيرة على شاطىء الفرات ، وعاش هناك في ضيق حيث كان يقتات من الصدقة ، وقد تجاسر رهبان دير مـار بـرصوم وارسلوا له صدقة مع رسل من الرهبـان انفسـهم،لأنه عندمـا كان حاكما كان يحب الدير ويكرمه ، وقد اسـتفاد الدير مـن هـذا كمـا سنوضح القول فيما بعد .

ولما مات نور الدين خرج من السجن وسمع ان امراة اخيه تركت ملطية بسبب بغضها لبعلها ، ورجعت إلى قلعـة زياد عند أبـويها ، فتوجه إلى هناك حيث شجعه هؤلاء كثيرا ، فأخذ سرا مـاخف حمله وتـوجه إلى دير مـار بـرصوم ونذر له نذورا كبيره إذا رجـع وملك ملطيه ، واقسم ايضا أن يعتق الدير من الخراج ، وبعـد ذلك تـوجه إلى المدينة بزي مسكين شحاذ وقت المساء ، ولم يعلم بـه إلا رجلين كانا معه فقط ، وقد أخذاه إلى احد الأتراك وكان يحبه منذ زمـن ، واختفى في بيته مدة يومين ، ثم خرج ليلة الأحد المذكورة مـع رفيقيه مخاطرين بحياتهم ، ووصـلوا إلى الدار ودخلوا البسـتان دون أن يعلم بهم الحـراس ، فـوجدوا هناك سـلما مـطروحا على الأرض فوضعوه على الحائط ودخلوا البيت الذي كان ينام فيه ذلك الشـقي مع المراة العجوز مربيته ، وفجـأة اسـتيقظ الصـبي والعجـوز خائفين ، مذعورين يرتجفان فبـادره بضربـة على راسـه قتله على الفور ، واخذ مفاتيح ابواب المدينة والقلعة ، وحمـل راس أخيه بيده واخذ يجول على قواد العسكر ، وكان قد مضى أولا عند الذين يعرف أنهم مؤيدوه ، وكان الناس يستيقظون في نومهم ويرون راس الأمير المقطوع فيسلمون فورا له ، ثم أخذ مائة رجـل تقـريبا وصـعد عند

انبلاج الفجر إلى القلعة ونصب أميرا جديدا ، وقد خـاف الجميع ، أما المؤمنون فقد التزموا بيوتهم ، وأما الأتراك فقد امتطوا خيولهـم وامتشقوا سيوفهم وتجمهروا أمام باب القلعة واخـذوا يخـاصمون معتقدين أن أميرهم لم يقتل ، لكن لما رمي رأسه مـن أعلى السـور وتدحرج بينهم تأكدوا أنه هو ، حلفوا كلهم لمحمد هذا ، وكذلك حلف هو لهم أيضا ، ولما تنصب وملك الغى ألخراج عن دير سـيدنا مـار برصوم كما وعد ، لكن الرهبان قالوا له إنهم سـيعطوه بـاختيارهم كل سنة ثلاثمائة ديناره على أن يلغي مازاده عليهم الأمير غازي لأنه قبل الأمير غازي لم يكن يثقل على الدير، وكان الأمير غازي قد وضع على الرهبان سبع مائة دينار كل سنة،لكن الأمير عاد فألغى الخراج عن الدير وذلك وفاءا لنذره،أمـا الرهبـان فلم يرضـوا واصروا أن يدفعوا الخراج وذلك حتى لايستعدوا المسلمين عليهم،فمـا كان مـن الأمير إلا أن زار دير مار برصوم ووهبه مالا •

وفي سنة ١٤٨٧ يونانية يوم الأحد الثاني للفصح في ١١ نيسـان عند الصباح،وبعد قراءة الأنجيل،أي عند انتهاء الخدمة تقريبا أظلمت الشمس كليا وصار ليل،وظهرت الكواكب في السماء وبدا القمر بقرب الشمس وكان مشهدا محزنا ومفـزعا لكثير مـن الناس فـأجهشوا بالبكاء،أما الغنم والبقر والخيل فقد تشابكت مع بعضها من الخوف، وبقي الظلام ساعتين ثم أضاء،وبعد ١٥ يوما في نيسان ليلة الاثنين مساءا انكسف القمر في الموضع الذي به أظلمت به الشمس •

المجد لعارف الكل .

وفي هذا الربيع قل المطر وصار حـر شـديد فيبس الزرع وبـاقي الحبوب،وصار عطش عام وقد فرغت قرى كثيرة كليا مـن السـكان لاسيما في القدس وفلسطين وسورية العميقة،وبلاد نصيبين،وفي طور عبدين وفي بلاد الموصل،ولم يحصدوا الزرع أبدا وقد فقد الماء تمـاما حتى لم يعد يشرب الناس والبهائم .

« قدوم صلاح الدين إلى دمشق »

وفي سـنة ١٤٨٧ يونانية خـرج صـلاح الذي كان يملك في مصر واتى إلى دمشق لأنه سمع أن حاكم الموصل قد أخـذ مـن ابـن نور الدين حران والرها،فاتى بحجة ابن سـيده،وبهـذه الحيلة تملك على دمشق ونواحيها ، أما الصبي ابن نور الدين وامـه ومـربيته الذين كانوا في حلب فقد خافوا منه،لكنه أرسل رسلا يقول لهم بانه مـاهو إلا عبد وقد جاء ليخدم الصبي ويصـير له مـربيا ويحـارب اعداءه ويطردهم،فلم يصدقوه ولم يفتحوا له الأبواب،ولما نظر ذلك كشف عن نيته الحقيقية فأخذ حمص وحماه حربا واحضر من مصر ذهبا كثيرا وصار يلقيه كالتراب ويجمع العساكر ، واخرج الفرنجة الذين كانوا محبوسين في دمشق منذ بداية حـكم نور الدين وصـنع صـلحا مـع الأفرنج .

اما سيف الدين حاكم الموصل فقد أرسلعساكره ليطردوه،فعندمـا وصلوا اخـذوا يهـزؤون بـه ويحقـروه ويدعونه الكلب المكشر على سيده ، اما هو فكان متواضعا جدا فأرسل لهم رسلا يقول لايجـوز لنا ونحن بيت واحد أن ننقسم،لكنهم شـتموا رسـله وهـجمـوا عليه مسرعين لئلا يهرب ويفلت من أيديهم ، لكن الله الذي يكره المتكبرين والمرتفعين أضعفهم ورمـى في نفـوسهم الخـوف والهلع فهـربت العساكر على كثرتها ، فأمسك اكثـرهم واخـذ فيلهـم وجمـالهم وسلاحهم ، وهنا وقف موقفا يستحق الذكر إذ لما راهم انهم بـداوا يهربون صرخ بصوت عال وطرح قبعته ارضا وقـال :لاتقتلوا احـدا فهم أخوتنا ، واخيرا حتى الذين كانوا أسرى أعطـاهم زادا وخيلا وأرسلهم بسلام .

وقد كان لسلوكه هذا وقع حسن في نفوس المسلمين .

اما الذين في حلب فإنهم لما نظروا انتصاره خافوا جدا وارسـلوا

هدايا لحاكم انطاكية ليكون مساعدا لهم ، وفتحت الأبواب ليباع في حلب الملوك الذين كانوا مسجونين فيها منذ زمن طويل ، وقطع رجاؤهم من العودة ، فبيع كونت طرابلس بثمانين ألف،وجوسلين بن جوسلين بخمسين ألف،ورنجر فرينز بمائة وعشرين ألف،وكانوا قد أرسلوا عدة مرات ذهبا من القسطنطينية لأجله فكان يدفع ثمنا لغيره ويبقى هو ،أما الآن فقد خرج مع كل الباقيين .

عاد سيف الدين حاكم الموصل بعد أن انكسرت عساكره،فجمع عسكرا اضعافا مضاعفة،ومضى معه حاكم ماردين وحاكم حصن كيفا وكان مجموع الجيش ستين الفا،وكان بإمرة صلاح الدين إثني عشر الفا فقط،فأرسل إليه قائلا : لاتطلب حربا لأني إن انكسرت فأنا عبد لا اتعير من أولاد ساداتي ، أما أنت فإنك ملك إذا انكسرت فسيكون هذا عار عظيم عليك ، لكنه استخف به وشتمه،ولما اشتعلت الحرب رشا صلاح الدين رؤساء العساكر الذين كانوا يقودون جيش سيف الدين بمال كثير وذهب وافر فانسحبوا وتركوه وحيدا على جمل ، فرجع إلى الموصل يجر أذيال الخزي والعار ، أما صلاح الدين فقد مضى إلى منبج فسلمه إياها العرب الذين بها واعتقل الأمير الذي بها ، وكان هذا فيما مضى حاكما للرها واسمه قطب الدين ينال بن حسان ، اخذوا مقتناه ظلما ، لكن بعد خمسة أشهر اخرجه صلاح الدين فمضى إلى الموصل ، وبعد هذا اتى إلى طاعته الأمراء الذين في تل باشر وعين تاب وباقي بلاد سورية ، ثم مضى نحو اعزاز فهناك هجم عليه المدعوين بالحشيشية وضربوه بالسكاكين لكنه لم يمت ، وعندئذ قتل مهاجميه وارسل عساكر سبوا بلادهم ، وبعد ذلك أخذ أعزاز بالحرب وحل على حلب ايضا فالتجأ أهل حلب الى الافرنج فأرسل اولئك الى رنجر الذي كان قد خرج من الأسر فانتصر وقتل عددا كبيرا من العساكر ، ثم دخل الافرنج الى بلاد دمشق ايضا وقتلوا هناك شعبا كثيرا وسبوا ، ثم أرسلوا ايضا عساكر الى مصر وسبوا تلك البلاد ، ولما تضايق صلاح الدين من الافرنج رد أعزاز الى حاكم حلب وصنع معهم صلحا ، ورجع الى مصر مسرعا.

« حرب بين الأمير منويل وقلج أرسلان »

لما سمع منويل ملك اليونانيين أن ابن اخته قتل على باب نوقيسارية هجم غاضبا على الأتراك يريد الانتقام ، لكن السلطان أمر عساكره أن لايحاربوا ، بل أن يمضوا مجموعات حول معسكره من اليمين واليسار والخلف ، وينهبوا القرى وكل أنواع القوت للبشر والبهائم ، وكذلك أن يسمموا مجاري المياه والعيون والأبار بجثث الكلاب الميتة والحمير وبكل أنواع النتانة والنجاسة .

وامر ايضا الذين في القلاع أن لايحاربوا بل أن يقاوموا قدر الامكان وإذا ضعفوا فليحرقوا البلدة كلها وينتقلوا ، أما السلطان فقد صعد إلى جبل عال ووعر وكان ينتقل فيه من مكان إلى مكان ، حينئذ دخل الملك بقوات إلى عمق بلاد الأتراك مسيرة خمسة أيام ، ولما راه التركمان سكان تلك البلاد خرجوا كالذباب الذي ليس له عدد على ملك اليونانيين ، وأخذوا يحرقون ويخربون ويقتلون كل من وجدوه خارج معسكر اليونانيين ، ولما وصل اليونانيون إلى قرب قونية ، وصارت تفصلها عنهم مسافة يوم ، بينما كان يفصلهم عن المكان الذي يختبىء فيه السلطان مسيرة ثلاث ساعات دخلوا بين الجبال في موضع ضيق ليس فيه ماء ، وكان برفقتهم خمسة الاف عربة تحمل المؤن والسلاح وخشب المنجنيقات ، وذهب البيع والصلبان ومقتنيات أخرى متنوعة ، فانتظر التركمان حتى ابتعد الملك وعساكره عن قافلة العربات هذه ، فهاجمها نحو خمسين الف رجل فسبوا ونهبوا كل المعسكر ، فلما سمع الملك وعسكره أن متاعهم ومؤنهم واسلحتهم قد سبيت ، كذلك هاجمت القوة التي كانوا ينتظرونها خافوا وارتبكوا ، ولما علم الأتراك بخوفهم أخذوا يدحرجون عليهم الصخور الكبيرة من رؤوس الجبال ، وقد دهست وهشمت هذه الصخور الناس والحيوانات ، وكان الجنود يتدافعون للالتجاء في الخنادق وهم مزعورين من ملاقاة الترك ، وقد وصل

الأتراك إلى مسافة قريبة منهم ، حتى أنهم استطاعوا أن يرموهم بالسهام ليلا ، حينئذ وفي منتصف الليل أرسل الملك إلى السلطان طالبا الصلح ، أما السلطان فكان بدوره خائفا ، لذلك قبل سريعا ، وكانت الرسل تأتي وتروح بالمصابيح طوال الليل ، وأعطى الملك للسلطان المدن الثلاث التي بناها ، وفي الصباح نادوا بالصلح ، فتحلق الترك حول السلطان وأخذوا يصيحون كافر ، كافر من قبل الصلح،واضطر الملك أن يصطحب معه ثلاثة أمراء من أمراء السلطان حتى لايتجاسر عليه التركمان ، أما الترك فلم يلتزموا إذ عندما بدأ اليونانيون يرحلون كان الترك يهاجمونهم من كل جانب ويقتلون اليونانيين ، وحينئذ قال الملك للأمراء الذين عنده:لماذا يحدث هذا بعد توكيد الاتفاق بالايمان؟ فأجابوه: هؤلاء ليسوا تحت أمرنا ، عند ذلك صنع الملك كمائن للترك ، فقتل منهم عشرين الفا ، لكن لما دخل الملك القسطنطينية أرسل ذهبا كثيرا إلى السلطان ، وأخذ الصليب الذي يحتوي على قطعة من الصليب الذي صلب عليه المسيح ، وبعد ذلك أرسل السلطان إلى الخليفة في بغداد وإلى كل الأمراء وإلى سلطان خراسان عددا كبيرا جدا من العبيد والسلاح ورؤوس اليونانيين وشعورهم،محمولة على رؤوس الرماح، أو مربوطة في أذناب الخيل ، وهكذا كانت نهاية اليونانيين ومن لايستطيع أن يعترف أن كل هذا يصير بأمر الله وأحكامه غير المعروفة؟!

« موت نجم الدين حاكم ماردين »

في عام ١٤٨٧ في ٢٧ تموز مات نجم الدين حاكم ماردين ، وذلك بعدما ملك اثنان وعشرين عاما ، وكان عهده عهد خير ورفاهيه لشعبه عامة وللمسيحيين خاصة ، كذلك كانت البيع والاديرة .

ملك بعده قطب الدين فاضطهد أعمامه وضايقهم كثيرا ، مما دفع حاكم الموصل وحاكم حصن كيفا أن يتوسط لهم حيث صاروا بعدها تحت طاعته كما كانوا أيام ابيه ، ثم اتى اثناءها حاكم حاني وحاكم دارا ودخلا قلعة ماردين وسجدا له وتصالحوا ، وبعد هذا أذيع خبر انه مات وأن الخراب عم بلاده ، لكن تبين انه كان مريضا فشفي وعاد كما كان ، ثم تحارب مع العرب وقتل منهم الوفا واخذ من جمالهم إثني عشر الفا من الجمال ، وهرب الباقي ثم تصالحوا واصطلحت البلاد .

وفي هذا الزمان خرج ملك اليونانيين للصيد فضربه خنزير بري وذاع خبر انه مات ، فقام السلطان وسبى بلاده ، لكن الملك الذي تعافى اكتشف أن السلطان لم يحفظ الجميل الذي كان قد أسلفه إياه فغضب جدا ، وزاد نار غضبه الأمراء أولاد دانشمند الذين هربوا من أمام السلطان ، الذي سارع فأخذ بلادهم ، فالتجأوا إلى القسطنطينية إلى الملك ، فأخذ السلطان بلادهم لقمة سائغة ، لذلك جهز الملك جيشا غطى وجه الأرض ، وسير أمامه أولاد دانشمند ، وعندما وصل هذا الجيش إلى حدود الأتراك أخذ يضايق السلطان ليعيد أولاد دانشمند إلى بلادهم التي كان السلطان قد أخذها منهم ، وكذلك لكي يتنازل لأخيه ،لكن السلطان رفض ، وعندئذ افتتن الجانبان ، وقام الملك ببناء مدينتين كانتا مخربتين منذ زمن بعيد ،ووضع بهما عسكرا اخذ يهاجم الأتراك ، ثم أرسل الملك جيشا فنهب وسبى شعب التركمان وقتل منهم الوفا،وحينئذ توجه

التـركمان الى ناحية الشـمال ودخلوا إلى بـلاد اليونانيين دون أن يعلموا أين هم فسـبوا مـائة الف مـن الناس ، وقتلوا الرجـال والنساء ، اما الأولاد فقد باعوهم إلى التجار ، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا إلى فارس ، وحينئذ هاجم الملك السلطان فهرب مـن وجهـه واخذ ينتقل من جبل إلى جبل ،.والملك يطـارده ، وكان في الحقيقـة لايريد أن يتحارب مع الملك .

ثم أرسل الملك مع الأمير ذي النون ثلاثين الفا من العساكر ليملك نوقيسارية،فحاصروها وعندما أرادوا أن يقتحموها احتال الاتـراك الذين في داخلها ، فكتبوا رسـائل على لسـان المسـيحيين الذين في داخلها إلى رئيس عسكر اليونانيين يقـولون فيهـا : إن الأمير ذي النون الذي وضعت ثقتـك فيه مـاهو إلا إنسـان مـكار ، ويريد خداعكم ، وهو متفق مع الأتراك أبناء جلدته وعشـيرته ، ويسـتعد لاهلاككم ،ووجهوا الرسالة بواسطة سهم إلى معسـكر اليونانيين ، فارتعد اليونانيون وخافوا ، وأخذوا يهـربون وحينئذ خـرج عليهـم الأتراك من ضمن المدينة وهم يصرخـون : لقـد مـات منويل الملك ، وبدأوا القتل فيهم ، فقتل رئيس العسكر ابن أخت الملك ، وهرب ذو النون إلى الشمال فأمسك به اليونانيون وأرسلوه إلى الملك .

وبهذا الزمان أمر الرب فعبرت أيام الجفاف ، وعاد المطر فجرت الينابيع ، والعيون عادت متفجرة ثانية ، ونجا البشر والبهائم مـن العطش ، لكن الأرض لم تنتج غلالها .

وفي عام ١٤٨٧ غضب الله فأجدبت الأرض وعم الجـوع وصـار المساكين يتوسلون في كل مكان ، وصـار بـالقدس ودمشـق وحلب وبريه المليحة كيل الحنطة بثلاثـةذهبيات ، وبعد مـدة فقـد لم يعـد يوجد ، وفي هذه الفترة أتت قوافل العرب بجمالها الكثيرة ليأخـذوا حنطة ، وصار يباع الذهب الأحمر في بـلاد سـورية بنصـف ثمنه ، وارتفع سعر الحنطة في هذه البلاد حتى صار المد بدينار .

وفي هذا الزمان تراءى في السـماء في ناحية المغـرب شيء يشـبه

نصف القمر ، وقد صعد إلى ناحية المشرق ، وكلما كان يصـعد كان يكبر حتى صار بحجم القمر ثلاث مـرات ، ثـم اسـتقر في وسـط السماء ، وانفجر إلى ثلاث قطع وسقط ولم يعد يظهـر أبـدا ، ولما انكسر ملك اليونانيين عرف كل واحد أن هذا كان إشعارا بذلك .

« فرار صلاح الدين عند عسقلان »

في تشرين ١٤٨٩ يونانية خرج صلاح الدين من مصر وأخذ معه ثلاثة وثلاثين ألفا من الفرسان ماعدا المشاة وغيرهم واثنين وخمسين ألف جمل يحملون السلاح والذخيره لبلاد القدس ، وقد قتل بيده أول أفرنجي أسروه ، وغسل ثيابه بدمه فارتاع الأفرنج ، وكان ملكهم مصاب بمرض الجذام ، وكان كل واحد يخاف أن يقترب منه ، لكن الله الذي يظهر قوته في الضعفاء نفخ الشجاعة في قلب الملك المريض فخرج نحو عساكره ، فاجتمعوا حوله وحينئذ ترجل عن صهوة جواده ، وسجد أمام الصليب وأجهش بالبكاء وأخذ يتضرع ، فهاجت حمية الجنود وأقسموا على الصليب أن يحاربوا حتى النهاية ، وإذا كسرهم الأتراك فكل من يهرب قبل أن يموت يعتبر كافرا ، أما الأتراك فقد استهانوا بهم بعد أن علموا بانهيار حالتهم المعنوية ، لكن الأفرنج لما رأوا الأتراك بأعدادهم الهائلة يغطون التلال ويتموجون كالبحر نزلوا من مراكبهم ، وجذوا شعورهم وتعاهدوا مع بعضهم ، وصلوا الصلاة الأخيرة ، وبدأوا الحرب ، وفي ذلك الوقت أرسل الرب ريحا قوية كانت تجرف التراب من ناحية الأفرنج وتلقيه على الأتراك ، وحينئذ علم الأفرنج أن الله قد قبل توبتهم ففرحوا وتشجعوا ، أما الأتراك فقد هربوا من ساحة المعركة ، فلحق بهم الأفرنج وكانوا يقتلونهم ويذبحونهم طوال النهار ، وبعد هذا نهبوا أمتعتهم وأخذوا جمالهم ، وأخيرا تبددت عساكر الترك وتاهت وبقيت خمسة أيام على هذه الحالة ، وعسكر الأفرنج يلاحقونهم بعد أن تحولوا إلى شراذم أنهكها الجوع والعطش والاعياء فقتلوهم ، وجمعوا أسلحتهم وثيابهم ، أما صلاح الدين فقد هرب إلى مصر مع ثلة من حرسه يجرون أذيال الخيبة والحزن ، وأما الأفرنج فقد وصلوا إلى أنطاكية فرحين يصيحون في الشوارع مبتهجين بهذا الانتصار ، وقد كنت في أنطاكية وقت ذاك .

وفي هذه الأيام عندما علم والي قلعة حارم التركي أن حـاكم حلب يستعد لاعتقاله وقتله تمرد عليه ، فـالتجأ إلى الافـرنج فـاقسم له فرينز أن يساعده ليبقى في قلعته ، ولما عقد هذه المعاهدة مع الافرنج صـار حينئذ عدوا للأتـراك ، لكن الافـرنج سرعان مـاتخلوا عن عهودهم وداسوا قسمهم ، فأتوا من القدس ومن ساحل البحر وأتى معهم والي طرابلس وروفين حاكم قيليقية وكونت فلنط (٤٧) مضى مع فرينز حشد كبير وحلوا على حارم أربعة أشهر كانوا يحاربون فيها بشراسة ووحشية ، وقد قتلوا العـديد مـن الشـعب الأعزل ، وقـد انتصروا على الرغم من أنهم تجـاوزوا يمينهـم ، وحلفـوا كذبـا بالصليب والانجيل ، لكن الأتراك الذين كانوا يدافعون عن القلعة لما أحسوا بالتعب أرسلوا إلى حلب وأخذوا قسما من حاكمها وسلموه القلعة فأعطى لفرينز عشرين ألف دينار ، فرجع إلى أنطاكية خـائبا حزينا كسير القلب لأنه لم يستطع أن يحقق مايريد .

« احتلال قلج أرسلان ملطية »

بعدما صنع السلطان قلج أرسلان صلحا مع منويل ملك اليونانيين ، حل على ملطيه وكان بها أمير من أسرة دانشمند هو الذي قتل أخاه ، وكان هذا مع جنوده أشرار المسلك ، وقد خرج أكثر المسيحيين منها هربا من الجوع الذي كان منتشرا في كل مكان وخصوصا فيها ، أما الذين بقوا في المدينة فكانوا يعيشون بحالة من الشقاء ، وكان قسم منهم يرقد في أعماق السجون ، والآخر في المعتقلات يتعرض للتعذيب والجلد ، فلما حاصرها قلج أرسلان خاف أمير المدينة أن يقتله الشعب ويسلموا المدينة ، لكثرة الشقاء الذي يعيشون فيه ، فأرسل سرا إلى السلطان وطلب الأمان لحياته طالبا مغادرة المدينة بالذهاب إلى قلعة زياد ، فدخل السلطان ملطيه يوم الأربعاء ٢٥ تشرين الأول ١٤٨٩ يونانية وقد عم الفرج والراحة الجميع بعد أن كان قد حاصرها أربعة أشهر كان فيها الجنود يقيمون في بيوت انتزعوا حجارتها من المقابر ، وبنوها بسرعة من اللبن إتقاء لبرد الشتاء ، وهكذا أراح الرب الا له هذا الشعب المظلوم .

وفي هذا الزمان أدب الرب أيضا الأرض فمنع المطر لأجل آثامنا فيبست الغلال ، وحدث جوع في سورية وفلسطين وأثور ، وبين النهرين وأرمينيه وصار كل كيل من الحنطة بدينار إن وجدت .

أما في دمشق فقد فقدت الحنطة وكذلك باقي الحبوب ومات بسبب الجوع أعداد كبيرة وأعداد أخرى هربت الى بلاد بعيدة جدا وكان المسيحيون في كل مكان يصلون ويطلبون من الله أن ينزل المطر وقد تصدق عدد كبير من الملوك الذين عندهم حنطة على المحتاجين .

كما أن همفري بطريرك الافرنج في انطاكية وهب حنطة وحبوبا أخرى بكثرة وفي كل مكان ، ثم أشفق الباري تعالى فنزل المطر في

- ٢٢٠٠ -

نصف فصل الربيع ، وارتوت الارض وابتهـــج الجـــو وصـــار البشر يسبحون الله ، وصار خير ورفاه في كل البلاد .

خروج صلاح الدين من مصر وانتصاره على الافرنج

في تشرين الأول اجمتــع مــع بـدوين الملك جميع الافــرنج على شاطىء الاردن في الموضع المدعو مخـاضه يعقـوب وابتـدأوا يبنون مدينة يستطيعون بها أن يحاصروا دمشق ، كذلك خرج صلاح الدين من مصر واتى إلى دمشـق لانه تمـرد عليه الأمير شـحنه مــدينة بعبلك ـ هيلوبولوس أي مدينة الشـمس ـ ولما حـاصرها واخـذ يهاجمها بدأ أميرها يراسل الافرنج ويرسل لهم الهدايا متعهـدا انه سوف يطيعهم ، ولما لم يتجاوب معه الافرنج وخاب أمله منهم رجـع الى صلاح الدين واخذ عهدا منه وسلمه المدينة ، حينئذ دخل صـلاح الدين الى أرض فلسـطين لكن عادوا فجمعـوا قـواتهم ، وعندهـا انسحب صلاح الدين الى دمشق فما كان من الافـرنج الا ان سـبوا البلاد مسافة مسيرة يوم ورجعوا ، لكن صلاح الدين مالبث ان ارتد عليهم وهاجمهم وأمسك منهم مائة من المقاتلين وكذلك مقدم الرهبان الداوية ، وقد تألم المسيحيون جدا أما صلاح الدين فقد قوي ورجـع مسرعا إلى الموضع الذي بنوه حديثا وحاصره وكان به خمسمائة من الرهبان الداوية ، لكن بعضهم رمى نفسه بالنار واحترق وبعضـهم الاخر القى نفسه في الاردن ومات غرقـا خـوفا ان يقعـوا في أيدي العرب ، اما الذين وقعوا بيد العرب فقد قتلوا جميعهم بالسيف .

في هذا الزمان خرج من جزيرة العرب حشد كبير من الناس هربا من الجوع ، ولما وصلوا إلى شاطىء الفـرات أمـرهم الأمـراء أن يرحلوا لأنه ستكون مجاعة بسببهم لانه لايوجد طعام يكفـي لهـم ، وإذا بقوا فسوف تحل المجاعة ، لكنهم رفضوا ، فهاجمهم الاتـراك وقتلوا منهم ثلاثين ألفا،وعندئذ عبر ماتبقى منهـم الفـرات ، ولما دخلت جمالهم ونسـاؤهم ورجـالهم وأولادهـم الماء جـرفهم التيار فماتوا ثم عادوا وطفوا على وجه المياه كالقش .

في ايار عام ١٤٨٩ يونانية كنت في أنطـاكية فنزل مـطر شـديد

وتكونت سيول بداخل المدينة فجرفت البيوت والدور ، فاختنق العديد من البشر والبهائم ووصل السيل الى ابواب المدينة وكان غزيراً لدرجة لم نستطع معها ان نفتح الابواب ، وقد دب الزعر والهلع في قلوب الناس ٠

وفي السنة التالية ، وكنت في انطاكية ايضا ، كان الشتاء لطيفا مثل الربيع ، لكن في شهر اذار سقطت نار في المدينة واحرقت بيوتا ودوراً كثيرة قرب بيعه مار بطرس الكبيرة ، وقد حفظ الله تعالى الناس ، ولم يتضرر احد .

في تلك السنة وكنت في انطاكية ارسل بابا روميه رسلا للبطريرك الانطاكي والمقدسي للافرنج يستدعيه لاجل بدعة ظهرت هناك فأرسل الينا بطريرك انطاكية اسقف طرسوس وقسيسين من قبله ، وطلب مني ان امضي معه ، اما انا فقد بحثت عن السبب فوجدت ان مجموعة من الافرنج في تلك الارض كانوا مشهورين بتقواهم وصلاحهم فأضلهم الشيطان فقالوا : لايمكن للخبز والخمر ان يصيرا جسد الرب ودمه ، وان التطبيق العملي للدين هو التصدق على المحتاجين والرحمه بالمساكين ، ومحبة البشر واتفاقهم مع بعضهم ، وصار لهم اساقفه وقضاة ، واتحدت معهم بعض البلاد ، واباحوا نساءهم،عندئذ دعا افسومولوس بابا روميه الى مجمع مسكوني،اما نحن فقد رفضنا ان نذهب معهم لكننا كتبنا رأينا في مثل هذه البدع ، وذكرنا امثله لبدع مثلها انتشرت فيما مضى ، وقد حرمتها كنيستنا ٠(٤٨)

وبهذا الزمان اقمنا بنعمة الله في ماردين المطران مار اثنا سيوس وارتحلنا الى انطاكية وهناك ارتسم ديونسيوس لمدينة حلب .

وبهذا الزمان تحدث بعضهم الى السلطان الذي ملك ملطية ان رهباننا واهل الدير انهم ساعدوا الامير الذي كان فيها من قبل ، ولاجل ذلك اعفاهم من الخراج ، فقام عندئذ ذلك السلطان ووضع عليهم خمسمائة دينار ، وضعهم من مقابلته ، ثم طرد من ملطية ، ومن كل بلادها الترك الذين تعاونوا مع اسرة الدانشمند .

وبهذا الزمان حدثت بيني وبين مـار يوحنا المفـريان مشـاجرة بسبب الحصـيصيين في بـلاد تـكريت ، اولئك الذين كانوا منذ ايام قوريا قوس البطريرك (٤٩) وقـد انشـقوا عن البيعـة لاجـل لفظه : « نكسر خبز السماوي » والان ارادوا ان يعـودوا الينا ولما جاؤوا الي وارادوا ان ارسم لهم اسقفا ، قلت لهم : ان المفريان هو الذي يرسم لانه رئيس اساقفة تكريت ، وينبغي الا تكونوا منشـقين عن اخوتنا الذين هناك ، فأماهم فـاعتبروا ان هـذا اهـانة لهـم ، فطلبوا منا ان نرسم أسقفا وهم يقبلون بعـد ذلك ان يكونوا تحـت طاعة المفريان ، فاستمهلتهم لاتشاور مع المفريان وذلك حتى لايقـع شقاق بيننا ، فكتبت للمفريان ، لكنه لما عرف ان الحصـيصيين قـد أتوا الي اعتقد انه اضاع كرامته ، فأخذ ينادي بين رعاياه بحـرمان الحصيصيين وحرمان كل من يقبلهم ، ولما سمعنا اندهشنا واخـذنا الامر بطول الاناة ، وارسلنا له رسلا ورهبانا ليشرحوا له الوضع ، وانه كم عانى الاباء القديسين امثال قريا قوس وديو فنوس ، وكذلك اقرار مجمع خلقيدونيه بقبول عودتهم والاذن لهم بقول تلك اللفظة ، لكنه رفض ان يستقبل الرسل ، وكان يلوح بالعصيان ، لكن بعـد ان عاد الرسل وبخه بعض الحكماء على فعلته ، فأتى الينا نادما ، امـا انا فرفضت مواجهته وقلت : ان هذا الامر يجـب بحثـه في المجمـع فرجع الى رعيته ثم جمعنا مجمعا في دير مار برصوم ، واتـى هـو واساقفته فاوضحنا له كيف وكم تجاوز من القوانين ، عند ذلك طلب الغفران بالطاعة ووعد بالناموسية ، فصلينا عليه ، وصـار الصـلح والسلام .

وفي تشرين الاول سنة ١٤٩٠ ارتحلنا من انطاكية ، وقابلنا الملك الصبي بلدوين في عكا ، وعرضنا عليه كتاب ابيه ، فلما رآه معنا فرح جداً واكرمنا ثم زاد واعطانا كتابا منه مع عهد ، وحينئذ وصلنا الى القدس ، وهناك اتى الينا الرسل في مصر الذين ارسلهم مار مرقص بطريرك الاسكندرية ، واعلمونا عن الانشقاق الذي وقع بهذا الزمان بين اخوتنا القبط ، وكان رجل اعمى يدعى ايضا مرقص ، ومشهور بابن قنبر ، وكان حاذقا جداً بالكلام ، فبدأ يسـحر الناس بـكلامه

المعسول كقول الرسول الالهي القائل : كما ان الشيطان يتجاسر ان يتشبه بملاك النور فهكذا أيضا خدامه يتشبهون بخدام الرب .

لذلك حرمنا ابن قنبر هذا كما حرمه مار مرقص لنفـــاقه ، وكتبنا صحيفه مستفيضة للشعب ، بعــد هــذا تبــع الخلقيدونيين واخيراً انجرف وارتمى في بحر الشرور .

مرض منويل ملك اليونانيين وموته

في سـنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) مـرض منويل ملك اليونانيين ، وشعر بدنو اجله فـالتجأ الى احـد الاديرة ، وتـرهب ونصب ابنه الكس ، وكان صبيا لايتجاوز الثانية عشر ربيعـا مـن عمره والبسه التاج ، كذلك صنع زوجته ، اي ام الصـبي راهبـه ، ووكلها على خزائن المملكة واقام اثني عشر شيخا من النبلاء ليدبروا امور العسكر ، وكان منويل قد حكم سبعا وثلاثين سنة ، ونجـح كثيراً في حكمه ، لكن بعد مـوته عم الفسـاد المملكة لان ام الصـبي الراهبه ارتكبت الزنا مع واحد من الاثني عشر الذين كان قد نصبهم الملك للاشراف على الجيش فقام الاحـد عشر الاخـرون وارادوا ان يخلعوها ويخلعـوا ابنهـا ، ويقيمـوا ابنة منويل الملك مـن المرأة الاولى ، ويبايعوا زوجها ملكا ، لكنهم لم يوفقوا في هـذا المسـعى ، فلقد انكشف امرهم ، فخافوا والتجـاؤا الى البيعـة الكبيرة ، ثـم حدثت مواجهة دامية في وسط المدينة كانت بمثابة حرب حقيقية دامت سبعة ايام ، وقد صوب جماعة الملك المنجنيقـات نحـو كنيسـة أيا صوفيا حيث كان يعتصم المتمردون ، وحينئذ توسط ثيودوسـيوس الذي ضمن سلامةالذين التجأوا إلى البيعة بعد اخذ عهداً مـن الملك وامه ، فخـرج الجميع الى السراي لكن الملك وامـه داسـا يمينهـا والعهد الذي قطعاه للبطريرك وامرا باعتقال الزعمـاء الاحـد عشر وقلع عيونهم وقتل اتباعهم،وحينئذ اندلع القتال مـن جـديد ، فقـام بطركهم وحرم المدينة كلها ، واوقف الصلوات في البيع ، وابطل قرع النواقيس في البيع والاديرة من اول شـباط الى تشرين الاول حتـى انه رفض ان يصلي على موتاهم ، ثـم اعتصـم في دير قـريب مـن المدينة .

هجوم السلطان قلج ارسلان على مدينة رعبان

في هذه السنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) ارسل السلطان قلج ارسلان جيشا الى رعبان ، لكن اميرها التابع لصلاح الدين المصري ذهب الى دمشق ، واحضر منها جيشا ، ولما رأته عساكر كبدوكية هربت وعادت الى مدينتها ، صحيح ان الفريقين اتراك لكن الذين من حلب كانوا اكثر خبره في القتال وفنون الحرب نتيجة صراعهم وكرهم وفرهم الدائم مع جيوش الافرنج.

وفي تلك السنة ارتسم لقلعة زياد يشوع الكاتب في طور عبدين ، وقد تجاوز منذ البداية الناموس وترك الكرسي الذي ارتسم عليه ليستولي على طور عبدين ، فالتجأ الى سعد الدين الوالي الذي سارع فكتب لي بأن انقل اسحق مطران طور عبدين ، اي ايونيس ، الى قلعة زياد وان اعطي طور عبدين ليشوع الكاتب ، فأجبت الحاكم قائلا : ليس لنا في ناموسنا ان ننقل الاسقف في مكان الى اخر ، ولذلك لايمكنني ان اصنع هذه قط ، اما يشوع فقد حرمته .

في سنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) قدمت من انطاكية الى دير مار برصوم ، ووضعنا الاساسات لنبني هيكلا بالدير ، فقام ضدنا تادروس ربما بدافع الحسد ، وبقي اثني عشرة سنة يعرقلنا ، ويضع المصاعب في طريقنا ، وسوف اكتب ماحدث معي بالتفصيل والله يشهد انني صادق في روايتي وكذلك يشهد معي عدد كبير من اخوتنا الاساقفة والرهبان والشمامسة والعلمانيين ان ما اكتبه حق ، هذا على الرغم من انني لن استطيع ان اتكلم عن كل افعالهم الرديئة التي فعلوها ، بل سنروي امثلة منها ليتضح كيف بدات الحكاية وكيف انتهت .

ففي هذا الزمان اتفق خمسة اتفاقا شيطانيا ليشقوا بيعة الله ،

فقد حاول اسقف ارزون(٥٠) ان ينتقل الى ميافارقين بطريقة غير قانونية معارضة ، فامتلا بغضا وحقدا علي ، كذلك يشوع الكاتب الذي ارتسم لقلعة زياد احتمى بالحاكم لينتقل الى طور عبدين ، ولما انحرم ناموسيا اتحد مع شمعون سرا ، ومضى كلاهما الى آمد إلى ابراهيم الذي كان اسقفا هناك ، وكان محروما لاجل جهالته ، وجرف هؤلاء الثلاثة معهم مطران سيبارك المظلوم ، الذي كان قد حرم ايضا لأنه داس القانون وأخذ رشوة على الشرطونية التي صنعها ، فاتفق اربعتهم ورفضوا

واخذ رشوة على الشرطونية التي صنعها ، فاتفق اربعتهم ورفضوا
الحرم الذي وضع على كل منهم ، واذاعوا ان من لايقوم ضدي يكون غريبا عن رئاسته ، وليس له سلطان ان يصنع شرطونية وان تجاسر وصنع فتكون باطلة من الروح القدس ، ثم اتى اليهم ابن الشيطان وراس الطغمة ، بلاير الثاني ، وكان هذا قد طرد من ملطية بلده ، وانفضح في الرها ، ونفي من القدس ، ثم تجول كثيرا وكل مكان حل فيه كان يطرد منه ، واخيرا التجا إليّ فسامحته لظني استطيع ان اصلحه واحوله الى انسان صالح ، لانه متعلم درس في الكتب ، وقد ابقيته سبع سنوات في قلايتي متحملا غشه وخداعه ، فقد كان جالسا على باب قلايتي مثل ايشالوم يتصيد كل واحد يختلف معي ويصفه الى جانبه ، وهكذا سرق هؤلاء الأربعة واقنعهم ان يصنعوه بطركا ، مقابل ان يعطي لكل واحد منهم رعيتين بدل الرعية الواحدة ، ثم تجمعوا وذهبوا الى السلطان حاكم امد ، ووعدوه بذهب كثير اذا ساعدهم بتنصيب بطريرك ، يكون مقره في مدينته ، وبالتالي يقوم ويجمع من كل مكان ويعطيه . لكن ذاك لم يكن سهلا عليه ان يهدم نواميس ، ورتب بيع المسيحيين لاجل الذهب ، بل وكذلك نواميس المسلمين ، واعطاه كتابا للمدعو ابن وهبون من ابي القاسم ابن نيسان ، ولما اخذ ابراهيم اسقف امد الكتاب خلع ثياب الكهنوت ، ولبس كسوة الترك ، وركب فرسا كالجندي لكي لايعرف ، ومضى الى ابن وهبون ، لكن الرب انزل غضبه على ذلك الحاكم الذي في آمد في تلك الفترة ، فمات فجاة ، اما هم فلكونهم قد

دفعوا الذهب تقدموا الى ابن الذي مات ، وزادوا له الذهب واظهروا له كتاب ابيه ، فاذن لهم ان يصنعوا مايريدون ، لكن هذا الخبر سرعان ما انكشف في آمد ، فهاج الشعب وماج ليس في المدينة ، وانما في كل البلاد واجتمع القسس والرهبان والشعب وضجوا على الحاكم قائلين : اننا لن ندع ان يهدم ايماننا ، فقال السلطان للشعب ، اذا اتى بطريركم الينا سنطرد هذا ، فقال الشعب : سنحضر بطريركنا ، وحينئذ امر ان لايرسم ذاك وللحال اتى الي قسس آمد ورهبانها والعلمانيين المكرمين ، وخرجت معهم من دير مار برصوم ، لكن اولئك الاشقياء احتلوا ليلا البيعة واغلقوا الابواب ورسموا تادروس المنافق بطريركا ، في الصباح غيروا اشكالهم وغطوا رؤوسهم وخرجوا من باب المدينة وتوجهوا الى الموصل الى عند المفريان ، فلما سمعت بما صار حزنت على البيعة التي لم يحدث ما حدث فيها الان منذ اجيال ، وقررت ان اعتزل من الخدمة التي ربما لااكون اهلا لها ، فلما عرف المجتمعون بذلك اجهشوا بالبكاء ، وقالوا : ان تركت منصبك فسوف يهدم كل شيء ، فخاف قلبي فقررت ان ادعو الى مجمع وذهبت معهم الى آمد ، فابتهج الحاكم جدا وفرح ووعدنا خيرا ، فاعتز كل شعب المدينة والبلاد والتحموا واتوا من كل مكان اساقفة وقسس ورهبان وعلمانيون ، حيث توجهنا الى دير مار حنينا ،(٥١) لكن اولئك الاشقياء مضوا الى الموصل لكي يظهر ان المفريان متفق معهم ، وخصوصا بعد المشاجرة التي صارت بيني وبينه قبل مدة ، فلما نظروا ان المفريان لم يقبلهم بل اتى الينا مع مطارنة كل ابرشياته ، ثم ان شعب المشرق قد تبرأ منهم اخذوا ينتقلون من مكان الى مكان محتارين ، ولما وصلوا الى مدينة دارا امسكهم زعماء المؤمنين واخبرونا ، وكنا في دير مار حنينا ، حينئذ خرج المفريان واساقفة وجملة رهبان واتوابهم موثوقين ، حينئذ اقروا امام المجمع باخطائهم وحرموا افعالهم كتابة .

لكن لما ارتحلنا جميعا لنمضي الى دير مار برصوم ونعقد هناك مجمعا مسكونيا ، عاد فدخل الشيطان بهم وهم في الطريق فكفر

تادروس بالامانة وداس القسم الذي كتبه بيديه على نفسه ، واعطى ذهبا لاناس ذهبوا واتوا بالاكراد ليلا فـاخذهم الاكراد واخفـوهم ريثما نرحل ، ولما عرف ذلك المطارنة والمفريان حنقوا علي قـائلين : لماذا لم تدعنا نربطه ، ثـم خـرج كل واحـد الى ناحية ، فـوجدوه متخفيا ، فامسكوا به ثانية وسـقناه معنا الى دير مـار بـرصوم ، فاجتمع المطارنة ومعهم شعب كثير ، واقر الجميع ان يخلع لبـاسه الكهنوتي ، وهكذا صار ، وتمت باقي الامور ، ورجع كل واحد مـن الاساقفة الى رعيته ، وهكذا حرم المجمع المنافق ابن وهبـون الذي مكث عندنا في الدير واعلن ندمه وطلب الغفران ، اما انا فقبلته كمـا امرني الانجيل والبسته اسكيم الرهبنية على رجاء التوبة ، واعطيته حاجة من المتاع وقلاية لسكناه ، وقلت ان تبـت فـان المجمـع الذي حرمك سوف يعيد لك اعتبارك ، لكن عليك ان تعلم انك تحت التجربة الان ، وعلى الشرط تركته في دير مار برصوم ، ورجعت الى دير مار حنينا ، لكنه كعادته كفر بوعده وتبع الاشرار مثله فهـرب ليلا مـن اعلى سور الدير بواسطة الحبال ، وذهب الى دمشـق مـع رفـاقه وكتبوا كتابا باللغة العـربية وقـدموه الى صـلاح الدين ملك مصر ، ووعدوه ان يعطوه ذهبا ان وجه كتابا يقبل بموجبه هذا بـطريرك في كل الاراضي التابعة له ، كذلك طلب ان يصدر السلطان صـلاح الدين امرا بقتلي بعد تلفيق كثير من التهم ضدي ، فلما قريء كتابهم امام السلطان صلاح الدين ، استفسر السلطان عنهم فحضر مسـيحيون مؤمنون كانوا يعملون كتابا عند صلاح الدين ، فشرحوا له الحقيقة ، فما كان منه الا ان طرد المنافق ابن وهبـون ، فمضى الى القـدس ، واخذ يخرب على اخوتنا الذين تحت حكم الافرنج هناك وخاصة على البار اثنا سيوس مطران القدس ، ولاسيما بعد ان عرض بـطريرك الافرنجة الذي هناك عليه أن يعطيه الف دينار ، ويأخـذ دير مـريم المجدلية الذي كان لنا في القدس ، ورفض فكان أن ابتلينا مع البيعـة بكثير من التعب والمشـقة ، وخـاصة رعيتنا التـي كانت تسـكن القدس ، وقد بقي هذا الظلم والاضـطهاد علينا وعلى بيعتنا حتـى دخل العرب الى القدس.

وبعد ذلك توجه هــذا الى الشرق لانه ســمع بمــوت مــار يوحنا المفريان فزرع سمومه هناك في الموصل وماردين ، وكان يدخـل على الأمراء الترك فيعدهم بالذهب ، وبذلك اعتـاد الحـكام الاتـراك ان يطلبوا الذهب من كل رعية ، فقد اوقعنا هذا واوقع اخوتنا جميعا في المشرق في حرج عظيم ، لكن هذا الفاسد هرب من هناك كما هرب من فلسطين واتــى الى قلعــة الروم الى عند جــاثليق الارمــن ، ووعده كعادته الشريرة اذا ساعدة واقامه بطريركا فانه يجعل كل الشــعب يطيعه ، وكان قد قال الكلام نفســه لبــطريرك الافــرنج في القــدس وتوصل بهذه المواعيد الكاذبة الى ان يصير مساعده الى ان اكتشف امره فطرده ، وهكذا صنع بجاثليق الارمــن ، فقــد صــدقه هــذا في البداية ، لذلك جابهني بكل الاسلحة التي عنده ، بـل ارســل ذهبــا كثيراً ، وهدايا عظيمة الى الامراء الاتراك في سورية وبين النهرين ، واخذ يوغر صدورهم ، وكان يهدف من وراء ذلك ان يحــرمني ويقيم مكاني ابن وهبون بطركا على شرذمة اليعاقبة لكي تصير تحت إمرة الجاثليق ، كما كان قد وعده، كذلك حاول كثيرا مع الحكام العــرب ، لكن الله كان ضده ، ثم خرج الجاثليق من قلعــة الروم بــرفقه ابــن وهبون ، ومضيا الى قيليقية الى ليون الإرمني حــاكم تلك البــلاد ، وهناك طلب من الحاكم ان ينصب ابن وهبون بطريركا في بلاده ، ثم اعطى ابن وهبون كتابا من الحاكم ومــن الجــاثليق ، فخــرج هــذا يتجول في البلاد ، وكان كل راهــب اوقســيس او أســقف لايقبله او يرفع رئاسته في صلاته يأخذ ماله ويطــرده مــن بيعتــه ، وقــد اذاق المسيحيين عذابا يفوق العذاب والاضطهاد الذي شــنه الوثنيون ولم ينج منه حتى رؤساء الكهنة ، والكهنة والرهبــان الموجــودين في تلك الناحية ، وعندما وصلت الامورالى ذلك المدى ، جمعت مجمعا عامــا وطلبت منهم اعفائي من الخــدمة ، لكن المطــارنة كلهــم رفضــوا ، واتفقوا ان يذهبوا الى هذا الجاثليق الظالم ويضعوا حداً لتجاوزاته علي ، ثم سيذهبون الى ليون الحاكم ويضعونه بصورة الوضع كله ، ولما رأيت اجماعهم علي قلت : يااخوتي دعونا نصلي قبل ان نلتجــأ الى السلطان لانه مكتوب : « ملعون من يتكل على انســان ويجعــل

ابن اللحم نراعه » بل هلموا نلتجأ الى الله وقديسيه وخاصة مـــار برصوم ، وابتدأنا بالصلاة والطلبات ، وقد شارك معنا كل من حضر عيد القديس مار برصوم ، ثم طفنا بيمين القـــديس ، وقلنا : ياربنا يسوع المسيح بصلاة مار بـــرصوم اشـــفق على بيعتـــك ، واجعـــل عجائبك بمن هو سبب خراب وانشقاق هذه البيعة ، ان كنا نحـــن ام غيرنا ، وفي ذلك اليوم عينه ، وماكادت صـــلاتنا تنتهـــي في دير مـــار برصوم حتى سمعنا ان الجاثليق قد سقط عن حصـــانه في قيليقية ، وانكسرت اصبع رجله فقطعوها ، ثم مات بعد عدة أيام ، ثم إن اثني عشر أسقفا أرمنيا كانوا اتفقوا مع ابن وهبـــون ، كل منهـــم ضرب بنوع من الضربات ، ومات ، وسبعة رهبـــان سريان كانوا يتبعـــون ابن وهبون احترقوا بالصاعقة ، وبعد أربعين يوما تـــاودورس بـــن وهبون سقط عليه غضب الله ومات ، وقد صار هذا عبرة عظيمة لكل واحد ،وخصوصا للشعب الذي في تلك البلاد ،حتى أن ليون الحـــاكم خاف أيضا وأرسل نذرا وهدايا لسيدنا مار بـــرصوم ، ولي ايضـــا وصار صـــلح جميل في بيعـــة الله ، وفي كل مـــكان ، ولاأدعي لنفسي شيئا . وانما الله هو الذي صنع كل شيء باسم مار برصوم ، وكذلك لاجل محبته لشعبه المستقيم .

أخبار البيعة في هذا الزمان

الغضب الذي عم علينا بسبب خطايانا لم ينج منه دير مــارمتي في كورة الموصل ونينوى ، وذلك عندما توفي الاتابك قطب الدين ، وتملك ابنه سيف الدين سنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) بعد هذا تحمس نور الدين حاكم حلب وانتصب قائلا يجب ان اتــولى تــدبير ابناء اخي ، فغادر حلب واخذ يخضع البلاد ، ثم حاصر الدير ، ولما علم الأكراد بمحاصرته للدير فرحوا وأخــذوا يعيروا المســيحيين ، ثــم قرروا أن يخربوا الدير ، وأخذوا يترصدونه في الليل ليسرقوه ، لكن الرهبان كانوا متــأهبين لذلك ، وقــد كسروا ســلالمهم مــرات كثيرة ، وذبحوا وقتلوا منهم ، حينئذ اجتمعوا وأتوا غاضــبين على الدير وهاجموه لكن لما سمع أهل قرى بلاد نينوى اجتمعــوا عاجــلا وصعدوا واسعفوا الرهبــان ، وكسروا الأكراد ، فــاحتال الأكراد وصنعوا صلحا كذبا مع الرهبان واعطــوهم ثــلاثين دينارا عربــون محبة ، وقد صدق الرهبان صلح الأكراد الكاذب ، فصرفــوا أهــل القرى الى بيوتهم لكن الأكراد عادوا فاجتمعوا وأتوا ، وكانت هناك صخرة عظيمة في راس الجبل فزعزعوها ودحرجوها بعنف فضربــت السور واحدثت فيه ثغرة ، فاجتمع الرهبان واحضروا كلسا وحجرا ليسدوا الموضع ففاجأهم الأكراد وأخذوا يرمــونهم ، ثــم اســتلوا سيوفهم وهجموا بصرخة واحــدة على الرهبــان ، فقتلوا بعضــهم وهرب بعضهم الآخر الى قلعة الدير العالية فنجوا ، وقد قتل في هذه الموقعــة متــــى الراهـــب ودنحـــا الحبيس ، وكان الأكراد الف وخمسمائة ، ولما استولوا على الدير حملوا على خيلهم كل مــانهبوه لأن الدير كان مخــزنا يحفــظ فيه كل مقتنى البلد ، وبعــد ان مضى الأكراد أخذ الرهبان الكتب وكل ماوجد في القلعــة العــالية ، ونزلوا الى الموصل وبقي الدير خاليا من السكان والخــدمة ، وكان منظــرا حزينا كئيبا يعيرنا ، وأما أهــل البــلاد فقــد اســـتأجروا جنودا

ليحرسوا الدير ، لكي لايهدم الاعداء البنيان ، وكانوا يدفعون لهم في كل شهر ثلاثين دينارا .

اما حكام الموصل فحين سمعوا بما فعل الأكراد بالدير أرسلوا عسكرا ، وقتلوا عددا كبيرا منهم ، وحينئذ خرج الأكراد وخربوا في بلاد النساطرة خمسة قرى ، وقتلوا سكانها وسبوا البهائم والمقتنيات وأحرقوا البيوت

في هذه السنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) أسلم حسن الراهب والقسيس ابن كميب في ماردين بسبب الخلاف الذي صار بينه وبين اخوته الرهبان ، وقد أخذ العرب ديرهم المدعو دير الأبكار في جبل ماردين وصنعوه مسجدا للأكراد .

وفي تلك السنة ابتدأ المطران ديونسيوس المعلم بتجديد بيعة والدة الرب في أمد ، واقام بها شماسا اسمه ابراهيم كان وكيله ، وقد جمع هذا صبيانا كي يتعلموا القراءة ، وكان هو يتعلم من المطران ويعلم المتعلمين ، وهو ايضا جدد أرض البيعة بتبرعات جمعها منه ومن باقي المؤمنين .

وفي تلك السنة بنينا البيعة التي في دير ابي غالب في بلاد البيرة نواحي جرجر .

وفي تلك السنة جمعنا مجمعا في دير مار حنانيا ، وارتسم من الأساقفة اغناطيوس لتل ارسانيوس وايوانيس لسيبا برك ، وجلب كلاهما من ملطية من دير سرجيسية ومن دير القناة .

ياايها القراء صلوا على الكاتب الضعيف الخاطي

وفي ايلول سنة ١٤٨٢ يونانية طرد جبرانيل الشيخ رئيس دير مار برصوم رفاقه ، واتى الى عندنا الى دير حنانيا ، فجئنا الى الدير لأجله ، وجاء معنا البار ايا ونيس مطران كيسوم ، وكان بحالة صحية سيئة ، وقد توفي يوم السبت ٢٤ تشرين في دير مار

برصوم ، وكان هذا علامة في التعاليم الكهنوتية ومتكلما ماهرا ومعروفا في البيعة .

وبعد شهر ، أي في تشرين الثاني سنة ١٤٨٢ يونانية تزايد الحزن على شعبنا ، فقد انتقل من بيعتنا نحن المستقيمين المجد ديونسيوس ابن الصليبي مطران أمد ، أي يعقوب المعلم المنطقي وكوكب عصره هذا الذي يليق له أن يكنى بالمجاهد مثل يعقوب الرهاوي ، لأنه جاهد كثيرا في التعليم ، وجمع وكتب تواريخ صحيحة ومعتمدة ، وفسر كل كتب الأنبياء اي كل العهد القديم ، وصنع ايضا تفسيرا جديدا للانجيل والرسل والرسائل والرؤيا ، وكذلك لكتب تعاليم غريغوريوس النوسي وكتب سويريوس ، وكتاب بطرس القلونيقي وحياة ابو جريس المتوحد ، وصنع كتابا في الجدل ضد كل المذاهب والعقائد التي تخالف ايماننا المستقيم المجد ، وصنع ايضا كتاب تفسير لمنطق براهين ارسطاطالوس وغيره ، وصنع كتاب منطق اللاهوت ، وكتابا على الأزمان وكتاب رسائل ، وكتب ايضا ميامر وجمع وكتب كتابا عظيما تضمن كل الحان بيعتنا،وقد اغنى البيعة بكل هذه المؤلفات واغنى نفسه بحفظ القوانين المقدسة ، وقد كتبنا مقالة على كل تدابيره ومحاسنه وشرفه كلها تفي بالغرض وتفهم القارىء مرتبته العالية ، وقد سجي جسده في بيعة والدة الرب في أمد في الجانب القبلي عند قبر البطريرك ابن عبدون وابن شوشن ، ليرحمه الرب ويغفر لكل من يقرأ ويصلي ايضا على خطيئتي (٥٢)

وفي سنة ١٤٨٣ يونانية في شهر تموز أخذ العرب بيعة مارتوما في ماردين ، أما السبب فهو ان شخصا اسمه برصوم من ماردين ضبط يزني مع امرأة مسلمة ، فأمسكوه وعذبوه لكن نجا من الموت ، فحكم عليه الوالي حسام الدين ان يأخذ أمواله ومقتناه ويرحل ، وفي هذا الوقت كان المسيحيون يجددون بنيان بيعة مار برصوم ، فاحتال بعض العرب وقالوا للوالي : ان برصوم هذا قد

بنى بيعة من ماله الخاص وسماها باسمه ، فـأصدر الوالي أمـرا بهدمها فهدموها ثم بنوها مسـجدا وقـد عم الحـزن القـوي جميع المسيحيين الذي جاهدوا كثيرا ليخلصوا البيعـة مـن الهـدم ، لكن عملهم هذا انعكس عليهم سلبا فتجمهـر الشـعب واشـتكى للوالي وحاول المسيحيون ان يقابلوا الوالي ليزيلوا من امـامه اللبس الذي صار ، لكنه رفض استقبالهم ، بل غضب عليهم وكان هو في الأصل ناقما على المسيحيين بسبب حسن بن كميب الذي ذكرناه من قبـل . الذي كان راهبا وقسيسا وكان له اخـوان مـن رهبـان الافـرنج ، فاختلف معهما ، فالتجأ الى المسلمين واعلن اسلامه لكنه مالبث أن هرب الى القدس وعاد فتنصر ، ولما سمع الوالي بذلك أمسك اخوته وجملة من الرهبان غيرهم وقتلهم.

وبهذا الزمان انصب اهتمامنا على كتب دير سيدنا مار بـرصوم فجددنا الكتب العتيقـة بمعـونة الله ، وهيأنا ورقـا وكتبنا فنقيثين للدير لتذكار المطران اثناسيوس اي زكي عمي ، والربان ايليا (٥٣) ابي الجسداني (٥٤) .

وفي هذه السنة ايضا اصـلحنا عين الماء التـي للدير ، وفي هـذه السنة طرد العرب اسقف الجزيرة ، واخذوا الدير بمكاتيب ليسـت صحيحة وحبسوه في الموصل ، فمضى أهل رعيته الى بغداد وافتـدوا الدير بمبلغ كبير ونجا هو ايضا .

وكان في هذا الزمان مجموعة من ارمن الرها مـع قسـيس يدعى كرابيت وراهبان يدعيان بـروك واوسـيج يشـتمون جـاثليقهم كثيرا ، ويتهمونه بـأنه يبيع الكهنوت ، فـأمسكهم غاضـبا وحلق ذقونهم وعند ذلك تزعموا انشقاقا وابتدعوا هـرطقة فتبعهـم نحـو اربعمائة بيت مـن الأرمـن وكانوا يدعون اوسـيجونيين فـاغتاظ الجاثليق جدا ، وارسل رسـلا وهـدايا الى الحـاكم وطلب منه ان يطرد هم من مدينته فقبل الهدايا منه ، واذن للأرمن ان يضـايقوهم فتوالت عليهم الضربات،عندئذ قدم الاوسـيجونيون هـدايا للأمير

فأعطاهم أمرا أن يتدبروا كما يريدون ، فتبعوا الخلقيدونيين،وكان الارمن كلهم وجماعتنا ايضا يبغضونهم ، لكن لما تضايقوا وجدوا رجلا اسكندرانيا كان يعرف اللغة العربية وكان داهية ومتكلما فمضى الى نور الدين واتهم الجاثليق وبطريركنا والرهاويين بتهم شتى ، وقال لقد اتى رسل مع رسائل من ملك اليونان الى الأرمن والسريان ليسلموه الرها ، وعند ذلك سيق المطران أثناسيوس الى حلب ومعه الارمن وغيرهم من أهل الرها ، لكن لما انفضح الأمر ، ووجد أن الاسكندراني كاذبا طردوه ، فهرب الى بلاده ، ورجع أهل الرها بسلام.

زيارتنا لآمد وموت الجاثليق نرسيس

بعد هذا اتى الينا قسيسان من الاوسيجونيين ، ومعهم راهب من اتباعهم ليشتكوا على الجاثليق ، فاكتشفنا انهم يفهمون كلام اثناسيوس وكيرلوس والآخرين بطريقة خاطئة ، وقالوا ان هذين القديسين قد قالا : ان للمسيح طبيعتين وفي بعض الأوقات طبيعة واحدة .

فأخذنا نشرح لهم قول القديسين من كتبهما ، وحينئذ تخلوا عن غضبهم على القديسين ورجعوا الى استقامة المجد وكتبنا معهم رسائل الى الجاثليق ليغفر لهم ، ولما مضوا وجدوا نرسيس الجاثليق قد توفي في تلك الأيام ، ثم ان هؤلاء الرهبان اتوا وسكنوا في اديرتنا،أما أوسيج رئيسهم فمضى الى انطاكية وصار خليقيدونيا كليا وتبدد الباقي .

وبعد ديونسيوس ارتسم لآمد ابراهيم تلميذه ، لكنه مالبث ان توفي بعد ثلاثة اشهر ، وأما الحاكم فقد أمسك بالقساوسة ليأخذ المائة دينار الذي فرضها عليهم ابو سعد العاصي، وكتب الينا اذا كنا لن نرسل من يعطيه في كل سنة مائة دينار فسوف يخرب البيع ، وعند ذلك سلمت نفسي للرب ، ومضيت الى هناك ، ولما سمع الحاكم اندهش واكرمنا كثيرا ، وادخلنا بترحاب عظيم ، فوجدنا البيع البهية ممنوع الدخول اليها وقلاية (مقر)البطريرك المتوفي قسم منها خرب كليا وقسم حوله الحاكم الى مستودع لقطنه ، وقد تعبنا كثيرا وصرفنا أموالا وأموالا لاصلاحها ، ثم اننا بمعونة الله تعالى اصلحنا ايضا البيعة التي في دير قنقرت (٥٥) وكانت مبنية من اللبن والخشب وشبه مهدمة ، وبقوة الرب اجتهدنا في بنائها بحجر وكلس.

اما أولاد قربة الذين بالسجن ، وكان يطلب الحاكم منهم الفي دينار فتوسطنا لهم فباعنا اياهم بثلاثمائة دينار ، فأطلق سراحهم ، ثم مكثنا هناك كل فصل الشتاء ، ولما انتهت الأعياد ورسم ايليا الذي دعي اياونيس لكيسوم ارتحلنا في الأسبوع الثاني للعيد الى ماردين .

لما توفي نرسيس جاثليق الأرمن يوم الخميس في اب كان احد أولاد أخيه راهبا ، والآخر اسقفا ، وعندما توفي لم يكن الكبير حاضرا فأعطى خاتمة للصغير وكرزه جاثليقا ، ثم اتى الأخ الأكبر بسرعة لكن الصغير لم يتركه يدخل فالتجأ الى ختنه مليح حاكم قيليقية الذي قدمه الى نور الدين ، فأتى ومعه أمر من الأتراك فخاف الارمن ان يسلم نور الدين البلدة الى مليح ، فأتى جماعة من الأرمن واقتادوا الصغير قسرا الى قلعة الروم ، فربطه ابن عمه ووضعه في السجن وارتسم هو جاثليقا ، وكان ذلك يوم الأحد ٢٥ ايلول سنة ١٤٨٤ يونانية ، وهكذا افتضح أمر هؤلاء المسيحيين لأن رئاسة كهنوتهم لم تكن بحسب الشرائع والنواميس الألهية ، وانما هي كالملوك الطغاة ، وأما الجاثليق الجديد المدعو كريكوروس فدعا الى رسامته اثنان من مطارتنا القريبين منه وهم غريغوريوس مطران كيسوم ، وباسيليوس مطران رعبان ، وقام فأرسل لي رسلا ورسائل فيما بعد قال فيها : كنت أرغب وأتمنى أن تحضر وترسمني وتضع يدك على رأسي بدلا من يمين غريغوريوس ، فتبهج الارمن لأنها هي تمنحهم رسامة الكهنوت ، لكننا كنا في عجلة من امرنا لأن الخطر كان يحيطنا من عساكر الترك فأكملنا لذلك الخدمة .

وأما انا فأرسلت له جوابا وشفعته بالبركات والصلوات ، لكني لم أنس ان أتطرق الى القوانين الكنسية الرسولية الخاصة القائمة على المحبة ، ونبهته الى الخطيئة العظيمة التي تنشأ من ابتياع الكهنوت ، الأمر الذي هو عند الأرمن ناموسي ، ثم اوردت الكلمة التي قالها بطرس العظيم لسيمون الساحر ، فأعجبت جماعة

الأرمن ، وحسنت لهم ، لكنها لدغت رؤساءهم ، ثم توسطت لابن عمه فأخرجه من السجن .

وبهذه السنة كثرت الأمطار في كل مكان وأفسدت الأراضي وصارت سيول جارفة اتلفت اثمار الأشجار والكروم ، لكن بعد هذه الأمطار والسيول زرعوا الحنطة وباقي الحبوب فأعطت غلات عظيمة .

وفي هذا الزمان ـ سنة ١٤٨٦ ـ حدث ضدي تمرد كبير ، وهذه المرة من اخوتنا لأنني عندما دعيت لهذه الخدمة جاهرت بالقوانين المقدسة ، وحاولت ان أعيد كل شيء الى نصابه ، وأطبق شريعة الآباء ، واتمسك بالنواميس الكنسية التي تحللوا منها في هذا الزمان ، وخاصة الكهنة الذين لم يعودوا يرسموا كاهنا من اية رتبة كانت الا بالرشوى ، فألغيت هذه العادات الرديئة ، وأمرت انه لايجوز لأحد أن يخطف رعية أو بيعة ، ليست له اصلا كذلك لايجوز لأحد ان يحتكم الى الملوك والحكام ، او ينتقل من رعية الى اخرى بغير امر ناموسي .

وعند ذلك قام علي مطران دمشق ، ومطران جيحان ، ومطران طور عبدين ، ثم لحقهم في ثورتهم علي مطران قالاينقوس ، دنحا الذي يدعي ايوانيس .

وكانت الرعية تتمرد عليه منذ زمن البطريرك مار اثناسيوس ، وكانوا يتهمونه باتهامات شتى ، وقد حرمه البطريرك المذكور عدة مرات لكي يتقوم ، كذلك أتى الي هؤلاء المؤمنون وشكوه وعرضوا علي نفس ماكانوا يعرضون على البطريرك السالف ، بل وزيادة ، وقد حاولت ان أعالج الأمر معه بالحسنى ضمن نطاق العلاقة الأخوية الكهنوتية ، وكنت أحضه على ترك العادات غير الناموسية ، وكان قد اتى الشعب الي مرارا خلال ثماني سنوات ، وفي كل مرة كان يزيد في تعنته ، ثم اجتمع مجمع في دير مارحنينا حيث شهد عدد كبير ضده ، ثم امر المجمع ان يترك الرعية

ويجلس في الدير الموجود في تخوم ماردين لمدة ثلاث سنوات ، فقبل بهذا القرار أمام المجمع ، لكنه مالبث أن داس الناموس ومضى الى جماعة من النساطرة كانوا رؤساء ومدبرين في بلاد ماردين ، واشتكى علي ، وقد تعبت كثيرا معهم حتى فهموا الحقيقة ، واكتشفوا أعماله،عندئذ طردوه ، فسعى الى الوالي وعرض عليه رشوى كبيرة ان قتلني لكن الرب اشفق علي وعلى بيعته ايضا ، ثم أرسل الوالي جنودا فأخذوني الى الموت ، وعندما اوقفوني امامه تكلم معي بكثير من الفظاظة والقساوة والغضب لكن الرب الذي قال للمؤمنين انه يعطي في تلك الساعة مايتكلمون به ، وهبني انا الخاطىء وغير المستحق القدرة على الكلام والدفاع ، فثبت الحق ، وعرف الحاكم الحقيقة فطرده ، ولم يكن معي في ذلك الوقت بعد الله سوى الربان ابو خير أرشيد ياقون ماردين ، فليغفر الله له ، لكن الشيطان عاد الى قلبه وعقله وملأه حنقا علي ، فمضى الى ملك الموصل ، واوغر صدره علي بكلام ووشايات غير صحيحة ، ثم وعده بألف دينار ، حينئذ ارسل جنودا وساقوني الى نصيبين ومضى معي مار اثناسيوس مطران الرها ، ومار يوحنا وعدد كبير من الرهبان ، ولما وصلنا الى المعسكر اخذوني الى نائب الأمير سيف الدين (رئيس المعسكر) فأخذ يتكلم معي بهدوء قائلا انتم تحت حكمنا الآن بأمر الله ، ولايحق لكم أن ترفضوا أمرا ملكيا ، لكن قبل أن تجلد وتهان عليك ان تنفذ أمر الملك غازي الذي صدر من قبل ، فأمر ان يكون هذا المطران راعيا لشعبكم الموجود في كل المدن التي تحت سلطته والواقعة مابين النهرين ' قالينيقوس وحران وسروج وبلاد الخابور رعيه لهذا المطران ، ويجب أن تنفذ هذا وتعود بسلام ، وإلا فستحدث امور سيئة جدا.

لكن الرب ساعدني وعاضدني فهيأت نفسي للموت ، وقلت له بشجاعة : إن كتب الشرائع ثلاثة هي : توراه العبرانيين ، وانجيل المسيحيين ، وقرآن المسلمين ، فأرجو أن تفحصوا فيها جيدا ، وخاصة في القرآن فستجدوا أن الله لم يأمر الملوك أن يدبروا

امور الايمان بـــالسيف ، لأن الايمـــان يصـــير طـــواعيه وليس بالغصب ، ولأجل هذا كل الخلفاء الراشدين ومن اتى بعـــدهم مـــن الخلفاء المسلمين حافظوا على الشريعة الالهية ، وحفظوها وصنعوا كما يأمر الله

قد يكون قد وقـــع اضـــطهاد على المســـيحيين خـــــلال بعض الفترات ، لكن احدا لم يتدخل أو يتســلط على إيمـــاننا ، ولم يطلب منا تغيير أو تعديل شرائعنا ، أو قوانيننا الدينية ، والآن أنتـــم إذا كنتم تريدون أن تتدخلوا فيما لم يتدخل فيه الخلفـــاء قبلكم أو تغيروا ما لم يغيره ائمة هذه البلاد منذ فجر الاسلام وحتى اليوم ، فاعلموا انكم ســـــوف تصـــــيرون أعداء ليس لي ، بـــــل لموسى ، وعيسى ومحمد(ص) لأنكم بهذا قد نقضتم وابطلتم كتبهم الثلاثة.

اي تكونوا قد ابطلتم أوامر الله ، والأدهى من ذلك إنكم تـــريدوا أن تعطوا الحق لمن ليس له وتسوغوا وتدعموا كل مـــارق على الدين وعلى شعبه ، وهذا هو شعب المدن التي قلت عنها موجود اسألوه اليس هو الذي رفضه ونبذه ، واتى الي شـــاكيا عليه ، لقـــد اتـــى يحتمي بالسيف الملكي لأنه صنع الأثم ، وطرد من قبلنا ولم يعـــد له حق عندنا.

إن أمرك لي أن أعيده الى شعبه الذي لفـــظه طلب مني أن ادوس وانقض وابطل امر الله ، وإنه لأسهل علي ان يقـــطع رأسي مـــن أن افعل ذلك ، ثم مددت عنقـــي طـــالبا قـــطعه ، حينئذ قـــام رئيس العسكر ، ودخل الى خيمه الملك ، وبعد وقت طويل خـــرج وامســـك بيدي وادخلني وحدي ، ولم يسمح أن يدخل معي احد لا من المطارنة ولا من الرهبان ، وقد طالت مقابلتي معه وكنت أناديه بالملك فنبهني ذلك الثاني (رئيس العسكر): قل الملك سيف الدين ، ثم خـــاطبني الملك قائلا : أيها البطريرك لقد امرنا أن تطبق ناموسك ، ولن نسمح لأحد أن يعصي عليك ، فصليت وقبلت النعمة وخـــرجت وانا اشـــكر الرب ، ودموعي تنهمر على وجهـــي ، وعندمـــا اخبـــرت المطـــارنة والرهبان ابتهجوا ، أما ذاك المطران المنبوذ فكان واقفا وحيدا ، ثم

هجم يريد أن يقتلني ، وصرخ أمام الجميع قائلا : يامسلمين اعلموا ان هذا الشيخ أثيم ومضلل ، إنه يسكن تحت حكم العرب وحمايتهم وبالوقت نفسه يستجلب العرب ليجعلهم مسيحيين ، ولدي كتاب بخط يده في هذا الخصوص ، ثم أخرج قرطاسا كنت قد كتبته منذ زمن لأجل ابن كميب ، وعرضه عليهم ، فلما سمع المسلمون هاجوا واخذوا حجارة ليرجموني فهرب رهباننا ، لكن الله تحنن علي ففحصوا القرطاس ، ووجدوه يتكلم عن ابن كميب ، وهيأ الباري تعالى في ذلك الوقت عرب من أهل ماردين فشهدوا أن ذاك كان راهبا ، ولم يكن مسلما ، حينئذ اعطاني الملك سيف الدين كتابا ورجعنا بالسلام ، أما هو فمضى الى بغداد ليشتكي علي للخليفه ، ولما سمعت بذلك أرسلت رسائل للمؤمنين الذين يسكنون هناك ، فطردوه فأتى بعد هذا إلينا من انطاكيه وطلب الغفران فصلينا عليه وارسلناه الى جبل الرها بانتظار أن نخصص له مكانا في دير ماربرصوم ، لكنه توفي قبل وصولنا ، ليغفر له الرب أمين.

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية قتل مطران طور عبدين اغناطيوس ، وقد كان مهتما يجمع الدراهم وكان يسعى لها لتحقيق ذلك بكل الوسائل والحيل ، ولما وبخناه لم يخجل منا بل زاد شرا على شر ، واعتمد على العصاة ليساعدوه في جمع الذهب ، وذات ليله من ليالي الآحاد ترك كنيسته ومضى الى السلطان ليشي كعادته بالرهبان والقسس والعلمانيين ويرميهم في السجن مختلقا اسبابا واسبابا ، فالتقى به الاكراد ليلا ، وعندما فاجأوه هرب الذين معه فضربوه وعذبوه ، واخيرا دقوا اسفينا من الخشب في اسفله وتركوه وهو يحتضر ، وصدف أن راه بعض عابري الطريق ، فلما أخرجوا الاسفين من اسفله نفقت روحه ، وقبل مدة كانوا قد قتلوا في حاج قرياقوص هو ورجال مؤمنين ، ومرزوق القسيس وأخيه برصوما واولادهم ، فظن الناس أن هذا المطران الشقي هو الذي أرسل العصاة ليقتلوهم ، لكن لما قتل هو أيضا عاد فخمن الناس أن أهل أولئك ارسلوا القتله طلبا للثأر ، وأن ذلك لم يحدث صدفه.

وفي هذه السنة تمرد علي الرهبان في دير ماربرصوم ، وسوف اوضح السبب فيما بعد.

وفي ذلك الزمان حدث في البيعة انشقاق بعد موت ماريوحنا البطريرك ابن شوشن ، فاجتمع المجمع في دير مار برصوم وقبل أن يقيموا رئيسا طلب الرهبان من الأساقفة استقلالية الدير ، وعدم جعله تابعا للبطريرك ،والسبب في ذلك أنه فيما مضى ، عندما كان بعض الملوك يتضايقون من البطاركة كانوا يضعون اثقالا واعباء ماليه على الدير ، وفي بعض الأوقات كان البطاركة يأخذون من خزانة الدير أواني من الفضة ، وفي أوقات أخرى اقترضوا ذهبا لكنهم لم يردوه ، فلما اخذ الرهبان قرار استقلالية الدير موقعا من المطارنه الذين شاركوا بالمجمع ، لم يقبل به البطاركة الذين أتوا فيما بعد ، وقال اثناسيوس ويوحنا الذي بعده واثناسيوس الثاني :إن هذا القرار يجب أن يكون موقعا من بطريرك ذلك الزمان لان المطارنة ليس لهم الحق أن يتخذوا مثل هذا القرار ، لذلك اعتبروا هذا القرار لاغيا وباطلا لأنه سيكون سببا للفتنة ، ومن شأنه احداث شرخ بين كل بطريرك يقوم وبين رهبان الدير ، أما انا فلأني نشأت وعشت في الدير ، فقد اردت أن أمنح الدير معونة فثبت قرار استقلاليته والزمت المطارنة أن يضعوا تواقيعهم ظنا مني أن هذا سوف يبطل الانشقاق والخلاف بين البطاركه الذين يقومون في البيعه وبين الرهبان الذين يستلمون الدير ، لكن الانشقاق زاد وصارت فتنه بالدير وانشق الطرفان الى فريقين متخاصمين.

وعندما بدأ الشغب في الدير اخذنا نعالج الأمور بالمشوره مع الأساقفه والرهبان ، فقام المؤمنون بالتوسط ليرجع المنقسمون الى التوبه ، وارسل الجميع الي في دير مارحنينا طالبين مني الرجوع للعمل على الصلح وتسوية الخلافات ، فأتيت معهم الى آمد حيث خرج الحاكم واستقبلنا بترحاب وإكرام ، ثم صلينا في البيعة التي بنيناها هناك ، وكان ذلك يوم الأحد في عيد القديسة بربارة أي يوم الرابع من كانون الأول ، ثم وصلنا الى الدير وكنا بحاله تعب

واعياء شديدين ، وبعد أن تكلمنا كلام مجاملة مع المطارنة ومع الجمع الموجود اتفقنا على تسوية كل الخلافات ، وكتبنا ذلك ، وبطل انشقاق البيعة ، وصار صلح وسلام وخرج كل أهل الدير راضين.

وبهذا الزمان كان يوحنا مطران حمص الرجل الفاضل مستنكفا منذ فتره طويله عن رعاية الشعب لضعفه وشيخوخته ، وكانوا يتوسلون اليه أن لا يترك رعيته التي وهبت له من الله امور رعايتها ، وكان كلما توسلت اليه رعيته أن يستأنف عمله كان يعود ، لكن سرعان ما كان يغير رأيه ويرجع الى الدير ، وبقي على هذه الحالة مدة عشر سنوات ، ثم اشفقنا عليه أنا وكل الأساقفة الحاضرين ، فرسمنا داوود الراهب من دير مار حنينا لمدينة حمص ، ودعي ديونسيوس.

ولما ارتسم المطران داوود على حمص توفي بعدذلك فأتى الينا زعماء الرعية طالبين الشيخ مار يوحنا ، فرجع الى الخدمه.

وبهذا الزمان توفي المطران اثناسيوس اي ابي غالب المتوحد ، والذي ارتسم بجيحان ، وقد توفي في ديره في بلاد جرجر المدعو دير أبي غالب.

وفي هذه السنة توفي يوحنا أسقف سميساط في دير مار حنينا ، وكذلك توفي أغناطيوس أيضا مطران جرجر والذي هو رومانوس مطران تل ارسانيوس بملطيه في بيعه أبويه ، وصارت رسامة مار اثناسيوس اي الربان صليبا اخانا في دير مار حنينا في ٩ تشرين الأول يوم الأحد.

في سنة ١٤٩٢ يونانية وقعت فتنة بين السلطان قلج ارسلان وبين ختنه نور الدين ، لأنه كان يضطهد ابنة السلطان بسبب عشقه لزانية شيطانية ، فخرج صلاح الدين حاكم مصر الى نجدة نور الدين ومحاربة السلطان ، فأمر السلطان بهدم سور كيسوم وسبي سكانها ، اما نور الدين فقد اتحد مع صلاح الدين على نهر كوسكو ، وكادت أن تخرب البلاد لولا أن الرب قد أشفق فأرسل

- ٢٢٢٥ -

السلطان رجلا حكيما الى صلاح الدين ، ثم تـم الصــلح وتـوقفت الحرب.

أما السلطان فقد اتى الى ملطيه وجدد سوريها ، وأمــا صــلاح الدين فقد رجع الى مصر.

زواج البرنس حاكم أنطاكية من احدى الزانيات

في تلك السنة ترك البرنس حاكم انطاكيه امـراته اليونانية التـي تزوجها بحسب الناموس في القسـطنطينية أيام الملك منويل وتـزوج امرأة زانية ، ولم يأبه لقرار بطريرك روميه ، أما بـطريركهم الذي بأنطاكيه فقد حرمه وحـرم القسـيس الذي عقـد زواجـه على تلك الزانية ، وحرم المدينة كلها لأجله فأبطل قرع النواقيس ، واوقـف تناول القرابين والصلوات على الأموات قبل دفنهم ، امـا البـرنس فقد غضب وقام بنهب كنائس الأفرنج والأديرة ، وبعد مـدة اجتمـع القضاة وجملة من النبلاء برئاسه بطريرك القدس حيث توسطوا مع بطريركهم فـأعاد البـرنس كل مـاخطفه وثبتـوا له تلك المرأة واصطلحوا .

وفي تلك السنة عصى امير حران والرها على حاكم الموصـل وعاد فاتفق مع صلاح الدين وبوساطة هذا الاتفاق ملك صـلاح الدين على منطقة ما بين النهرين ، واتفق مع نور الدين وأمـا حـاكم الموصـل وحكام ماردين وآمد والأرمن فاجتمعوا ليقاوموا المصريين ، لكنهـم انهزموا بدون حـرب أمـام صـلاح الدين ، فـدخل ملك مصر إلى الموصل ، وحل عليها ، لكنه سرعان ما ترك الموصل ربما لأجل المطر الذي كثر عليهم ، أو بسبب أخر ورجع.

اما حاكم ماردين وحاكم سنجار فقد خضـعا للسـلطان المصري لكن حاكم آمد رفض ، فتـوجه صـلاح الدين اليه بعـد أن وعد نور الدين أنه سوف يأخذ آمد ويوليه عليها ، ووصـل اليهـا يوم أحـد الشعانين فحـاصرها ، وبعـد عده أيام اسـتولى على السـور الخارجي ، حينئذ سلمها ابن نيسان ذلك المسكين ، وخـرج منهـا بطريقة مذله ، وملك عليها نور الدين حاكم حصن كيفـا ، وكان ذلك سنة ١٤٩٣ يونانية.

في تلك السنة مات سيف الدين حاكم الموصل واتى من بعده أخوه عز الدين وفي سنة ١٤٩٣ يونانية توفي الصالح حاكم حلب ، واعطيت حلب لعز الدين حاكم الموصل الذي ملك بعد أخيه سيف الدين ، لكن ذاك مالبث أن اعطاها لأخيه وأخذ منه سنجار ليبعدها عنه.

في السنة ١٤٩٢ يونانية أتى السلطان قلج أرسلان الى ملطيه ، وسأل عني وارسل لي رساله محبة وود وارفقها بهدية كانت عباره عن عكاز (عصا) الرعاية الخاصة بالكهنوت ، وعشرين دينارا من الذهب الأحمر ، وقد أدهشت هذه المبادرة الطيبة الجميع ، وفي السنة التالية أتى ايضاوقبل أن يدخل ملطيه سمع بالانشقاق الذي صنعه ابن وهبون تادروس ، فأرسل إلي رسلا ودعاني لمقابلته في ملطية ، ودهشت لأني رايت هذا التصرف غريبا عن العاده فخفت للوهلة الأولى أن تكون هذه الدعوه وهذا الاكرام الذي لم نعهده من قبل هو السم في الدسم ، لكنني توكلت على الله وتوجهت الى ملطية ، ووصلت الى مشارفها يوم الخميس ٨ تموز عام ١٤٩٣ يونانية (١١٨٢ م) وقت البكور ، وكانت مفاجئتي كبيرة عندما وجدت السلطان قد خرج مع ثله من العسكر للقائنا ، وكان وراءه كل اهله بالمدينة ، ولم يكتف بذلك بل أرسل إلينا رسلا تقول: إن السلطان قد امر ان يكون دخول البطريرك الى المدينة بحسب تقاليد المسيحيين اي محاطا بالصلبان والأناجيل ، أما المؤمنون فقد حملوا المصابيح التي لا تحصى ، ورفعوا الصلبان على الرماح واخذوا يرتلون ويسبحون بأصوات جميلة مليئة بالفرح والاعتزاز ، ولما واجهني السلطان لم يدعني اترجل عن ظهر مركوبي لآخذ يمينه ، بل عانقني بذراعيه ، ثم بدات أتكلم معه بواسطة المترجم ، وكان يستمع الي باهتمام ووجه باش ، ولما رايته انه يحب ان يسمع اطلت الكلام كثيرا وكنت أستشهد دائما من الكتاب ، ثم مزجنا الكلام بالوعظ الديني والحكم ، حتى كادت ان تجري الدموع من عينيه فشكرنا الرب العالي ، كذلك كل المسيحيين شكروا ومجدوا حين رأوا

الصليب في موكب ملوك المسلمين ، وهكذا دخلنا البيعة ، وبعد موعظة تعليمية رفعنا أيدينا بالدعاء للحاكم وللشعب ، وبعد ذلك اليوم أرسل السلطان يبشرنا انه قد الغي الخراج الذي كان موضوعا على الدير ، وأعطى أمرا ملكيا مكتوبا بذلك ، لذلك أرسل لنا يوم الأحد علبه من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر والحجارة الكريمة ، وفي داخلها عظام القديس بطرس رأس الرسل وبقينا في ملطية شهرا كان فيه كل يوم يرسل لنا الهدايا ، وقد صارت نقاشات ومناظرات عن المسيح الهنا وعن الأنبياء والرسل ، ولما ارتحل السلطان من ملطيه خرجنا معه بناء على طلبه ، وفي الطريق كان هناك كلام طويل عن الكتاب بيني وبين فيلسوفه كمال الدين وهو رجل فارسي منطيقي ، فمدح حكمه السريان ، وفرح السلطان كذلك ، وكل ذلك صار ليس لكوننا مستحقين هذا ، بل لأننا نمثل الشعب ، فقد اراد الله أن يعز هذهالأقليه الصغيره والبيعه التي ضعفت بتطاول ابن وهبون ، لكن الله لم يشأ أن يطيل فرحتنا فقد احترق دير سيدنا ماربرصوم ، وكان ذلك يوم السبت ٣٠ تموز سنة ١٤٩٤ يونانية ، أما الحادث فكان بسبب أحد الرهبان،فقد نسي هذا الراهب واسمه دنحا ، وكان شيخا كبيرا شمعته مشتعلة ، ومضى للكرم فالتهمت النار كل شيء ، خاصة أن الدير كان من الخشب من سقفه إلى أساساته ، بل كانت الأبنية ملتصقة ببعضها بعضا ، وقد حدث هذا عندما كنا في الصلاة فسارعنا عندما سمعنا الصراخ إلى خزانة القديس ، وأخرجنا الصندوق الذي به يمين القديس مار برصوم وعظام القديس بطرس ، وخرجنا تاركين كل شيء للنار التي التهمت بشراهة القلالي وبيوت الجميع ، وبيوت الرهبان والمبتدئين ، وكل مابها وامتدت إلى الهيكل العتيق وأكلت الكتب وأواني الفضة والنحاس وذاب الحديد من شدتها ، وتحولت الحجارة إلى كلس ، وحتى أبواب الدير الحديدية احترقت وسقطت الأسوار ، ونقول بالاختصار إنه لم ينج شيء أبدا إلا البيعة الجديدة التي بنيت من قريب وبرج الدير العالي ومغارة الفرن والباب الخارجي المدعو باب جرجر ، أما ماتبقى فقد تحول إلى رماد ويوم

الأحد سقطت إحدى القناطر وقتل بها صبي من بلاد جرجر كان قد أتى على صوت الناجين ، وقد رأينا ثلاث عجائب أولها بأنه لم يتأذى أحد قط من أهل الدير سواء كان من الرهبان أو من المبتدئين ، وكانوا يغامرون ضمن النار لينقذوا شيئا من مقتنياتهم ، وتشبه هذه العجيبة قصة القديس الذي سأل الله أن ينزل البرد ، فأنزله وأفسد الكروم ، لكن كرم المؤمنين لم يفسد ، والعجيبة الثانية أن قبة الخشب الموضوع بها عظام القديسين كانت داخل الخزانة ، فبقيت ولم تحترق ، وهذه أشبه بأعجوبة الفتية الثلاثة الذين حفظوا في أتون النار بغير ضرر لأن روح الله كانت معهم .

أما الأعجوبة الثالثة فهي احتراق كتب كثيرة لم يكن يقرأها أحد أو حتى يفتحها ، فاحترقت بالنار وكأنها زائدة ، أما الكتب التي كانت تقرأ باستمرار فقد حفظت بالرغم من النار ، وهذه الكتب كانت أناجيل تقرأ على مدار السنة نحن رتبناها ووضعناها ، وقد بقيت سالمة ولم تحترق ، وقد بقينا في البرج نحن الرهبان مدة شهر حتى هدأ الغضب ، وحينئذ بدأنا بالبنيان ، وخلال ثلاث سنوات بنينا كامل الدير ، وكان أجمل مما كان ، أما البيعة فقد استغرق بناؤها اثني عشر عاما ، شكرا للرب الذي أتمها .

بعد أن رجعنا إلى ملطية مضى السلطان قلج أرسلان إلى بلاد الروم وملك على اثنتين وسبعين قلعة من قلاع اليونانيين وكتب إلي الرسالة التالية :

من قلج أرسلان العظيم سلطان كبدوكية وسورية وارمينية .

إلى فلان البطريرك محب مملكتنا ، والداعي لنا بالنجاح الجالس في ديره دير مار برصوم والمطمئن في شرف مملكتنا نعلمه أنه بصلواته وهب الله العظمة لنا .

لما خرج من فيلادلفيه المجيدة ، وأتى إلينا ابن أكوماك الرومي وأولاده ، وسجد قدام كرسي مملكتنا طاعة لنا أرسلنا معه أربعين

الفا ، ولما علم الأعداء اجتمعوا بالمدينة الكبيرة ألوفا وعشرات الوف وأتوا الينا وحدثت معركة قتلناهم فيها ، ولن يستطيعوا أن يتعافوا من هذه الضربة لفترة طويلة ، وقـد اسـتولى عسـكرنا على قلعـة ديابيف الكبيرة ، ثم أخذوا جميع البلاد حتى ساحل البحـر ، وقـد خضعت كل هذه المناطق لنا وطبقنا عليها شرائعنا وقوانيننا ، وهذه الأرض لم تكن من قبل للترك لكننا نعلم أن بوساطة صلاتك أعطـانا الله تعالى هذا الانتصـار ، وإننا نطلب أن تتـابع صـلاتك لأجـل مملكتنا ، عافاك الله (٥٦) .

وبعد هذا كانت تأتيني عدة رسائل من السلطان من وقت لآخر .

أخبار أندرونيقوس اليوناني

في سنة ١٤٩٤ يونانية ملك على اليونانيين أندرونيقوس الذي كان قد طرده منويل ، وكان هذا قد عاد إلى القسطنطينية فتظاهر بالطاعة للصبي ، لكنه مالبث أن رمى امرأة منويل وابنتها وصهرها في البحر ، ثم قتل الفتى الكسي سرا ، وقتل أكثر من ألف من الزعماء حرقا بالنار ، وسمل عيون عدد كبير غيرهم ، بعد أن سبى مقتنياتهم،ثم تزوج هذا الشيخ الدنس قسرا امرأة الصبي الكسي ، وارتكب كثيرا من الفظائع ، ثم طرد الأفرنج من العاصمة لأنهم كانوا يساعدون الصبي الكسي كونه كان ابن أفرنجية ، لكن هؤلاء لما طردوا من بيوتهم أحرقوا أربعة عشر ألف من ديره وقرى بلاد اليونان ونزلوا إلى رومية ، وأحضروا عساكر من الأفرنج ، كذلك أتى ملك صقلية فاستولوا على مدن كثيرة من سورية كانت تحت حكم اليونانيين ، فخربوها وهدموها وأحرقوها وأخلوها من السكان .

في هذا الزمان أتى ثلاثة أخوة إلى السلطان أخذوا عساكر من الترك ومضوا وملكوا على فيلادلفية ، لكن بعد مدة أتى عليهم أندرونيقوس الطاغي فقتل أحدهم ، وهرب الاثنان من وجهه ، لكن أحدهم واسمه ايسوفيوس (اسحاق) أتى وقتل أندرونيقوس .

في نيسان من عام ١٤٩٦ يونانية خرج صلاح الدين من مصر فاجتمع إليه نور الدين وباقي أمراء مابين النهرين ، وحدثت حرب استعملت فيها المنجنيقات وكل أنواع الأسلحة ، لكن الترك لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام الأفرنج فهربوا ، وحينئذ توجه الأفرنج لبناء القلعة وتحصينها فاستغل الأتراك انشغال الأفرنج فسبوا السامرة ونواحيها ، وقتلوا العديد ، لكن الأفرنج لحقوا بهم فخلصوا الأسرى .

في عام ١٤٩٦ يونانية اشتد داء الجذام على بلدوين ملك القـدس فأعطى المملكة لابن أخته وكان صبيا اسمه بلدوين أيضا ، ولما تملك هذا توفي الملك المريض بعد سنة .

وفي هذه السـنة مضى صـلاح الدين ايضـا إلى الموصـل ولما لم يستطع أن يملكها رجع وحل على ميافارقين ، وبعـد حـروب كثيرة اشتراها بالذهب وملك عليها ، ثم عاد إلى الموصل ، وبعد مفاوضات كثيرة ووساطات بينهم اتفقوا أن يكون حكام الموصل تحـت طـاعته مثل حاكم ماردين وحصن كيفا واصطلحوا .

وبعد موت قطب الدين حاكم ماردين مات أيضا نور الدين حـاكم حصن كيفا في آمد ، وقد حدث موته فجأة لأنه أخذ من البيعة أعمـدة رخامية وأدخلها لداره ، فضربه الله بغضبه ، وملك بعده ابنه قـطب الدين الصبي .

أما في ماردين فقد أقاموا صبيا يدعى حسـام الدين واثنان همـا من أبناء الجواري ، فأما أخـو الأمير نور الدين المدعو عمـاد الدين والذي أحدث ضجة بعد موت أخيه أخذ قلعة زياد .

بعد هذا مات أيضا حاكم الأرمن ، أمير شاه أرمن ، وكان شيخا لم يكن من أسرته من يملك بعده فتوجه مسرعا أحـد عبيده واسـمه بكتمر ليملك ، وبينما كان يعبر أمام جبل ساسون تعـرض له ابـن أخت جاثليق الأرمن الذي خرج من قلعة الروم ، فأمسك ببكتمر هذا وأقسم له وأعطاه قلاع أبيه بيكين

وبهذا الزمان ـ ١٤٨٧ ـ ارتسم مطران لشبختان اسطفانوس وارتسم بسيليوس لكورة جرجر وبسيليوس لقالنيقوس ، ويوم أحد تكريس البيعة احترقت كنيسة مار يوحنا بـالرها ، فقـد كانت منذ زمن مهجورة وخالية بغير كهنة يخدمون بها ، وكان الحكام يضعون فيها قطنا ، وقد عشش الحمـام في سـقوفها العـالية ، وفي إحـدى الليالي ترك الحراس المكان ، فاشتعل وأحرق الطوابق العليا ثم أتت

النار على كل شيء وحتى الأحجار وقد سقط منهـا اثنان وثـلاثون عمودا من الرخام وأصبحت خرابا .

أما البيع التي خربت أيام العرب فهي : البيعـة الكبيرة هـذه ، وبيعة الرسل ، وبيعة مار توما ، وبيعة مار ميخائيل ، وبيعـة مـار توما أي بيعة المنديل ، وبيعة مار جرجيس وبيعة المخلص (ابجر) وبيعـة والدة الرب المعلمـة ، وبيعتين أيضـا لوالده الرب ، وبيعـة الأربعين شهيد ، وبيعـة أخـرى للأربعين شـهيد كبيرة ، وبيعـة المعترفين التي في باب السـاعات ، وبيعـة اسـطفانوس ، وبيعـة تاودوروس التي أمام القلعة .

وفي هذه السنة اصطلح فرينز حاكم أنطـاكية مـع صـلاح الدين وتعاهدا أن لايعودا إلى الحرب ، فاحتال ظلما وأمسك روفين حاكم قيليقية ووضعه بالسجن بعد أن كبله بـالحديد ، ودخـل الى قيليقية وبقي كل الصيف يقاتل ولم يقدر أن يملك على اي موضع قـط ، لأنه قام مكان روفين أخوه لاون وحفظ بلادهم بحكمته فـرجع بـالخزي أخيرا ، وأخيرا أعطى الأرمن للفرنج ثلاثين ألف دينار والمصـيصة وأذنة وأماكن أخرى أيضا ، وخرج روفين مـن الحبس ، وبعـد أن نجا روفين تمرد على فرينز فنهب وافسد كل بلاد قيليقية .

وفي نيسان سنة ١٤٩٧ يونانية أتينا من دير مـار حنينا الى دير مار برصوم وبرحمة الله ونعمه القديس سيدنا مـار بـرصوم رممنا الخراب الذي حل بأساساتها التـي كنا قـد بنيناهـا منذ سـبع سنوات ، وكنا قد وقعنا في مشاكل كثيرة منذ ذلك التاريخ ، وقد تعب معنا كثيرون في هذا الترميم .

وفي هذا الزمان أخذ الأمير حاكم الرها بـأمر حـاكم مصر بـلاد شبختان من حاكم ماردين ، فخرج هذا وتحارب مع شـعب الرهـا وانكسر ، وبعد هذا أتى صـلاح الدين ليملك على مـاردين ، ولما لم يقدروا أن يأخذوه بالخديعة جعلهـم تحـت طـاعته ، كمـا كانوا في عبوديتهم .

وبعد هذا ايضا نزل صلاح الدين على الموصل واستولى عليها ، لكنه مرض مرضا صعبا حيث قضى كل فترة الشتاء في الخيام مع عساكره الذين هم أيضا أصيبوا بالمرض ، وقد شاع خبر أن صلاح الدين قد توفي ، غير أنه لما تعافى أمسك بحاكم الرها ، لكنه مالبث أن أعاده واصطلحا .

الصراع بين أندرونيقس واسحق

في أيلول يوم عيد الصليب سنة ١٤٩٦ يونانية تحفز اندرونيقس ملك اليونانيين ليقتل ايسيقيوس (اسحق) لأنه كان الوحيد الذي بقي من أسرة منويل على قيد الحياة بعد فتكه بكل سلالته ، فعلم ايسيقيوس بذلك فلبس درعه وامتشق سيفه وتحصن ببيته ، فارسل اندرونيقوس رئيس جيشه ليأتي به فلما نظره آتيا بحنق ، وعلم أنه سيموت لامحالة تشجع واستل سيفه وضرب رئيس الجيش فقتله ، ثم ركب فرسه سريعا وهرب للبيعة الكبيرة وسيفه بيده مخضبا بالدم ، وكان يصرخ ويولول ، فاجتمع عشرات الألوف من الناس ، ولما وصل الى البيعة سلم كل الرؤوساء الذين كانوا يشكون بالمنافق وينبذون فعلته الشنيعة التي قتل فيها كل سلالة منويل سلموا أن يصير ملكا لهم ايسيقيوس سليل الملوك ، وألزموا بطريركهم أن يرسمه ، ولما فعلوا ذلك في البيعة سمع اندرونيقوس فخرج من الأبواب ليهرب الى البحر فلحقوه في السفينة وأرجعوه وقطعوا جسمه بالسكاكين وهو حي ، ثم وزعوا لحمه من واحد الى واحد ، وأخيرا جمعوا لحمه وأحرقوه وسط الحشود .

وبهذا الزمان توفي اغناطيوس مطران القدس ، وقد تولى هذا رئاسة الكهنوت فيها مدة خمس وأربعين سنة ، وفي تشرين الثاني سنة ١٤٩٦ يونانية أرسل المطران أثناسيوس أخي مطرانا على القدس ، وقد قام عليه رهبانها بالاتفاق مع المطران تداروس بن وهبون (اريوس الثاني) وبقي يجاهد ضدهم حتى هلك ابن وهبون .

وفرح بهذا الزمان ـ ١٤٩٦ يونانية ـ كريكور جاثليق الأرمن فرحا كبيرا جدا بدافع الحسد والشماتة لما سمع تفاصيل أخبار احتراق دير مار برصوم ، وأخذ يشيع أن القديس مار برصوم قد

طار من الدير وأتى اليه معتقدا أنه بمثل هذا الهذيان يشهر نفسه ، لكن الله مالبث أن انتقم منه لأنه حالما خرج من قلعة الروم ليمضي الى طرسوس تمرد عليه ابن اخته شاهنشاه ، واتفق مع الترك وحاول أن يعطيهم القلعة ، لكن الجاثليق لما سمع قفل راجعا بسرعة وجمع بعض الجنود ، وهاجم القلعة وقد وقع العديد من القتلى من رجال الجاثليق ورجع يجر أنيال الخيبة والاخفاق الى دير توبش عند كيسوم ، واعترف أمام الجمع أن مار برصوم أبيه ، ثم عاد ووعد أمام البار وايوانيس مطران كيسوم بالتوبة ، أما ابن اخته فقد تشرد وأخذ يتجول من مكان الى آخر وأخيرا اقسم على الطاعة ، فأتى الى الجاثليق وأعلن ولاءه فاصطلحا .

اجتماع الكواكب السيارة في مكان واحد

الاصحاح الرابع حول الزمان الذي تنبأ به المنجمــون بأنه سيصير طــوفان مثــل طــوفان نوح لكنهــم كذبوا ، وحول باقي أنواع الأحداث التي وقعت بهــذا الزمان والله المستعان .

في ١٤ أيلول في سنة ١٤٩٧ يونانية وقع أمر يستحق أن يحفــظ بذاكرة الأجيال ، فقد اجتمع في ايلول سبعة كواكب سيارة كلهــا في بــــرج الميزان ، وهــــذه الكواكب هــــــــي الشــــمس ، والقمــــر ، وزحـــل ، والمشــــتري ، والمريخ وعطارد ، والزهرة ، وكان قد قال المنجمون أنه لم تجتمــع ســبعة كواكب في برج الحوت الا وصار طوفان كالطــوفان الذي حــدث ايام نوح ، أما وقد اجتمعوا في برج الميزان فقد تنبأوا أنه ســتحدث ريح صرصر تهلك الناس والبهائم والطير ، وقد قال بهذه النبوءة الكاذبة الوف من الناس وربما اكثر ، وقد ذاع هذا الخبــر بــالمشرق ومصر والهند ، وقد كتب لي المؤمنون من سجستان طــالبين الصــلاةلأجل نجاتهم ، وقد اعتقد بهذا اليهود والمسلمون والحنفاء الصابئة وعدد كبير من المسيحيين ، كذلك قالوا : ان الشمس ســتكسف في هــذا اليوم ، وسوف ترتج الأرض ويظهر كوكبان مذنبان ، وقــد صــدق العديد من الملوك والرؤســاء هــــذه الادعاءات فخـــزنوا القـــوت والمشرب ، كذلك هاجرت أعداد كبيرة الى بلاد أخرى وسكنت أعداد أخرى كبيرة بالمغاور والشقوق للصلاة والصــيام ، أمــا الحنفـــاء واليهود والمشتغلون بالتنجيم وقراءة الأبراج فكانوا يســخرون مــن المسيحيين عندما كانوا ينظرون اليهــم يصــلون ، وكانوا يجــدفون قائلين حتى الله لايســتطيع أن يغير أو يبــطل هــذا الأمـــر الذي سيصير ، أمـــا الذين كانوا يأتـــون إلي مســـتفسرين فـــكنت

اجيبهم « لاتسقط شـعرة مـن رأسـك الا بـأذن ابيك الذي في السماء ، كما هو مـكتوب ، وإن المنجمين يكذبـون حتـى لو كانوا يقـرأون في الكتـب » وكان بعض الناس يقـول لي : ان المنجمين يستقرئون الطبيعة ؟ فقلت : اذا كان طـوفان نوح قـد حـدث عند اجتماع الكواكب في برج الحوت كمـا يدعي المنجمـون ، فلمـاذا لم يعرف ذلك عبدة الكواكب في ذلك الزمان ، ولماذا لم يعرف سوى نوح وحده فقط ؟ لكن الناس كانوا يعيشـون بشـكل عام في حـالة هلع وخوف ، وعندما دنا اليوم الذي كان قد حدده المنجمون أخـذ الناس منذ الليل يركضون الى المغاور للاختباء ، وصارت البلد في حالة من الهيجان كأنها وكر من النمل قد هدم ، لكن ماكاد الصباح يأتي حتى أشرقت الشمس وكانت دافئة جميلة ممتعة ، ثم أتى النسـيم العليل وكانت الطبيعة تبدو في ذلك اليوم خاصة جميلة وبهية جدا ، وللحـال مجد الناس الله تعالى ، أما الملوك فقد احتقروا المنجمين وطـردوهـم من مجالسهم .

الصراع بين التركمان والأكراد وحوادث أخرى

وفي سنة ١٤٩٦ يونانية ابتدأت الحرب بين شعبي التركمان والأكراد وبقيت ثمان سنوات يتقاتلون فيها ويقتتلوا في أرمينية وفي اثور وبين النهرين وفي سورية وكبدوكية .

أما سبب بدء هذا القتال فهو : كان التركمان يسكنون الخيام ، وفي الشتاء كانوا ينزلون الى البلاد الواقعة قبلي سورية حيث لاينزل ثلج ، ولايصير جليد ، وكذلك يوجد مرعى ، وكانوا في زمان الربيع يصعدون ثانية الى ناحية الشمال حتى يوجد مرعى لدوابهم ، وفي صعودهم ونزولهم كانت تمتلىء الطرقات بهم ، وهم يحملون مقتنياتهم ، وكان الأكراد يمتهنون السرقة في كل مكان ، فأخذوا يسرقون أغنامهم وقطعانهم وبقرهم وجمالهم ، وفي بعض الأوقات كانوا يقتلون بشرا منهم ، حينئذ ابتدأ التركمان يجمعون قطعانهم عند ترحالهم ، وحدث أن أمسك التركمان في بلاد شبختان عند حدود ماردين مائتين من اللصوص الأكراد كانوا كامنين للسرقة ، فقتلوهم كلهم ، حينئذ اجتمع عشرة آلاف كردي ، واجتمع اكثر منهم من التركمان واشتبكوا في حرب طاحنة قتل فيها نحو عشرة آلاف من الجانبين ، لكن الحرب عادت فاشتعلت على شكل أقوى عندما اجتمع ثلاثون ألفا من الأكراد من بلاد نصيبين وطور عبدين ، واجتمع بالمقابل التركمان من بلاد الخابور ، لكن الأكراد سرعان ماانكسروا وامتد قتلاهم من شاطىء نهر الخابور الى نصيبين .

بعد هذا عاد فاشتبك الأكراد مع التركمان في بلاد الموصل مرتان فانكسر الأكراد ، وهربوا من أمام التركمان ، ودخلوا الجبال عند حدود قيليقية ووصلوا الى حدود الأرمن ، وهناك أخذوا يختبئون بين بهائمهم ، لكن التركمان أتوا عليهم وقتلوهم كلهم رجالا ونساء

واطفالا ، واخذوا أموالهم ، وأبادوا الأكراد من كل سورية وبين النهرين ، لأن التركمان كانوا يبحثون جماعات جماعات في البقاع والجبال ، وحيث ماوجدوا الأكراد كانوا يقتلونهم بغير رحمة وبلا سبب .

وفي السنين الأولى لم يكونوا يؤذون المسيحيين ، لكن أخيرا بدأ التركمان يقتلون المسيحيين لسببين :أولهما أن الأكراد عندما كانوا يهربون كانوا يخفون أموالهم في قرى المسيحيين فاكتشف التركمان ذلك .

ثانيا لما كان الأكراد ينهبون قوافل التركمان لم يمنعهم الحكام الارمن ، لذلك هاجموا شعوب أرمينة الكبيرة ، وسبوا الارمن ، وأخذوا ستة وعشرين ألفا منهم وباعوهم عبيدا ، واحرقوا القرى ودير كرابيد الكبير ، وقتلوا كل الرهبان الموجودين به ، ونهبوا الكتب وكل مقتنياته .

وفي هذا الزمان أخذوا حربا قلعة تل عرب (٥٧)في بلاد شبختان واستعبدوا شعبها وباعوه .

وفي هذا الزمان قتلوا في تل بسمآ (٥٨) مائة وسبعين رجل سريانيا ، كذلك قتل عدد كبير من الشباب ، ولما رأى الحكام أن بلادهم قد خربت وأن القرى قد هجرت بدأ كل واحد يحارب التركمان في بلده ، فعم القتال كل بلاد كبدوكية وملطية .

وفي هذا الزمان دخل التركمان الى بلاد قلونية ، فقاتلهم الحاكم وقتل في قرية أمرون في البلاد نحو مائتين صبي ، وان اللسان لايستطيع ان يصف ماصار في تلك السنوات الثماني ، اذ من شرارة صغيرة عم الخراب والقتل في كل مكان .

في هذه الأيام كان في قبرص جزيرة اليونانيين حاكم يوناني اسمه قومنه تمرد على ملك القسطنطينية وجمع أساقفة اليونانيين وأمرهم

ان يرسموا لهم بطريركا ، فصنعوا كما أمرهم ، ثم قام هذا البطريرك فنصب قومنه هذا ملكا ، وكانوا ينادون به في قبرص ملكا ، وصار هو والبطريرك أضدادا للذين في القسطنطينية الى فترة خروج الافرنج من رومية حيث اتى ملك انجلترا وتملك على قبرص وحبسه بقلعة قرب انطاكية ، اما البطريرك الذي نصبه في قبرص فقد مات وانتهت عقيدتهم الباطلة ، وبعد هذا اعطى ملك انجلترا جزيرة قبرص للرهبان الداوية ، لكن لما ارتحل الملك الفرنجي عاد اليونانيون الى الظهور فاجتمعوا بعشرات الالوف على الحامية الافرنجية التي بقيت في قبرص ، وحاولوا أن يقتلوا الافرنج ويملكوا مكانهم ، ولما اشتعلت الحرب هزم اليونانيون ، لكن الافرنج بعد هذه الحادثة اقاموا في قبرص ملكا ، وكان هذا من قبل ملكا للقدس.

في سنة ١٤٩٨ يونانية يوم الجمعة ٤ ايلول خسفت الشمس لمدة ثماني ساعات ، وظهرت الكواكب في السماء .

في سنة ١٤٩٨ يونانية أتى إليّ مار يوحنا المفريان ، وطلب أن يترك الرعاية فرفضت طلبه ، لكنه ترك رعيته ومضى لدير مار يعقوب في جبل الرها ، ثم ما لبث أن ندم وعاد إلي فأخذ مني تفويضا وعاد إلى رعيته ، وكان ذات ليلة ينام على سطح البيعة فوقع ومات ودفن في دير مار متى ، ثم كتب إليّ أهل تكريت لارسم لهم رئيسا للأساقفة وأعلموني أن عندهم رجل لا يحبونه يكنى ابن تمسح يقاتل ليأخذ هذا المنصب ، ويؤيده أناس فاسدون مثله ، وطلبوا منا ألا نقبل قط ابن تمسح صاحب الأفعال النجسة المنتنه ، ثم ارتسم الربان يعقوب ابن أخي ، وابني الروحاني بطريقة ناموسية ، وكان ذلك في دير مار ديميط بنواحي ماردين ، يوم الأحد أول دخول الصوم سنة ١٥٠٠ يونانية ، وسمي غريغوريوس رئيس أساقفة المشرق .

في هذا الزمان توفي مار مرقص بطريرك الاسكندرية ومصر ، وقد خدم البطركية ثلاثا وعشرون سنة ، وكان ذلك في كانون الثاني وارتسم مكانه البابا مار ايوانيس .

فتح بيت المقدس

في سنة ١٤٩٨ يونانية (١١٨٧ م) جمع السلطان صلاح الدين جيشا من مصر وبلاد العرب وسورية واثور واستعد ليقابل الافرنج ، وفي يوم السبت ٤ تموز أعتقل ملك القدس وكل قواده وحاشيته بعد معركة طاحنة حدثت عند طبرية ، اما قمص طرابلس فقد رفض الاشتراك في المعركة ، وهرب إلى بلده ، وقد قال بعضهم : إنه كان يرغب أن يكون ملكا ، لكن الافرنج رفضوا ذلك .
اما انا فأقول إن انكسارهم صار بارادة الله لأنه لايسقط عصفور في الفخ بدون ارادته .

اما صلاح الدين فقد قتل بيده ارناط الشيخ ومائة من الرهبان الداوية ، واستحم بدمائهم ، ثم خرب طبرية وقتل كل ما بها ، ومضى إلى عكا فهرب الزعماء كافة باتجاه البحر وبقي فيها الشعب المسكين فسلموها لصلاح الدين ، وطلبوا الأمان ، ثم توجه إلى قيسارية ويافا والسامرة والناصرة ، وامتلأت الدنيا بالأسرى ، ومن الصعب أن يصف الانسان ما احتمله النصارى من الهزء والسخرية والازدراء في دمشق وحلب والرها وآمد وماردين والموصل وبقية اصقاع بلاد العرب .

وفي تشرين الأول عام ١٤٩٩ اعطى صلاح الدين الفرنج الذين في عسقلان عهدا واعتق الملك الذي كان معتقلا عنده فسلموه المدينة ، ثم صعد إلى القدس وحاصرها وخرب جزءا في سورها في ناحية الشمال الشرقي ، فأرسل الافرنج يطلبون الصلح ، وتم الاتفاق أن يعطوه عن كل شخص عشرة دنانير يخرج سالما ، فخرج منها من استطاع أن يدفع وكانوا الوفا وعشرات الألوف يبكون وينوحون ، اما الذين لم يستطيعوا أن يدفعوا فسيقوا عبيدا ، وقد اعتق صلاح الدين عشرين الفا من الرجال والنساء ، واربعة الاف من الشيوخ

والعجائز ووزع ستة الاف على عساكره ليكونوا عبيدا لهم ، وأرسل خمسة الاف إلى مصر ليعملوا ببناء الأسوار ، وترك خمسة الاف في القدس ، لاجل بناء السور والمسجد الأقصى الذي يدعونه قبة الصخرة ، وكان قد بناه العرب حين قدومهم إلى القدس ، واقروا ان لا يدوسه مسيحي ، كذلك اعطوا كنيسة القيامة للمسيحيين ، وكان يلتئم إليها المسيحيون الذين بقوا عبيدا ويصلون ويبكون .

وحينئذ صعد صلاح الدين إلى مدينة صور الداخلة إلى قلب البحر ، وصدف في تلك الأيام ان اتى من رومية كونت اسمه كونراد ليصلي في القدس ولم يكن يعلم بما جرى ، وقد قام بتقوية الشعب ، وببث الروح المعنوية ، فتبعه الشعب واحتفظ بالمدينة ، ولم يستطع صلاح الدين ان يقهرها ، فتركها ومضى قاصدا صيدا وبيروت وجبيل وتبنين .

وفي سنة ١٥٠٠ أخذ صلاح الدين قلعتي الكرك والشوبك على ساحل البحر الأحمر ، والذي لأجلها صار حربه مع الافرنج .

وفي هذه السنة دخل صلاح الدين إلى ناحية أنطاكية واخذ بالحرب اللاذقية وجبلة وقلعة صهيون وشغر بكاس ودربسال وبغراس .

وفي هذه السنة ايضا صار نزاع في بلاد كبدوكيه بين الابن الأكبر للسلطان قلج ارسلان امير سبسطيه وبين اختيار الدين الحسن حاجب والده والذي استطاع أن يقلب السلطان على ابنه ، وقد احتشدوا للقتال في بلاد قيسارية ، وصارت معركة قتل فيها أربعة آلاف من التركمان الذين ناصروا الابن ، فتفرق الذين اجتمعوا مع ابنه ورجع هو ايضا إلى سبسطيه ،وبعد ذلك اخذ الأمير بهر شاه امرا من السلطان فامسك وزيره اختيار الدين الحسن ، وصادر كل مقتناه وارسله مع ابنه وعبيده إلى سبسطيه ، لكن في الطريق هجم عليه التركمان وكان قد ارسلهم ابن السلطان ، فقتلوا اختيار الدين الحسن ، وقتلوا أولاده وعبيده وقطعوه قطعا قطعا ، وعلقوه على

رؤوس الرماح وادخلوه إلى سبسطيه ، وكان ذلك يوم عيد الصليب .

في سنة ١٥٠٠ يونانية سمع هؤلاء الأشقياء أهل شيعة المنافق ابن تمسح فقدموا للحاكم مائة قطعة من الذهب الأحمر ، واخذوا امرا منه بأن يفرض بحد السيف ابن تمسح ، لكن الشعب المؤمن رفضه لأنه وضع خلافا لنواميسنا وشرائعنا ، ثم اخذ يرتكب المعاصي والفواحش التي يجب أن لا نكتبها هنا ، لكن علينا أن نشير أن ابن تمسح هذا اتفق مع ابن وهبون ، وأتى كلاهما إلى ماردين فكرزوا ابن وهبون بطريركا وابن تمسح مفريانا (رئيس أساقفة) واعطيا السلطان الفي دينار ، واخذا امرا من الحاكم وصارا يدوران مع الجنود على القرى ويأخذان الأرزاق من الشعب ، حينئذ ثار أهل رعية ماردين واخذوا امرا بطردهما من البلاد ، فعادا إلى الموصل لكن أهل البلاد هناك ما لبثوا أن طردوا ابن وهبون أولا ، ثم امسكوا المنافق ابن تمسح وخلعوا عنه ثياب الكهنوت ، ونزعوا عنه كل رتبه ، ثم أرسلوا أساقفة وقسسا ورهبانا رجالا أشرافا اخذوا مار غريغوريوس المفريان القديس من نصيبين ، ودخلوا معه إلى الموصل ، فقبله الحاكم وعامة الشعب بنعمة الله الذي أصلح بيته ورتبه .

في سنة ١٥٠١ يونانية وقع كثير من الظلم على أساقفتنا فأرسلنا إلى السلطان صلاح الدين جبرائيل رئيس الدير ، وإلى أسقف الافرنج بشأن تمرد ابن تمسح ، ولما وصلوا إلى دمشق وقبل أن يصلوا إلى السلطان في عكا امسكهم بعض الجواسيس ووضعوهم في السجن واخذوا كل ما معهم ، لكن الرب أشفق عليهم فنجوا بواسطة مظفر الدين بن زين الدين أمير الرها ، وأحضروا من السلطان كتابا قويا واضحا ، ورجعوا فرحين بصلوات سيدنا مار برصوم .

في سنة ١٥٠٢ يونانية مات حاكم إربيل ابن زين الدين فترك اخوه حاكم الرها ، الرها وحران وسميساط ومضى وملك إربيل ونجح هناك وملك .

اما صلاح الدين فقد اعطى هذه البلاد لابن اخيه تقي الدين ، وكانوا يسموه سلطانا ايضا ، وكان رجلا قاسيا شريرا يبغض المسيحيين والعرب سويه ، وقد زاد ثقل الخراج والضرائب على المسيحيين وعلى المسلمين ، واحتال على الامراء أولاد بوغوساج الذين في سيبابرك(٥٩) واخرجهم من قلاعهم ، ومن هناك مضى إلى ميافارقين التي كانت له من قبل ، ثم تابع فاخذ خلاط وملازكرد ، ومن هناك ارتحل ودخل إلى بلاد غلاطيه .

وبقي في بلاد ارمينية خمسة اشهر يسبي وينهب ، وبغير رحمة او شفقة كان يقتل المسيحيين خاصة ، لكن الرب ضربه هناك فمات فجاة ، وقد عم الارتياح كافة الشعوب ، وكما صار من زمان يوليانوس المنافق ، حينئذ خرج ابنه وعساكره من البلاد واتوا إلى ميافارقين ، ولما تمرد ابنه على صلاح الدين عم ابيه ، ارسل ذاك اخاه المدعو المللك العادل واخرجه من الرها ومن حران ومن سميساط واخذهم لنفسه مع ميافارقين ، واعطى ذاك حماه وحمص ورد بلاد سيبابرك لاهل بوغوساج وصاروا كما كانوا من قبل تحت حكم قطب الدين حاكم آمد .

وفي سنة ١٥٠٢ يونانية في حزيران انكسفت الشمس واظلم اكثر من نصف قرصها ، وظهرت الكواكب والقمر حولها .وفي سنة ١٥٠٠ يونانية ملك على ملطية احد أولاد السلطان قيصر شاه معز الدين.

الحملة الثالثة

في سنة ١٥٠٠ يونانية خرج ملوك مع عساكر الافرنج وكانوا قد ارسلوا امامهم في البحر شعوب من السن مختلفة ، يفوق عددهم عدد رمل البحر ، وحلوا على عكا ، ولم يكن معهم ملوكهم بل رؤساء كهنتهم وكهنتهم ، وبيعهم التي كانت في خيامهم.

كذلك اجتمع ايضا مع صلاح الدين شعوب كثيرة من

المسلمين ، وقد عسكر الجيشان بالقرب من بعضهما بعضا ، حتى انهم كانوا يرون بعضهم ، ولم يستطع الافرنج أن يستولوا على المدينة لأن مقابلهم كان ستون الف مقاتل ، كذلك لم يستطع السلطان أن يدمر الافرنج الذين بدأوا يبنون البيوت والبيع للسبب نفسه ، وبلغ صلاح الدين أن ملك الألمان (فريدريك الأول قادم عن طريق القسطنطينية في مائتي الف فارس وراجل ، لكن اليونان لم يدعوه يغادر القسطنطينية ، فحاربهم وأخضعهم له فاجتازوا الى نواحي قونيه ، فجمع ابن السلطان جيوش التركمان وأخذ يناوشهم لكنه انكسر وهرب ، ثم وصل الافرنج ودخلوا المدينة وقتلوا أعداد كبيرة ، وكان بين القتلى ميخائيل حاكم ملطية المكنى بابا ، واخيرا عقد معهم السلطان صلحا ، وفتحوا له باب القصب فمضى الى قيلقيه ، وهناك اراد ملك الألمان أن يسبح في النهر ، وكان شيخا متقدما في السن فاختنق ومات ، ونقل ابنه جثته الى انطاكية وتابعوا سيرهم الى عكا .

في تلك الفترة خرج ملكان من أرض الافرنج ، فأخذوا قبرص من اليونانيين واتيا الى عكا وشنا عليها حربا ، قتل فيها العديد من الناس حتى أمتلأت الاسواق من الجثث ، واخيرا استولى عليها الافرنج وكان ذلك في أول تموز عام ١٥٠٢ يونانية (١١٩١ م) وأراد الافرنج أن يعطوا الأتراك الذين بقوا في داخلها لصلاح الدين ، ويأخذوا مكانهم كل أسرى الافرنج الذين كانوا في دمشق ، لكن صلاح الدين رفض ذلك ، فغضب الملوك غضبا شديدا ، واحرقوا كل الأسرى العرب ، فلما رأى صلاح الدين ذلك هدم يافا وأسوار عسقلان ، أما الافرنج فقد ملكوا قيسارية ، وقوي مركزهم وبنوا يافا ، ووضعوا فيها محارس ، ثم صعدوا وبنوا أسوار عسقلان ايضا ، ووضعوا فيها سكانا من شعبهم ، حينئذ جمع صلاح الدين جيشا وقرر أن يحارب الافرنج ، وكذلك خرج الافرنج من عكا ليواجهوا الاتراك فتقابل الجانبان استعدادا للمعركة ، لكنهم مالبثوا أن عقدوا صلحا في تشرين الأول سنة ١٥٠٤ يونانية ، لمدة ثلاث سنوات حيث أعطى

صلاح الدين الافرنج ذهبا عوضا عن بناء سور عسقلان الجديد ، ثم عاد فهدم أسوارها كليا ، واصبحت عسقلان مهجورة أما ملوك الافرنج فقد اقاموا في عكا واليا اسمه هنري ، وهو ابن أخت ملك الانكليز ورجعوا الى بلادهم ، وبنى صلاح الدين أسوار القدس بشكل قوي جدا اشد مما كان من قبل.

في هذا الزمان صار مجمع في دير مار برصوم قرر حرمان ابن تمسح وقد تعمم هذا القرار في كل البيع.

ولهذا الزمان لم يقبل احد الكهنة أن يصير راعيا لرعية ماردين خوفا من الحاكم الذي كان يضطهدها ، فرسمت لها المعترف الرهاوي ، وكان حاضرا مار اثناسيوس مطران القدس ، لكنه هرب الى دير سيدنا مار برصوم ولم يشترك معي في سيامه هذا الشقي ، وقد قبلته الرعية برحابة صدر في البداية ، لكنه سرعان ما افتضح أمره بعد أن قام بأعمال مشينة لامجال لذكرها هنا ، فطردوه ، فقرر أن يعلن اسلامه فعرف الخلقيدونيون من أهل ملطية بذلك ، فأخذوه الى القسطنطينية وخلع ثياب الكهنوت وصار خلقيدونيا ، ثم عادوا فأرسلوه الى رعية الخلقيدونيين في ميافارقين ليكون لهم راعيا هناك ، أما نحن فقد أنهينا الهيكل الذي بدأنا في بنائه في دير سيدنا مار برصوم ، وقد استغرق معنا ذلك أربعة عشر عاما ، فقد بدأنا فيه كما ذكرنا سنة ١٤٩١ يونانية وانتهينا منه في هذه السنة أي عام ١٥٠٤ يونانية بنعمة الله ومعونة سيدنا القديس مار برصوم ، وجمعنا اساقفتنا يوم الأحد في ١٥ أيار ، وافتتحناه بنعمة الروح القدس ، وكان الجمع الذي أتى الى دير القديس أيضا هو الجمع الذي ذكرناه أنفا في قصة ابن وهبون الذي مات في هذا الزمان ، هو وجاثليق الأرض وعدد كبير معهم.

في سنة ١٥٠٤ يونانية مات ـ كما ذكرنا من قبل ـ جاثليق الأرمن غريغوريوس في قيلقية ، وكان ذلك في شهر تموز ، فرسم الأرمن ابن أخي الذي توفي جاثليقا ، وكان صبيا ودعي أيضا غريغوريوس وتكنى ديراسو.

وفي هذه السنة مات ايضا بطريرك انطاكية الافرنجي هنري وقد مات في قلعته القصير ، واحضروا جثمانه وقبروه في بيعة انطاكية الكبيرة ، وقد وجد عنده أثاث فاخر ومقتنيات كثيرة جدا ، وقد اقاموا موضعه أحد القسوس الشيوخ واسمه رنقل .

وبهذا الزمان ارسل إليّ ايوانيس بطريرك الاسكندرية ومصر رسولا أسقفا شيخا اسمه بطرس ، وأحضر لنا رسالة بالخط العربي واللغة العربية الفصحى ، يثبت اعتقاده بالأمانة المستقيمة المجد وتتضمن محبة وصداقة.

في سنة ١٥٠٦ يونانية حين ابتدات حروب الترك ، انتشرت المجاعة حتى اكل الناس جثث الأموات من البشر والحيوانات ، وقد باع عدد كبير من الناس أولادهم ، وفي بلاد شبختان فقط ناهيك عن البلاد الأخرى بيع الاف من الصبيان والصبايا ، وفي دانيث بيع اثنان وعشرين الفا وكلهم مضوا عبيدا الى بابل ، وحتى هذه السنة التى هي سنة ١٥٠٦ يونانية (١١٩٥ م) بقي الجراد يأكل في كل سنة الزرع والكروم من حدود مصر الى بلاد الترك ، ومن فارس الى بحر بنطس ، وصار سعر الكيل الكبير من الحنطة في ملطية بستة عشر دينارا سلطانيا.

وفي هذه السنة اي سنة ١٥٠٦ يونانية امر حاكم الرها الملك العادل بابطال الناقوس في بيع الرها ، وقد أغتم المسيحيون جدا ، الله يرحم.

وفاة السلطان قلج أرسلان

أما السلطان قلج ارسلان فعندما بلغ الشيخوخة وزع بــلاده على اولاده لكنهم كانوا اولادا عاقين ، فبقي عاجزا يتنقل من مــكان الى مكان فأشفق عليه اهل قــونيه ، فــأحضروه الى كرســيه الســالف فيهــا ، لكن ابنه قــطب الدين ، وكان حــاكمها رفض اســـتقبال ابيه ،فقام غياث الدين أخوه وصاحب مدينة بروغلو بــانتزاع هــذه المدينة ، ثم زحــف الوالد والابــن الى أقصرا ، فمــرض الأب قلج ارسلان فنقله ابنه غياث الدين الى قونيه ، فتوفي ودفن هناك ، ودام ملك قلج أرسلان ثمان وثلاثين سنة ، وخلف من ســلالته اثني عشر ملكا.

وفاة صلاح الدين وماتلاه من أحداث

وفي سنة ١٥٠٤ يونانية مات ايضا السلطان صلاح الدين في دمشق ، وكان له ثلاثة وعشرون ابنا ، وقد وضع قبل موته ابنه الكبير بدمشق وسماه رئيسا على الجميع ، والثاني ملكه على مصر والثالث على حلب ، وهؤلاء الثلاثة كل واحد منهم كان يدعي سلطانا ، ثم وزع على الآخرين بقية مملكته ، ومضى كل واحد الى بلده ، كذلك أعطى أخاه الملك العادل ـ وكان يسمى ايضا سلطانا ـ حران والرها وميافارقين ،وسميساط وقلعة جعبر والكرك والشوبك .

ثم خرج حاكم الموصل واتفق معه اخوته حكام سنجار والجزيرة وحاكم ماردين ايضا وأتوا الى قرب حران ليحاربوا الملك العادل ويأخذوا منه بلادهم ، فجمع هو جيشا وأتى للقائهم ، لكن حاكم الموصل مرض فجأة وحل على نصيبين ، وعند ذلك خافوا فعادوا تحت طاعته كما كانوا مع أخيه ، فرد لهم الخابور ، واصطلحوا ومضى هو ليملك على الأرمن ، لكنه لم يستطع فرجع خائبا.

أما عز الدين حاكم الموصل فقد مات وملك بعده ابنه نور الدين أما لاون حاكم قليقية فقد أمسك البرنس بوهيموند حاكم أنطاكية وعذبه كثيرا ، وجازاه كما كان قد وضع بروفين أخي لاون ، حينئذ اتى الوالي هنري من عكا واعتقه ورجع لأنطاكية.

أما لاون فقد قوي بعد موت السلطان قلج ارسلان ، فاحتل في بلاد الروم اثنتان وسبعين قلعه ، أخذها من الاتراك واليونانيين ، وكان دائما منتصرا ، فأخذ أولاد السلطان يحتمون به.

عندما خرج اخي المطران مار اثناسيوس من القدس بعد خرابها اتى الى دير سيدنا مار برصوم ، فـأرسلته عوضـا عني وبسـبب شيخوختي الى انطاكية ، فاستقبلوه كالملك واحبه الجميع ، وبقـي هناك سنتين ، ثـم تـوفي وكان ذلك يوم الخميس ٢١ تشرين الأول عام ١٥٠٤ يونانية وسجي جسده في دير داوود عند قبر مـاريوحنا البطريرك ، ليرحمه الله ، امـا القـدس فـارتسم عليهـا اغناطيوس ، اي الشهيد رئيس ديرها.

وفي كانون توفي ديونوسيوس مطران ملطية وقام مـكانه اياونيس مطران قيسارية أي ابن قنون.

وفي تشرين سـنة ١٥٠٥ يونانية اتـى الينا في دير مـاربرصوم غريغوريوس المفـريان ومعـه الاسـاقفة الأربعـة الذين في ابرشيته ، ثبتوا عهدهم الناموسي مع ابيهم الروحاني ، ولما رجعوا الى كراسيهم حرموا الشيطان ابن تمسح ، وكان هـذا قـد قـال للحاكم :إن المفريان هرب ولن يأتي بعد ، لذلك عندما رجع الأساقفة حرموه ونبذوه ، وكذلك نبذه الشعب المؤمن ، ولما وصـل المفـريان استقبله الحاكم بترحاب ، وكل واحد فرح به.

وفي هذه السنة ارسل لاون حاكم قيليقية وسرق قلعة الروم واخذ الجاثليق الصبي ، ولما انكشفت افعاله حرمه اساقفة الأرمن ، وقد وضع لاون الجاثليق في السجن في قلعه تدعى غوبيدره وقد حاول ذلك الشقي أن يهرب فسقطت عليه صخرة ومات ، وقد خـزي الأرمـن بهذا العمل.

بعد ذلك رسموا لهم جاثليقا هو ابن عم الشـيخ المسـمى أبيررد ودعي ريخوروس .

كمل هذا على يد الخاطيء الشـقي العـاجز الكسـلان العبـد المظلوم ، وارجوا منكم العفو يا اخوتي واباني عن كل نقص صنعته يداي.

- ٢٢٥٢ -

انتهـى تـاريخ ميخـائيل السرياني في كانون الأول (١٥٠٦) يونانية (١١٩٥ م) بـالخبر التـالي في كانون الأول عام ١٥٠٦ يونانية (١١٩٥ م) مضى حـاكم أبلسـتين الى لاون ، وقـدم له الطاعه ، ثم مضى لاون الى حاكم قيسارية وانتصر عليه واغتصـب منه قلعة قرب قيسارية .

روايات ابن العبري

غريغوريوس بن هرون بن توما الملطي

(أبــــو العبــــاس المســـــتظهر بــــالله

(٤٨٧ هـ ـ ١٠٩٤ م)

مدة خلافته خمسة وعشرين عاما وخمسة أشهر ، وفي هذا العام ماتت تركان خاتون أم السلطان محمود ، ويقال إنها كانت جـريئة حكيمة يتصل نسبها بأفر سياب راس ملوك الهون ، وأما أبـوها فهو طغراج ملك الخزر ، ولم يبـق تحـت سـلطة ابنهـا الا اصفهان ، ومع ذلك طمع فيه أخوه السلطان بركياروق فـزحف على أصفهان بشرنمة من جنوده ، فأغلق أتباع السلطان محمود أبوابها في وجهه ووجـه جنده ، ولكن أتبـاع بـركياروق أصروا على فتـح أصفهان ، ففتحوها وأدخلوا فيها سلطانهم بركياروق ، فمكث بهـا يوما واحدا ألمت خلاله بأخيه محمود حمى شديدة توفي بسببها وهـو في السابعة من عمره ، فانضوى زعماء أصفهان تحت لواء بركياروق وملكوه إياها .

وفي عام ٤٨٨ هـ / ١٤٠٦ لليونان ، (١٠٩٥ م)قدم سـلطان قونية قلج أرسلان بن سليمان الى ملطية وحاصرها ، وأرسل أحـد الزعماء سفيرا له ليفاوض مطران المدينة المسمى سعيد بن صابوني الذي دعي صاحب السدرات ، وكان رجـلا قـديسا وخبيرا حنكتـه تجارب الحياة ، فكلمه السـفير بـاللغة اليونانية وبحضـور الزعيم جبرائيل اليوناني صاحب المدينة قائلا :يريد السـلطان أن تسـلموه المدينة ويعد أنه سوف يعامل سكانها معاملة طيبة ، والا فسيفتحها بحد السيف عنوة ، ومن ثم تكون دماء المقتولين في رقبتكم ، فأجاب المطران السفير قائلا لاتهرف بما لاتعرف ، فليس بمقدور أحـد ان يأخذ مدينتنا لأن خيراتها كثيرة ففيهـا خبـز لأكثـر مـن عشرة أعوام ، ومياهها تنبع من داخلها ، وفيهـا الكثير مـن المحـاربين الشجعان كما ترون ، وعندما كان المطران يتحادث مع السـفير كان

جبرائيل اللعين واقفا خلفه يتسمع ساكتا وعندما انصرف السفير ، قال المطران لجبرائيل الخبيث : لقد كنت يامولاي أصغي لما قلته والحري بنا أن نبعد السلطان عنا بمعسول الكلام ونفيس الهدايا وأنت على علم بما يعانيه الاغنياء والفقراء من الضيق ، فحقد هذا الخبيث على المطران ، وأوعز بقتل أحد الضباط في اليوم التالي ، وعندما علم المطران بذلك راح يتضرع الى جبرائيل ليكف عما بيته لذلك الضابط فغضب هذا اللعين على المطران وأخذ يوسعه شتما ، وبينما كان جبرائيل يسير على حصانه بين سوري المدينة عاد فرأى المطران فهوى بسيفه على رقبته ، فأرداه قتيلا ، ولم يتسن للمؤمنين أن يشيعوه ويواروا جثمانه في الكنيسة الا بعد يومين ، وأما السلطان ، فعندما علم بقدوم الفرنج ترك ملطية وقفل راجعا •

وفي عام ٤٨٩ هـ وهو عام ١٤٠٧ لليونان(١٠٩٦)م، تكهن المنجمون بأن طوفانا كطوفان نوح سيحدث ، فاستقدم الخليفة المستظهر المنجم ابن عيسون ، وسأله عن صحة ذلك ، فأجاب ابن عيسون : تجمعت في عهد نوح الكواكب السبعة السيارة ببرج الحوت ، ولهذا وقع ذلك الطوفان العظيم ، وأما هذا العام فلا أثر لزحل في برج الحوت فلو كان مع سائر الكواكب لكان من المرجح أن يقع طوفان كطوفان نوح لكنه ستحتشد جماعات كثيرة من الناس في أحد الأمكنة ، وسوف يأتي سيل عرم ويجرفهم فيغرقون كلهم ، وللحال وصلت أخبار مفادها ان الحجاج في مكة فاجاهم سيل عرم فأغرقهم كلهم .

وفي هذا العام أجهز جبرائيل اليوناني حاكم ملطية على أبي سالم الرئيس الصادق الايمان ، صهر آل عمران اذ دس له سما فقتله كذلك أجهز هذا اللعين على التجار المؤمنين الورعين الآتية أسماؤهم :

برصوما ابن الراهبة ، وابنته وباسيل حوا ، وسهدو شماس

طانطيني ، ونهب من بيت ابي منصور بن ملكا ذهبا وفضة وبضائع مختلفة ، كما سلب من كنسية المطــران قنينة ميرون ، والكثير مــن الصلبان والمباخر وغير ذلك من الذخائر ، وخـرب البيوت ، وعمــر السور والقلعة بأحجارها •

بداية الحروب الصليبية ١٠٩٧

زحف الفرنجة الى المشرق

وفي عام ١٤٠٨ لليونان ـ (١٠٩٧ م)قـدم ملكان فـــرنجيان وسبعة قمامصة الى انطاكية واستولوا عليها مـــن الاتــراك ، أمـــا السبب المعلن لقدومهم فهو أن التركمان بعدما استولوا على فلسطين وسورية وغيرهما من الاصقاع شرعوا يعاملون الحجاج المسيحيين المتوجهين الى بيت المقدس معــاملة ســيئة ، ولاســيما الحجـــاج القادمين من ايطاليا ونواحيها ، ولهذا تحمســوا وجهــزوا جيشــا حاشدا وقصدوا بادىء ذي بدىء الى اســبانيا ، فـدخلوا مــدنها ، وقتلوا الكثير من العرب ، ومثلوا بهم ففقــؤوا أعينهــم ، وقــطعوا آذانهم وجدعوا أنوفهم ، ثم واصلوا مســيرهم الى القســطنطينية ، فمنعهم ألكيس ملك اليونان أن يعبروا من هناك ، وظلوا يحــاصرون العاصمة سبعة أعوام ، ولكن دون جدوى فقرر الافرنج أن يتحــولوا الى انطاكية فحاصروها مدة تســعة أشــهر ، لم يتمــكنوا مـــن احتلالها ، ولهذا تآمروا سرا مع الفارسي روزبه حارس البــرج الذي كان بجانب مخاضة كشكروف وأغروه بذهب كثير ، وكان ذلك البرج مقاما على دعائم حديدية فدخلوه ليلاً وتسلقت جماعة منهم الســور بالحبال ولما ازداد عددهم فوقه ، شرعوا ينفخون بــأبواقهم في آخــر الليل ، فظن الحاكم التركي يغسيان أن الفرنجة دخلوا القلعة فداخله خوف شديد ، فما كان منه إلا أن تــوجه نحــو بــاب المدينة وفتحـــه وهرب مع ثلاثين رجلا باتجاه طريق حلب ، ومــا إن انبلج الصـــباح حتى شرع يصرخ ويقول : كيف تخليت عن المدينة وتــركت أمــوالي وأهلي وأولادي ؟ ثم أخذ ينظر نحو انطاكية ويبكيها ، ولشدة حزنه هوى عن فرسه فأركبه أصحابه غيره الى أن سئموا فتركوه مطروحا

على الأرض وانصرفوا فلقيه حطاب ارمني ، وعندما عرفه قطع رأسه وذهب به الى الفرنجة .

على هذا النحو سقطت أنطاكية بيد الفرنجة فبطشوا بمن فيها من العرب والأتراك ، وسلبوا خيراتها وولوا عليها أحد القمامصة واسمه بوهيموند ، وقد بقي الأفرنج في انطاكية مدة خمسة عشر يوما لايجدون شيئا ياكلون حتى اضطروا ان ياكلوا لحوم خيولهم ، ولما علم السلطان بركياروق باحتلال الفرنجة لأنطاكية ، جهز جيشا عظيما قوامه مائة ألف فارس وسيره الى انطاكية ، وعندما بلغ الجيش بفراس خيم هناك ، وشاهد احد ملوك الفرنج في نومه حلما ، فحفر مكانا في بيعة القسيان ، فوجدوا فيه مسامير صليب الرب يسوع فصاغوا منها سنان رمح وصليبا وجعلوه لواء زحفوا تحته نحو الأتراك ، فنصرهم الرب على الأتراك وقتلوا منهم اناسا كثر ضاقت بجثثهم الأرض على سعتها .

وبعد ذلك قصد الفرنجة المعرة ، فدخلوها وبطشوا بنحو مائة ألف نسمة من سكانها وعاثوا فيها فسادا مدة أربعين يوما يسرقون ، وينهبون ومن ثم قصدوا الجبال فبطشوا بالكثيرين من النصيرية ، ثم اتجهوا نحو لبنان فحصروا عرقة قرب طرابلس مدة أربعة أشهر ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها فتركوها وقصدوا شيزر بين حمص وطرابلس فانصاع صاحبها ابن منقذ العربي لهم ، وقدم لهم الجزية ، فتحولوا عنه الى حمص فأذعن لهم صاحبها جناح الدولة ، فتحولوا عنها ايضا الى طرسوس والمصيصة وأذنه (١) .

وكان الترك يومئذ يشغلون سروج في نواحي حران والرها وكان الأرمن يتولون على بلاد زغما غربي الفرات قرب البيرة ، وكان باسيل كبيرهم متوليا رعبان وكيسوم بين حلب والرها ، وكان ايلغازي ابن ارتق في سميساط على شاطىء الفرات الغربي ، أما مرعش والجبل الأسود فكانتا بيد ابناء فلرطس الأرمني . وكانت قيليقية وعين زربة بنواحي المصيصة في ملك بني رافان الأرمن أما

طنكريد ملك انطاكية فانه حشد الجيوش وزحف الى بلاد الترك واستولى على قلاع وحصون كثيرة ، ثم توجه الى منبج وبالس وعاد في الربيع الى طرابلس ليطعم الخيل العشب .

لكنه لما استفحل أمر الفرنج لم ير الترك بدا من مراضاتهم فبعث رضوان صاحب حلب إلى طنكريد باثنين وثلاثين ألف دينار وعشرين حصانا أصيلا ، وأربعين قطعة من القماش الفاخر ، وأرسل اليه صاحب صور سبعة آلاف دينار ، وصاحب عسقلان أربعة آلاف دينار ، وصاحب شيزر أربعة آلاف دينار ، وعلي الكردي صاحب حماة ألفي دينار ، وأبرموا جميعا الهدنة الى زمن الحصاد ليعطوا الغلال للفرنج .

الاستيلاء على بيت المقدس

قوي أمر الافرنج في الشرق فوجهوا جيوشا ضخمة الى فلسطين برا وبحرا وحاصروا في طريقهم يافا واحتلوها في عدة ايام ، ثم بلغوا بيت المقدس فاحدقوا بالمدينة من كل صوب وبنوا حولها عدة ابراج خشبية وترابية واقاموا عليها المنجنيقات والعرادات وواصلوا الحرب اربعين يوما .

وكان بيت المقدس يغص يومئذ بالناس والعسكر المصري والعدد الحربية وكان صاحبها افتخار الدولة الأفضلي قد أبعد عنها المسيحيين فاحتشد الفرنج في برجين ابتنوا احدهما عند الجهة الجنوبية من باب صهيون ، والآخر عند باب مار اسطفانس في الجهة الشرقية فصار العرب يرمون برج صهيون بالقذائف المحرقة ، لكن سرعان مادوت صيحة بين العرب تقول ان الفرنجة دخلوا من الجهة الشرقية ، ومن ثم أعملوا السيف في رقاب أهل المدينة اسبوعا كاملا وقد قتلوا أكثر من سبعين ألف عربي في المسجد الاقصى وسلبوا من عند الصخرة أربعين قنديلا فضيا زنة كل منها

ثلاثة الاف وستمائة درهم ، كما نهبوا من قبة الصخرة مائة واربعين قنديلا فضيا وزن كل قنديل ثلاثة الاف وسبعمائة درهم ، واخذوا كذلك مائة وخمسين من القناديل الصغيرة بينها عشرين قنديلا من الذهب المصري ، وكان بين مانهبوه ايضا منارة فضية تزن أربعين رطلا سوريا ، علما أن الرطل السوري يساوي ستة أرطال بغدادية ، أضف الى ذلك الكثير الكثير من الأواني والذخائر الفاخرة ، وكان أول من ملك من الفرنجة في بيت المقدس غودفري الذي تسلم حكمها سنة ١٤٠٩ لليونان (١٠٩٨) م تولي سنتين وتوفي ، فخلفه في حكم بيت المقدس بلدوين وقد تولى امر هذه المدينة مدة سبعة عشر عاما

ولما علم المصريون بما جرى في بيت المقدس زحف الأفضل ابن أمير الجيوش بجيش عظيم عام ١٠٩٩ فالتقى مع الفرنجة قرب عسقلان ، فتغلب عليه الفرنجة وبطشوا بالكثير من جنوده ، ومن ثم واصلوا مسيرهم الى عسقلان ، فقدم سكانها اثني عشر ألف دينارا للفرنجة فقنعوا بذلك وغادروا عسقلان راجعين الى القدس .

صراع السلطان بركياروق وأخيه محمد

وفي عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م ثار أقطاب الأتراك على السلطان بركيارق انتقاما من الوزير مجد الدولة الذي كان يسيء معاملتهم ، ففتكوا بهذا الوزير لكنهم لم ينصبوا بركيارق بل توجهوا الى اخيه محمد وبايعوه بالسلطنة ، ورضي السلطان عن ذلك وأصدر فرمانا رسميا سمي (فرمان الرضا) وتسمى محمد « غياث الدنيا والدين أبا شجاع محمد » فزحف بركيارق الى بغداد متتبعا أخاه محمدا ، فالتقى جيشاهما ودارت بينهما حرب سجال ، ينتصران وينكسران .

وفي عام ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م توفي الطبيب البغدادي يحيى بن جزلة واضع كتاب المنهاج الشهير الذي يتحدث عن الأدوية والأغذية

البسيطة والمركبة ، والذي لايزال متداولا بين أيدي اطباء هذا العصر ، ومما يذكر ، أن يحيى هذا كان نصرانيا ، قرأ المنطق على يدي ابي علي بن الوليد ، وقد اقنعه أبو علي السفسطي « أن الاتحاد الحبي والاقنومي على زعم النساطرة لايمكن تصوره في الطبع الألهي » وبذلك حسن له الاسلام فأسلم ، والجدير بالذكر ان يحيى هذا كان غنيا لكنه لم يعالج مريضا قط بدون أجره ، الا أصدقائه فقط •

معارك صنجيل مع الطرابلسيين والدمشقيين والحماصنة •

وفي عام ١٤١٤ يونانية (١١٠٣) م بلغ العرب أنه ليس مع صنجيل في طرطوس الا ثلاثمائة فارس فاتفقوا على أن يغيروا عليه من طرابلس ودمشق وحمص ، فوجه مائة من فرسانه نحو الطرابلسيين ومائة نحو الدمشقيين ، وخمسين نحو الحماصنة ، أما الخمسون الباقية فأبقاها بقيادته ، وعندما التقى الجمعان فر الحماصنة والدمشقيون الى الجبال ، علما انهم كانوا يزيدون على خمسة آلاف محارب ، واغار صنجيل على الطرابلسيين الذين كانوا يقدرون بثلاثة آلاف محارب ، فدحرهم وتتبع العرب المهزومين هو وفرسانه الخمسون ، فأهلك من العرب زهاء سبعة آلاف ، ومن ثم ترك قيليقية قاصدا طرابلس فأغار عليها ، ولكنه لم يتمكن منها فحاصرها سبع سنوات واحتلها عام• •(٢) وبسط سلطانه على طرطوس،وبطش بسكانها من العرب واقتحم قلاعا عدة .

وفي تلك الفترة قدم عن طريق البحر قمص آخر ، فحاصر عكا وضايق سكانها ، واحتل الفرنجة الرها ، ومن ثم راحوا يغزون ويسبون البلاد السورية من العرب البلد تلو الآخر •

احتلال الأتراك لمدينة ملطية

كان الأمير ابن دانشمند صاحب كبدوكيا التركي يثقل في مطالبة صاحب ملطية جبرائيل اليوناني ، وكان ابن دانشمند هذا يأتي الى ملطية صيفا فيعيث فيها فسادا .

ويأكل غلالها ثم يغادرها شتاء ، ولهذا اغرى جبرائيل اليوناني الفرنجة باحتلال مدينته ملطية ، واقسم لهم ثلاثا أنه سيسلمهم المدينة ، فصدقوه وسار الملك بوهيموند الى ملطية وهو مطمئن ليأخذها ، على أن جماعة من الأرمن كانوا منذ ايام فيلردين يتولون بعض المناطق منهم كوغ باسيل اي اللص صاحب كيسوم ورعبان وأبناء روبين حكام بعض نواحي من أرمينية خافوا ان يستولي الفرنج على ممالكهم ويطردونهم منها ، فكتبوا سرا الى اسماعيل بن دانشمند واتفقوا على أن يكمن لهؤلاء الفرنجة ، ولما وصل بوهيموند قرية حفنة قرب ملطية أخذ نلك الخبيث جبرائيل اليوناني يماطله ويسوفه ويؤجله من يوم الى آخر حتى وصل اسماعيل بن دانشمند وكمن للفرنجة فأسر بوهيموند وأرسله الى سبسطية وتوجه إلى ملطية وطوقها ، ومن ثم أخذ جبرائيل يتمادى في ظلمه للأهالي الى أن تذمر منه ضابطان استقدما الأتراك إلى المدينة ، فدخلوها وكان نلك يوم الأربعاء ١٨ ايلول ١٤١٣ لليونان ،(١١٠٢) م وفي النسخ العربية عام ١٤١٢ لليونان (١١٠١) م فسلب الأتراك مافي ملطية المنكودة الحظ من الثروات ، كذلك أباح ابن دانشمند لجنده ان يستولوا على أموال هذه المدينة لكنه لم يسمح لهم بأسر اهاليها ، فقد احسن ابن دانشمند معاملتهم ولم يؤذوا أحدا منهم وردهم الى بيوتهم ، بل أحضر من بلاده المزيد من الثيران والقمح والحاجيات ، وغير ذلك من المؤن ووزعها عليهم ، ولهذا نعم الملطيون في عهده ببحبوحة من العيش ، ثم ولي عليهم حاكما تقيا ورعا يدعى باسيل ورحل •

وأما جبرائيل الخبيث ، فقد أنزل الله غضبه عليه ، فصار

الاتراك يسومونه سوء العذاب ، ولطالما ذكره النصارى بما كان منه من المظالم ، والتعدي على حياة الآخـرين وخـاصة على المطـران الورع ، والزعماء المضطهدين الذين بطش بهـم ، وبعـد أن بـالغ الأتراك في سبه وأشبعوه شتما توجهوا بـه الى قلعـة قـطيعة حيث كانت تسكن زوجته ، وطلبوا اليه ان يأمر زوجته بأن تسلمهم القلعة ولكنه راوغهم وخاتلهم ، وقال لزوجته سلمي القلعة وهـذه اشـارة مني · اني بعثت اليك قبـل ايام فتـى اسـمه ميداس – علمـا أن ميداس لفظة أرمنية معناها لاتسلمي – ولما اكتشف الأتراك مكره فتكوا به ورموا جثته الى الكلاب واستقدم ابن دانشمند ملك الفرنجة بوهيمند الى ملطية ثم باعه بمائة الف دينار ،فعاد هذا الى انطاكية وتنازل عنها لابن اخته ورجع الى بلاده.

وفاة السلطان ركن الدين بركيارق

وفي عام ٤٩٨ هـــ (١١٠٤ م) ابتلى السـلطان ركن الدين بركيارق بأمراض عدة ومختلفة كالبـواسير والسـل وغيرهـا مـن الآفات ، فأدرك أن منيته قد دنت ، فاستخلف الاقـطاب بـأمر ابنه ملكشاه الصغير ، وبعث به الى بغداد ونودي به وبلقب جـلال الدين ملكشاه ، علما أنه لم يكن قد تجاوز الرابعة من العمر ، وتوفي والده بركيارق فدفن في اصفهان ، وعندما كان في بغداد قـدم اليهـا عمـه السلطان محمد فخاف البغداديون ان يختلف السـلطانان ، فيكونوا هم مرتعا للسلب والنهب ، ولما كان الأمير اياز وصي الملك ملكشـاه يحظى بقسط محمود من الذكاء والدهاء ، وقائدا لجيوش بـركيارق وبالتالي فهي تأتمر بأمره ، ذهب الى السلطان محمـد واسـتحلفه قائلا ان هذا الفتى ، هو ابن أخيك وينبغي أن تحوطه برعايتك وأن تعمل على توطيد حكمه ، فأجابه السلطان محمد قـائلا ان ملكشـاه هـو ابني ، ووعده خيرا ، فتـركه الأمير اياز الذي زار السـلطان ملكشاه وحظي بحسن ضيافته ، وفي اليوم التالي أقام الأمير مأدبة دعا اليها السلطان فلبى الدعوة ، ولسوء الحظ حضر كاتب متـدرع

بدرع تحت ثيابه وكان واقفا يخدم ولايتحـرك الا بصـعوبة وبـطء فأثار شكوك السلطان ، فأوحى إلى أحـد عبيده ان يسـتطلع أمـر تعثره في ذهابه وايابه فـذهب العبـد وتلمس الكاتـب بحجـة مداعبته ، فأحس أن تحـت ثيابـه درع ، فـأخبر السـلطان بذلك ، فقال السلطان لنفسه اذا كان الكتاب يتـدرعون ، فمـا هـو شأن الفرسان الأتراك ؟ ورجـح أن أياز يبـطن له المكر والغـدر ، فاشار إلى مرافق له أن يضر به ويقتله ففعل ، وعندما علم الاتـراك حلفاء اياز بذلك حملوا ماأمكنهم من أموالهم وأموال غيرهم وفـروا الى سورية .

وفي آذار ٤٤٩ هـ ـ ١٤١٧ م لليونان (١١٠٥ م) فـاضت الأنهار ولاسيما الفرات فخرب الكثير من دور بغداد ، وقـد بلغـت المياه دار رجل غني ، فكادت تغمـرها ، فـوضع أهله وامـواله في سفينتين وقصد مكانا عاليا ، وبعد ان عبرت السفينتان قليلا غرقت احداهما ، وقد كان على متنها فتاة مع امها وتسـع جـوار غاليات الثمن فغرقن جميعا وغرق مامعهن من متـاع ، وعندمـا رأى ركاب السفينة الثانية ذلك ، عادوا الى دارهـم ، وقـد تضـاءلت المياه في اليوم التالي ، فحمـد الناس الله وامتـدحوا أحـكامه التـي لاتدرك ، وأتقنوا ان نجاة الناس بأمر الله .

وفاة دانشمند

وفي هذه السنة عينها توفي في سبسطية دانشـمند بعـد ان تـولى مـدينة ملطية عامين ، فقـدم قلج أرسـلان لمحـاصرتها في ٢٨ حزيران ، ونصب المنجنيقات على برج مسـتدير في الشـمال الشرقي من المدينة التي احتلهـا بـاليمين بعـد معـارك وليس بـالسيف ، وذلك في الثـاني مـن ايلول ١٤١٧ لليونان (١١٠٦ م) وقد احسن معاملة الاهالي .

وفي سنة ٥٠٠ هـ - ١١٠٦ م) كان الأمير التركي جكرميش واليا على الموصل فعزم ان يتمرد على السلطان محمد فخلع السلطان الأمير جكرميش التركي هذا ونصب مكانه الأمير جاولي وزوده بجيش جرار ، وعندما التقى بجيش جكرميش عند اربيل هزم جكرميش واسر لكن أهل الموصل تحالفوا مع زنكي بن جكرميش واحتشدوا استعدادا لمقاتلة جاولي ، واستنجدوا بقلج أرسلان بن سليمان بن قطلمش ، سلطان قونيه ،أما جاولي فقد دخل الموصل منتصرا ومعه جكرميش أسيرا وحفر بئرا عميقا ورمى جكرميش فيه مخافه أن يخطفه الأهالي ، ولم يلبث جكرميش أن لفظ أنفاسه في هذا البئر المظلم.

وكان في وقعه جكرميش ، أبوطالب بن كسيرات الموصلي لكنه هرب والتجأ الى صاحب اربيل ابن موسك ، فبعث جاولي الى ابن موسك هذا طالبا منه أن يرسل له أبا طالب هذا فلبى طلبه ، وقام بالمقابل وأفرج عن واحد من أبناء صاحب اربيل كان جاولي قد أسره ، وعندما قدم ابن كسيرات لزيارة جاولي ، وعده بأن يعطيه الموصل وتعهد بأن يجمع له مقدارا من الذهب من معارفه واصدقائه ، ولكن العدو اللدود لابن كسيرات قاضي الموصل ابن ودعان ، اتفق مع جاولي ووعده أن يسلمه الموصل شريطة أن يبطش بابن كسيرات ، فنفذ جاولي ذلك وأرسل له رأس خصمه فغضب أتراك الموصل على ابن ودعان وهجموا عليه وقتلوه ولم تكن قد مضت على فعلته هذه أيام معدودات.

وفاة السلطان قلج ارسلان

وفي ذلك الحين قصد قلج ارسلان جزيرة قردو قادما من بلاد الروم ، فهرب جاولي الى مدينة بلد وغزاها ، ثم تحول عنها الى سورية ، فدخل قلج أرسلان الموصل واحتلها دون قتال ، وصفح عن زنكي بن جكرميش وأصحابه ولم يؤذ أحدا منهم ، وأعاد القاضي

عبيد الله بن القاسم الشهرزوري الى مكانته ومنصبه ، ومنع الخطبة باسم السلطان محمد في الموصل ، وجعلوا يخطبون فيها باسم قلج أرسلان بعد الخليفة ، ونصب في القلعة شحنة اسمه بزميش ، وجعل ينادي باسم ابن ملكشاه ملكا ، وهو لا يزال في الحادية عشرة العمر ، وأسكنه مع أمه هناك في البلاط وزحف الى الخابور برفقة خمسة آلاف فارس ، وأما الأمير جاولي ، فقد تحالف مع صاحب حلب رضوان ، وقصد الخابور بأربعة آلاف من الفرسان الشجعان والمدربين حيث وقعت معركة طاحنة تعد بحق ملحمة بينه وبين قلج أرسلان ، وقد أظهر شجاعة نادره ومنقطعه النظير ، فقد استطاع أن يخترق صفوف جيش خصمه وضرب يد حامل رايته وبترها ، ثم هجم بنفسه على جاولي وطعنه بالسيف ولو لم يكن جاولي يلبس درعا حديديا لكانت ضربة قلج أرسلان الجريئة هذه قد مزقت قلبه ، وعندما لاحظ أصحاب جاولي ورضوان شجاعه قلج أرسلان واستبساله بينما كان أصحابه متلكئين انقضوا على أصحابه ، وبطشوا بهم ، فخاف عندئذ قلج أرسلان وأيقن أنه بقي وحيدا كما أيقن أنه سيموت لأنه إن عفا عنه رضوان وجاولي فإن السلطان سوف يقتله لأنه كان قد منع الخطبة باسمه في الموصل ، لهذا كله ألقى بنفسه وهو على حصانه في نهر الخابور ، وظل يقاتل ويطعن كل من تبعه ، ولكن درعه الحديدي كان أثقل من حجمه وشجاعته ، و سرعان ماهوى حصانه في مجرى النهر العميق فغرق ومات ، وبعد عدة أيام لفظته مياه الخابور الى الشاطيء ، فرآه بعض المارة فنقلوه ودفنوه في مقبرة الشمسانية (٣) ، واما رضوان ، فقد قصد أطرا ف الرقة بينما رجع جاولي الى الموصل ، حيث فتح له أهلوها الأبواب فدخلها دون قتال ، وألقى القبض على أحد حجاب جكرميش وصادر منه أربعين ألف دينار من الذهب ، ثم طلب من بزميش أن يتخلى له عن القلعة وعن كل ما سلبه من أهالي الموصل مقابل أن يغادر بسلام الى بلده ، فانصاع بزميش لأوامر جاولي حالا لأن حاميه ومولاه قلج أرسلان كان قد مات ، فغادر القلعة ومعه أهله وزوجة قلج ارسلان

وأهلها وقصد ملطية ، وأما ابن قلج ارسلان ملكشاه الفتى ، فقـد كان جاولي أرسله الى السلطان.

بعد ذلك قصد جاولي الجزيرة واضطهد سكانها فاضطر حبـاشي ابن جكرميش أن يقـدم له سـتة آلاف دينار وحصـانا عربـي الأصل ، فتركها وتحول عنها ميمما شطر الموصل حيث عزل القاضي ابن الشهرزوري ونصب مكانه أبا بكر الاربلي ، لكن هذا الانتصار قد غره فتغطرس وتمـرد وخلع طـاعه السـلطان غياث الدين محمد ، ولم يعد يبعث اليه كعادته شيئا مما كان يغنمـه ، فـارتاب السلطان وتشكك في نوايا جـاولي ، فسـير اليه عدة أمـراء بقيادة الأمير مـودود على رأس جيش عرمـرم ، وذلك سنة ٥٠٢ هـ ـ (١١٠٨ م) ، وعندما علم بذلك جـاولي حصـن مدينته ، وترك فيها زوجته ـ وهي أخـت بـرسق أحـد أمـراء الموصل ، ونشر المدافعين فوق السور وطلب منهـم أن يدافعـوا عنه وأن يحموا المدينة ، ثم غادرها خيفة أن يحاصر وهو فيها ، وخرج وكأنه يبحث عن رجال ينجدوه في صد الغزاة القادمين ، واصـطحب معه قمص فرنجي يدعى بلدوين ، كان قد أسره مـن قبـل ، ووعده بالافراج عنه إن هو قدم له سبعين الف دينار ، وأفرج عمن لديه من الأسرى الغرب ، وأن يخدمه مع سائر الفرنجة كلما احتـاج الأمـر ذلك ، ثم طلب اليه أم يقيم في قلعـة جعبـر الى أن ينفـذ هـذا الاتفاق ، فـاستقدم القمص بلدوين ابـن اخـت له يدعى جـوسلين وأودعه لدى الأمير رهينة مكانه وذهب هو ليعـد الذهـب الذي تـم الاتفاق عليه.

وأما أهالي الموصل ، فقد أثقلت كواهلهم الضرائب التي فرضتها عليهم زوجة جاولي التي بقيت في الموصل فصعد جمـاعة مـن عملة الجص الى برج من أبراج المدينة وأطلقوا صيحات مـدوية بشـعار السلطان الكبير غياث الدين محمد ، ثم دخل الأمير مودود وصـحبه الموصل واحتلوها فلاذت زوجة جاولي بأخيها الأمير برسق ، وأمـا جاولي نفسه فقد قصد إيلغازي والي نصيبين ومـاردين الذي كان في

رعبان قرب الخابور في تلك الايام ، وقد حـاول جـاولي جـاهدا أن يقنع ايلغازي بالتحالف معه ،ولكن إيلغازي تركه فسـار الى قلعـة ماردين ، وبعد ذلك قصد جاولي الى الرحبه وحاصرها مدة سـبعين يوما ثم بعث يطلب من جوسلين أن يأتي من قلعة جعبـر ، فـأعطاه حصانه ، ووشحه بحلة ملكية ، وأرسله الى خاله بلدوين يسـتعجله في جمع الذهب والافراج عن الأسرى العرب ، وعندما بلغ جـوسلين أنطاكية أعطى الى طنكريد صاحبها ثلاثين ألف دينار أرسلها هـذا بدوره الى جاولي مع مئة أسير وأسيرة من العرب من مدينة حلب.

وغادر جاولي متوجها الى الرقة فحاصرها مدة طـويلة ، فبعـث اليه السلطان غياث الدين الأمير حسين بن أتابك يدعوه للعـودة الى خدمته وطاعته ، والعودة كما سلف إلى الموصل ، فرفض جـاولي هذا العرض ، وزحف الى بـالس فحـاصرها ودمـرها وبـطش بأهلها ، ولما علم رضوان صاحب سورية وحلب بمـا فعله جـاولي ببلاده استنجد بملك أنطـاكية طنكريد ، فبـادر لنجـدته على رأس جيش مؤلف من ألف وخمسمائة فارس افرنجي وسـتمائة فـارس تركي من أصحاب رضوان نفسه ، كما استنجد جـاولي بجـوسلين وبلدوين فأتيا لنجدته أيضا ، ونشبت معركة عند تل باشر أسـفرت عن تغلب فرنجة وأتراك رضوان على فرنجة وأتراك جـاولي ، وقـد قتل في هذه الوقعة كثير مـن الأتـراك ، وأمـا الفـرنجة فلم يقتلوا بعضهم بعضا ، بل كانوا يكتفون بأن يلقي أحدهم الآخر عن صهوة جواده ، وإثر ذلك انهزم جوسلين وبلدوين الى تل باشر في مجموعة من جند جاولي ، فعالجوا جراحهم ثم ردوهم اليه .

ولما أيقن جاولي أنه قـد خسر وهنت عزائمـه وخـارت ، فلم ير وسيلة إلا الاستعانة ثانية بالسلطان فبدل اسمه وهيئته وسـارع في بعض اصحابه من سورية الى خراسان قـاطعا ثـلاثمائه وسـتين فرسخا في سبعة عشر يوما ، وعندما بلغ المعسـكر ، قـال لدليله في الطريق : أنا جاولي نفسه أريد خيمة الأمير حسين وكان سلف ورآه من قبل في الرحبة فاصطحبه هذا الى السـلطان وهـو يحمـل كفنه فعطف عليه السلطان وجعله من بطانته ، أما بزميش فـأخذ زوجـة

قلج أرسلان من الموصل الى ملطية ، ونادى بطغرل أرسلان بن قلج أرسلان الفتي سلطانا ، وصدف أن كان هناك أمير شان يدعى أرسلان ، فطلبت أمه أن يبطش بابنها هذا ويتزوجها ، ثم اتفقت أم الفتي مع بعضهم فقبضوا على أرسلان وسجنوه فاعتقد الناس أنهم قتلوه لكنهم ما لبثوا أن أرسلوه بعد سنه حيا الى السلطان غياث الدين بخراسان ، فبعث هذا الى ملطية السلطان ملكشاه بن قلج أرسلان فنادوا به ملكا وخلع طغرل أخاه الصغير وسجن أخويه عربا ومسعودا ، وأما ملكشاه فقد بقي في ملطية عدة أيام يضايقه ويشدد عليه ابن دانشمند ، فقصد ملك الروم الكسس يستنجد به فاستقبله وأكرمه وأجزل له العطاء ، وفي طريق عودته نصب له ابن دانشمند كمينا فاعتقلوه وأحضروه فسمل عينيه ،عند ذلك أفرج زعماء ملطية عن أخيه مسعودا ونادوا به سلطانا عليها ، ولكنه سرعان ما غادر ملطية تاركا فيها أخويه عربا وطغرل أرسلان وقصد قونيه واستقر فيها وجعلها عاصمته •

غارات الفرنجة في سورية

وفي عام ١٤٢١ لليونان(١١١٠ م) انتزع الفرنجة طرابلس من العرب بعد أن حاصروها مدة سبعة أعوام ، وفي العام الثاني زحف طنكريد ملك أنطاكية في جيش عظيم من الافرنج ، وانتزع حصونا كثيرة من العرب ، وبطش بكل من فيها ، ومن ثم قصد منبج فلم يجد فيها أحدا ، كما قصد بالس فلم يجد بها أحدا فأحرقها ، ورجع الى طرابلس لترعى مواشيه الكلأ ثم يعود ثانية ، وبات العرب في سورية بخطر داهم فقد تعذر عليهم مهادنة الفرنجة إلا بالمزيد والمزيد من الذهب ، فقام والي حلب رضوان باهداء طنكريد اثنين وثلاثين ألف دينار ، وأربعين قطعه من أنفس الاقمشة ، وعشرين جوادا عربيا أصيلا ، في حين قدم له حاكم مدينة صور سبعة آلاف دينار ، وصاحب حماة علي الكردي ألفي دينار ، وابن منقذ صاحب شيزر أربعة آلاف دينار ، وكذلك صاحب عسقلان أربعة آلاف دينار

ايضا وعقدوا معه هدنة الى موسم الحصاد فقط وعلى شرط أن يقدموا الغلال الى الفرنجة ايضا.

وفي هذا العام اعترض الفرنجة آلافا مؤلفة من التجار العرب القادمين من دمياط وتنيس ، وأسروا سبعين تاجرا منهم وباعوهم بأغلى الأثمان بعد أن سلبوا منهم خمسين حملا من الاقمشة الدمياطية وأربعمائه صندوق من السكر المصري الى غير ذلك من البضائع والأمتعة.

وفي هذه الآونة زار بغداد فقيه كبير قدم من حلب فأخذ يبكي ويندب حال عرب بلاد الشام بسبب ظلم الفرنجة وبطشهم بهم ، فاجتمع أهالي بغداد يوم الجمعة في المسجد الكبير وألغوا الصلاة ، وكسروا المحراب ، احتجاجا على الخليفة والسلطان لمسائل تقاعسهما عن محاربة الفرنج.وعندما علم السلطان بذلك أرسل ابنه أبا الفتح مسعودا والأمير مودود على رأس جيش كبير الى الموصل لمقاتلة الفرنجة.

وفي عام ١٤٢٢ لليونان(١٩١١ م) انتزع أتابك سلطان ملطية من الفرنجة بلدة جيحان وحل محلهم فيها ، كما زحف في هذا العام ، وانتزع في طريقه بعض الحصون في شبختان وفتك بمن كان فيها من الفرنجة ثم توجه الى الرها ، فحاصرها مدة طويلة ، ولكن لم يتمكن من دخولها ، فتحول عنها الى تل باشر التي كانت للفرنجة ، فلم يتسن له دخولها ، فتحول عنها الى حلب ، لكن صاحبها رضوان أوصد الأبواب في وجهه ، فواصل زحفه الى دمشق ، فبادر إليه أميرها طغتكين وعرض اخلاصه وولاءه في البداية ولكنه خشي أن يغدر به ويحتل المدينة ، فراسل الفرنجة وهادنهم ضاربا عرض الحائط به وبتعهداته.

وفاة الغزالي

وفي هذا العام توفي العلامة العربي الغزالي ووري جثمانه في طرسوس قيليقية ، ولطالما قرع العرب في مؤلفاته ، لاهتمامه بطهارة الجسد وغسله متغاضين عن طهارة النفس والقلب ، وكذلك حضهم على الزهد والعفاف موردا لهم الأدلة الكثيرة والبراهين القوية عن قصص الآباء السياح في كتابه الجليل الضخم ، وهذا ما حملني على ذكره.

وفي عام ١٤٢٤ لليونان ـ ١١١٣ م غادرت الخاتون زوجة السلطان قلج أرسلان مدينة ملطية الى قلعة بولا . لتتزوج من صاحب هذه القلعة (بلك) لما سمعته من ثناء السلطان عليه ، وقالت له : لقد سمعت السلطان يثني دائما عليك ويقول ليس بين الأمراء الاتراك أشجع وابرع وأحكم منك لذلك آثرت أن آتي اليك لتحميني وتحفظني أنا وأولادي فتزوجها وعلت مكانته لاقترانه بامرأة السلطان.

لكن عندما رجعت الخاتون الى ملطية بادرت فطردت منها الأتابك وانفردت هي وابنها بالقلعة ، ويقال إن أحد الأتراك كان مستوليا على حصن زياد ، فظل بلك يضايقه الى أن اشترى سلطان ملطية ذلك الحصن من هذا التركي ، ثم ما لبث أن قدم ابن السلطان محمود سلطان خراسان فاستلبه منه ، وخلال هذه الأثناء أبدى أهالي ملطية عطفا كثيرا فاشتروا كثيرا من أهالي حصن زياد ممن كانوا مأسورين لدى الأتراك واعتقوهم.

وفاة طنكريد

وفي عام ٥٠٧ هـ ـ ١٤٢٥ لليونان(١١١٤ م) مات صاحب أنطاكية طنكريد فخلفه عليها رجير ، وفي هذا العام أيضا اشتبك عند

طبرية جيش بقيادة بلدوين وجوسلين يتألف من ألفي فارس وراجل مع جيش بقيادة الامير مودود كان يتألف من سبعة آلاف فارس ، فانهزم الفرنجة شر هزيمة، وقتل منهم الف وثلاثمئة راجل فهرع صنجيل من طرابلس ، ورجير من أنطاكية لنجدتهم وخيمت جيوش الفرنجة هذه على جبل يشرف على الغرب ومكث الجيشان مدة ستة وعشرين يوما ، دون ان يتعرض أحدهما للاخر، فتوجه الفرنجة الى نهر الاردن، ورحلت جموع العرب ، بعدما أنهكهم الجوع بسبب بعدهم عن مدنهم ومراكز امدادهم الى ضواحي دمشق ، وذهب مودود الى المسجد لصلاة الجمعة ، وعندما فرغ من ذلك أمسك بيد طغتكين وأخذ كل منهما يسرح أنظاره في عماراته المدهشة، وبينما هما كذلك هجم رجل اسماعيلي على الامير مودود وبادره بأربع طعنات بسكينة فنقلوه للحال إلى دار طغتكين حيث مات هناك،وفي الحال هجم عبيد مودود على القاتل الاسماعيلي فجعلوه أشلاء مبعثرة ، وخيل لبعضهم أن صاحب حلب رضوان هو الذي دبر عملية اغتيال مودود ، في حين ذهب آخرون الى أن طغتكين نفسه هو الذي يقف وراء هذه العملية ، لأنه كان يخشى أن يطمع مودود بمدينته ، ولهذا أغرى هذا الاسماعيلي الذي كان مسجونا لديه بسبب جرائمه ووعده بجائزة ثمينة إن خلصه من مودودوأن يخلي سبيله ويكافيه . وخلف مودود في القيادة الأمير آق سنقر البرسقي،وسرعان ما توجه آق سنقر هذا على رأس خمسة عشر الف جندي الى الرها وحاصرها لمدة شهرين .

وفي عام ٥٠٨ هـ (١١١٥) م كان الفرنجة يخرجون من الرها باستمرار ويهاجمون العرب وفي إحدى الغارات ساقوا الى مدينتهم أحد عشر عربيا ،وبتروا ارجلهم وأيديهم وعلقوا جثثهم قبالة الاتراك على السور ، وقد أغضب هذا آق سنقر فقتل خمسين أسيرا من الفرنجة حالا،ولما أنهك الجوع الأتراك تحولوا عن الرها الى سميساط التي كانت ترعى أمرها زوجة كوغ باسيل الأرمني ، كما كانت ترعى أيضا أمر مرعش وكيسوم ورعبان ، وقد كانت هذه المرأة تحسن معاملة رعيتها بعد أن مات زوجها ، وقد أعدت جيشا

كبيرا من فرسان ورجالة ، وقد كانت تدفع للفارس اثني عشر دينارا ذهبا ، وأما للراجل فقد كانت تدفع ثلاثة دنانير٠

أحوال الأرمن

وأما الحكومة الارمنية ، فلم يكن حالها يختلف عن تلك الصورة ، فقد استعاد اليونان بعد أن تحسنت أحوالهم بعض بلادهم من العرب ، على أن هذا التحسن لم يمكنهم من مقارعة الأتراك ، فقد بقي هؤلاء في بلادهم متخذين الارمن الذين اعتصموا

بالأماكن الجبلية والجزيرة عملاء لهم ، فقد كان ميخائيل واوهنس في جرجر ، وبيت بولا ، وكان كوغ باسيل (أي اللص) في كيسوم ورعبان وبيت حسنة وقلعة الروم ، وأما الأخوان ابنا قسطنطين بن روبين ففي قيليقية ، أما نبتوغ وبيستفور وقسطنطين أبناء سنبل فكانوا في كورة سميساط ، وهؤلاء قوم سريان تبعوا كوغ باسيل ، وباسيل الفتى الذي نشأ في رعاية زوجة كوغ التي كان يرعى شؤونها كرديك اللعين ، الذي كان يعرف بكرهه الشديد للسريان ، لذلك احتل ديرهم المعروف بالدير الأحمر الواقع قرب كيسوم ومنحه لغريغوريوس جاثليق الأرمن ، وجعل خمسة من ديرتهم الكائنة في بيت قنايا بجبل زوبر ، قرى ، وأخلى دير عرنيش من رهبانه ، وأسكن فيه حراسا وجنودا ، واضطهد هؤلاء الرهبان وسلبهم الفي دينار .

واما ملك انطاكية تنكرد ، فقدحاصر كيسوم مدة سنتين ثم احتلها ، وأما كرديك السالف الذكر ، فقد عرف بمكره ودهائه ، ولهذا لم يستطع الفرنجة أن يتغلبوا عليه الا بالمكر والخداع فقد زفوا اليه فتاة فرنجية تدعى كلامارى شأنه في ذلك شأن شمشون ، فدست له السم فمات .

ولما رأت زوجة كوغ باسيل الجيش التركي يبطش ببلدها ويعيث فيها فسادا استنجدت بآق سنقر امير الخابور ، فلاطفته وأخذته

بالكلام المعسول واعدة اياه بالمساعدة فبعث اليها سفيرا يدعى سنقر دراز الطويل وقبل ان يصل اليها هـذا السـفير ارتقـت عرشـها الملكي ، وجعلت جـوار مـن حـولها يدخلن بنفيس الحلي والثياب ، وبعد أن دخـل مجلسـها هـذا جلس قبالها على كرسي فراحت تخدعه بحلو الكلام ولطيفه قائلة : مر جيوشك المعسكرين في الخيام ان يدخلوا المدينة لأن جـواسيس أخبـروني أن الفـرنجة يتأهبون للهجوم ، ولكن سـنقر لم يأخـذ بـكلامها ولم يتخـل عن غطرسته الى أن هـجم سـبعمائة فـارس مـن الفـرنجة على جنوده الأتراك فلم ينج منهم الا القليل ، وبعد ذلك ردت امرأة كوغ بـاسيل سنقر الى سيده آق سنقر محملا بأنفس الهبات ، فرجع الى سروج وحاصرها خمسة أيام عاث فيها جنده خلالها فسـادا في مـزروعات هذه البلدة وغلالها ، ومن ثم سـار الى شـبكتان حيث أقـام هناك وليمة فاخرة حضر اليها الملك مسعود بن السلطان الذي لم يذهب مع مودود ، بل بقي في هذه البلدة ، وبعد ذلك قبض سنقر على اياز بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين وبطش به ، وغزا بلده .

وضربـت مـرعش في ٢٩ تشرين الثـاني مـن عام ١٤٢٦ لليونان (١١١٥) م و ٢٩ مـن الشـهر السـادس العربي هزة ارضية جعلتها قاعا صفصفا ودفنت اهلهـا في ركامهـا كما تخربت دور عدة في سميساط ، ومات فيها خلق كثير ، ومنهـم قسطنطين صاحب جرجر ، كذلك وانهار ثلاثة عشر برجا من سـور الرها ، كما انهار جزء من سور حران ، ومائة دار في بالس ونصف قلعتها وانهارت كنيسة ماريوحنا في كيسوم وكنيسة الأربعين شهيدا فيها ، ولكن هاتين الكنيستين أعيد بناؤها بفضل مساعي اسـقفها ديونيسوس .

وفي سـنة ٥٠٩ للعـرب أي سنة ١٤٢٧ لليونان (١١١٦ م) هـاجم رجير صـاحب انطـاكية بخمسمائة من الفرسان الأمير آق سـنقر في منطقـة تقـع بين حلب والمعرة فالتجأ هذا الأمير مع أخيه زنكي الى احدى التلال ، ولكن

الفرنجة استمروا في قتلهم لأفراد الجيش التـركي ومـن معـه مـن التجار وفر آق سنقر وأخوه مع عدد قليل وطـاردهم الافـرنج نحـو فرسخ ولكنهم لم يمسـكوا بهـم ، فعـادوا واسروا ثـلاثة آلاف تركي ، وحطموا مامعهم مـن متـاع واضرمـوا في خيامهـم النار واحرقوا جميع الشـيوخ والصـبيان الصـغار غير القـادرين على العمل ، وساقوا البقية الى أنطاكية .

وفاة الخليفة المستظهر

وفي عام (١١١٧) م أي سنة ٥١٠ هـ تـوفي السـلطان غياث الدين محمد بن ملكشـاه في أصـفهان وخلفـه ابنه السـلطان محمود ، كما توفي في هذا العام الخليفة المستظهر في بغداد ، وخلفـه ابنه المسترشد الصغير ، كما مات في شهر آب من هـذا العـام ملك اليونان ألكس الذي اشتهر بـالشجاعة والحـكمة والأقـدام فقـد استطاع ان يحافظ على عاصمته ولم يمكن الفرنجة من دخولها وقد اضطرب وضع المملكة بعده ، ذلك أن ابنه يوحنا الذي خلفـه في الملك اختلف مع أخيه وأخته وأمه ، فحاولوا أن يغدروا به لكنه كان أقوى منهم ، فنفى اخته وأخيه ، وقص شعر أمه وأودعهـا في الدير ، وفي هذا العام توفي ايضا صاحب غزنة ، وملك مصر ، وبعـد ذلك بقليل قتل صاحب أنطاكية رجير ففي هـاتين السنتين مات ثلاثة عشر ملكا قبل ان تحصل الهزة الأرضية المدمرة التي ذكرناها من قبل .

أبـو منصـور المسـترشد بـالله فضل ـ ٥١٢ هـ / ١١١٨ م

دام حكم المسترشد بالله سبع عشرة سنة وثمانية أشهر ، وقـام بتـكسير خـوابي ابيه الكثيرة والممتلئة بـالخمر وطـرد المغنيين والمغنيات من أرض البلاد في بـداية تـولية الخـلافة ، واخـذ يميل

للتصوف ، فقـد سـيطر عليه الاضـطراب عندمـا رأى ابيه في حلم ، يقول له : خذني من عندك حتى لاآخذك الي فقام المسترشد وقبره في منطقة أخرى.ثم امر بتفتيش دار الكاتب ابـي طـاهر بـن أحمد فوجد فيها بيعـة وآنية المذبـح ، فقـال له : مـاهذا الشيء ؟ فـأجابه كانت لي زوجـة نصرانية فصـنعت كل ذلك دون معرفتي .

حرب الأمير ايلغازي بن أرتق

احتل الأمير ايلغـازي بـن أرتـق حـران في عام ٥١٢ هـ (١١١٨) واعتقل قاضيها وشيوخها الثقاة ، وكان والي حلب قد دفع الى رجير صاحب انطاكية ذهبـا كثيرا ، لكنه لم يستطع ان يتوصل الى مهادنته الا أربعة اشهر فقط ريثمـا يحصـد الفلاحون أراضيهم وجمـع القمـح عن البيادر ، لأن رجير سرعان ماعاد وحاصر حلب فاستنجد الحلبيون بالأمير ايلغازي بـن ارتـق أمير ماردين فلبى نداءهم بجيش قوامه سبعة آلاف تـركي ، وشرع يهاجم الفرنج حتى كسرهم وقتل اميرهم رجير ، فـانهزم الأفـرنج الى انطاكية ، لكن الأتراك لحقوا بهم واحتلوا ضواحي انطـاكية ، وقتلوا كثيرا من الرهبـان في الجبـل الأسـود ، ولما علم بـذلك ملك القدس بلدوين الثاني لحق بالأتراك ، كما لهم ثم فاجأهم وقتل منهم الكثير ، وعاد ادراجه يريد ايلغازي حيث استولى على كل ما غنمه وسلبه ، وأعاده الى انطاكية وقد ذكر البطريرك ميخـائيل السرياني أن غازي بن دانشمند هو الذي كسر الأفـرنج ، وقتـل رجيز ولعـل تشابه الاسمين هو الذي أوقعه في هذا الخطأ .

وقعت في سنة ٥١٢ للعرب احداثا كثيرة فقـد احتـل أمير ملطية جيحان وابلستين وقلعة قطيعة ، وكذلك غزا الفرنج في شهر شـباط بلدة ملطية وغزا الأتـراك بلد جـرجر ، كذلك غزا أمير ملطية بلدة قماح ، فتوجه صاحبها الى طرابزون واستنجد باليونان ، فأرسلوا

معه قائدا واسمه جيراس ، لكنه سرعان ماعتقل بعد ما هاجمه امير ملطية وبلك ، فدفع لهما ثلاثين ألف دينار وعاد الى بلاده .
واستولى يوحنا ملك القسطنطينية على ثلاثة حصون من الترك وغزا ايلغازي ضواحي أنطاكية وأشعل النار في غلال بلدة الرها ، وتولى الحكم ابن طغتكين صاحب دمشق بعد موت أبيه إلا أنه سرعان مابطش به ألتنطاش التركي وتولى مكانه .

وفي عام ٥١٥ هـ (١١٢١ م) انقض دون موافقة الأمير زنكي الملك مسعود في الموصل على أخيه السلطان محمود فحشد جيشا وهاجم أخاه ، إلا أن السلطان تمكن من القبض عليه وكبله بالقيود وولى بدلا عنه بلاد الموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين الأمير البرسقي .

وفي تلك الأيام أرسل ملك القسطنطينية اليوناني إلى ايلغازي بن ارتق قائلا : إن أعداد كبيرة من الفرنج توجهوا إلى سورية عبر البحر ، وعلينا أن نستعد لمقاتلتهم وإذا احتجت فإنني أستطيع إرسال ثلاثين الف مقاتل نجدة لك ، فسارع ايلغازي وسد الموانىء وسدد إلى الفرنجة ضربات شديدة فقتل معظمهم وهرب من تبقى إلى فروجية ، وكان ذلك مؤامرة من اليونان المراوغين .

وفي أطراف حصن زياد وبولا وملطيه كان أرمن جرجر يغيرون وينهبون ، فبعث بلك الأمير التركي إلى ميخائيل الأرمني صاحب جرجر طالبا بأن يوقف أتباعه عن السلب ، مقابل تقديم كل عام ألف حمل حنطة وثلاث قرى من قراه ، فأقسم له ميخائيل صاحب جرجر على الوفاء غير مرة لكنه كان يحنث بقسمه دائما وبقي أتباعه يسرقون ويحرقون القرى في هنزيط،مما اضطر بلك للعبور إلى جوباس في شهر شباط على جليد الفرات،فقد كانت الثلوج متراكمة في ذلك الشتاء القاسي،وعلى الرغم من ذلك اجتاز جبل قريونا الشاهق فقد أرسل ألفا من الخيول شقت الثلوج وسارت وراءها الجيوش التركية .

ووصلت إلى دير برصوم خلال يوم واحد وقد شقت قوات مـلك في جرجر جبل الجدار خــلال الليل وهـجمــوا على ملطيه في يوم الاثنين أول كانون الثــاني ١٤٣٢ لليونان (١١٢١ م) وأسروا الســكان واسـتولوا على الحيوانات،لكن بلك عاد فــأشفق على الفـــــلاحين المسيحيين فأعاد لهم أموالهم كلها ، ونقلهم إلى هنزيط وأصدر لهم أمرا أن لايعودوا ثانية إلى جرجر ، وأنه إذا وجـدهم ثــانية في تلك المناطق فإن عقابهم سيكون شديدا .

وفي عام ١٤٣٣ لليونان (١١٢٢ م) أرســـلت إلى بلدة الكرج جيوش تركية ضخمة من قبل الســلطان محمــود فــأغلقت الثغــور وأهلكت الكثير ، ثم غزا بلده جوباس الفرنجي.وفي هذا العام تــوفي الملك ايلغازي بن أرتق.وتزوج ابنة جوسلين رجير صاحب أنطــاكية بعد وفاة زوجته ، وأراد أن يصــطحبها معــه إلى الرهـــا ، لكن بلك نصب كمينا لها وقبضوا عليها وأخــذوها إلى بــولا.كذلك تنازل عن جرجر للملك بغدوين ميخــائيل الأرمني بعــدما تغلب عليه الأتــراك واستولى على مكان آخر .

وفي العام ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) أتى إلى بغداد قاضي الموصل ابن الشهرزوري ودفع للخليفة خمسة آلاف دينار واحتل غربي دجلة كلها من حدود الموصل حتى البصرة .

« أسر بلك لملك بيت المقدس بلدوين »

بينما كان الأفـرنج مخيمين عند شــواطيء نهـــز ســـنجة في عام ١٤٣٤ لليونان (١١٢٣ م) فاجأهم الأمير التركي بلك وتمكن من القبض على الملك بلدوين وكان ذلك يوم الأربعــاء مــن أســبوع البياض ، واستعد القمصان جوسلين وغالران كل الصَيف لمحــاربة الأتراك وفي أيلول تلاقى الجيشان ، وأثناء الحــرب تمــكن بلك مــن الانتصار على الفرنج.وكان ذلك ليلة عيد الصليب واستطاع أن يأسر القمصان جوسلين وغالران حيث ألقى بهما في بئر مهجور مــع الملك

بقلعة خرتبرت ، وهي حصن زياد ولكن العمال الأرمن تمكنوا من دخول القلعة حينما تأكدوا بأنه لايوجد هناك إلا عدد قليل من الاتراك ، فقد تجمهروا أمام الباب محتجين على الاجرة التي يأخذونها ثم هجموا على الحراس وأخذوا السيوف وقتلوا الاتراك الذين في القلعة ، وانتشلوا الملك بلدوين وجوسلين وغالران من البئر ، وقضوا على العرب واحتلوا القلعة ، ثم احتال جوسلين فغادر القلعة ليلا متنكرا بصحبة رجل أرمني ليأتي بجيش ويحتل القلعة لينقذ الملك بلدوين ، غير أنه ماكاد يخرج جوسلين حتى وصل بلك فضرب القلعة بالمنجنيقات واحتلها ، وقتل سبعين من الأرمن والفرنج ، وقاد بلدوين وابن أخته غالران إلى منبج وحاصرها إلا أن سهما أصابه من أعلى السور فقتله فهربت جيوشه إلى حلب وتولى ابن عمه تمرتاش بعده فباع الأسيرين بمائة ألف دينار ، وعاد بلدوين إلى بيت المقدس ، بعد ذلك تولى حصن زياد سليمان نسيب بلك ، وتولى أميرملطية مسارا وجرجر ، وفي تلك الأيام ظهر في السماء شهاب امتد من الجنوب إلى الشمال ، وكان عرضه بعرض رقبة الحصان وقد ظل في السماء لمدة شهرين .

وقائع

١٤٣٥ ـ ١٤٤٦ يونانية / ١١٢٤ ـ ١١٣٥ م

هجم الأمير غازي بن دانشمند صاحب سبسطية على ملطية في يوم الجمعة ١٣ حزيران ١٤٣٥ لليونان (١١٢٤ م) فتمكن من اجتياح ضواحيها كلها ، ثم حاصرها لمدة شهر لكنه لم يستطع اخذها فترك حولها ، في قرية سامان ابنه محمدا مع جيش كبير ، وأمره بمداومة حصارها وأن لايدع أحدا يدخل إليها أو يخرج منها ، وفي هذا الوقت كان أميرها المدعو عرب يغير على بلد دانشمند ويسرق وينهب .

وأدى حصار ملطية إلى تفاقم الجوع بين أهلها حتى وصل سعر قفيز الحنطة ، أي حمل الجحش إلى ستة وثلاثين دينارا ذهبا وانتهى القوت من المدينة فأخذ أهل ملطية يسلقون الجلود اللينة والأحذية وأغلفة الكتب ويأكلونها ، كذلك انقرضت من المدينة الحمير ، والقطط والكلاب وهكذا يكون قد نزل بملطية ثلاث نوازل أليمة نتيجة الحصار الذي وقع عليها . الجوع الذي يفتك بأهلها والسيف الذي يتسلط على رقبة كل من يخرج منها ، وايزابيل الثانية ، أم السلطان التي كانت قد أتت من الموصل لتسلب الناس مامعهم من ذهب ومقتنيات وتمضي ، لكن الرب لم يطل محنة المسيحيين وآلامهم ، فارتحلت تلك الملعونة مع ابنها وكان ذلك في ليلة الأربعاء العاشر من كانون الأول ١٤٣٦ لليونان (١١٢٥ م) ، وفي ذلك اليوم تساقطت نجوم من السماء ، و عندما دخل الأمير غازي ملطية ارتاع لما رأى الناس كأنهم خارجين من القبور لكثرة ما أصابهم من الجوع وأشفق عليهم ، ومنحهم الحبوب والحنطة ليزرعوها ، كذلك استحضر لهم البقر والاغنام والثيران ليعتاشوا منها وانتعشت أحوال السكان وعادت فازدهرت المدينة.

ذكر البطريرك ميخائيل السرياني : أن الخليفة المستظهر توفي هـذا العام وخلفه المسترشد ابنه ، ولعله أخطأ في روايته بسبب الاختلاف بين السنين العربية القمرية والسنين اليونانية الشمية .

في سنة ١٤٣٧ يونانية (١١٢٦ م) قتل الأفرنج صاحب حماة في كفرطاب ، واحتلوا جبله وضيقوا الخناق على صور بوساطة مراكب الفرنج القادمين من مدينة البندقية ، أضف إلى ذلك فقد أتى ملك بيت المقدس لمساندتهم فاستطاعوا أن يحتلوا صور بعد معارك طاحنة .

وفي هذا الوقت حشد الملك عرب جيشا وهاجم أخاه مسعود سلطان قونية لتحالفه مع ابن دانشمند فهرب السلطان مسعود إلى ملك اليونان يوحنا في القسطنطينية ، فرحب به يوحنا وزوده بجيش كبير ، ومال وذهب وقصد غازي ، ثم سار الجيشان إلى عرب ، وحدثت معركة انهزم فيها عرب وهرب إلى بلد قورس الأرمني أمير قيليقية ، وفي عام ١٤٣٧ لليونان (١١٢٦ م) هجم على أق سنقر البرسقي أمير الموصل عشرة من الاسماعيلية وطعنوه وهو يصلي في مسجد الموصل القديم لكنه نهض وتمكن من قتل ثلاثة منهم قبل أن يموت ، وخلفه ابنه عز الدين مسعود على الموصل وجزيرة قردو والجزيرة وحلب وحماة وغيرها ودامت ولايته سنة واحدة ثم توفي ، فخلفه أخوه الصغير ، وكان يساعده الأمير جاولي ، وكان من غلمان أبيه البرسقي ، وبعد ذلك أرسل جاولي قاضي الموصل أبا الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين الياغسياني بمثابة رسولين إلى السلطان في بغداد ليؤيد ابن البرسقي الصغير في الولاية،غير أنهما قالا للسلطان : إن الموصل تحتاج إلى رجل قوي يستطيع مقارعة الأفرنج الذين هزموا العرب جميعا.

وقصدا بالقول : أتابك زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر ، الذي كان شحنه في واسط وبغداد فوافق السلطان وحمله فرمانا بذلك وأرسله إلى تلك المدينة ، وحين مروره في بيت وازيق احتلها ، وعند بلوغه الموصل ولى صلاح الدين الياغسياني أمر حراسة القلعة .

وأرسل جاولي إلى الرحبة،وكلف ابـن شـهرزوري قـاضيا على الموصل وماتلاها يرثه في القضاء نسله من بعده على طول الزمـن . وتولى زنكي كذلك الجزيرة واربيل وسنجار والرحبة وحلب وحماة وحمص ، وانهزم عرب ولحق به غازي واستولى على خيامـه ، ثـم انطلق إلى قومانة وأنقرة وحاصرها شـديدا في عام ١٤٣٨ يونانية (١١٢٧ م) واحتلها واستطاع أن ينقذ محمـد ابنه الذي كان قـد حبسه عرب هناك . ثم حشد عرب جيشا للمرة الثانية وزحـف يريد غازي فانكسر وفر هاربا إلى بلاد اليونان ، ثم ضاعت أخبـاره ولم نعد نسمع عنه شيئا . ثم أتى من رومية بـوهيموند بـن بـوهيموند الفرنجي إلى أنطاكية عام ١٤٣٨ يونانية وتولى مقاليد الأمور فيها، ثم نشب خلاف بين الفرنج فغزا جوسلين ضـواحي أنطـاكية ممـا سبب غضـب بـطريركهم عليه ، وأغلق الكنائس وأمـر بإيقـاف الصلوات وقرع النواقيس حتى يرد جوسلين جميع الغنائم .

وفي عام ١٤٣٩ لليونان (١١٢٨ م) صمم الحلبيون أن يدفعوا لجوسلين كل عام إثني عشر ألف دينار شرط أن لايضـيق عليهـم ، واتفق بعض أتراك حلب مع فريق من طباخي الفرنج بـأن يعـطوهم ذهبا مقابل أن يسقوا جوسلين وستة من فرسانه سما مما أدى إلى القضاء على حياة الستة إلا جوسلين فقد تمكن الأطباء من معالجته حتى شفي وبعدها قضى على الذين سقوه السـم وفتـك بعـائلاتهم وأولادهم جميعا.

في تلك السـنة غزا طغـرل أرسـلان أطـرا ف ملطية الخارجية وكانت قد انتزعت مـن يده . لكن بعـد ذلك عاد أدراجـه وضاعت أخباره ولم نعد نسـمع عنه شـيئا ، ثـم غزا جـوسلين التركمان والأكراد عام ١٤٤٠ لليونان ووصل إلى آمد ، وفي السـنة نفسها علم زنكي أن السلطان يريد أن ينصب دبيس زعيم المعـديين أميرا عوضا عنه في الموصل،فذهب زنكي إلى بغداد وأخذ يتـودد إلى السلطان و قدم له مائة ألف دينار وكذلك قدم للخليفـة هـدايا ثمينة جدا ليبقيه في مكانه ، وكانت قد جرت بين الخليفة ودبيس خـلافات

كثيرة ووقائع كبيرة ، فقد انضم دبيس إلى السلطان منذ البداية ، وأخذ بازدراء الخليفة فتسرع يركب إلى بغداد مطمئنا محتقرا الخليفة ، كذلك ولما مرض السلطان مزق دبيس ابنه الصغير وانهزم ، ثم توجه وغزا الكوفة والبصرة والحلة ، وجمع ذهبا كثيرا وضم إليه عشرة آلاف فارس ، ولذلك كون جيشا خاصا به ، وهناك أمثلة كثيرة على مكر دبيس لايسع هذا المؤلف السرد فيها ، وقيل إنه خلال عراك جرى بين الخليفة ودبيس انكسر دبيس مع أصحابه إلا أنه استطاع أن ينجو على حصانه وعبر الفرات،فرأته عجوز وقالت له : هل حضرت يادبير ؟ أعني ياتاعس الحظ ، وما كان منه إلا أن تبسم ، ولم يصرخ في وجهها وقال لها : إن التاعس الحظ هو من يتغيب ولايحضر.

وفي هذه السنة اندلعت حرب طاحنة بين الفرنج والاسماعيلية فاجتاح عشرة آلاف من الفرنج الحصون الكثيرة التي كانت بيد الاسماعيلية في فينيقية .

وأصبحت قلوب عرب سورية مليئة بالرعب من الفرنج الذين سيطروا على جميع البلاد من ماردين وشبكتان حتى عريش مصر. واستخدموا سياسته التضييق على دمشق وارغموا الأهالي على دفع جزية في السنة قدرها عشرين الف دينار ، ثم احصوا كل ماني دمشق من العبيد النصارى ونقلوا كل من رفض الاقامة مع العرب دون أن يعطوا أثمانهم لمواليهم ، وكانوا يأخذون نصف الغلات من حلب حتى من الرحى التي على باب الجنان ، ووصلت جيوش الفرنج الى نصيبين ورأس العين،وصارت حياة أهالي الرقة وحران شاقة للغاية، وأصبح من الصعب على العرب السفر من المشرق الى دمشق الا عن طريق البادية .

وفي عام ١٤٤١ لليونان (١١٣٠م) تولى لاون أمر قيليقية بعد وفاة أخوه تورس ، وزاحمه بوهيموند صاحب انطاكية ، وفي هذه

السنة عينها وهي ٥٢٤ هـ ، في الثامن من آذار حدث زلزال قوي وعنيف في بغداد فهدم كثيرا من المساكن والبيوت كذلك غطت الموصل سحابة كثيفة ، وهطل مطر غزير ، ثم بدأت تتساقط جمرات نارية هائلة من السماء ، فأحرقت وخربت بيوتا كثيرة مع أثاثها ومحتوياتها .

وفي هذا العام توجه الزعيم اليوناني قسيانس يريد غازي بن دانشمند فسلمه كثيرا من الحصون في بلاد البنطس ، وتولى كبدوكية بأجمعها ، ثم حشد غازي جيوشا كبيرة وزحف لغزو قيليقية ، وصدف أن دخلها بوهيموند أمير انطاكية من ناحية أخرى دون أن يعلم أحدهما بالآخر،وأمام هذا حدثت معركة طاحنة بين الأتراك والأفرنج ، بينما ظل لاون الأرمني قابعا ينتظر نتيجة صراع الخصمين ، وكانت نتيجة المعركة أن انتصر الاتراك وقتلوا بوهيموند ، دون أن يعرفوا أنه الملك ، وللحال تحرك لاون فسد الثغور في وجه الأتراك ، وهاجمهم وقتل كثيرا منهم .

وفي عام ٥٢٥ هـ (١١٣٠) م هاجم صاحب دمشق دبيس المعدي واسره ، وأرسله الى زنكي أمير الموصل ، فقام زنكي بالمقابل بإرسال ابن دبيس الذي كان أسيرا لديه .

وفي عام ١٤٤٢ لليونان (١١٣١ م) قدم ملك بيت المقدس الى أنطاكية ، وكذلك اتاها جوسلين من الرها ، فما كان من الأنطاكيين الا ان اغلقوا الأبواب في وجههما حتى أبرما قسما أن تبقى مدينة أنطاكية لابنة بوهيموند حتى تكبر وتتزوج فيصبح زوجها خلفا لوالدها .

ثم استطاع غازي بن دانشمند أن يدخل قيليقية ويستولي على بعض الحصون ، عندئذ أقسم له لاون الأرمني أن يمنع لصوصه من الاغارة والسطو على بلده ، وكذلك أن يؤدي له الجزية كل سنة لكنه أخلف في قسمه ثانية ، ولم يدفع شيئا ، ثم توجه اسحق أخو ملك

اليونان الى قيليقية وزف ابنته الى لاون وأعطـاه المصـيصة واذنه عوضا عن مهرهـا ، لكن مالبث أن نشب خلاف بينهما فهرب اسحق وابنه الى بلد سلطان قونية .

وفي هذه السنة توفي جـوسلين ؛ وخلفـه على الرهـا جـوسلين الثاني ، وكذلك رحل السلطان يريد الصلح ، فشرع يستعطفه حتـى حمل له السرج ، عندئذ تعانقا فولاه شؤون البلاد والعسـاكر ، ثـم توجه الى همذان وتـوفي هناك عن عمـر يقـارب الثـامنة والعشرين ، فحدث خلاف بين داود ابـن السـلطان محمـود وبين مسعود وسلجوق شاه وطغرك ، وكان طغرك مع عمهم الملك سـنجر فأرسل الثـلاثة الى الخليفـة كل منهـم يطلب ان يكون هـو السلطان ، فاختار الخليفـة في البـداية سـنجر لأن طغـرل كان معه ، وأرسل يقول للبقية من يقبل به ويقدم له كتاب الطاعة فسوف استقبله أنا ، ثم كتب الى سنجر يقـول : أننا لن نقبـل بغيرك ولن نسمح لأحد غيرك ، وحين وصلت الى مسعود رسالة الخليفة توجه الى زنكي في الموصل يطلب منه مالا ليبعثه للخليفـة مـع دبيس زعيم المعديين، وبذلك يكون قد اسدى جميلا له،فوافق زنكي وقال : أعطيك خمسين ألف دينار ذهبا ، وكل ماتريد من جوار وخيل ، لكنه رفض ان يسلم دبيس قائلا : ان السـلطان سـنجر نهـاني عن ذلك وأنا لاأستطيع مخالفته ، فخامر الشك مسـعود وخـرج فسـكن غربـي الموصل ، فأغلق زنكي أبواب المدينة لكن الناس لم يعودوا يستطيعوا العيش ضمن هذا الحصار خاصة بعد أن تحصن هو في القلعة ، أما مسعود فقد ذهب الى بغداد ولم يهاجم الموصل وأرسل الى الخليفـة يقول : ان خطبتم بـاسمي فسـأكون لكم طـائعا وصـديقا ، وان رفضتم ذلك فليس لكم عندي الا السيف ، فـاشتبك للحـال عسـكر بغداد مع عسكر مسعود ، وفي معمعان المعركة وصلت أخبـار بـأن سنجر قادم الى بغداد في جيوش ضخمة ، فانتشر الرعب في نفوسهم وفي نفوس البغداديين ، ورأى الخليفة بـأن مسـعود أقـوى مـن سنجر ، فتحالف الخليفـة معـه وأسـكنه في القصر الملكي واتفـق

الجميع على محاربة سنجر ، فتوجه سنجر الى همذان واحتلها ونادى باسم طغرل بن محمود .

وفي عام ٥٢٦ هـ (١١٣١م) توجه كذلك مسعود قائد جيوش الخليفة الى همذان مطاردا سنجر وبعث الى الخليفة ليشارك في المعركة بنفسه ، ومان استعد الخليفة للرحيل حتى وصل خبر أن زنكي ودبيس المعدي قد اتفقا أن يذهبا الى بغداد فرجع الخليفة وتصدى لهما في ألفي رجل ، وهزمهما ففر زنكي الى تكريت ودبيس الى الفرات ، وماكان من زنكي الا أن بعث بالقاضي ابن الشهرزوري الى الخليفة طالبا منه المغفرة وينتظر أمره ليذهب اليه ويتولى بغداد قبل سنجر ، فرد عليه الخليفة قائلا : إن سنجر ليس له سلطنة عندنا ، واذا أراد زنكي ان يصالحنا فعليه ان يسلمنا دبيس ويبقى هو في الموصل ، والا فنحن زاحفون اليه .

وفي بداية سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٣م) دخل السلطان مسعود الى بغداد فنودي باسمه واسم سنجر واسم داود معا سلاطين بعد الخليفة وابنه ، ثم زحف الخليفة المسترشد وحاصر الموصل ثمانين يوما ، فأبت عليه فبلغه خبر بأن السلطان مسعود قادم اليه ، فترك الموصل وفر هاربا الى بغداد ، واحتل جوسلين الثاني قلعة شبكتان وهدمها الى الأرض ، وتوجه يوحنا ملك اليونان واحتل حصن قسطمونة منتزعا اياه من الأتراك صلحا ، ثم أنه احتل حصنين أخرين عنوة ، كذلك ملك بيت المقدس الفرنجي قلعة القصير قرب انطاكية بالقوة ، وزحف الى عم (٤) ، فاحتشد الاتراك هناك بالآلاف كالجراد ليقاتلوا الفرنج ، وفي البداية انهزم الفرنج لكنهم استدرجوا الأتراك الى البقاع وهناك التقى الجيشان وحدثت معركة تلقى فيها الأتراك ضربة قاضية حتى المساء ، وكان هذا عام ١٤٤٥ لليونان (١١٣٤)م ، وفي تلك السنة زحف على الرها الجراد فاستنجد المسيحيون بالصفي برصوم (٥) فأحضروا صندوق رفاته ، فارتحل الجراد عنهم ولم يؤذ البلد مما ادى الى سخط الروم فحرضوا بيبوس مطران الفرنج أن يأمر بفتح صندوق رفاته ، لكن

الرهبان رفضوا طلب مطران الفرنج أول الأمر،إلا أنهم رضـخوا في النهاية واضطروا أن يفتحوه في بيعة الفرنج لأن الفرنج سخروا منهم وقالوا: إن هذا الصندوق فارغ ولايحتوي شيئا ، وعند فتحه حـدثت تبدلات في الجو فتلبدت السماء بغيوم سوداء ، وسقط برد قتال مـلأ الشوارع فتصاعدت الأصوات من كل جهة تـطلب النجـدة وتقـول ارحمنا يا صـــفي الله ، امـــا اليونان فقـــد انهزموا،وبعد أن انقطع البرد اجتمع الأهالي ودامت صلاتهم ثـلاثة أيام ، وحين شاهد العرب الحرانيون هذه الأعجوبة طـالبوا بنقـل الرفاة ليكون في عهدتهم ، لكن الفرنج رفضوا وروده الى الدير بـكل احترام وتقدير ، ثم نقله الملطيون اليهم بالصلوات والتراتيل ، أمـا الجـــراد فلم يســتطع أن يأكل الزرع ، وكأن يدا قـــد لجمـت فمه ، وفي ٢٣ ايلول سقطت صاعقه من السـماء فـاحرقت سـبعة ثيران وولدا ، كذلك احرقت صبيا آخـر في سـمندو ،وحـدثت زلزلة عنيفه في ملطيه وسقط ثلج أحمر،وبعدها في عام ١٤٤٦ لليونان زفت بنت بوهيموند صاحب أنطاكية الى ريموند دي فوترس الذي قدم من أنطاكية وتولى أمارتها،وفي السنة نفسها توفي بلدوين الثاني ملك بيت المقدس ، وزفت ابنته الى فلك ، فخلفه في مكانه ، وأيضا أرسـل في هذا العام زنكي صاحب الموصل ابنه الى بغـداد وأعطـاه مفــاتيح المدينة وبعض نسائه كودائع ، وأقسم أن يكون طائعا ، فنال بـذلك الرضى ، وبعدها اصطلح الخليفة والسلطان سنجر ، فبعث الخليفة له تاجا وطوقا وحصانا بنعلين ذهبيين،فما كان مـن سـنجر إلا أن نهض وقبل حوافر الحصان ، وقدم الطاعة للخليفة وفي السنة عينها خرج ابن جبـارا جـاثليق النسـاطرة (١١٣٣ ــ ١١٣٥ م) الى الحديقة اثناء الليل فوطىء على حيه لدغته فمـات ، وقيل أنه مـات رعبا وأن الحية لم تلدغه ، وفي السنة ذاتها أطلق الخليفة على الأمير غازي بن دانشمند اسم الملك غازي حيث ارسل له طوقا ذهبيا للدلالة على العبودية ، وصولجانا وأربعـه بنود سـوداء وطبـــولا تـــدق أمامه ، وحين وصول السفراء كان الملك غازي مريضا وما لبـث أن توفي،فعينوا ابنه محمدا خليفة له ورجعوا.

الأحداث التى جرت في عهد محمد بـــن الأمير غازي ابن دانشمند

وفي عهد محمد هذا قامت أحداث كثيرة حيث أعاد بناء قيســاريه كبدوكيه التي كانت قد تهدمت وجعلها عاصـــمة له ، ثــم تــوجه الى ملطيه حيث كان خائفا من اتفاق الزعماء مع أخيه بياجان فحمل معه الهدايا لكنه ما لبث أن غدر بأخيه وقتله،كذلك غزا أخوه الثاني دولت بلدة ملطيه ، وحدث في الشهر السابع أن ألغى الخليفــة المســترشد الخطبة باسم السلطان مسعود ، وأرسل جيشا يتألف مــن ســبعة آلاف جندي لمقاتلته ، وكان قد بلغه أن جيش السلطان يتــألف مــن الف وخمسمائة عسكري فقط ، لكن ما لبث أن أصبح جيش الخليفه خمســة آلاف عســكري ، وغدا جيش الســـلطان خمســـة عشر الفا ، فانهزم الخليفه واعتقل هو ذاته ونهب ما كان معه من أعتــدة ومتاع وثروات ، لقد نهب منه ســـبعون حمـــل بغـــل ذهبــــا وفضه ، وخمسة آلاف حمل جمل وأربعمائه حمل بغل أقمشة وثيابا مفصله ومخاطه وغير ذلك،وأمر بعد ذلك مسعود المنادي أن ينادي في صفوف الجيش بأن الأموال والأمتعة لكم والدماء لي ، وأن من قتل رجلا قتلت عوضا عنه ولذلك لم يقتــل ســوى خمســة اشـــخاص فقط ، كذلك نادى المنادي أن من يبقــى هنا مــن حــزب الخليفــة يقتل ، فما كان من البغداديين إلا أن فروا وهربوا عراة حفــاة هنا وهناك ، وأرغم السلطان مسعود الخليفه بأن يكتب كتابا يقــول فيه للبغداديين بأنه في أمان وأنه ســوف يعــود اليهــم قـــريبا ، لكن البغداديين لم يصدقوا وأيقنوا أن الخليفة كتب هذا خوفا ، فما كان منهم إلا أن ثاروا وأثناء ذلك قتل نحو مائه وخمسين من العامة،ثــم هدأت فورة غضبهم تلقائيا .

وفي هذه الأحداث أخذت الزلازل تهز أرض بغداد تكرارا وكل يوم خمس أو ست مرات ، فأرسل السلطان سنجر الى السلطان مسعود

سفيرا يحمل رسالتين الأولى سريه مضمونها كان سبا وشـتما لأنه لم يقتل الخليفه أثناء المعركة ، أما الثانية مفتوحه وتقـول اذا رأيت هذه السطور يا بني غياث الدنيا والدين مسـعود فـاذهب الى أمير المؤمنين وقبل الأرض أمامه ، واطلب منه المغفره على ذنبك ، وأنا لا يسعني الصبر على ما تراه عيني مما يحدثه الله سـبحانه وتعـالى بسبب ذلك من رياح وصواعق وبروق وغير ذلك ، وقد حزن العـرب قاطبه وأغلقت المسـاجد والغيت الصـلوات في بـلاد العجـم وشنعار ، فأرجع الخليفه الى ما كان عليه والى مكانه بـاكرام دون تعلل ، وسلمه دبيس ليفعل بـه مـا يشـاء لأنه سـبب كل تلك الفتن ، ولما رأى مسعود ذلك أصـدر أمـرا فنصـبوا خيامـا كبرى ، وأقاموا الخليفه هناك وحملوا أمامه الأغطيه نحـو نصـف فرسخ ثم جاء به مسعود الى خيمته الملكية الكبرى ، وطلب المغفـرة منه على ذنبه ، واعطاه دبيس مربوطا ، وقدم معه سيفـ وكفن قائلا إن هذا سبب كل المصائب فافعل بـه مـا شـئت عقـابا على جرائمه ، لكن الخليفة أدرك أن هذه الكلمات نابعة من الفـم لا مـن القلب ، فعفا عن دبيس ، فأمر السلطان مسعود الخليفة بأن يذهـب إلى بغداد ، لكن الخليفـة رفض وقـال له : لن أذهـب إن لم تـأت معي ، فقال مسعود : سأرسل معك امراء يحيطون بك فتدخل بـكل احترام واجلال الى دارك ، لكن الخليفه خاف أن يضعوا له كمينا في الطريق ويتخلصوا منه إذ لايسعهم أن يصنعوا هـذا علانية بإمـام دينهم ، وقدر مسعود أن يتـوجه الى اذربيجـان ليقـاتل ابـن اخيه داود ، وذهب معه الخليفة ، لكن سنجر بعث وفودا الى مسعود الى مراغه وهو عند بابها ، وبعـث له بـأن يرد الخليفـه الى بغـداد بسرعه ، وكان من جملة هـذه الوفـود سـبعة عشر مـن الاسماعيليه ، وفي يوم الخميس عام ٥٢٩ هـ (١٣٣٤ م) هـاجم الاسماعيلية خيمه الخليفه ، وكان يقـرأ في القـرآن واجهـزوا عليه وعلى ثلاثة من خدمه بالسكاكين ، فما كان من مسعود إلا أن أحاط بالخيام وفتك بالقتله ، وقيل في هذه الواقعه إن سـنجر لم يكن لديه علم بالاسماعيلية ، لكن الحقيقة هو الذي أرسلهم دون علم مسعود.

الخليفة الراشد

كانت مدة حكمه سنة فقــــط ، فبعــــد مقتـــل أبيه الخليفـــه المسترشد ، أمر السلطان سنجر قضاة بغداد واقطابها أن يبـــايعوه بالخلافه مكان ابيه ، فأنصاعوا للأمر.

مقتل دبيس بن صدقة

في هذا الوقت تآمـــر دبيس بـــن صـــدقة وغدر بـــالسلطان مسعود ، حيث كتب الى زنكي قائلا : انني أتلهف لآتي اليك وأحشد جيشا ضخما من المعديين عدد بعدد رمال شاطيء البحر ، ثم نتحـد سويا ونعمل ضد مسعود عملا تذكره الأجيال القادمه ، وقد شـــاءت الاقدار أن يعتقل الرسول حامل الرســالة ، فـوقعت الرســالة بيد مسعود دون أن يعلم دبيس بذلك.

ولما اجتمع الاقطاب مع مسعود ، سقاهم كعادته ماء السكر ، ثم أشار على دبيس أن يبقى بعد ذهاب الجماعه قائلا : هناك موضوع خاص وسري أريد أن نتحادث فيه ، فــذهب مســعود الى الخيمــة الداخلية وأعطى الرساله الى عبد أرمني يحمل سيفا قائلا :أعطهـــا لدبيس ، وعندما يبدأ بقراءتها اضربه من ورائه وأقطع رأسه ، فلما ذهب العبد شاهد دبيس يضرب الأرض باصبعه ويقـول : إن الموت خير من حياة بهذه الحـــالة مـــن الاضـــطراب ، فــــأعطاه الرسالة ، وعندما بدأ يقرأها ، فاجأه العبد بضربة فلقت رأســه عن هامته ، وهكذا انتهت حياة هذا المراوغ ، وقــد تــم قتله بعــد مضي خمسة وثلاثين يوما على قتل خصمه الخليفة المسترشد.

نهاية ميخائيل الأرمني

في السنة ١٤٤٧ يونانية (١١٣٦ م) و ٥٣٠ هـ نكث ميخائيل الأرمني بوعده للفرنج ، فقد كان قد باعهم منذ أيام بلك قلعة جرجر ، لكنه عاد الآن وشرع يغزو مناطقهم ، فأدركه الأتراك يوما على ساحل الفرات عند قرية كور زيزونا ، فحاصروه من جميع الجهات ، ولم يستطع الخلاص فألقى بنفسه في النهر ، وكان يلبس درعا حديديا ، فغرق في الماء ، لكنه ما لبث أن عاد فطفا وهرب الى الضفه الثانية ، واستطاع أن يفلت من الأتراك ، وقيل انه لم يلق من يده المجن أثناء ذلك ، بعد هذا تخلى لجوسلين الثاني عن مدينة جرجر ، وأخذ عوضا عنها مكانا يسمى سفرس ، ثم قام باسيل أخو جاثليق الأرمن فاشتراها من جوسلين ، لكن ميخائيل عاد فحشد عسكره وزحف إلى كيسوم ونهب ضواحيها ، فنصب الفرنج له كمينا فأسروه وقتلوه ، وبعد ذلك توجه باسيل إلى قيليقية فتزوج اخت لاون ، ثم جمع عددا من الأرمن وأسرع يتحرش بالفرنج في منطقة فرزمان ، لكنه لم يستطع أن يحقق شيئا ، بل بالعكس قتل العديد من جماعته .

وفي كانون الثاني من هذه السنة اجتاحت آمد موجة من البرد القارس فالتجأت إلى المدن الطيور الجبلية كالحجل وغيره ، وكذلك حيوانات البراري كالغزال ، فأصدر الحاكم أمرا أن لايتعرض لها أحد من الأهالي ، فأخذوا يقدمون لها الطعام حتى حلول شهر نيسان ، ثم أطلقوها ، وقد قيل إن هذه الطيور والحيوانات شرعت منذ بداية الخريف تلتجيء إلى الكهوف والمغاور وكأنها شعرت مسبقا بقدوم البرد مما يدل أن الله تعالى قد علم الحيوانات التنبؤ بالحوادث الطبيعية قبل وقوعها .

نهاية الخليفة الراشد بالله

وفي هذا العام أرسل السلطان مسعود إلى الخليفة الراشد رسولا يطالبه بمبلغ قدره ثلاثمائة ألف دينار كان قد سلف ووعده بها والده المسترشد يوم كان عنده ، وثلاثمائة ألف دينار غيرها يجب أن يجبيها من البغداديين مساعدة له ويضم إليها حقوق الخلافة الجديدة كالعادة .

فتنادى الخليفة للاجتماع بمستشاريه وبعد تداول طويل قرروا أن يجهز الخليفة جيشا ويتوجه لمحاربة مسعود ، ففتح الخليفة خزائنه واستخدم مافيها من الذهب وشرع في تجهيز الجيش ، ثم استدعى الرسول وعنفه قائلا : كان وعد أبي بالذهب لأجل نجاته ، لكنكم قتلتموه ، وأما الآن فيتوجب علي الانتقام ، ومن الآن فصاعدا ليس لكم عندي إلا السيف ، فرجع الرسول مسرعا ، وبدأ الخليفة في بناء الأسوار ، وترميم الأبراج ، وعندما انتشر الخبر بدأت النجدات تأتي إلى الخليفة ، فأقبل زنكي أمير الموصل ، وداود ابن أخي السلطان مسعود .

وحاول الخليفة أن يلغي الخطبة باسم السلطان مسعود وأن يخطب باسم داود ، لكن زنكي رفض ذلك وقال : لاتتحرشوا بمسعود ، بل قولوا لداود أن يذهب ويستشر عمه فإن وافق خطبنا باسمه ، لكن الخليفة رفض اقتراح زنكي ، وألغى الخطبة باسم مسعود ، وخطب باسم داود سلطانا ، فبادره مسعود بالقول : لقد أصبحنا بغنى عنك وقد أقمنا خليفة موافقا لنا من سلالة علي ، فابحث لك عن مكان آخر وارحل إلى حيث شئت ، فأرسل الخليفة إلى بهروز أمير تكريت قائلا إنني قادم إليك لأتحصن في قلعتك ، فأجابه بهروز : أنا عبد مسعود ولا أستطيع أن أقول له لا إذا طلبك مني ، حينئذ لم يعد أمام الخليفة سوى محاربة مسعود ، فنصب

خيامه عند مشارف بغداد ، وأبقى عنده زنكي وبقية الاقـطاب ، لكن سرعان ما ورد خبر يقول : إن مسعود قادم في جيوش كثيرة ، عندئذ قال زنكي لمستشاري الخليفة واقـطابه : هـذا مـاجرى بسـبب مشورتكم فلم يستفد لاهو ولا انتم شـيئا ، قـولوا الآن هـل انتـم مستعدون لمحاربة مسعود ؟ أريد أن أعرف وإلا فليعـد كل منا مـن حيث أتى ،ولنكف عن هـذه الحـرب ، وليكتـف كل منا بمـا لديه ، وعندئذ شرع كل واحـد يحملق في وجـه زميله ، فتحقـق زنكي مـن خداعهم وأخبر الخليفة بذلك ، ثم تـركهم زنكي وعاد إلى الموصـل ، فنهضوا جميعا ودخلوا المدينة ، ونصبوا خيامهم داخـل سـورها ، ورأى الخليفة أن يذهب بصحبة زنكي إلى الموصل ، فدخل مسـعود بغداد وأحسن إلى أهلها ، وصان بيوتها من أي ابتزاز أو نهب ، ثم جمع الأقطاب ، وعرض عليهم كتابا مكتوبا بخط الراشد يقول فيه : يوم أحشد الجيوش لمحاربة أمير من أمراء السلطان مسعود أصـبح مخلوعا من الخلافة ، وكان موجودا بين الحاضرين ثلاثة شهود ممن وقعوا على تلك الوثيقة ، لذلك خلعوا الخليفـة الراشـد شرعا ، ثـم بدأوا يذيعون التهم ضده ، وكان من جملة ماقالوه ، إنه خرق حـرمة جواري أبيه ، وعاقر الخمرة ، وأعرض عن الصلوات وسفك دمـاء بريئة ، وتمادى في الظلم الخ .

أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله

دام حكمه أربعا وعشرين سنة وشهرين،فبعد أن تم خلع الراشـد استدعى السلطان الوزير شرف الدين الزينبي وأمره أن يعمـل على اختيار خليفة جديد ، فاختار المقتفي ، وهم عم الخليفـة المعـزول ، وقد اختاره الوزير لانه صهره ، أي زوج ابنته ، وأحضر المقتفي إلى بلاط السلطان مسعود وثبتوا خـلافته بعـدما تعهـد أن يدفـع إلى السـلطان مـائة وعشرين ألف دينار ، وكانت خـزانة الخليفـة عند مبايعته فارغة تماما ، لكن كان المقتفي يملك شخصيا قبـل خـلافته عشرة آلاف دينار غير أنه أنفقها كلها في حفلة مبايعته ، وقـد ألغيت بعد استلام المقتفي الخطبة للراشد وللسلطان داود معـا ، وصـارت

للمقتفي وللسلطان مسعود ، وقيل إن السلطان مسعود حين غادر البلاط استدعى الوزير الزينبي وقال له معاتبا :

لقد أسأت بانتخابك رجلا كامل السن عاقلا ، فلو انتخبت فتى وربيته لبقي ينظر إليك نظرة امتنان وشكر ، بالتالي سيصبح أمر الخلافة وسياستها بيدك فترة طويلة ريثما يبلغ الرشد ، والآن كن على ثقة أن عهد وزارتك لن يطول مع من اصطفيته وسترى حقيقة ذلك .

وفي عام ٥٣١ للعرب (١١٣٦ م) أرسل ابن دانشمند صاحب ملطية رسولا إلى السلطان مسعود في بغداد متوسلا ليعيده إلى منصبه ، ولما رافقوا الرسول ليقبل الأعتاب كالعادة رفض قائلا ، لن اقبل أعتاب دار طرد منها صاحبها .

بين زنكي والخليفة المقتفي

في هذه الفترة حشد زنكي جيشا ، وزحف إلى تكريت وبدأ يناوش السلطان مسعود،ثم انقلب إلى الموصل فأرسل إليه المقتفي يعده بعشرة مدن مشهورة إذا ماكف عن مساندة الراشد ، فقال زنكي : لقد حلفت أن لاأسلمه إليكم ، ولكن إذا أعطيتموني تلك الأماكن أعلنت الخطبة باسمكم وتوقفت عن مساندته ، إنما سوف أبقيه في عهدتي ، فأعطاه الخليفة عشرة أماكن وكان منها حربي وحاصيره وصاريفين والحلة وغيرها ، وخطب زنكي للمقتفي وللسلطان مسعود وأبقى الراشد عنده قابعا في دار الذهب بمدينة الموصل.

وفي تلك الأثناء كانت عجوز تخدم بيت تاجر قرب باب الأزح ببغداد ، وسافر التاجر لعمل وظلت امرأته وابنته والعجوز برفقتهما في البيت ، فاتفقت هذه العجوز الشمطاء مع ابنها وبعض اللصوص ، فاقبلوا ليلا وسرقوا كل مافي الدار ، ولما خرجوا قالت زوجة التاجر : للعجوز نشكر الله الذي أعمى عيونهم ولم يفتحوا

الصندوق ، فسمع اللصوص فرجعوا وفتحوه فوجدوا فيه اربعة آلاف دينار ، وأحجار كريمة ولآلىء ، فأخذوها وانصرفوا .

وفي هذه السنة اشتبك مسعود وداود فهزم مسعود وقتل العديد من رجاله .

وفي عام ١٤٤٨ يونانية (١١٣٧ م) زحف يوحنا ملك اليونان إلى قليقية غاضبا على لاون الارمني فاستولى على طرسوس واننة والمصيصة وقبض على لاون وعلى زوجته وأولادهما ونفاهم إلى القسطنطينية ، ثم زحف بعد ذلك إلى انطاكية فلم يستطع الاستيلاء عليها ثم أتى إليه جوسلين واتفقا على أن يعطيه الافرنج انطاكية ويجتاح هو حلب وسورية ، ثم يعطيها إلى الافرنج ، ثم زحفا معا إلى حلب واحتلا بزاعا ثم تركا جيشا يحاصر شيزر .

وفي هذا الوقت زحف مسعود سلطان قونية إلى قيليقية فاجتاح اننة وساق أهلها جميعا مع أسقفهم إلى ملطيه ، وعندما علم يوحنا بذلك أحرق المنجنيقات وارتد إلى قيليقيه حيث عقد هدنة مع مسعود ورجع إلى عاصمته .

اما محمود صاحب ملطيه فقد طرد أخاه دولت ونزع منه ولاية ابلستين وجيحان ، وسار دولت الى هنزيط ، ثم الى آمد وزار جوسلين ، ثم اخذ يطوف بالبيوت واحدا واحدا .

وفي هذا الوقت ظهر الأمير عيسى صاحب سويرك (٦) وكان متفاهما مع بوغوص الارمني الذي سار إلى بغداد ودخل في دين الاسلام ، فحشد الجند وانطلق إلى جرجر ليستولي عليها ، لكنه وجدها خرابا فزحف إلى الأديرة والصوامع فانقض على دير مار ابحاي المعروف بدير السلالم (٧) فلم يتمكن من الوصول إليه من ناحية شاطىء الفرات فتسلقوا الجبل الصخري حيث هبط رجاله من هناك،فهرب الرهبان فاستولى على الدير وعلى مافيه من أمتعة وكؤوس واطباق فضية وصلبان ، ونزع قناة الماء التي كان قد

وضعها البطريرك يوحنا بن عبدون (١٠٠٤ – ١٠٣٠ م) ، وارسل ألربان داوود الناسك إلى دير شيرا،ولم ينج من شره سوى دير أبي غالب المعروف بدير مائدة الملوك،الواقع في أحواز مدينة أمد .

وفاة الراشد الخليفة المعزول

وفي عام ٥٣٢ للعرب (١١٣٧ م) انطلق الراشد الخليفة المعزول من الموصل إلى خراسان للاجتماع بالسلطان داود ، فاتفق الاثنان ثم زحفا بجيشهما إلى همذان وانتزعاها من سيطرة السلطان مسعود ، ثم توجه الراشد بعد ذلك إلى أصفهان لكن سرعان ماالم به داء ألزمه فراشه ، وانقض عليه وهو طريح الفراش أربعة خراسانيين وقتلوه ، وقد قيل لولم يقتله هؤلاء الخراسانيون لعاجلته المنية بسبب الداء الذي أصابه ، وقد قيل إنه سقي السم ثلاث مرات ، وقد دفن بباب أصفهان حيث صرع ، وكان والده قد قتل كذلك عند باب مراغه .

وعندما كان الاتراك يحاصرون الرها ١٤٤٩ يونانية (١١٣٨ م) حشد الفرنج ثلاثمائة فارس وأربعة آلاف راجل وتوجهوا من سميساط لنقل المؤونة إلى الرهاويين ، فكمن لهم تمرتاش صاحب ماردين وقتل العديد من المسيحيين وأسر البقية وساقهم عبيدا ، وكان بين الأسرى الشماس أبو سعد الطبيب الفيلسوف ، وميخائيل ابن شومنا وابنه واستولى تمرتاش كذلك على قلعة كسوس من الفرنج كذلك دخل مسعود سلطان قونية بلد كيسوم وغزاها وأحرق القرى المحيطة بها .

وفي الشهر الثاني من سنة ٥٣٣ للعرب (١١٣٨ م) حدث زلزال عنيف في غزنة ببلاد العجم فقتل مائتين وثلاثين ألف نسمة ، وهدم المدينة برمتها ، ونبعت من أرضها مياه سوداء وخرج الذين نجوا من الكارثة إلى المقابر حيث أقاموا فيها يندبون أهاليهم .

وفي سنة ١٤٥٠ لليونان (١١٣٩ م) زحف الملك محمد صاحب ملطيه إلى قليقية واحتل حصن هاجاي وحصن جينوفرت وسار إلى قاسينوس وهي على ساحل بحر بنطش فغزاها وباع أهلها جميعا عبيدا . وفي السنة التالية انشقت أرض الرقة وابتلعت أربعين فارسا مع خيولهم ، ولم ينج سوى واحد منهم كان يتغوط ، وقد ظل الناس يسمعون أصواتا بشرية وزمجرة خيول في ذلك المكان فترة طويلة.وفي سنة ٥٣٤ هـ (١١٤٠ م) صح ماتوقعه السلطان مسعود عندما قال للوزير شرف الدين إنك أخطأت في اختيار رجل كامل متمرس مثل المقتفي ، لأنه بدأ يتصرف في شؤون السياسة دون استشارة الوزير ، وكان أن انزوى الوزير في بيته ، فأرسل الخليفة في طلبه وكف يده عن ممارسة أعماله ، ثم مالبث أن عزله نهائيا ، وفي تشرين أول من عام ٥٣٥ هـ (١١٤١ م) سار أتراك ملطيه إلى أديرة زوبر وقنايا ونهبوها ، فأقبل الفرنج في أيار بحجة طلب الثأر فوصلوا إلى زبطرة وعرقة لكنهم نهبوا أموال المسيحيين كما كان قد نهبها الأتراك ، ثم زحفوا إلى أبلستين ونهبوا المسيحيين هناك وفتكوا بعدد كبير من الأتراك واعتقلوا أولادهم ونساءهم فغضب الأتراك وزحفوا من هنزيط فصادفوا مطران قليسورا (٨) القديس في جبل أبدهور ، فقبضوا عليه واعتقلوه هو ومن معه ، وحاولوا اغتيالهم،لكن الأفرنج باغتوهم وهزموهم فهربوا تاركين أسراهم مقيدين فأطلقهم الأفرنج .

وزحف يوحنا ملك اليونان إلى نوقيساريه وخيم أمام الأتراك وجها لوجه لكن ظل عسكره وعسكر الأتراك ستة أشهر دون قتال وأخيرا افترقوا دون حرب ، وقد كان الأتراك في ذلك الحين يقتلون بالسيف كل مسيحي يتلفظ باسم ملك اليونان أو الفرنج لأي سبب ، وقد قتلوا عددا كبيرا من الملطيين لهذا السبب .

وفي سنة ٥٣٦ هـ ـ ١١٤١ م أرسل خوارزم شاه إلى ملك الهون ليعد جيشا من الذين لم يعلنوا إسلامهم ـ وكان العرب يسمونهم « كافر ترك » ـ لمحاربة السلطان سنجر قاتل أخيه ،

فتأهب أولئك الهون وكانوا ثلاثمائة ألف ،وقاتلوا مائة الف من أصحاب سنجر عند نهر جيحون وقتلوهم قاطبة ولم ينج من سيوف الهون إلا سنجر وستة من رجاله فقط كما قيل . فهرب الى بلخ ، وقد أسر الهون امرأته وابنة بنته مع أربعة آلاف امرأة ، وهكذا أهلكوا المائة ألف قتلا وسبيا .

موت الملك محمود

وفي سنة ١٤٥٤ يونانية (١١٤٣ م) مات الملك محمود في قيسارية فأوصى بالملكة لابنه ذي النون ، لكن زوجته خاتون استدعت أخاه يعقوب أرسلان واقترنت به وولته سبسطية ، ففر ذو النون الى سينادو وتولى قيسارية ، أما الأخ الآخر دولت فقد اتفق مع يونس صاحب حصن مسارا ، وزحفا معا الى ملطية وحاصراها ، لكنهما لم يستطيعا الاستيلاء عليها ، فغادراها الى عرقة وأرسلت الخاتون ألفي جندي الى ملطية ليحرسوها ويستخرجوا من فيها من الأتراك ويبعدوهم الى سبسطية ، فثارت ثائرة الأتراك وحطموا بالفؤوس باب المدينة وهو باب بوريدية ، وذلك رغما عن الحاكم وهزموا الزاحفين وأرسلوا فأحضروا دولت في اليوم ذاته وسلموه ولاية المدينة ، وعندها زحف مسعود سلطان قونية الى سبسطية وأخضعها ، ثم انقلب الى ملطية فحاصرها في السابع عشر من نيسان ، أما دولت فأخذ ينكل بالمسيحيين ويطالبهم بالأموال لدفع أجرة المحاربين ، لكن بعد ثلاثة أشهر احرق السلطان المنجنيقات وارتحل ، وكان ذلك ليلة عيد الصليب ١٤ - ايلول فاستراح برحيله الأهالي.

وفي أحد أيام نيسان في تلك السنة خرج يوحنا ملك اليونان للصيد فهاجمه خنزير بري وقتله ، وكان قد أوصى بالملكة لابنه الصغير منويل لأن ابنه الكبير كان غائبا ، فتولى منويل الملكة في نيسان

عام ١٤٥٥ يونانية (١١٤٤ م)ولما دخل العاصمة رحب به أخـوه واعترف به ملكا وأيده .

وكذلك مات ملك بيت المقدس الفرنجي أثناء الصيد فقد سقط عن حصانه ومات فخلفه ابنه الصـغير بلدوين الثـالث ، وتـولت امـه الوصاية عليه فأخذت تسوس المملكة بسبب حداثته .

وفي السنة ذاتها مات داود صاحب حضن زياد وخلفه ابنه الصغير قرا أرسلان ، لأن ابنه الكبير « أرسلان طغميش » كان بـالموصل عند زنكي فأراد أن يبعد قرا أرسلان ويقيم مـكانه أخـاه وحليفـه أرسلان طغميش،فاستنجد قرا أرسلان بالسلطان مسعود في قـونية، فأرسل له عشرين ألف فارس لمقاتلة خصمه فهرب الى الموصل ، ثم اقبل السلطان مسعود الى ملطية وحـاصرها ثـلاثة أشـهر دون أن يحقق هدفه ورحل .

انتزاع الرها من الأفرنج

في سنة ١٤٥٦ يونانية (١١٤٤ م) كان جوسلين صاحب الرها في انطاكية ، فـأرسل الحـرانيون الى زنكي أن المدينة خـالية مـن العسكر ، فتوجه زنكي اليها في جيش جرار يوم الثلاثاء ٢٨ تشرين الثاني ، وخيم في ضواحيها عند بـاب السـاعات قـرب كنيسـة المعترفين ، وأقام هذا الجيش سـبعة منجنيقـات ضـخمة وصـعد رهبان الجبل أعلى السور وأخذوا يحـاربون لعـدم وجـود عسـكر فيها ، وكانت النساء يقدمن لهم الحجارة والماء والطعـام ، وحفـر الاتراك نفقا حتى بلغوا السور ، فقـام الرهـاويون بحفـر نفـق مقابل ، وبرزوا لقتالهم وأهلكوا كل من صادفوه في الحفرة ، وعادوا فأقاموا سورا ثانيا مقابل النفق فتحول الأتراك وأخـذوا يحفـرون تحت أبراج السور ، فتخلخلت وشارفت على السقوط فأرسل زنكي الى الرهـاويين يقول : خذوا منا رجلين وابعثوا لنا رجلين ليشاهدوا الأبراج كيف تداعت ، وسلموا المدينة قبل ان تؤخذ بالسيف .

غير ان المطران ببيوس رئيس الفرنج في الرها لم يكترث لمقولة زنكي ، لأنه كان واثقا من مساعدة جوسلين وملك بيت المقدس ، وعند ذلك أضرم الأتراك النيران بالأخشاب تحت الأبراج فسقطت وأخذوا يدخلون في النفق على الرغم من ان ببيوس والاساقفة كانوا على رأس المدافعين عن النفق وقد اشتد فيه القتال حتى امتلأ بجثث القتلى من الأتراك والرهاويين معه ، وتجمهر الرهاويون عند فم النفق ورأى الأتراك أن المحاربين قد تركوا السور فوضعوا السلالم وتسلقوا السور ، وعندما شاهد الرهاويون ذلك انهارت عزائمهم وشرعوا بالالتجاء الى القلعة .

وفي الساعة الثالثة من يوم السبت الثالث من كانون الثاني دخل الأتراك مدينة أبجر خليل السيد المسيح بسيوفهم المسلولة المتعطشه للدماء يقتلون الشيوخ والفتيان والرجال والنساء والكهنة والشمامسة والرهبان والنساك والراهبات والعذارى وحتى الأطفال والرضع،وان القلم ليعجز عن وصف ماحدث ، وان اليراع ليتجمد بين الأصابع ان اراد ان يكتب عن الفظائع ، لقد أصبحت هذه المدينة موطئا للأقدام وربما بسبب آثامنا ، او بسبب كفر الابناء بآبائهم ، والآباء بأبنائهم ، فنسيت الأم رضيعها وفر كل واحد يطلب الخلاص لنفسه الى قمة الجبل .

أما الشيوخ من الكهنة فكانوا يرددون وهم يحملون صناديق الشهداء قول النبي ميخا :اني احتمل غضب الرب لأني أخطأت اليه.(ميخا ٧ : ٩) وأخذوا يبتهلون الى الله حتى اسكتهم السيف التركي ، وشوهدوا بعد ذلك وقد تضرجت ثيابهم بالدماء ، وبقي عدد كبير من النساء مع أولادهن ينتظرن الموت بالسيف والأسر والعبودية ، أما الحراس فقد اقفلوا الأبواب بوجه الجحافل التي لجأت الى القلعة قائلين:لن نفتح الأبواب حتى يتقدم الينا ببيوس ، ولكن ببيوس لم يستطع الخروج مع الأوائل بسبب الازدحام الشديد الذي أهلك العديد وجعل جثثهم تتراكم اكواما عند باب القلعة ، ولما وصل ببيوس اليهم اصيب بسهم أرداه قتيلا .

ولما شاهد زنكي تلك الأهوال أمر بايقاف القتال ، وشوهد المطران باسيليوس عريانا حافيا يجره تركي بالحبل ، وما أن رآه زنكي حتى لمح النعمة التي على وجهه فسأله من أنت ؟ ولما عرف أنه المطران أمر رجاله فألبسوه ثوبا ومضى به الى خيمته ، وأخذ يعنفه ويوبخه لأن الرهاويين لم يشفقوا على انفسهم ، ويسلموه المدينة ، فقال له المطران :إن العناية الربانية شاءت ان تمنحك الغلبة وتذيع مجدك بين الملوك وتتولى علينا نحن الأذلاء لأننا غدرنا ، ولأننا حنثنا بأيماننا فأستحسن زنكي كلامه ، وقال له : قد صدقت فيما قلت ايها المطران ، فانّ الله تعالى والبشر كذلك يكرهون الذين يحافظون على ايمانهم ويثبتون عليه حتى الموت ، وبعد يومين طلب الأمان من التجأ الى القلعة وسلموها ، فقتل الأتراك كل من رأوه من الفرنجة ، وأبقوا على السريان والأرمن ، ان لساننا عاجز عن الاسترسال في شرح تلك الداهية الهائلة ، ولأرميا النبي ونظرائه أن يفيضوا في المراثي ويستدعوا النائحات النادبات ليفعلن مثلهم ويندبن الشعب الجدير بالعطف والشفقة .

وقد التهمت النيران يوم فتح الرها دير القراريط ببلدة خرشنة واتلفت حجره جميعا ، وقضت على شيخ راهب ، ونجا سائر الرهبان ، واحترقت في اليوم ذاته قرية ببلدة مرعش ، وسقطت نار على دير مار برصوم واتلفت ثلاث غرف الى ان تم اطفاؤها ، وقد نظم في مأساة الرها هذه ديونيسيوس بن الصليبي قصيدتين ، وباسيليوس مطرانها ثلاث قصائد ، كلها على وزن قصيدة مار يعقوب .

وبعد أن احتل زنكي الرها سار الى البيرة وهي قلعةٌ حصينة للأفرنج تطل على الفرات ، وحاصرها حصارا شديدا،لكن خبرا أتاه ان فتنة وقعت في الموصل ، وأن نائبه نصير الدين قتل ، فترك البيرة وعاد الى بلده ، أما الفرنج فقد خافوا من عودة زنكي فكتبوا الى

حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وسلموه اياها .

وخاف ايلغازي أن يزحف زنكي الى بلاده ويحتل قلاعه وسائر ولايته ، فقوض قلاعا كثيرة منها قلعة حور عبار ،وقلعة تلبسمة (٩) وقلعة تل شيخ ، وقلعة المراة التي بجانب دير مار حناينا ، وبقي تمرتاش يحاصر قلعة الهتاخ (١٠) سنة واربعة أشهر حتى انتزعها من صاحبها الكردي ، وهادنه ودفع له كمية من الذهب وترك له بعض القرى .

وفي هذا الوقت خرج ارسلان طغميش بن داود صاحب حصن زياد من عند زنكي ، وسار الى بلد تل ارسانيوس (١١) وطلب الى أصحابه أن يسلموه اياه فرفضوا لأن اولادهم كانوا رهائن في حصن زياد ، فحارب البلد واحتله واستعبد اهاليه وعددهم خمسة عشر الفا مع اسقفهم طيمثاوس وباعهم .

وفي سنة ٥٤٠ هـ (١١٤ م) دفع زنكي جنودا الى قلعة فنك المجاورة لجزيرة قردو(أو ابن عمر) وهي قلعة حصينة تطل على دجلة ، احتلها الاكراد البشنويون منذ ثلاثمائة عام.

مقتل زنكي

وفي سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) اصلح زنكي الأوضاع في الموصل على أثر مقتل نائبه نصير الدولة ، واقبل الى حلب وحشد الجنود ، وزحف الى قلعة جعبر ، وفي احد الأيام بينما كان جالسا في خيمته احضر اليه الصناع طبقا ذهبيا لينظره ، فحنى راسه واخذ يتأمله ، فاستل أحد الحرس سيفه وطعنه من خلفه وحز رأسه ، وروى غير هذا قيل قتل ليلا وهو سكران غارق في نومه ، وأسرع ثلاثة من عبيده الى اسفل القلعة وهم يصيحون للحراس اسحبونا اليكم لنبلغكم بشرى تبهجكم ، فدلوا حبلا

وسحبوهم واحدا فواحدا ، فـأخبرهم هؤلاء بمـا حدث وقـالوا لهم : انفخوا الأبواق ونادوا مـن اسـفل القلعـة اليه وشـاهدوه مذبوحا .

أما محمود بن زنكي الذي دعي نور الدين ، وكان مع أبيه ، فقـد شدد القتال على القلعة حتى أرهق هـو والمحـاصرين ، ثـم قـال لهم : سلموني قتله أبي وكونوا في طمأنينة ، فسلموه الثلاثة فقتلهم واحرق جثثهم .

وكان لزنكي أربعـة بنين وابنة واحـدة وهـم : سـيف الدين غازي ، ونور الدين محمود ، وقـطب الدين مـودود ، ونصرة الدين امير اميران ، وأختهم ، وكان قد بنى في الموصل دورا ملكية لأنه لم يكن فيها الا دارا ملكية واحدة مقابل الميدان . وقد عمـق اسـاسها ووطد أسوارها ، وفتح بابا يقال له بـاب العمادي أقـام حـوله الحدائق ، وقد ازدهرت الزراعة في زمانه ، وكان لزنكي جـواسيس في بلاط السلطان يخبرونه بكل مايجري هناك ، وكان اذا ماقدم الى بلاده رسول ما ، نهاه عن محادثة الجنود والأهالي .

وقد دفع يوما الى واحد مـن عبيده طبيخـا وقـال له : احفـظه لديك ، فأبقاه عنده سنة كاملة ، ولما سأله زنكي عنه اعاده له فـورا فأعجبه ذلك العمل وقال له : الى مثلك ينبغـي ان افـوض حـراسة البلد ، ثم ولاه قلعـة كواشي ، وقـد ملك زنكي سـورية تسـع عشر سنة ، وكان عنده عندما قتل في قلعة جعبر امير كبير عاقـل اسـمه اسد الدين شيركوه ، قـال لنور الدين بـن زنكي :يلوح لي أن وزير أبيك يحاول استمالة الجيوش الى اخيك سيف الدين ليأتـي بـه الى الموصل ، فالافضل أن آخذك الى حلب لتتولاها ، وتتـولى سـورية معها ، وبذلك يسهل عليك احتلال الموصل واقليمها وبلاد المشرق .
ولما تم ذلك اجتمع نور الدين بجيوش سورية ومضى بهم الى حلب وتولاها مع قلعتها ، ثم ارتحـل أخـوه سـيف الدين الى الموصـل وتولاها وأيده السلطان مسعود الذي كان يخلص له المودة ، وسـبق

نور الدين، فأدى له خدمات جلى يوم كان والده حيا يرزق ، وارسل السلطان الى سيف الدين حله ملكيه تأييدا له في منصبه ، وكان نور الدين يخاف أخاه سيف الدين فيرسل اليه الهدايا معربا عن اخلاصه متجنبا لقاءه ، وبعد ان تعاهدا معا سار سيف الدين الى سورية، وبادره نور الدين مقبلا الأرض أمامه فتعانقا وبكيا، وقال سيف الدين لأخيه:لماذا لم تأت الي ، هل خفت مني ، ثق ياأخي انه لم يخطر ببالي ماخطر ببالك ، وماذا تنفعني الحياة والبلاد اذا أسأت الى أخي ، وهكذا اتفق الأخوان وعاد كل منهما الى بلده ، وعلى أثر مقتل زنكي سار ريموند صاحب انطاكية الى أطراف حلب وحماة ، وفتك بكثير من العرب ، وغنم غنائم وافرة ، وفي طريق العودة ادركه شيركوه ، واسترد منه الغنائم ، وسار مجير الدين صاحب دمشق الى بعلبك وحاصرها حتى انتزعها من نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، وترك له بعض القرى ، وعاد الى دمشق.

واقعة الرها الثانية

وفي تشرين الاول من عام ١٤٥٨ يونانية (١١٤٧ م) اقبل جوسلين وبلدوين صاحب كيسوم الى الرها ، وتسلق رجال الفرنج البرجين ليلا بعد ان اتفقا مع حراس السور ، وكانوا من الارمن فهرب الاتراك الى القلعة ، وفي الصباح فتحوا باب الماء ودخله جوسلين لكن لم تمض ستة ايام حتى باغتهم نور الدين قادما من حلب في عشرة الاف تركي ، فاجبر جوسلين الرجال والرهاويين ونساءهم وفتيانهم وفتياتهم على الرحيل قسرا في الساعة الثانية ليلا ، ولما جاء الصباح رآهم الاتراك فهاجموهم واخذوا يرمونهم بالسهام التي اخذت تتساقط عليهم مثل حبات المطر ، ثم انقض الاتراك على الرهاويين الاسرى في صفوفهم الطويلة ،وانقضوا على الاشراف من ابناء المدينة العظيمة ، وبعدما تركهم الفرسان

الفرنج وانهزموا ، اذ عجزوا عن المقـاومة ، امـا الجنود الافـرنج فالتجأوا الى حصن خـراب يدعى حصـن كوكب ، واحتمـوا بـه ، بالزمان الغضب ، تبا لهذا اليوم المشؤوم ولهـذه الليلة التـي كانت احدى ليالي جهنم ، لقد خرق الاتراك هذه الصـفوف الطـويلة مـن البشر بسيوفهم ، ثـم اخـذوا يسـحقونهم سـحق النار للهشيم وذلك بعدما أخذوا ينتزعون أحـذيتهم وثيابهـم ويوثقـونهم بالحبال ويحشـونهم على الركض حفـاة عراة رجـالا ونسـاء ، ويضطرونهم أن يتبعوا الخيل ، وقد زاد عدد القتلى في المرتين الاولى والثانية على الثلاثين الفا ، واستعبد الاتراك ستة عشر الفـا ، ولم يفلت مع رجال الفرنج الذين انهزموا الى حصـن كوكب سـوى الف رجل فقط ، وقد باع الاتراك كل مـن اسروهـم في بـلاد مختلفـة ، واصبحت الرها خاوية خالية مخضبة بدماء اولادها ، مليئة بعظامهم تتغذى بلحومهم وحوش الليل ، وقـد فقـدت جثـة بلدوين صـاحب كيسوم ، وافلت جوسلين اللعين الى سمسياط ، وهـرب المطـران باسيلوس مطراننا وقبض على مطران الأرمـن مـع عدد كبير مـن جماعته.

الحملة الصليبية الثانية

لما سمع الفرنج بما جرى من الفـظائع في الرهـا تـدفقوا مـن إيطـاليا ، واقبـل ملك الالمان (١٢) في تسـعين ألف فـارس وملك فرنسا (١٣) الذي يدعوه العرب فوتش في خمسين ألف فـارس ، عدا الرجالة الذين بلغـوا أعدادا كبيرة ، وتـوجهوا سـنة ١١٤٨ م إلى القسطنطينية وشنوا عليها هجـوما مـريرا بعـد أن عرفـوا خيانة اليونان للأفرنج وغدرهم بهم ، فدفع لهـم الملك منويل ذهبـا كثيرا ، وأقسم أن يدلهم على طريق آمنة ، لكنه غدر بهم ثانية وأرسل معهـم أدلاء أرشدوهم إلى طريق وعرة وجبال قاحلة لاماء فيهـا ، فتـاهوا

وبقوا خمسة أيام لايعرفون أين هم بعد أن هرب اليونانيون ، فمات العديد منهم عطشا مع خيولهم ، وسمع بهم الأتراك فانقضوا على شتاتهم في الجبال وراحوا يفتكون بهم مجموعة تلو الأخرى حتى امتلأت بلادهم من الغنائم،وبيعت الفضة في ملطية بثمن الرصاص .

أما الأفرنج الذين نجوا وعادوا إلى سواحل بحر بنطس فقد أخذ اليونان يخلطون لهم القمح كلسا ويطعمونهم إياه ، فكانوا يسقطون موتى بالأكوام ، وقد تمكن ملك الألمان من النجاة مع ثلاثة من القمامصة فسار إلى بيت المقدس وصلى وتبرك بقبر المخلص ، وأقام فيها بضعة أيام ثم زحف إلى دمشق في عشرة آلاف فارس وستين الف راجل وكان عدد الأتراك والعرب نحو مائة وثلاثين ألف راجل عدا الفرسان ، ولكن الفرنج دبت فيهم الشجاعة والا[illegible] فحملوا عليهم حتى وصلوا إلى الأنهار ودخلوا الجنائن ، فقام معين الدين – حسبما ذكر البطريرك ميخائيل السرياني في تا[illegible]خه – صاحب دمشق وأرسل إلى ملك بيت المقدس مائتي ألف دينار من النحاس المصري ، لكن المطلي بالذهب ، وأرسل كذلك إلى صاحب طبرية خمسين ألفا من الذهب الزائف ، وعندما اكتشف الأفرنج الخديعة وأدركوا الحيلة ترك ملكهم دمشق ، وعاد إلى وطنه وقلبه يتقطر ألما وأسى ، على أني قد طالعت خمسة كتب عربية مختلفة ، لكنني لم أعثر فيها على قصة التزييف الذي تكلم عنه البطريرك ميخائيل في تاريخه .

وهكذا كانت نهاية هذه الحملة ، ونهاية أعدادها الهائلة .

ولما علم ملك صقلية نبأ خيانة اليونان غضب غضبا شديدا ، وسار إلى مدينة تيبايس،فاحتلها وقوض أركانها وأهلك أهلها بقوة السيف ، وكذلك فعل في أدرنة ، وفي فيلبة ، ثم توجه إلى القسطنطينية نفسها فخرب ضواحيها وأتلف زروعها ، وعاث في الأرض فسادا

ظهور توماس الأرمني

في تلك الأثناء مات لاون الارمني صاحب قيليقية في القسطنطينية وفر ابنه توماس راجلا إلى قيليقيه ، وزار مطران السريان أثناسيوس طالبا صلواته ليرد الله تعالى ميراث آبائه إليه ، فصلى له وأهداه حصانا بمثابة بركة ، ومالبث أن لحق به اثنا عشر أرمنيا ، وسار أول الأمر إلى حصن عامودا فلما شاهده الحراس وعلموا أنه ابن مولاهم فتحوا له الأبواب ، فدخل الحصن بسلام وقتل من كان فيه من اليونان ، واحتل في مدة وجيزه أماكن شتى ، فبدأ الروم الذين في سائر الحصون يهابونه ويحسبون له ألف حساب ، ثم اتفق الفرنج معه وقاتلوا الأتراك وفتكوا بثلاثة آلاف منهم ، وذاع خبر انتصاره،وبات الأتراك يرهبون سطوته وبأسه ، فقام واحتل بعد ذلك عين زربه وغيرها من الأماكن . وفي تلك السنة استولى نور الدين بن زنكي على أفاميا ، وعلى بعض حصون الفرنج ، فأعد له صاحب أنطاكية كمينا فتك بكثير من عسكره ، لكنه نجا مع قلة من رجاله فاتجهوا إلى حلب .

وفي سنة ١٤٦٠ يونانية ٥٤٣ هـ (١١٤٩ م) زحف نور الدين إلى حارم وغزا ضاحيتها ، وهدم أبنيتها المقامة خارج القلعة ، وسار البرنس صاحب أنطاكية إلى محاربته والدفاع عن حارم ، لكن الاتراك تغلبوا عليه وقتلوه ، وكانوا قبل ذلك يهابونه جدا لقوته الجبارة ، ثم وقعت فتنة بين الأنطاكيين ، فقد أراد غالبيتهم أن يسلموا مدينتهم لنور الدين،إلا أن بعضهم أرسلوا إلى ملك بيت المقدس طالبين النجدة ، فسارع إليهم وبث الشجاعة والنخوة في قلوب فرسانهم ، وجعل بطريركهم مدبرا لأمورهم إلى أن يكبر بوهيموند ابن البرنس القتيل ، وقتل صاحب كيسوم في هذه المرة ، فتولاها جوسلين وتولى أيضا قرية بيت حسنه .

وفي هذه السنة أقبل قلج أرسلان بن مسعود سلطان قونية

وحاصر مرعش وانتزعها من يد الفرنج ويسر للفرسان وللأسقف وللقساوسة الذهاب إلى أنطاكية ، لأنه كان قد تعهد بذلك قبلا ، إلا أن الأتراك أدركوهم وفتكوا بهم ، وانتزع قرا أرسلان صاحب حصن زياد من الفرنج بلدة الجبولة وبعث جنودا إلى جرجر كمنوا في ثلاثة أماكن مستورة ، وكان أهلها مختبئين في جبال برصوما ، فانقض هؤلاء الجنود صباحا ونهبوا المواشي والبقر ، وفتكوا بثلاثة من رهبان الدير وأرسلوا إلى الرهبان يقولون : سلمونا أهالي جرجر نرد لكم الغنائم ونحترم قديسكم ، ونقدم له النذور ، لأننا لم نأت معتدين على أديرة وليس في نيتنا أن نستعبد الأهالي ، لكننا نريد أن نعيدهم إلى أراضيهم ليفلحوها ، إلا أن الرهبان لم يتفقوا على رأي ، فأراد بعضهم التسليم بينما رفض بعضهم الآخر هذه الفكرة حتى أدى بهم الخلاف إلى القتال بالسيف ، وعند ذلك نهض راهب شيخ واصطحب شخصين من كلا الفريقين وساروا خمستهم إلى الأتراك وقالوا لهم : إن كنتم صادقين في طلبكم الأهالي للحراثة لا للعبودية فليأت فريق منكم معنا فنذهب ونراجع أميركم المحروس ، ونأتمر بأمره ، لكنهم سرعان ما اكتشفوا مكر الأتراك ، وأجمع الرهبان ومن معهم على الرفض فثارت ثائرة الأتراك وأحرقوا المعاصر وسياج الكروم ، وانقلبوا عائدين ، وسار الرهبان إلى حصن زياد وقابلوا الأمير فأشفق عليهم ورد لهم كل ما أخذ الأتراك منهم .

وفي السنة ذاتها قدم جوسلين من تل باشر في مائتي فارس ، وتوجهوا إلى أنطاكية وفي اعتقادهم أنهم سيواجهون ألفا فقط ، فباغتهم التركمان ليلا وهزموهم وطاردوهم حتى قبضوا على جوسلين وساقوه إلى نور الدين فاشتراه بألف دينار ثم أوثقه وحبسه ، وبقي جوسلين محبوسا تسع سنوات ، وكانوا يلجأون إلى الوعد تارة وإلى الوعيد تارة أخرى ليجبروه على المجاهرة بالاسلام ، لكن إيمانه كان راسخا ، وكان يدرك في قرارة نفسه أن الرب إنما أدبه لتعديه على دير برصوما كما سنذكر ذلك في تاريخ الكنيسة .

ولما أحس بدنو أجله استدعى أسقف المدينة فعرفه وأعطاه الأسرار المقدسة ، وقضى في قاع البئر حيث كان مسجونا ، وأثناء أسره حمل الأتراك على كثير من أماكن الافرنج واحتلوها مثل جرجر وختي وحصن منصور وتاكنكار التي بجانب الدير ، ولما علم الأفرنج بوفاته أقاموا ابنه الفتى خلفا له في تل باشر ، وكان اسمه جوسلين أيضا .

وفي عام ١٤٦١ يونانية (١١٥٠ م) أرسل أهالي كيسوم مطرانهم ايويذس إلى مسعود سلطان قونية طالبين الأمان للفرنج الذين عندهم ليذهبوا إلى عينتاب فلبى طلبهم ، ثم استولى على مدينتهم وعلى قرى بيت حسنة ، ورعبان وفرزمان ومرعش ، وعندما كان يحاصر تل باشر أقبل إليه نور الدين فزف إليه السلطان ابنته ، فترك تل باشر ولم يتيسر له احتلالها ، ولم يمض وقت قليل حتى جاء ملك بيت المقدس ونقل معه زوجة جوسلين وأبناءه وجميع الفرنج وأقام في تل باشر بعض أتباع يونان فاحتلوا عينتاب وأعزاز ، ثم ضيق عليهم نور الدين قتلا وجوعا فسلموه إياه دون حرب ، واحتل تمرتاش صاحب ماردين مدينة البيرة وسميساط وقورس وكفرسوت ، وفي ذلك الوقت كان في قلعة الروم ميخائيل الأرمني،فكتب إلى زوجة جوسلين وابنها ليأمرا غريغوريوس جاثليق الأرمن الموجود في دير البحره أن يأتي إليه ويقيم عنده ويساعده،لكن الجاثليق خان ميخائيل واحتل كل ماله وطرده واستقل بقلعة الروم .

وفي سنة ١٤٦٠ يونانية (٥٤٤ هـ/ ١١٤٥) انتزع سيف الدين ابن زنكي صاحب الموصل مدينة دارا من تمرتاش صاحب ماردين،ثم زحف إلى ماردين وحاصرها فزف إليه تمرتاش ابنته وهادنه ، لكن ما إن وصل إلى الموصل حتى مرض ومات وخلفه أخوه قطب الدين مودود ، فتزوج ابنة تمرتاش وعند ذلك أرسل أحد زعماء الموصل إلى نور الدين ليتجه من حلب إلى الموصل ، فركب مع سبعين فارسا واحتل سنجار ، وأرسل في طلب المساعدة من قرا أرسلان صاحب الحصن مقابل منحه قلعة هيثم .

أما أخوه قطب الدين فقد حشــد الجيوش ومشى إلى تــل أعفــر ليصــد نور الدين ، فتدخل الزعماء واقترحوا حــلا وســطا يجعــل حمص لنور الدين بعد انتزاعها من ســيف الدين وأن يرد نور الدين سنجار إلى قطب الدين ويرجع إلى حلب .

وفي ٢٣ آب من تلك السنة حدث فيضـــان في حصــن زياد جــرف صبيا مع أمه وبغلين وحمارا وقد هلكوا جميعا •

وفي ســنة ١٤٦٢ يونانية (١١٥١ م) قتلت زوجــة صــــاحب ايزنجي زوجها وأتت بأخيه من ديباريجي وتزوجته ، وملكت مــكان زوجها الأول .

وزحف أمير تركي إلى دير سيريكا اليوناني في بنطس ، وانتــزع منه الصليب الذهبي الذي كان يحوي قطعة ثمينة من خشب الصليب حيث تمت به عجائب كثيرة ، ولم يعدها إلى الرهبان إلا بعد أن سلب منهم كمية كبيرة من المال .

كذلك اخذ اليونان يسخرون ويجدفون على مار برصوم ، ويقولون لو كان قادرا على فعل العجائب لما ترك جوسلين يسلب ذخيرته .

وفي تلك السنة زحف نور الدين إلى ضواحي دمشق وأرسل يقول لأهلها : انا لم آت لاحاربكم بل لأزيل العار عنكم ، فــأنتم مــازلتم حتى الآن تؤدون الجزية للفرنج ، وقد اصبح ابناؤكم أسرى لديهم ، ولم يساعدهم احد ، فبعث إليه الدمشقيون يقــولون : إننا نعيش في بحبوحة وامان مع الفرنج ، ولسنا في حاجة إلى مساعدتك ، وإن لم ترجع إلى حلب فإننا سوف نرسل إلى الفرنجة ليقفوا معنا ضــدك ، فــاستشاط نور الدين غضــبا واراد ان يحــــاصر المدينة لكن الله سبحانه أنزل من السماء وابلا من الأمطار لم ينقطع ففترت همتــه ، وسار إليه زعماء دمشق وهــادنوه ان يخــطبوا له بعــد الخليفـــة والسلطان ، فتركهم وعاد إلى حلب

في سنة ١٤٦٣ يونانية (١١٥٢ م) برز الفرنج ثانية من رومية غاضبين على اليونان فاقبلوا الى ضواحي القسطنطينية وأحرقوها جميعها ، ثم ذهبوا الى فلسطين فأحرقوا قرى عديدة في عسقلان وقتلوا عددا كبيرا من الاتراك والعرب ، ثم تابعوا الى مصر فخرجوا واحرقوا كثيرا من قراها الغربية ، ثم عادوا الى وطنهم ٠

وفي السنة ذاتها مات دولت صاحب ملطية وخلفه ابنه ذو القرنين ، فعلم بذلك مسعود سلطان قونيه فهجم على يعقوب ارسلان اخي دولت واخضعه ، ثم هاجم ملطيه فخرب ضواحيها،فخرجت اليه ابنة اخيه والدة ذي القرنين وتوسلت اليه يدع ابنها،وقال لها السلطان : إذا اتى إلي خاضعا تركت له المدينة فخرج اليه ذو القرنين حاملا سيفا وكفنا فرحب به مسعود وأيده وتركه وشأنه وهكذا استحوذت أمه على المدينة وفرضت الضرائب على المسيحيين والعرب وحشدت نساء لتفتك بابنها الصغير،الا ان الزعماء اطلعوا على نيتها فطردوها مع ساحراتها ، وصحت فيها بذلك آية النبي .« امكثي على رقاك وانواع سحرك الذي عنيت به منذ صباك ، قد أعييت من كثرة مشورتك»(اشعيا ٤٧ : ١٢ ـ ١٣).وفي هذه السنة هطلت امطار غزيرة جرفت احجارا ضخمة وتلالا وصدعت جانبا من الجبل وتدحرجت الصخور في الوادي الذي بين ابدهار وخرشنة ، وتوقف مجرى الفرات ثلاث ساعات تقريبا ووصلت المياه الى قرية فروسيدين المبنية على قمة الجبل ، ثم انشقت السدود المقامة على جوانب جبل قلونية ، وفاضت المياه فأحدثت دمارا هائلا في سورية ، وفي السنة نفسها فتك الوباء باثني عشر الفا من اهالي دمياط حتى خلت بيوت كثيرة من السكان .

في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) زحف نور الدين ثانية الى دمشق فحشد الفرنج قواتهم لرد الغزو الجديد ورد نور الدين على اعقابه سرا الى حلب ٠

وفي تلك السنة ايضا ٥٤٦ هـ ـ ١١٥١ م خرج صلاح الدين من عند ابيه نجم الدين ايوب في بعلبك،واتجه الى حلب يريد عمه أسد الدين شيركوه ، فاصطحبه الى نور الدين فرحب به وخصص له بعض المال لمعيشته ٠

- ٢٣١٣ -

استيلاء الفرنج على عسقلان

في سنة ١٤٦٤ يونانية (٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م) نشب نزاع بين ملك بيت المقدس وأمه ، فاتخذت من بـرج داود حصـنا لهـا فتـوسط الاقطاب وتركوا لها بيت المقدس كما تركوا لابنها سائر المدن وقيادة الجيش ، فسار ابنها الى عسقلان وكانت للعـرب المصريين واقـام برجا خشبيا ومنجنيقات وأحدث فجوه في سورها دخل منها اربعمائة من الرهبان الداوية ، فهجم عليهم عشرون الفا مـن العـرب وهـم مدججون بالسلاح وأهلكوهم ، فـانفعل الملك لذلك ، وأراد مغـادرة المدينة لولا تشجيع أحد المحاربين له على البقاء ، ثم قام الفرنج بعد ذلك بحراسة الفجوة ومنعوا العرب من ترميمها ، وفي الصباح حمـل الملك الصليب واتجه الى المدينة وهو ينادي : مـن لايتبـع الصـليب لايعد مسيحيا،فاندفعوا اندفاع رجـل واحـد ودخلوا المدينة ، وقتلوا مايزيد على خمسة عشر ألف عسكري ، فهرب البقية في السـفن الى مصر ، والحقيقة التـاريخية هـي ان الفـرنج احتلوا عسـقلان عام ١٤٦٥ يونانية (٤٥٨ هـ / ١١٥٤ م) لكن البطريرك ميخائيل السرياني ذكر أن ذلك تم سنة ١١٥٣ م ، وبسبب هـذا الانتصـار الذي احرزه ملك بيت المقدس انيطت به امارة انطـاكية وزفـت اليه ارملة صاحبها ٠

وفي سنة ٤٥٩ هـ (١١٥٤ م) انتـزع نور الدين دمشـق مـن صاحبها مجير الدين حربا ، إذ اثـار في البـداية خـلافا بينه وبين زعمائه ، وأخذ يكتب اليه سرا قائلا : احترس من مكر فلان وفـلان وفلان وفلان ، لأنهم يكتبون إلي ويريدون تسـليمي المدينة ، وأنا لا أريد أن أترك قتال الافرنج وأقاتل العرب ، وصـدق مجير الدين ذلك الكلام ففتك بقواده واحدا واحدا حتى قضى عليهم جميعا ، وأصـبح دخول نور الدين دمشق سـهلا ، وبعـد أن دخلهـا ولى صـاحبها السـالف مجير الدين بعض قـرى حمص ، وقـد عامـل نور الدين الدمشقيين معاملة طيبه ففرحوا به وظنوا أنه يسـتطيع التغلب على الفرنج ٠

وفي هذه السنة قتل الظافر بن الحافظ خليفه مصر ، وخلفه ابنه عيسى وهو في الثالثه من عمره وسمي الفائز ، وفي غياب فارس الدين الأمير الكبير تولى الوزارة العباس ، فسخط فارس الدين على العباس وهدده لأنه أخذ يتصرف دون الرجوع اليه ، فخاف العباس وأخذ أمواله وخرج في ثلاثة آلاف من الأرمن ، وطلب مساعدة نور الدين إلا أن المصريين تبعوه فضربهم الأرمن ، وقضوا على أكثرهم ، ثم تفرق العباس ورجاله في الصحراء فأدركهم الجوع والعطش ، ولما وصلوا عسقلان برز الفرنج لملاقاتهم ، وعندما رأى الأرمن الصلبان في رؤوس رماحهم ألقوا عنهم السلاح وانضموا إليهم ، وقتل يومئذ من العرب قرابة خمسة آلاف ، وقبض الفرنج على العباس وفتكوا به.

وفي تلك السنة سار الخليفه المقتفي الى تكريت وشدد الحصار عليها ، وهدم أبنيتها ووجه ضرباته نحو قلعتها ، فأرسل محمد شاه ابن السلطان مسعود الى أمراء الموصل يقول : إن آبائي قد ولوكم هذه البلاد لتنجدوهم ، والآن لم يبق لنا في أرض شنعار كلها سوى قلعه تكريت ، والخليفة يحاول انتزاعها منا ، فنرجو منكم الحضور ومساعدتنا لدفعه عنا ، فاحتشد الموصليون ، وزحفوا الى تكريت ، ولما علم الخليفه بعددهم أصابه الزعر ، فترك عدته وعتاده ، وعاد مسرعا الى بغداد.

وبعد أيام قليلة حشد أمير تركي قرابه إثني عشر ألف جندي وارسلهم الى تكريت ، فأنقذوا أرسلان شاه بن طغرك السلجوقي من السجن لأنه ينحدر من سلاله الدولة السلجوقية ، وخرج الخليفة مع جيشه لملاقاتهم ، وظلوا ثمانية عشر يوما يقفون وجها لوجه دون قتال ، ولما وقعت المعركة هزم أصحاب الخليفه ، وحاول هو الفرار فتوسل إليه رجلان من أتباعه أن ينتظر قليلا ووضعوه أمام الصفوف مع حصانه على كره منه ، فتشجع البغداديون وكروا على الأتراك وانتصروا عليهم وأخذوا غنائمهم ، وكانت فيما قيل أربعمائه ألف شاة عدا البقر والجمال.

وفي هذه السنه كانت مياة دجله تسيل كالدماء الحمراء.

في سنة ١٤٦٧ يونانية (١١٥٦ م) تحرش البرنس صاحب انطاكيه بطوروس صاحب قيليقيه واخذ يطالبه بالحصون التي انتزعها الأرمن من اليونان ، والتي انتزعها اليونان من الفرنج ليولي عليها الرهبان الداوية جزاء قتالهم في سبيل توحيد المسيحيين ، فامتنع الأرمن واصطدموا مع الفرنج عند باب سقنطرون ، فهزم الأرمن ، وهرب طوروس، ثم تصالح الفريقان وتولى الرهبان الداوية تلك الحصون.

وفي تلك السنة سار صاحب مرعش الى إحدى قرى الأرمن ، فحشد أسطفان أخو طوروس جيوشه وانطلقوا ليلا ، واختفوا في البيوت ، وعندما فتح باب القلعه في الصباح نهضوا فدخلوه واحتلوا السور الخارجي ، واخذوا يحفرون داخلا وبلغهم حينها أن الأمير قادم في جيش تركي ، فملكهم الفزع وخافوا أن ينحصروا بين السورين ، فيشرع بقتلهم الداخل والخارج ، فنهبوا المدينة واضرموا النيران في البيوت وفي كل ما تعذر عليهم نقله ، وهربوا مع جميع الأهالي،وقد ساق هؤلاء الأرمن الخبثاء المطران ديونيسيوس ابن الصليبي فوصل ماشيا الى دير كاسليود ،(١٤) وتمكن من النجاه ونظم في خراب مرعش ثلاث قصائد لأنه كان راعيها يومئذ ، ولما وصل الأتراك عاملوا المسيحين معامله حسنة ، وردوا الى الأرمن العائدين جميع بيوتهم وكرومهم واراضيهم ، إلا أنهم سلخوا جلد قسيس أرمني ، وهو حي ، وبتروا لسانه وايديه وارجله ، واحرقوه بعد ثلاثه أيام بالنيران ، وما أن بلغ الأرمن ذلك حتى عاملوا هم بدورهم بعض الأتراك مثل هذه المعامله القاسيه.

وفي تلك السنه سلخ حيا قسيس آخر ارمني في ملطيه ، لأنه أغرى فتاة مخطوبه حديثا ، ومضى بها الى الكنيسة ، وحاول اغتصابها ، فأخذت المسكينة تصرخ مستغيثة ، لكن القذر وضع يده على فمها حتى أكمل شهوته ، وبعد هذا شاهدها على آخر رمق

فأجهز عليها ، وقتلها وبتر أذنيها وبعض أصابعها لعجــزه عن نزع الخواتم منها ، وأخفى ما سرقه منها في قنديل ، ثم أخفى الفتـــاة في لحاف ضمن المذبح ، ولما خرج والدها وحمواها للبحث عنها،أخبرهم بعض الأطفال الذين كانوا يلعبون في الزقاق أنها دخلت الكنيسه مــع القسيس ، ولما سألوه قال لهم قد دخلت وخرجت بسرعه ، فــأخذوا يبحثون عنها في كل مكان ولم يجدوها وشاهدوا ذلك القسيس خارجا من باب المدينة ، فقبضوا عليه ومضوا به الى الحاكم فضربه حتـــى اعترف بفعلته الدنيئه ، وأراهــــم جثمــــان الفتــــاة وأذنيهـــــا وأصابعها ، وقد شيعها الناس بمراره ، أما القس فقد سلخ وقــطع إربا إربا وأحرق وهو حي حتى هلك.

وفي سنة ١٤٦٨ يونانية (١١٥٧ م) اتجــه البــرنس صــاحب أنطاكيه الى قبرص ، وكانت لليونان فســبى أهلهــا مــع أغنامهـــم وأبقارهم وخيولهم وأمتعتهم ، ولما وصــلوا ســاحل البحــر قـــدم القبرصيون ذهبا كثيرا مقابل نجاتهم ، فتــركهم الفــرنج مــكتفين بأموالهم ومواشيهم واستاقوا الاساقفة ورؤســـاء الأديرة والكنائس والزعماء الى أنطاكية بمثابه رهائن الى أن أخذوا مطالبهم كامله.

في سنة ١٤٦٩ يونانية (١١٥٨ م) حاول اسطفان الأرمني أن يفتك بأخيه طوروس ، وشعر طــوروس بــذلك فقبض عليه واعتقله عشرة شهور ، ثم عفا عنه تلبيه لطلب الأفرنج وانضم الى جيشهم.

وفي ســـنة ٥٥٢ هــ (١١٥٧ م) حـــدثت في ســــورية زلازل عنيفه ، ففــــي حمــــاه ســـقطت القلعـــــه وجميع البيوت على أهلها ، وسقطت كذلك قلعه شيزر كلها ، ولم ينج من أهلها ســوى أمرأة واحده وحاجب واحد ، أما أهل حمص فقد سارعوا الى خارج المدينه ونجوا وهدمت دورهم وقلعتهــم ، وفــر أهـــل حلب مـــن مدينتهم ، وظلوا أياما خارجها للنجــاة بــأنفسهم مــن الموت وقــد تهدمت بيوتهم وهلك منهم خمسمائه نسمة فقط ، ولم ينج أحد مــن أهالي كفر طاب وفــاميه ، وهــدمت بيوت كثيره في الرحبــة ، كذلك

اجتاح الزلزال من مدن الافرنج :حصن الاكراد وعرقه ، ولم يبق في اللانقيه سوى كنيستها الكبرى ، ونجا جميع أهلهـا ، وتصـدعت أرضها وانفتحت ودفن في وحلها تمثال مسبوك ، كذلك تصدعت أكثر بيوت أنطاكية وطرابلس •

وفي تلك السنة مات جوسلين في سجن حلب بعـد أن تـاب تـوبة نصوحا كما ذكر أغناطيوس أسقفها الذي زوده بالأسرار المقدسه.

وفي تلك السنه أيضا وصل السلطان محمد بـن محمـود في جيش ضخم كبير الى بغداد ، وشدد الحصار عليها مدة اربعة أشهر إلا أن بعض أقطابه نصحوه بأخذ المال بدلا من الحرب ، وبلغهم آنذاك خبر احتلال ملك شاه أخي السلطان لهمذان وسـبيها واختـطاف نسـاء زعمائها فضعفت همة السلطان وغادر بغداد وتبعته جيوش الخليفـه وفتكوا بعدد كبير من الاتراك دون رحمه ، انتقاما منهم لما احـدثوه من الخـراب غربـي العـاصمه حيث كانوا مخيمين ، اضـافة الى ارتكابهم الفواحش مع النساء ضمن المساجد أمام أزواجهن ، والى ما احدثوه من قتل واحراق للبيوت.

وفي هذ السنة مات السلطان سنجر بن ملك شاه بن الب ارسـلان ابن داود إثر نجاته من الغزاة الذين اعتقلوه.

وفي سنة ١٤٧٠ يونانية (١١٥٩ م) زحـف منويل ملك اليونان الى قيلقية واستعاد طرسوس وعين زربه وغيرها ، وأقام فيها مـدة فصل الشتاء ، بعد أن هزم طوروس الأرمني ، ثـم تـوجه ملك بيت المقدس وأمير انطاكيه وبطريرك الفـرنج الى زيارة منويل واتفقـوا معه وصالحوه مـع طـوروس واحضروه اليه ، فعينه قـائدا لجميع الجيوش اليونانية في سـاحل البحـر ، واجتمـع اليونان والفـرنج والأرمن للزحف على حلب ودمشق وسائر المدن السورية لكن بلغهم آنذاك خبر أفاد أن شعب اليونان يحاولون تعيين ملك آخر ، فسارع الملك منويل في العودة الى عاصمته ، ولم يكمل مـا اتفـق عليه مـع الفرنج والأرمن.

وفي نيسان من تلك السنة حدث طـوفان في بغـداد خلخـل بعض جدران دار الخلافة ، وفر الاهالي الى غربي المدينة حـاملين المرضى والعجائز والصغار على الاكتاف خوفا من الغـرق ،وبلغـت أجـرة ركوب الزورق في أحد المعابر أربعة دنانير ذهبية .

وفي سنة ١٤٧١ يونانية (١١٦٠ م) قرر ابن جوسلين الخروج من حارم والاغارة على أطـراف حلب ، فنصـب له نور الدين كمينا وقبض عليه ثم ألقاه في البئر الذي كان فيه والده.

وفي آذار من تلك السنه وهي سنة ٥٥٥ هـ ، في الثـاني مـن ربيع الأول توفي الخليفه المقتفي بداء الخناق وخلفه ابنه المستنجد*.

ابــــو المظفـــــر يوســــــف المســــــتنجد بالله ـ ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م

دام حكمه اثني عشر عاما وحين توفي والده دبــرت له أمــراة ابيه التركية ووالدة أخيه الصغير مكيدة للايقاع به وتولية ابنها،فسـلحت جواريها بالسكاكين وامرتهن أن يهاجمن المســتنجد حــالما يدخـل غرفته ، لكن احدى الجواري أفلتـــت مـــن بينهـــن واخبـــرت المستنجد ، فحشد جنده وقبض على أخيه وزجه في الســجن ، ثـم أعتقل هؤلاء النسوة ، فسجن بعضهن ، وقتل بعضــهن ، وهــكذا ثبتت له الخلافة

أخبار الافرنج في عهد المستنجد

وفي عام ١٤٧٢ يونانية(١١٦١ م) ذهب السير عمــوري أخــو ملك بيت المقدس الى مصر وسلب من المصريين أموالا طائله ، وعاد لكن ما لبث أن تــوفي الفـــائز خليفـــه مصر ، فـــارتضى المصريون أن يدفعوا للفرنج كل عام مائه وستين الف دينار ذهبــا ، كذلك هـــاجم جورجي ملك الكرج مدينة آني وانتزعها من الأتـــراك ، وغنم منهـــا غنائم كثيرة واعتقل عددا كبيرا من العـــرب وعاد الى بلده. وفي هـــذه الفتره امتاز الأمير الموصــلي جمـــال الدين(١٥) بعـــطفه وحسـناته فـــأرسل المفـــريان اغناطيوس الى الملك جـورجي لافتـــداء الأسرى العرب ، فاستقبله الملك جورجي أحسن استقبال وأطلق العديد مـــن الأسرى مجانا وحمله هدايا كثيرة الى الأمير ، وبعث معـــه ســـفراء كرجيين فاستقبلهم الأمير في الموصل استقبالا حسنا ، ورحب بهـــم ترحيبا حارا ، وقد وصل المفريان والسفراء الى الموصل والصـــلبان تتلألأ في رؤوس الرماح ، وقد انعش هذا المســيحيين،كذلك ابتهـــج العرب بعودة اسراهم.

وفي هذا الزمان نصب الفـرنج كمينا لسـارق فـرنجي ظهـر في بغراس فقبضوا عليه وأحـرقوه بعـد أن كان قـد التجـأ الى نور الدين ، وأخذ من عنده جماعة من الأتراك وأخذوا يسرقون وينهبون في ضواحي أنطاكية .

توفي ذو القرنين صاحب ملطيه وخلفـه ابنه الصـغير عام ١٤٧٣ يونانية (١١٦٢ م) كذلك حاول يعقوب أرسلان ومعه مجموعة من الأمراء خلع قلج أرسلان وتـوليه أخـاه عوضـا عنه ، فتـوجه قلج أرسلان الى القسطنطينية وبقي هناك ثمانين يوما ، وقد احتفى بـه الملك خلالها وحباه بالرعاية والعناية،وبقي هناك ثمـانين يومـا كان يرسل له الملك خلالها كل يوم الطعام مرتين في أطباق ذهبية وفضـية جديدة ، وكان يشير له بابقائها لديه ، وظل كذلك طوال مدة اقـامة السلطان في العاصمة ، وفي آخر يوم من اقامته تناول مع الملك طعام الغذاء ، ثـم حمله بـالهدايا الثمينة ، وأغدق بعـطاياه على الفـي تركي ، وعاد الى عاصمته ، فـأدى له يعقـوب أرسـلان الطـاعه وتهادنا.

وفي تلك الفترة أقام حاكم طرسوس اندرو نيقس اليوناني وليمـة لا سطفان أخي طوروس الأرمني صاحب قيليقية ، لكن أ سطفان وجد مقتولا ومرميا عند باب المدينة ، فغضب طوروس وقتـل أكثـر مـن عشرة آلاف يوناني ، لكن ملك بيت المقدس جاء وأصـلح ذات البين بين الأرمن واليونان •

وفي عام ١٤٧٤ يونانية(١١٦٣ م)اختلف عسكر قرا أرسـلان صاحب حصن زياد عند حصـاره مـدينة آمـد فتـرك المدينة وانقلب راجعا ، فتوجه يعقوب أرسلان الى بلد قـرا ارسـلان واسـتطاع انتزاع قلعة شوموشكي منه ، وأسر مائه ألف نسمة تقريبا وتـرك القرى خالية ، وكان بين الأسرى اغناطيوس مطران تل ارسانيوس فأعاده من قماح الى ملطيه ، وبعد يومين أعاد مطران حصن زياد.

في هذا الوقت كانت زوجة البرنس السجين في حلب تناصب العداء ابنها وتنافسه على الولاية ، لكن الزعماء وقفوا في وجهها ، فطلبت من صهرها ملك اليونان أن يذهب الى انطاكية ويتولاها ، لكن البطريرك والأقطاب سرعان ما اكتشفوا الأمر ، فسارعوا واستدعوا طوروس من قليلقية الى انطاكية: حيث نفى الملكة ، وأعلن الولاء لابنها وأيده في الامارة.

وفي عام ٥٥٨ هجرية(١١٦٣ م)أراد نور الدين غزو ضواحي طرابلس ، فحشد جيوشا كثيرة من الاتراك وتوجه الى حصن الأكراد ، وخيم هناك ، لكن الفرنج فاجأوه وانقضوا عليه وعلى جيوشه ، فقتلوا العديد من الأتراك وأسروا البقية واستاقوهم الى طرابلس بعد أن قتلوا واحدا من الأكراد كان قد ساعد نور الدين في الفرار وجعله ينجو.

وفي عام ١٤٧٥ يونانية (١١٦٤ م) فاجأ الموت يعقوب أرسلان عند نهر سانجر على شاطىء نهر أليس ، فخلفه اسماعيل حفيد أخيه ، ثم اقترن بامرأته التى هي بنت السلطان.

هزيمة الفرنج وأسر أمير انطاكية وكونت طرابلس

جمع زعماء الفرنج جيشا يبلغ ثـلاثة عشر ألف فـارس وراجـل بقيادة خمسة من رؤسائهم وهـم : البرنس صاحب انطاكية ، وقمص طرابلس،وطـوروس صـاحب قيليقية،ودوقـاس اليوناني صـاحب طرسوس،والماستر مقدم الداوية ، وزحفوا ليحاربوا نور الدين الذي كان يحاصر مدينة حـارم ، فـانهزم شر هـزيمة ، وأسر الاتـراك القمص ودوقاس والبرنس وساقوهم الى حلب كذلك قتلوا الرهبـان الداوية قاطبة ، لكن طوروس استطاع ان يهرب الى انطـاكية،وقـد اقام بطريرك الافرنج مناحـه عامـة ، وحـطم النواقيس واوقـف الصلوات ، وقد استطاع نور الدين ان يستولي في هذه الموقعـة على مدينة حارم وعلى دير سمعان وقد اسر الرهبان والسكان وسـاقهم جميعهم عبيدا .

وفي عام ٥٥٩ للعـرب (١١٦٣ م) سـير نور الدين الى مصر الامير اسد الدين شيركوه أخا نجم الدين أيوب والد صـلاح الدين ٠

وكان اسم والد الإخوين الأمير أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب أبي صلاح الدين شادي كورديين ، (١٦) من مدينة دوين وهـي مـدينة بارمينة .

وقد توليا خدمه مجاهد الدين بهروز الحاجب امير تـكريت،الذي كان يحب النصارى،وقد هربا الى الموصل بعد أن قتل شيركوه احـد نصارى تكريت،وكان عزيزا على قلب اميرها،فاستقبلهما زنكي ورفع من شأنيهما ، وعندما احتل زنكي بعلبك جعل على قلعتها نجم الدين الذي بقي فيها حتى وفاة زنكي ثم سلمها الى صاحب دمشـق،كذلك تولي أسد شيركوه اخوه ، خدمة نور الدين ثم ولاه على حمص وكان للأخوين مكانة رفيعة عنده.

وعندما ضعف المصريون استنجد وزيرها شاور بنورالدين،فوجه نور الدين الى مصر جيشا بقيادة الامير أسـد الدين شـيركوه الذي حاول احتلال مصر ، لكن عندما احس شـاور بـذلك بعـث يهـادن الافرنج ورفض ان يدفع لشيركوه ماوعده به من الذهب والمناطـق ، فاحتل شيركوه وجيوشه مدينة (بلبيس) فقـام ابـان ذلك شـاور وطلب من ملك بيت المقدس المساعدة فزحف في جيش كثيف وحـاصر بلبيس ثلاثة اشهر بعد أن انهزم شيركوه وتحصن فيهـا ، لكن ملك بيت المقدس سمح لشيركوه بمغادرة بلبيس والعودة الى بلاده وترك مصر لاهلها بعد ان علم بانهزام الفرنج في حارم شر هزيمة،فـوافق شيركوه وعاد إلى دمشق .

وفي عام ١٤٧٦ يونانية (١١٦٥ م) أصبح السلطان قلج أرسلان سلطان قونية يعادي بني دانشـمند بعـد أن احتـل جـادوج وأبلستين وطورنده . واحتل نور الدين بانياس وعززها وأطلق مـن كان لديه قد أسر من زعمماء المسـيحيين ومـن بينهـم بـوهيموند البرنس الفتى بمائة الف دينار ، وذلك بعد أن غزا طوروس الأرمني مرعش ، وقبض على أربعمائة تركي وهدد نور الدين بحرقهم إذا لم يستجب لطلبه بإخلاء الأسرى المسيحيين ، وتوجه البـرنس لزيارة حمية ملك اليونان في القسـطنطينية ، فـأغدق عليه الملك الأمـوال الطائلة ، وعاد البـرنس إلى أنطـاكية بصـحبة بـطريرك اليونان أثناسيوس ، فارتاب بطريرك الفرنج وأبرم الحرم على الأنطـاكيين الفرنج ثم ارتحل إلى قلعة القصير ، وفي شباط السنة نفسها تـوفي وحيد عصره في الطب ، الطبيب المسيحي أمين الدولة ابـن التلميذ ، بعد أن بلغ التسعين من عمره،وكان ضليعا في العلوم وكذلك في نحـو العرب وفصاحتهم ، وتقلب في أيامه بين خفض العيش وعلوه ، وقيل أن ابنه سأله قبل وفاته : ماالذي يؤلمك ؟ فقال : كمية التسعين مـن عمري ، وسأله كذلك : ماتشتهي ؟ فقال : أن أشتهي .

وفي سنة ١٤٧٦ لليونان (١١٦٥ م) حين اجتاح قـرية أليناس الوباء بسبب وفرة المياه وغزارتها ، وردنا خبـر غريب عن أهـالي

القرية : فقد جاء إليهم رجل تركي وطلب منهـم أن يبحثـوا عن أول إنسان مات بهذا الوباء ، وكان قد مـر على مـوته أربعـة أشـهر فبحثوا ، وفتحوا قبره فوجدوا جسده بـاقيا ويده اليمنى مبتـورة ، وهي بجانبه وكفن رأسه وصدره مأكولا ولحيتـه مقصـوصة وعينيه مفتوحتين وفمه أيضا مفتوحا شـبرا وأربـع أصـابع ، فسـد ذلك التركي فمه وسمره بمسمار ضخم ، ومنذ ذلك الوقت لم يمت أحد في القرية .

وفي سـنة ١٤٧٧ اليونان(١١٦٦)م سـقط الملك منويل عن حصانه ، وأصيب أثناء حـرب وقعـت بين اليونان والبلغـار ، وانقض رجل بلغاري على الملك يريد قتله ، لكن الملك عرفـه بنفسـه وسأله أن يمضي به إلى القسطنطينية وحلف له أنه سيكافئه ، فلبـى البلغاري طلبه ، وأنقذه ووفى الملك بوعده أضـعافا ، ويقـال ان الملك منويل سقى زوجته الملكة سما لأنها لم تلد له ولدا ، وخالف شريعـة الملوك وتزوج بامرأة ثانية .

وفي السنة ١٤٧٨ لليونان(٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م) تـوجه أسـد الدين شيركوه بأمر من نور الدين إلى مصر فعبر النيل مـن الناحية الغربية ، وسار مطمئنا حتى الصعيد ، وكان برفقته صلاح الدين بن أيوب ، فاستنجد شاور وزير مصر بـالفرنج الذين لبـوه بجيوشـس كثيفة اتحدت مـع جيوش المصريين ، وتـوجهوا نحـو شـيركوه ، فاقترح زعماء جيش شـيركوه التـراجع مـن الناحية الشرقية إلى سورية كأنهم سيعجـزون أمام القوة الهـائلة للفـرنج والمصريين ، عدا عن أن جميع الأهالي أعداء للأتراك .

عندها برز شاب شجاع مصارع يدعى بنغـوش،وهـو عبـد نور الدين ، فحمسهم على القتال،وقال لهم بأنهم إذا تخلوا عن محـاربة الأعداء وعادوا إلى نور الدين هكذا فلسوف يقـطع عنهـم المعـاش ويطالبهم بما أعطاهم ، لأنهم لايصلحون لأن يكونوا جنودا ، فوافقه

صلاح الدين على رأيه ، وعقدوا العزم على القتال وقاتلوا على الرغم منهم .

واستطاع شيركوه ومعه ألفي جندي لاغير أن ينتصر على الفرنج والمصريين ، وكانوا أكثر من عشرة آلاف جندي ، وذلك بعد أن أوعز شيركوه لصلاح الدين بأن يبقى في وسط الجيش ليظن الجيش المقابل أنه هو ، ثم ينقلب راجعا ، ونجحت الخطة ، وظن الفرنج والمصريون أن شيركوه انهزم فلحقوا به لكن شيركوه وقلة من جنوده الأشاوس لحقوا بالفرنج والمصريين ، فأطبقوا عليهم من الخلف وصلاح الدين من الأمام ، فانكسروا وانهزم منهم من استطاع الفرار .

وبعدها سار شيركوه واحتل الاسكندرية دون حرب ، وترك مصر وعاد إلى دمشق بعد أن أرسل إليه الفرنج والمصريون في الصلح، ودفعوا له خمسين ألف دينار على أن يعود إلى بلده تاركا الاسكندرية للمصريين ، ودفع المصريون للفرنج مائة ألف دينار ليعودوا إلى بلادهم وبقيت مجموعة من الجند والفرسان لحراسة أبواب الاسكندرية كي لايطمع بها نور الدين مرة أخرى .

وفي العام نفسه (١١٦٧ م) استطاع قرا أرسلان صاحب حصن زياد أن يحتل برجين من أبراج آمد بالتآمر مع حراسها ، لكن بقية الحراس انقضوا على الأعداء وفتكوا بهم ، فعاد قرا أرسلان إلى بلده منهزما وخلفه ابنه بعد أن توفي في (١٧) تموز .

وفي كانون الثاني عام ١٤٧٩ يونانية (١١٦٨ م) توفي صاحب قيليقية طوروس بعد أن انقطع في أواخر حياته إلى الرهبنة وحرم أخاه مليح وراثته ، وأوصى أن يخلفه ابنه الصغير ويشرف عليه ابن خالته توماس ، عندها غضب مليح غضبا شديدا ، فقصد نور الدين الذي أمده بجيش تركي توجه به إلى قيليقية ، وأسر ستة عشر ألفا من الأهالي والقسس والأساقفة وساقهم إلى حلب وباعهم ، ودفع

إلى الأتـراك بأثمانهم . فاستدعاه الأرمن وولوه نصف البلاد فأقسم بالمقابل أن يترك للفتى النصف الثـاني ، لكنه نكث بـوعده وقسـمه واحتل بلادهم ، وأعمل البطش ففقأ عيون العـديد مـن الأسـاقفة والأعيان ، وبتر أيديهم وأرجلهم وسلخ بعضهم أحياء وألقـى بهـم للوحوش .

وفي عام ٥٦٣ للعرب (١١٦٧ م) أدرك الهرم صاحب الموصـل قيم قطب الدين الأمير التركي زين الدين قطرش وعمي ، فانتقل إلى إربيل واكتفى بها ، وقد كانت في حوزته منذ عهد زنكي وفيها تـوفي ، وتنازل لقطب الدين عن سنجار وحران والعقر وحصون الهـكارية وتكريت وشهرزور ، وتولى بعده ولده مظفر الدين وجعل قيمه مجاهد الدين ، واتصف زين الدين ببساطة التصرف وعفـويته ، واشـتهر بعدله وعطائه ، ويحكى أن أحد الفرسان جاءه يوما وبيده نيل وقال له بأن حصانـه هلك ، فأمر له بحصـان ، وهـكذا تناوب النيل إثنا عشر فارسا ، لكنه قال : لقد اسـتغربت أنكم لم تخجلوا مني خجلي منكم ، فقد عرفت أن النيل هو عينة أحضر لي إثني عشر مرة ومـع ذلك كله لم اخجلكم ، وارفض طلبكم واجزيت لكم العطاء كمن يؤدي فرضا .

ويحكى أيضا أن أحد الشعراء أنشده يوما قصيدة ، لكنه لم يفهم منها شيئا ، ومع ذلك لم يرده خـائبا ، وأمـر له بخمسـمائة دينار وحصان وكسوة قيمتها كذلك خمسمائة دينار .

في عام ١٤٨٠ يونانية (٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م) استولى سلطان قونية قلج أرسلان على مدينتي قيسارية كبدوكية وسمندو مـن بني دانشمند ، وانتزع أنقرة وقنقار من اليونان ، وانتـزعت مـن الأمير المعدي المتصل ببني عقيل قلعـة جعبـر ، انتـزعها منه نور الدين ، وأعطاه عشرين ألف دينار وسروج والمالحة وباب بـزاعة بـدلا مـن القلعة ، ومكث شهاب الدين زمنا في سروج،لكنه بقـي يفضـل حياة العز في القلعـة على أن الوارد مـن سروج كان أكثـر ، فهـكذا كان

يوضح كلما سأله اصدقاؤه عن أي البلدين أطيب بنظــره ؟ وفي هــذه السنة انتزع قلج أرسلان انقره وقنقار من اليونان .

استيلاء صلاح الدين على مصر

في تلك السنة بعث الفرنج المقيمون في مصر والاسكندرية من أجل حراسة الأبواب وجبـاية الضرائب إلى ملك بيت المقـدس عمـوري يخبرونه بأن مصر خالية من الجيوش والفرصة مواتية لاحتـلالها ، وتحمس الزعماء لتلبية الطلب ، لكن الملك نبههم مـن حقـد العـرب عليهم وقال : إن أموال مصر تأتينا عفوا صفوا ، وإذا زحفنا إليهـا لابد أن هذا سيدفع العرب للاستنجاد بنور الدين وعندها سيغلبوننا بعد أن ينضم الغرباء والمصريون في جيش واحد ، وتضيع الأمـوال التي تأتي للفرنج من مصر ، لكن الزعماء رفضوا اقتراحه ، وعقدوا العزم على الحرب قبل أن يستعد نور الدين ، وتـوجهوا إلى مصر ، واحتلوا بلبيس ونهبـوها وأسروا أهلهـا وحـاصروا القـاهره ، واصطف أهالي مصر فوق الأسـوار وجـاهدوا جهـادا حسـنا ، وقاوموا الأعداء فاستنجد خليفة مصر العـاضد بنور الدين بعـد أن قص ضفائر نسائه وأرسلها إليه قائلا : إن نسائي يتـذللن بـاكيات بدموع مدرارة ويلتمسن أن تسـارع إلى إغاثتهـن وأن تعمـل على إنقاذهن من الوقوع في أيدي الفرنجة ، ومكث نور الدين شهرين يعد العدة للقتال وبسبب تمهله واشتداد القتال أرسل وزير مصر شـاور إلى عموري وزعماء الفرنج يقول لهم : إنكم تعلمون بمـودتي لكم ، ولو أعرف أن العرب يسايروني لتخليت لكم عن مصر حالا ، لكن لو سمعوا شيئا مني حول هذا الموضوع لقتلوني حالا ، ولهـذا أعرض عليكم ماشئتم من الذهب شرط أن تعودوا إلى بلدكم ، ويمـكنكم أن تقيموا لكم وكلاء يجبون الجزية كما كان من قبـل لأنه إذا جـاء نور الدين واحتل المدينة فستخسرون وقتها الجزية والمدينة معا ، واقتنع الفرنج وعادوا إلى بلدهم وغادروا مصر بعد أن رحبوا برأي شـاور وعقدوا الصلح وفرضوا على المصريين ألف ألف دينار ، دفـع لهـم شاور منها على الفور مائة ألف على أن يجمع لهـم بـاقي الذهـب ويبعثه لهم بعد رحيلهم .

وعندما علم نور الدين أرسل جيوشه إلى مصر وسير معها شيركوه وسير معه صلاح الدين ابن أخيه ، وزار شيركوه عند وصوله مصر الخليفة العاضد ، وحظي لديه ، وشرع يمالئه بكلمات مغرية لأن الوزير شاور المسؤول عن توزيع الارزاق لم يكن يؤدي للخليفة وحشمه شيئا من المال ،واستعد شاور ليولم وليمة لاسد الدين وصلاح الدين ليقبض عليهما لولا أن ابنه ثناه عن عزمه كما أن صلاح الدين كان يريد أن يفتك بشاور ولكن عمه شيركوه نهاه عن ذلك ، وفي يوم من الأيام ذهب شاور لزيارة شيركوه فلم يجده إذ كان قد سار ليتبرك بقبر أحد مشايخ دينه ، فركب حصانه وركب معه صلاح الدين الذي التقى به في الطريق وفيما هما يتحدثان ألقاه صلاح الدين عن حصانه وأوثقه ولم يقتله دون أخذ رأي عمه الذي أمره بإعلام الخليفة بذلك ووافقهما الخليفة ، لأن شاور كان لايطيعه ، وهكذا قتل شاور وتم الاستيلاء على أملاكه ، وتولى شيركوه مكانه وسمي ملكا وقائدا أسوة بسائر وزراء مصر ، ولم يتنعم شيركوه بالوزارة سوى شهرين فقد أدركته المنية وتوفي بداء الخناق ، وتولى بعده ابن أخيه صلاح الدين فاستمال بعطائه الجنود واستطاع السيطرة على مصر .

ولم يكن لشيركوه سوى ابن واحد يدعى ناصر الدين ليخلفه وقد أنيطت مدينة حمص به وبأبنائه ، أما أخوه نجم الدين أيوب فكان له ستة أولاد : الأول شمس الدولة توران شاه الذي تولى الاسكندرية ، والثاني : شاهنشاه والدعز الدين فروخ شاه ،وتقي الدين عمر الذي تولى وبنوه حماه ، والثالث : سيف الاسلام طغتكين وتولى اليمن ، والرابع : صلاح الدين يوسف وتولى مصر وفلسطين وسورية ومابين النهرين ، والخامس : الملك العادل أبو بكر الذي خلف صلاح الدين ، والسادس : تاج الملوك بوري الذي مات عندما حاصر أخوه صلاح الدين حلب .

- ٢٣٣٠ -

هروب أمير ملطية مع زانية

وفي السنة ١٤٨١ لليونان (١١٧٠ م) ولي زعماء ملطيه أبا القاسم الأخ الصغير لمحمد صاحبها ، بسبب كره الملطيين واشتد غضبهم على محمد هذا بسبب ملازمته لامرأة زانية وساحرة فأخذها وغادر ملطيه وجعل يتنقل من دار إلى دار .

وفي هذا الوقت أخذ مليح الأرمني صاحب قيليقية يعتدي على المسيحيين فزحف ضده ملك بيت المقدس تحته الحمية وسجنه في أحد الحصون ، وبقي كذلك حتى استغفر من الملك وأقسم له بالطاعة والعدول عن صحبة الأتراك ، فعفا عنه وعاد .

وفي عام ٥٦٥ للعرب (١١٦٩ م) توفي صاحب الموصل ابن زنكي قطب الدين مودود وأوصى أن يخلفه ابنه عماد الدين زنكي ، وكان لقطب الدين نائب وقيم يقال له فخر الدين عبد المسيح ، أصله من أنطاكية ، وكان قد وقع أسيرا وكان يكره عماد الدين فغير الوصية بالاتفاق مع قطب الدين ووليا الابن الصغير سيف الدين غازي خلفا لأبيه فعاهده الزعماء على ذلك ، وعندها توجه عماد الدين إلى عمه نور الدين في سورية تاركا الموصل ، وأخذ يبكي الملكة والوراثة ويشتكي من عبد المسيح لأنه حرمه اياهما .

زلازل عنيفة

في يوم الاثنين ٢٩ حزيران ـ ١٢ شوال اهتزت الارض اهتزازا عظيما لم يشهد له مثيل من قبل،وكانت الارض مثل السفينة في لجة البحر،واستغرقت الزلازل مناويتها خمسة وعشرين يوما ، سقطت فيها اسوار حلب وبعلبك وحماه وحمص وشيزر وبغراس وجميع حصونها ودورها وتوفي اهلها .

وقد سقطت حلب كلها سوى كنيستنا ، وكذلك سقطت ثلاث

كنائس لنا في انطاكية هـي : كنيسـة والدة الرب ، وكنيسـة مـار جرجس وكنيسة مار بـرصوما ، وبقيت كنيسـة جبلة الصـغيرة ، وكنيسة في اللاذقية . وذلك تمجيدا لله عز وجل وتشـجيعا للايمـان القويم والمؤمنين ، وقد وصـف البـطريرك ميخـائيل السرياني تلك الزلزلة قائلا : « كنا واقفين في هيكل دير مار حنانيا (الزعفـران) نتلو صلاة الصبح يوم عيد القديسين بطرس وبولس فسـمعنا بغتـة صوت رعد قوي وسـقطنا على وجـوهنا امـام المائدة المقـدسة ، وتشبثنا بها ونحن نميل هنا وهناك ، وبعد مـدة طـويلة افقنا كمـن يفيق من القبر وانتبهنا انتباه مـن ينهض مـن رقـاد ، وتـدحرجت الدموع من عيوننا واطلقنا الالسنة بالشكر والتسـبيح لله تعـالى ، واجتاحت بيعة اليونان الكبرى بانطاكية ومذبح بيعة القسيان وهـي للفرنج ، وقد اشفق الرب الرحيم على بقية شعبنا وتعـطف على ذلنا نحن الذين لم يبق لنا ملك ولاحاكم منا .

وفي العام ١٤٨٢ (١١٧١ م) زفت ابنة قرا ارسـلان صـاحب حصن زياد الى صاحب ملطية ابـي القـاسم الذي تهـور عن ظهـر حصانه في غمرة الاحتفال بالعرس في ميدان الخيل فـانقلب الفـرح حزنا ، فولى الملطيون افريدون الصغير اخاه عوضا عنه بعد ان زفوا اليه العروس ذاتها على كره منها .

ويومها اجلى قلج ارسلان اهالي ضواحي ملطية بعد ان زحف اليها مع جيوشه من قونية ، وبعـدها انقلب الى قيسـارية لكن نور الدين كان له بالمرصاد فنهض نحوه مـع صـاحب مـاردين وحصـن زياد وارمن قيليقية وابن دانشمند صاحب سبسطية ، فوصلوا الى بـاب قيسارية فطلب قلج ارسلان الصلح ولم يخرج ليحاربهم ، ورد الذين اجلاهم عن ملطية وضواحيها ، وابقى عنده اولاد اخوته الاربعـة ، وحين طالبه نور الدين وجماعته بهم ارسل لهم احدهم على طبق بعد ان ذبحه وشواه ، واقسم ان يفعل الشيء نفسه مع الثلاثة اذا طالبوه بهم ، فتركوه ، وعادوا .

وفي عام(١١٧١ م ـ ٥٦٦ هـ) اغتصبت كل بلاد بني دانشمند من قبل قلج ارسلان .

وفي السنة نفسها وصل خبر وفاة قطب الدين الى اخيه نور الدين وتولى سيف الدين بعد وفاة والده قطب الدين . وبقي عبد المسيح في الموصل يضغط على الاهالي ويشدد عليهم ، ويتصرف كما يحلو له في شؤون الموصل ، مما دفع نور الدين ليقول : ينبغي ان اتولى انا تدبير ابناء اخي لاعبد المسيح ، فتوجه نور الدين الى الرقة واحتلها واحتل الخابور كله ونصبين ايضا بعد ان غادر حلب ، وقد زاره صاحب حصن كيفا محمد بن قرا ارسلان ، واستطاع نور الدين ان يحتل جبل سنجار ، واستعمل عليه ابن اخيه عماد الدين ، وحط رحاله شرقي الموصل جهة نينوى ، بعد ان توجه الى مدينة بلد وعبر دجلة ، وقد سقط صدفة احد ابراج الموصل الذي يبدو انه تصدع في السنة الماضية عند حدوث الزلزلة العنيفة . عند وصول نور الدين الموصل .

وخاف عبد المسيح ان يقتل فأرسل يطلب الامان ، عندما وجد ان العرب قد مالوا الى نور الدين ، واشترط ان تبقى الموصل مع سيف الدين ، لكن نور الدين اجابه بانه لايريد انتزاع الموصل من ابنائه ، لكنه يريد انقاذ اهلها من ظلم عبد المسيح وينقله معه من الموصل الى سورية ، فتم الصلح وترك سيف الدين متوليا امور الموصل بعد ان دخلها نور الدين ومكث في قلعتها ، واقام شحنة يتولى القلعة اسمه سعد الدين كمشتكين ، وتصرف احسن تصرف فاعفى الاهالي من الضرائب وقسم ارث اخيه على جميع اولاده ، وبنى مسجدا ضخما سمي المسجد النوري نسبة اليه ، والحق جزيرة قردو (١٧) بالموصل ، ورجع الى سورية وبرفقته فخر الدين عبد المسيح ، وسماه عبد الله واعطاه عطايا كثيرة بعد ان بقي في الموصل سبعة عشر عاما ، وقد شبه البطريرك ميخائيل السرياني عبد المسيح بمردخاي لانه كان يكره العرب وعلماءهم وقد تظاهر بالاسلام وظل يضمر النصرانية ، وكان يعامل النصارى احسن معاملة .

وفاة الخليفة المستنجد

وفي هذا العام يئس الزعماء ولاسيما الاستادار مـن بقـاء الخليفـة المستنجد حيا ، بعد اصابته بـداء المفـاصل ، ففتحـوا ابـواب السجون ، واطلقوا المساجين،فاخبر الوزير الخليفة بـذلك فغضـب واوعز الى ابـن صـفية الطبيب النصراني الوحيد الذي كان يزور الخليفة عند مرضه بالكتابة الى الوزير ليقبض على الثائرين ويفتـك بهم ، فنفذ امره وكتب رسالة ووضع الخليفة ختمه عليها وارسـلها مع حاجب صغير ، وقال له بان يدفعها الى الوزير دون ان يعرف به احد ، وذهب الحاجب منفـذا امـر الخليفـة لكن الطبيب ذهـب الى الاستادار واخبره بما حصل فقبض على الحاجب وفتشه كما قتله ، ودخل مع رفاقه الى دار الخلافة الداخلية وفيهـا الجـواري اللائي صرخن في وجوههم قائلات : كيف هجمتـم ياكلاب علينا هجـومكم على سفيهات عاريات ، لكنهم لم يعطوا بالا لذلك وتابعوا طـريقهم ، ودخلوا غرفة الخليفة وحملوه الى الحمام على الرغم منه بحجـة ان الطبيب امرهم بذلك ، وعروه هناك ،ووضعوه في بيت داخلي شـديد الحرارة حتى سقط صارخا متأوها ، واخذوا بقـرع البـاب حتـى لاتسمع الجواري صراخه ويعرفن من قتله اذ لم يسـتطع الزعمـاء طردهن او ان يتخلصوا منهن،ثم دخل احـد الزعمـاء على الخليفـة واخذ يدوس عليه حتى بعج بطنه فنقلوه على آخر رمق حتى تشاهده الجواري ويتحقق انه لم يقتل قتلا،وبعدها رفض الزعماء ان يعـطوا الخليفة ماء،وبعدها وعند الحاح الخليفـة بـطلب الماء امـر الطبيب باعطائه الماء ، ظنا منه انه سيموت لدى شربه ولكنه تـوفي قبـل ان يمتص الماء لان حلقومه كان قد انسد ويبس ، وطالعنا في كتاب آخر ان هذا الخليفة كان يحب جاريه اسمها بنفشة فغارت منهـا امـرأة الخليفة وحثت ابنه ليضاجعها وفعل كذلك ، وعندمـا طلب الخليفـة الجارية اطلعته زوجته على الحقيقة وانها لم تعد تحل له فغضـب ، وخولط بعقله وأمر بقتل ابنه ، لكن الزعماء خالفوه فقتلوه وبـايعوا ابنه بالخلافة .

ابـــــو الحســــــن المســـــتضيء بـــــــأمر الله ـ ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م

دام حكم المستنجد تسـعة اعوام ؛ وكان للمسـتنجد ابـن حليم ومتواضع لم يفكر يوما بالخلافة ، وقد وقـع عليه اختيار الزعمـاء الذين قتلوا والده فبايعوه ، ولكنهم قبل ان يبايعوه اسـتحلفوه بـان يرد لهم ما اخذه ابوه منهم ، والا يغدر بهم او يقتلهم ، فاقسم لهـم بذلك ، وكذلك فعلوا باخيه بعد ان اسـتحلفوه وهـددوا بقتله ، ثـم هددوا بالقتل جميع ابناء الاسرة ، فلمـا اسـتحلف الزعمـاء جميع ابناء الاسرة بايعوه بالخلافة واطلقوا عليه اسم المستضيء .

وفي عام ١٤٨٣ يونانية(١١٧٢ م) عم الارض الثلج حتى الهند التي لم تكن تعرف الثلج ابدا ، ويقال ان ارتفـاع الثلج بلغ يومهـا اربعة عشر شبرا ، وتجمدت الينابيع والانهار ، ومـاتت الحيوانات والطيور من الجوع والعـطش ، امـا الناس فلم يعـد يتيسر لهـم الانتقال من قرية الى اخرى ، فلزموا بيوتهم لايتحركون منها وكأنها قبور ، وقضى الثلج على العديد مـن المسـافرين وسـكان الخيام ، وعندما تفاقم الجوع في سبسطية بسبب بعد المسـافة ، طلب زعمـاء سبسطية من صاحب كبدوكية اسماعيل بـن دانشـمند قمحـا لهـم ولذويهم يمسكون به رمقهم الى ان يحل الصيف لانه يملك اهـراءات كثيرة مملوءة بالقمح ولكنه رفض طلبهم ، فهجمـوا عليه ، واحتلوا الأهراء وفتكوا به وبامرأته التي هي أخت السلطان قلج ارسـلان ، وقتلوا معهما خمسمائة شخص من الحشم والعبيد والجـواري ثـم أرسلوا الى دمشق في طلبه عمه ذو الذون ، فأقبل وتولى السـلطة في سبسطية بعد أن كان منهزما من وجه السلطان.

في عام ١٤٨٢ يونانية(٥٦٧ هـ / ١١٧١ م)ارسـل نور الدين كتابا الى صلاح الدين كي يخطب لخليفة بغداد ويلغي الخطبة بـاسم العاضد ، لكن صلاح الدين اجل هذه المسألة خوفا من قيام ثـورة ،

فالح نور الدين مرة ثانية ولم يستطع ان يخالفه ، فاختلف زعماء مصر وانقسموا الى فرقتين عندما استشارهم صلاح الدين في هذه المسألة ، احداهما وافقت على ذلك والثانية نهت عنه ، وحضر الى هناك الامير العالم وهو رجل فارسي وقال لهم : انني سأبتدي الخطبة واجنبكم المشكلة،وبالفعل صنع كذلك،فصعد يوم الجمعة المنبر ، ودعا لابن العباس المستضيء بدلا من ابن علي العاضد ، وايده الجمهور ، وحصل مثل ذلك في مساجد مصر كلها يوم الجمعة التالية والغيت بذلك خلافة المصريين .

وكان العاضد خليفة مصر أنذاك مريضا ، وتوفي دون أن يدري بما حصل،لأن اصدقاءه لم يعلموه بذلك خوفا من أن يعاجله الموت، أما ابناء الخليفة وآله فقد اعتقلوا من قبل صلاح الدين الذي فصل الاناث عن الذكور كي يقطع نسلهم ، واطلق العبيد والجواري.

وفرح بذلك العرب من جماعة القضاء والقدر وجماعة مؤيدي الحرية والاختيار ، وقد قيل ان الخلفاء المصريين ينحدرون من رجل مجوسي أو يهودي لاكما يزعمون من علي وفاطمة ، وقد نظم الشعراء القصائد الكثيرة التي تتكلم عن ظهور الدولة اليوسفية والغاء الدولة الفرعونية ، وقد ظهر منهم في المغرب اربعة عشر خليفة ، ثلاثة في افريقية ، وهم: المهدي والقائم والمنصور . وأحد عشر في مصر وهم: المعز ، والعزيز ، والحاكم ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعلي ، والآمر ، والحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاضد.

ولم يعارض صلاح الدين حين استقل بمصر سوى نور الدين الذي ارسل اليه يقول . انني احاصر الكرك فجهز جنودك وسارع بالقدوم الى هناك ، لكن صلاح الدين لم يأبه بالامر . فغضب نور الدين وقرر أن يذهب لمصر بنفسه كي يخرج صلاح الدين ، عندها جمع صلاح الدين أعوانه وشاورهم في الأمر ، لكنهم لم يدروا ماذا يقولون الى أن نهض ابن أخي صلاح الدين الشاب وقال لهم بأن يحاربوا نور الدين اذا حاول دخول مصر ، فوافقه الشباب على

رايه ، لكن والد صلاح الدين وخاله لم يعجبهما الأمر، فصرخ والد صلاح الدين غاضبا وقال:هل بين الحضور من يرغب لك الخير اكثر مني ومن خالك ؟ فقال صلاح الدين : كلا،فقال والده : كن على ثقة انني وخالك اذا شاهدنا نور الدين سوف نخر ، ونقبل الأرض بين يديه واذا كان الأمر كذلك فمن يتجاسر ويشهر السلاح عليه ؟ ان بلاد مصر بأجمعها وغيرها ايضا هي لنور الدين ، واذا اراد ان يعزلك فلا حاجة به ان يزحف اليك في جيوشه بل حسبه أن يرسل شخصا واحدا ،ثم نهض الشيْخ نجم الدين ووجه خطابه الى الأعوان قائلا . اننا جميعا من عبيد نور الدين وله ان يصنع بنا مايشاءه ، ثم قال والد صلاح الدين لابنه بعد أن انصرف الزعماء . انك يافع لاتملك عقلا ولاسياسة،الا تدري اذا علم نور الدين بتمردك يترك كل شيء ويلاحقك حتى يقضي عليك ، ومن ياترى من جنود نور الدين يتركه ليتبعك ، ونبهه قائلا ان كل كلمة تصدر عني وانا والدك ستصل الى نور الدين ، ثم نصحه بإرسال رسول يخاطبه بوضوح وصراحة بأنه عبده ويقدم له الولاء ولاء عبد لسيده ، وأن خوفه من الفرنج هو الذي يجعله يتردد في الذهاب لملاقاته ، خاصة أن أحوال مصر مضطربة بسبب ذلك ، وقد فعل صلاح الدين كما أراد الشيخ والده •

وفي تلك الفترة تعرضت قرى كثيرة للنهب حين جاءت الى أطراف الصعيد جماعات غفيرة من النوبة ، ونشب القتال بينهم وبين الجنود الذين وجههم صلاح الدين ، فمات العديد من الطرفين ، ثم تقوى السودان فجاء شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين في جيش غفير ، فهربت النوبة ولاحقهم العرب فقتلوا وغزوا واستطاعوا احتلال قلعة ابريم وأقاموا عليها واليا ، لكن العرب عندما رجعوا استرجع النوبة قلعتهم وعادوا اليها ، وقد أرسل ملك النوبة الى شمس الدولة رسولا وهو في قوص ، وطلب منه الصلح فوافق شمس الدولة بشرط تأدية الجزية ، كذلك بعث شمس الدولة مع رسول النوبة رسولا اسمه سعود الحلبي فوصل الى العاصمة دنقلة ، واستطاع خلال مسيرته أن يتعرف على الضيق ويكتشف ان

أهالي النوبة لايزرعون الا الدخن ، وعندهم النخيل ويأكلون الدخن ملتوتا بتمرهم ونتاج مواشيهم ، ولايوجد عندهم سوى بناء واحد هو قصر الملك وداره ويسكنون المغاور والخيام ، وروى سعود الحلبي ان الملك أمر بكي يدي على شكل صليب وذلك عندما دنوت منه وسلمت عليه ، وقد كان عاريا ويركب حصانا عاريا لكنه التف برداء اطلس غير مخيط ، وكان رأسه مكشوف واصلع ، وقد أطلقني الملك بعد ان دفع لي خمسين رطلا من القمح ، وروى ايضا انه عندما سلم عليه استغرق بالضحك والقهقهة .

وفي عام ٥٦٩ للعرب (١١٧٣ م)احتلت اليمن واستملكت من قبل شمس الدولة .

وفي أيار ١٤٨٥ لليونان (١١٧٤ م) توفي بداء الخناق في دمشق نور الدين،وكان رجلا قامته طويلة لالحية له وتحت ذقنه بضع شعرات ، بسيطا في لباسة وكسوته يكره العرب المتحدرين من علي ، واستعاد ابان حياته من الفرنجة مايزيد على خمسين مدينة وقلعة ، وبنى في دمشق بيمارستانا كبيرا ومدرسة وبني مسجدا ضخما في الموصل ، وحدث الرحبي الطبيب الدمشقي الذي ادركت انا الحقير ابنيه الطبيبين الفاضلين ، قال:« لما تفاقم داء نور الدين ودعيت الى عيادته مع سائر الأطباء ، شاهدناه في بيت ضيق صغير وطلبنا منه أن يفصد في الوريد فأبى ، ولم نر أن نلح عليه لأننا كنا نهابه جدا ، وما عتم ان مات».

الملك الصالح اسماعيل

وقام بعد نور الدين ابنه الصالح اسماعيل ، وحالفه جميع الزعماء ، وخطب له في مصر صلاح الدين ، وضرب الدراهم والدنانير باسمه ، وفرح صاحب الموصل سيف الدين غازي فرحا عظيما حين نعي اليه عمه نور الدين ، وأمر المنادين ان ينادوا بحرية الأهالي في أن يشربوا ويسكروا ويبذخوا علنا ، ثم احتل الرها

وحران وماحولهما حين جـاء الى بـلاد مـابين النهـرين بجيوش جرارة ، وبعث قائد الجيش الحلبي شمس الدين الى زعماء دمشـق وقال لهم بأن يرسلوا الى حلب الملك الصـالح قبـل ان ينتـزع مـن ايديهم ، لكنهم لم يتركوا الملك الصالح يغادرهم خوفا من ان يتـولى سياسة الدولة ، وبعث صلاح الدين يعاتبهم لأنهم لم يسـتعينوا بـه ولم يطلبوا منه المساعدة وقال : « لو عرف نور الدين ان بينكم مـن هو انشط مني لولاه مملكة مصر ، والآن فاني قادم اليكم اذ يتـرتب علي ان ادبر مولاي وابن مـولاي دونكم ».عند ذلك خـاف الزعمـاء فارسلوه الى حلب ، وجعلوا سعد الدين الحاجب قيما للصالح ، وقد كان سعد الدين في الماضي حافظا لقلعة الموصل ثم هـرب وجـاء الى دمشق .

وبعث الدمشقيون في طلب الصلح مع ملك بيت المقـدس عمـوري وقبلوا بتأدية الجزية وذلك تخوفا من صلاح الدين ، لكن بعد مـرور أربعين يوما على موت نور الدين توفي في عكة في الحـادي عشر مـن تموز الملك عموري ، وقد عظم حزن المسـيحيين لموتـه وخلفـه ابنه بلدوين الرابع ، وكان عرب سورية ومصر يهابون عموري .

وزحف سلطان قونية قلج أرسـلان الى سـبسطية ونوقيسـارية وقومانا وملكها جميعها جين بلغـه نبـأ وفـاة نور الدين حليف ذي النون بن دانشمند ، فتـوجه ذو النون الى القسـطنطينية ، فـطلب النجدة من ملك اليونان ، وانتهت يومها زعامة بني دانشـمند التـي دامت (١٢٢) سنة.

وفي هذا الزمـــان ضـــايق امير ميافـــارقين الأرمـــن السناسنة ، فبعثوا الى شاه أرمـن صـاحب خـلاط وسـلموه حصونهم ، كذلك عاد ملك الكرج انتزع من العجم مدينة آني .(١٨)

قدوم صلاح الدين الى دمشق

وفي عام ١٤٨٥ يونانية(٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م) أقبل صلاح الدين الى دمشق بعد ان حشد جيشه متظاهرا بأنه قادم ليساعد مولاه ، ودخل الى بيت ابيه ومكث فيه،ثم وسوس الى حافظ القلعة ريحان الخصي ففتح له الباب ، ودخل دمشق واحتلها أخوه سيف الاسلام وأصحابه وأيد الخطبة للملك الصالح اسماعيل ، ثم ترك دمشق واتجه الى حمص واستولى عليها وتابع الى حماة وملكها ، وحين وصل الى جبل جوشن قرب حلب ، احتشد الحلبيون جميعا ومعهم أميرهم أمام ميدان باب العراق ، وطلبوا من الصالح ان يخرج ويكلم الجماعة بشكل مؤثر لصغارهم وكبارهم ، فلبى الصالح طلبهم ووقف في مكان مجاور في الميدان ، وقال لهم : أيها الحلبيون لقد ربيتموني وهاأناذا استغيث بكم ، وليس لي أب أو أخ سواكم ، ثم اجهش بالبكاء لدرجة الاختناق فبكوا جميعا لبكائه ، ونادوا بصوت واحد : نحن عبيد لك ومستعدين للتضحية فداء لك .

أما الفرنج فقد لاموا صلاح الدين على عمله هذا وأرسلوا اليه ينكرون ذلك وقالوا له : بعملك هذا تنكر جميل مولاك ، ودعوه الى ان يسمعهم ويترك حلب والا فسوف يهجمون عليه وينقلبون ضده ، ولما رأى صلاح الدين أن الأمور لن تسير كما رسم لها ، وأيقن انه لن يقدر على خداع الحلبيين ، انقلب عائدا نحو بعلبك فاحتلها ، ثم توجه الى حمص وتمكن من امتلاك قلعتها ، وبعث الحلبيون الى صاحب الموصل سيف الدين قائلين له ومنبهين بأنه اذا سمح لصلاح الدين باحتلال حلب فلن يترك الموصل ابدا ، فاتفق سيف الدين مع الحلبيين وساروا الى حماة بجيش كثيف بقيادة عز الدين اخي سيف الدين ، وبعثوا الى صلاح الدين وهو في حمص رسولا يخبره انهم يريدون ان يسترجعوا جميع حصون مولاه ويكتفي بدمشق فقط ويكون مثله مثل جميع الأمراء

الذين يخضعون للملك الصالح ، فأجابهم صلاح الدين : بأنه لم يأت الا ليحفظ مولاه وبـلاده وخـزائنه لا ليحـاربه وأنه لن يخـالفهم ابدا ، ولكن لما سمعوا رده اسـتضعفوه ، فـأضافوا طـالبين منه مغادرة سـورية والعـودة الى مصر والا ليس له الا السـيف ، ثـم توجهوا الى الرستن فسار اليهم صلاح الدين وتحارب الجيشـان في ضواحي حماة ، فانتصر صلاح الدين وجماعته ، وهـزم المواصـلة والحلبيون وارتدوا منهزمين ، فـأمر صـلاح الدين جيوشـه بـألا يلاحقوا المنهزمين ولايقتلوا أحدا ، وعندها بعث اليه الملك الصـالح يسأله الصلح ويعرض عليه ترك سورية الخارجة للصالح ، ويتـولى دمشق وحماة وحمص ، فرفض صلاح الدين ذلك ولم يقبل الا بعد ان اضافوا الى ذلك المعرة وكفر طاب ، واقسم أن يخطب للملك الصالح في كل البلاد التي يأمرها وأن يساعده كلما دعت الحاجة لذلك .

ولما سمع المستضيء خليفة بغداد أخبار انتصارات صـلاح الدين أرسل اليه حللا ملكية وسيفا وألوية ومرسوما ، وكان يومئذ قـطب الدين قايماز متمردا على الخليفـة ومحـاصره في قصره ، فخـاف الخليفة خوفا شديدا ووثب الى السطح وأمر المنادي بالمناداة بـأعلى صوته مستنشدا البغداديين لمسـاعدة خليفتهـم وامـام دينهـم وليحثهم على ذلك بدا فع الدين ، وقـد لبـى اهـالي بغـداد النداء وهجموا على قايماز بالعصي والسيوف والأحجـار وقـطع القـرميد واستطاعوا ان يتغلبوا عليه وعلى رجاله فهربوا الى الصحراء وكان العطش قد أدركهم فوجدوا صهريج ماء خنقت فيه الأفاعي ، فانتشر السم في أجسادهم وفي خيولهم ، وعادوا الى الموصل ليقضوا نحبهم بعد ان قضي على أغلبهم في الطريق .

وفي عام ١٤٨٦ يونانية (١١٧٥ م)حاول زعماء أرمينيا اغتيال اميرهم مليح فهرب الى احد الحصون ، لكن الحـراس تمـكنوا منه وقطعوا جثته اربا اربا والقوها للكلاب ، وذلك انتقاما للمسـيحيين الذين عذبهم والحق بهم السـوء والأذى ، ثـم طلب الزعمـاء مـن

طرسوس روفين ابن اخيه اسطفان وسلموه زمام الأمور فقضى على قتلة عمه مليح لأنهم مثلوا في جثته بالقائها للكلاب .

وفي عام(١١٧٥ م ـ ٥٧١ هـ) بعث صاحب الموصل سيف الدين الى الصالح في حلب يلومه على مهادنته صلاح الدين ، ثم سير جيشه وكان يضم نحو عشرين ألف فارس واتجه الى حلب ، وأطلق سراح زعماء الفرنجة الذين كانوا قد سجنوا هناك منذ فترة طويلة .

ثم باع بثمانين ألف دينار قمص طرابلس وبخمسين ألف دينار جوسلين بن جوسلين ، وبمائة وعشرين الف دينار امير انطاكية البرنس ، واستحلفهم ان يساعدوا العرب اينما وجدوا

وتوجه الحلبيون والمواصلة الى حرب صلاح الدين الذي حشد بدوره قواته وتوجه للتصدي لهم ، فالتقى بهم عند اطراف تل السلطان بين حلب وحماه فهزمهم ، واحتل صلاح الدين خيامهم واثقالهم ووجد هناك مجموعة من الطيور كالبلابل واليمام والحمام في اقفاصها ، ومائة من المطربات العاهرات ، وطلب احد ممثلي الروايات ، وبعثه مع الاقفاص الى سيف الدين ،وقال له بأن يذهب ويسلم على سيف الدين بدلا مني وقل له : « ارجع الى شنشنتك ولا عب طيورك لانها تحميك من كل خطر » وكان قد قيد زعماء الموصل ومن بينهم فخر الدين عبد المسيح ففكهم والبسهم ثيابا ومنحهم هدايا وأرجعهم بأمان وسلام تاركا حلب على ماكانت عليه ، واحتل قلعة بزاعا عندما مر بها وتوجه الى منبج وتولاها ، ووقع على ثلاثمائة ألف دينارفي قلعتها ، ثم توجه فحاصر عزاز أربعين يوما استطاع بعدها احتلالها .

الحرب التي اندلعت بين منويل وقلج ارسلان

وفي عام ١٤٨٧ يونانية (١١٧٦ م) بنى ملك اليونان منويل مدينتين على حدود الأتراك وجعل فيهما الجنود وأخذوا بازعاج اصحاب قلج ارسلان ، لأن قلج ارسلان رفض ان يرد الى آل دانشمند أماكنهم على الرغم من الحاح منويل ، فسير الملك ثلاثين الف فارس من اليونان مع ذي النون التركي ابن دانشمند ، وتمكنوا من محاصرة نوقيسارية ، فكتب اتراكها بلسان اهليها النصارى في اليونانية رسالة يقولون فيها : « لاتصدقوا ذي النون فهو يواصل الأتراك برسائله ، ويحاول ان يغدر بكم ويدفعكم الى اصحابه » .

عندها دب الخوف في قلوب اليونانيين فتركوا المدينة وتتبعهم الأتراك وقتلوا ابن اخت الملك ، فغضب الملك وتوجه الى حدود الأتراك مصطحبا معه جيوشا كثيفة ، وترك العجلات والأثقال ، وسمح لليونان بنهب وحرق القرى التركية الخالية من الناس والزاد ، وأثناء ذلك تمكن الرجالة الأتراك من اجتياز الأودية العميقة والجبال الى أن وصلوا الى معسكر اليونان فنهبوه وأحرقوا العجلات وأخذوا يدحرجون الحجارة الضخمة من قمم الجبال فسحقت اليونان وخيلهم ، وعندما حل الليل بعث الملك الى السلطان سفيرا يطلب الصلح فلبى السلطان طلبه لأنه كان خائفا مثله ، وسير السلطان في خدمة الملك ثلاثة أمراء من الأتراك رافقوه الى حدود بلاده ، وكان الأتراك قد انتهبوا من اليونان صليبا يشتمل على قطعة من خشب صليب الصلبوت ، وذلك بين حملة الصلبان والحلل التي كانت ترافق اليونان في كنائسهم (النقالة)، فأرسل الملك ذهبا وافرا الى السلطان واسترجع عود الصليب .

موت نجم الدين حاكم ماردين

وفي هذا العام توفي صاحب ماردين نجم الدين بعد ان دام حكمه اثنين وعشرين عاما ، عامل خلالها النصارى خير معاملة وصان كنائسهم وأديرتهم ، وتولى بعده ابنه قطب الدين الذي اقبل اليه عمه صاحب حاني وعمه صاحب دارا طائعين ، وصالحهما بعد ان تحرش بهما ، واستطاع ان يقتل الف عربي (معدي)وينتزع منهم اثني عشر الف جمل بعد ان سارع المعديون الى غزو بلده حين زاع خبر موت ابيه ، وهرب من بقي منهم .

وفي السنة ٥٧٢ للعرب (١١٧٦ م) زحف صلاح الدين مجددا ضد حلب ، وعندما لم يستطع صاحبها الصالح مقاومته تذلل وطلب منه الموادعة ، فقبل صلاح الدين وعقد صلحا مع حلب والموصل وارمينية الصغرى ، ثم بعث الصالح اليه اخته التي طلبت منه اعزاز فأجابها ولبى طلبها ، ثم ترك حلب متوجها الى دمشق وتزوج بعصمة الدين امرأة نور الدين ، وسلم أمور دمشق الى أخيه شمس الدين تورانشاه ، وعاد الى مصر وشيد سورا واحدا يلف مدينتي مصر والقاهرة وبنى فوق الجبل المتوسط قلعة .

هزيمة صلاح الدين عند عسقلان

في السنة ٥٧٣ للعرب (١١٧٧ م) وهي السنة ١٤٨٩ لليونان (١١٧٨ م) قتل صلاح الدين العديد من النصارى وسفك الدماء وغزا وأسر عندما زحف الى عسقلان في جيوش كثيرة ، فخاف الفرنج لأن ملكهم كان في بيت المقدس مريضا بمرض الجذام ، فتشجع متحمسا واجتمع بجنوده ثم ترجل عن حصانه وخر ساجدا أمام الصليب المقدس وأخذ بالبكاء ، فتأثر الجنود وأقسموا على الجهاد والقتال حتى النهاية ، وكمنوا حتى

توغل الأتراك في الضواحي منهمكين من الغزو ، ولم يستأنفوا القتال فاعتقد الأتراك أن الفرنج ضعفاء ، لكن الفرنج سرعان ماتوجهوا اليهم وأدركوهم وهم يجتازون النهر ، وقد أعمت عاصفة أرسلها الرب الأتراك بعد أن جرفت الرمال من ناحية الفرنج اليهم ، وهاجمهم الفرنج فتراجعوا وتاهوا في الصحراء القاحلة ، لكن الفرنج لاحقوهم خمسة ايام ، واخذوا بجمعهم جماعة جماعة وقيدوهم وقتلوهم ، لكن صلاح الدين استطاع الفرار الى القاهرة مع قليلين ، قال المؤرخ : « شاهدت حاملي البشرى راكبين وسمعت المنادين ينادون في شوارع مصر ان السلطان انتصر ، و الفرنج انكسروا فبادرت لاستخبرهم عن كيفية الانتصار فقالوا : افرحوا وابتهجوا لأن السلطان سالم ، فعرفت ان البشرى كانت عكس الواقع »

احتلال قلج ارسلان ملطية .

وفي هذا العام (١١٧٧ م)تصالح قلج ارسلان مع منويل ملك اليونان ، وجاء قلج ارسلان الى ملطية وبقي أربعة أشهر مشددا عليها ولم يستطع ان يدخلها فأوعز الى جنوده ليشتوا في بيوت ابتنوها من اللبن ، وشيدوا له بيوتا كبيرة من الحجارة التي نقلوها من المقابر ، وخاف امير المدينة وهو من اسرة دانشمند ان يتفق الزعماء ويسلموه المدينة محتجين بالغلاء ،فسار الى حصن زياد بعد ان بعث اليه السلطان الأمان ، واستطاع السلطان يوم الأربعاء ٢٥ تشرين الأول عام ١٤٨٩ يونانية (١١٧٨ م) أن يحتل ملطية .

وفي العام التالي وبغية مضايقة الدمشقيين ابتنى الفرنجة على شاطىء الأردن في مكان يطلق عليه مخاضة يعقوب مدينة بعد ان اتفقوا مع الملك بلدوين(١٩)

خـــروج صـــلاح الدين مـــن مصر وانتصـــاره على الأفرنج في فلسطين :

وتوجه صلاح الدين من مصر الى بعلبك بعـد ان خـرج حـاكمها عليه ، وشدد عليه الحصار الى ان طلب الهـدنة وسـلمه المدينة ثـم ذهب الى فلسطين فثار عليه الفـرنج وانتصروا عليه وغزوا نواحـي العرب وانصرفوا،لكن بعد ان اطمأن الفرنج الى نصرهم كمـن لهـم العرب وفاجأوهم واعتقلوا نحو مائة محـارب منهـم وقبضـوا على مقدم الداوية ، ثم سار صلاح الدين الى المدينة التي احدثها الفرنج وامتلكها ، وكان يوجد فيها يومئذ خمسمائة مـن الرهبـان الداوية الذين شاهدوا غلبة العرب عليهـم ، فمنهـم مـن أحـرقوا انفسهم ، ومنهم من ألقوا بأرواحهم في نهر الأردن ، فغرقوا ومنهم من رموا بأنفسهم على الصخورفماتوا وقضت سـيوف العـرب على من بقي منهم .

مرض منويل ملك اليونان وموته

وفي السـنة ١٤٩١ لليونان (١١٨٠ م) مـــرض ملك اليونان منويل ، ولما احس بنهـايته تـوجه الى احـد الأديرة وبـايع ابنه الكس ، ووضع له التاج ، وبقي منقطعا في الدير ، واناط بـامرأته والدة الكس خزائن الدولة وجعلها راهبة هناك، ووضـع اثني عشر زعيما ليشرفوا على تدبير الجيوش ، لكن الملكة الراهبـة ارتـكبت المنكر مع احد اولئك الزعماء الاثني عشر فحاول البقية ان يخلعـوا ابنها ويولوا مكانه ابنة منويل وهي من زوجته الأولى بدلا مـن الملكة الراهبة ، ويبايعوا زوجها بالملكة ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك .

وانكشفت المكيدة فهرب الزعمـاء مـن الخـوف والتجـأوا الى الكنيسة الكبرى ، وحـدث قتـال دام سـبعة ايام في المدينة سـفكت

خلالها الدماء ، ووجه رجال الملك نحو كنيسة اياصوفيا المنجنيقات ، لكن البطريرك ثيودوسيوس توجه الى الملك وامه اللذان اقسما له بانهما لن يؤذيا احدا ممن هو داخل الكنيسة ، فخرج الجميع مطمئنين ، لكن الملك وامه حنثا بقسمهما وسملا عيون الزعماء وفتكوا باحزابهم ، فانزعج البطريرك والغى قرع الذواقيس وأوقف الصلاة تسعة اشهر ، ثم ابرم الحرمان على المدينة وتركها واعتكف في دير قريب ، ثم شيع الموتى جميعا ودفنوا دون صلاة.

وفي تلك السنة وجه السلطان قلج أرسلان جيشا الى رعبان ، فتصدت له جيوش سلطان دمشق ، فما كان منه إلا أن هرب الى كبدوكية ، وكان لجيش دمشق سجلا حافلا في محاربة الفرنجة.

وفاة الخليفة المستضيء بأمر الله

وفي عام ٥٧٥ للعرب (١١٧٩ م) توفي الخليفة المستضيء بأمر الله وخلفه ابنه الناصر.

ابو العباس أحمد الناصر لدين الله

مدة حكمه سبعة وأربعون عاما ، فور تسلمه الخلافة ، أودع الوزير ابن العطار السجن ، واستولى على كل املاكه فتوفي وكان ذلك ليل الأربعاء ١٢ ذي القعدة ، وقد ثار غضب البغداديين عندما شيع جثمانه ، وأنزلوه عن كتف من كان يحمله ، وفلقوه وربطوا احليله بحبل ثم سحبوه متجولين به في بغداد ، وتمادوا في هزئهم به الى أن بادر الأتراك فواروا جثمانه ، وقد شهدت تلك السنة ارتفاع الأسعار وانتشار الأوبئة حتى عمت الأرض كلها .

المواجهة بين صلاح الدين وقلج أرسلان

وفي عام ١٤٩٢ لليونان وهي السنة ٥٧٦ للعرب (١١٨١ م) خرج صلاح الدين مهددا السلطان قلج ارسلان.والقضية أن نور الدين بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق صاحب حصن كيفا كان متزوجا من ابنه السلطان ، وكان يهضم حقوقها ويسيء معاملتها ، فتدخل السلطان والدها وهدده فاستنجد نور الدين بصلاح الدين الذي طلب من قلج أرسلان أن يصفح عن زوج ابنته فأبى فاتفق صلاح الدين مع الفرنجة الذين كانوا يقيمون على الساحل وأعد جنده ، وقصد حلب الى أن بلغ برج قرا حصار قرب نهر الأزرق أي بين الحصن وحصن منصور ، فمكث في ذلك البرج ثم واصل مسيره الى نهر كوكسو فبادر اليه نور الدين فرحب له وأعطاه الأمان.فأوفد السلطان قلج أرسلان سفيرا له الى صلاح الدين فعقدا صلحا يضمن أن يعامل نور الدين زوجته معاملة حسنة ، ومن ثم توجه صلاح الدين الى النهر الأسود ، فانتشر جنده في قرى قيليقلية ، والتي كان صاحبها روفين يضطهد الرعاة التركمان ويسبي نساءهم ومواشيهم وأولادهم ، فأرسل روفين هذا كتاب تضرع الى صلاح الدين تذلل فيه ، كما أرسل اليه كمية من الذهب ، وأفرج عن خمسمائة من الأسرى الأتراك وبذلك استطاع أن يعقد صلحا مع صلاح الدين ، فتحول عنه صلاح الدين ، وأما قلج أرسلان ، فقد رجع الى ملطية فأصلح ما تداعى من سورها.

زواج البرنس صاحب أنطاكية من احدى الزانيات

وفي هذه الأثناء ـ ١١٨١ م ـ طلق البرنس صاحب أنطاكية زوجته الشرعية اليونانية ، وتزوج من أحدى الزانيات ، فحرم البطريرك الأنطاكي القس الذي عقد هذا الزواج ومنع قرع النواقيس وإقامة الصلوات ، فثار البرنس ونهب محتويات كنائس الفرنجة

وديرتهم ، فبادر بطريرك بيت المقدس وعدة قمامصة ، فصالحوه وباركوا زواجه من تلك الزانية ، فأعاد الى الكنائس والديرة ماأخذه منها.

وفي هذا العام أيضا كانت وفاة سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل ، وقد كان منغمسا في رغد العيش وتعاطي الخمرة ، وكان أهل الموصل إبان ولايته يعيشون حياة رغد وبحبوحة ، وقد خلف سيف الدين هذا أخوه عز الدين مسعود الذي كني بأبي الفتح ، وسار سيرة حميدة ، وأما صلاح الدين ، فقد قصد دمشق ثم غادرها الى مصر ، في حين تداعى بناء قلعة القاهرة ، وفي الاسكندرية توفي شمس الدين أخي صلاح الدين.

وفاة الملك الصالح اسماعيل

وفي عام ١٤٩٢ يونانية ، ٥٥٧ للعرب (١١٨١ م) مرض صاحب حلب الملك الصالح اسماعيل ، وعندما أيقن أن منيته قد دنت ، كتب لابن عمه عز الدين مسعود كي يبادر ليخلفه في الحكم قبل أن يأتي صلاح الدين ، واتفق مع زعماء حلب على ذلك ، ثم مات ويقال إن عبدا أطعمه عنقودا مسموما ، فقتله ، ويقال ان موته كان بسبب مرض المفاصل ، وقد حزن عليه أهالى حلب،والياروقيون (٢٠) الذين كانوا يسكنون في قرى حلب ، وقد بعث هؤلاء الى صاحب سنجار عماد الدين زنكي كي يجعلوه خلفا للملك الصالح ، وأما الحلبيون ، فقد طلبوا اليه أن يتحول عنهم ، وإلا فسيلقونه في غياهب السجن ، فرحل عنهم في حين وصل الى حلب قادما من الموصل عز الدين مسعود فاحتل القلعة ، وتزوج من أم الملك الصالح ، ثم بعث بها الى الموصل كما بعث اليها محتويات الخزاين المكتظة بالأموال من أيام نور الدين بن زنكي ، ووقع هدنة مع بوهيموند البرنس صاحب أنطاكية لمدة عامين ، ثم غادر حلب تاركا في قلعتها ابنه نور الدين الصغير وأقام عليه وصاية ، وقصد مرج

قرا حصـــــار ، وأوفـــد الى أخيه عما الدين صــــاحب ســــنجار سفيرا ،ولكن عما الدين هذه كان قد تحول بأهله وأبنائه عنهــا الى قرقيسيا مؤملا أن يعيد له صلاح الدين مملكة ابيه ، وأبلغ الســفير بأنه لن يعود مــا لم يتنازل له أخــوه عز الدين مســعود عن حلب أو الموصــل ، أو مــا بين النهـــرين ، فتنازل له عز الدين عن حلب فقط ، على أن يبقى ابنه نور الدين الصغير مقيما في قلعتها فــرفض ذلك عماد الدين بــدعوى أنه يأنف أن يكون تحــت طــاعة ابــن أخيه ، فأضاف عز الدين الى حلب عربان والمجدل وغير ذلك من بلاد الخابور لتكون تحت إمرة عماد الدين ، ولكن هذا الأخير رفض هذا العرض أيضا ، فاقترح الأعيان أن يتنازل عز الدين لعماد الدين عن حلب وقلعتها ، وأخيرا اتفق الأخوان على أن تكون حلب وضواحيها لعماد الدين ، وأن تكون الموصل وسنجار لعز الدين .

وفي هذا العام قصدت سفن فرنجية دمياط ، وقد كان الفرنجة قد هادنوا العرب لمدة سنتين ولكن العرب غدروا بالفرنجة وقبضوا على ألفين وخمسمائة من ملاحيمهم وتجــارهم بــدعوى انقضــاء مــدة الهدنة ، ولهذا اغار الفرنجة على مدينة ايله بسفن كثيرة ، وساروا في أماكن لم يسيروا فيها واغتصبوا ســفنا عربيــة كثيرة مشــحونة بالأسلحة والأموال الكثيرة وبــطشوا بـــالعديد مـــن ســكان عيذاب ، فوجه صلاح الدين سفنا عدة من الاسكندرية أدركت ســفن الفرنجة وقتل من الطرفين خلق كثير.

خبر عن اندورنيقس اليوناني الخبيث

وفي عام ١١٨٣ لليونان ١٤٩٤ م احتــال الزعيم اليوناني أندرو نيقس الذي كان قد طرده مــن العــاصمة الملك منويل فخــدع الكس ورجع الى القسطنطينية متظاهرة بالاذعان والطــاعة ، ومــالبث أن رمى بأم الفتى وصـــهرها وابنتهـــا بـــالبحر ، ثـــم

فتك بالفتى نفسه سرا ، كما فتك بما يزيد على الف زعيم واحـرقهم وفقأ أعين بعضهم ، واغتصب هـذا العجـوز الخبيث زوجـة الكس ، وطرد الفرنجة مـن العـاصمة لكن قبـل أن يغـادر هؤلاء الفرنجة العاصمة أشعلوا النيران في أربعـة عشر الفـا مـن قـرى اليونان واديرتهم ، وعلى أثر ذلك داهـم ملك صـقلية مـدنا يونانية عدة ، وتركها خاوية من سكانها.(٢١)

في عام ١٤٩٣ يونانية ، ٥٧٨ للعرب (١١٨٢ م) غادر صـلاح الدين مصر الى دمشق ثم الى حلب في محاولة لاحتلالها ، فنصـحه بعض الأعيان أن يتجاوز الفرات أولا ويبسط سيطرته على مدن مـا بين النهرين وآثور ، ومن ثم يرجـع لاحتـلال حلبَ ، فـأخذ بهـذه النصيحة فاجتاز نهر الفرات ومـدن الرهـا حـران والرقـة فاحتلها ، وعندما بلغ مدينة عربان دخلها بلا مقاومة ، لأن حراسها قدموا له مفاتيحها ، كما بسط نفوذه على بلدة ماكسين ، وأحسـن معاملة أهالي الخابور ، ثم يمم شطر نصيبين ، فـاستعد حـكامها لملاقاته لكنه حـاصرهم وشـل حـركتهم ، فلم يكن أمـامهم إلا أن يسلموه مدينتهم ، فدخلها ثم قصـد الموصـل وطـوقها مـن جميع نواحيها ، فتوسل صاحبها عز الدين الى خليفة بغداد أن يصلح بينه وبين صلاح الدين ، فكان له ما أراد ، وأرسل الخليفة سـفيرا الى صلاح الدين لهذا الغرض ، لكن شرط صلاح الدين كان أن يدفـع له أهالي الموصل نفقات رحلته ، أو أن يتخلوا له عن حلب ، فـأجابوا بأن ليس لديهم ذهب ، وأما حلب ،فصاحبها عماد الدين وليس من حقنا أن نعطي ما لا نملك

فغادرهم متوجها الى سنجار فتحارب مع صـاحبها شرف الدين ابن قطب الدين مودود ، وانتزعها منه ، ثم توجه الى دارا فأذعن له صاحبها صمصام الدين بهرام من بني أرتق ، فتركه عليها ، ورجع الى حران فجعل جنوده في استراحة طوال الشتاء وشـهر رمضـان والعيد ، وأما هو ، فقد ظل في حران مع قليل من الجند.

وخشي أهالي الموصل أن يرجع صلاح الدين ثانية في الربيع ليحتل

مدينتهم كما فعل بسنجار ، فأستنجدوا بشاه أرمن صاحب خلاط فأنجدهم واتفق لهذا الغرض مع ابن اخته قطب الدين ايلغازي بن البي بن تمرتاش صاحب ماردين خال عز الدين صاحب الموصل ، واجتمع الخلاطيون والمواصلة والماردينية في البارعية ، وانضم اليهم الف وتسعمائة فارس من الياروقية المجاورين لحلب ، وزحف هؤلاء جميعا للهجوم على صلاح الدين الذي بادر عندما علم بذلك الى جمع جيشه من حمص وحماة وما بين النهرين ، وقد اتم ذلك خلال ثمانية أيام ، وانضم اليه ابن قرا ارسلان من حصن كيفا ، وعندما بلغت شاه أرمن استعدادات صلاح الدين هذه هرع الى صاحبي الموصل وماردين واقنعهما بعدم جدوى الحرب في الشتاء فعاد كل منهم الى بلاده على أن يجتمعوا في الربيع القادم ، ومع ذلك أخبر صلاح الدين خليفة بغداد بما صنعه المواصلة ، واستأذنه باحتلال آمد ، فأذن له بذلك

وفي محرم ٥٧٩ للعرب وأيار ١٤٦٤ لليونان(١١٨٣)تمكن صلاح الدين من احتلال مدينة آمد بعدما حاصرها وقتا طويلا ، قاتل خلاله صاحبها ابن نيسان أعداءه قتالا ضاريا ، ولكن الآمديون خذلوه ، وبيان ذلك أن أصحاب صلاح الدين لما احتشدوا بين سوري المدينة هجم عليهم الآمديون وضيقوا عليهم ، فرفع صلاح الدين رايات كتبت عليها عبارات تهديد تحمل الوعيد والايمان المغلظة بأنه لن يرجع عن هذه المدينة ما لم يدخلها ويبطش بأهلها إن لم يستسلموا ، وارتعدت فرائض الآمديون وصاحبهم ابن نيسان خوفا ، فاستسلم وطلب من صلاح الدين الأمان له ولأهله ، فأمهله ثلاثة أيام ليخرج من المدينة ما يشاء من أمواله ومقتنياته ، ثم احتل المدينة ، وقد أخرج ابن نيسان من هذه المدينة الكثير الكثير من الذهب والفضة والآنية والأحجار الكريمة على أن كل ما نقله لا يعادل عشر ما كان بحوزته من الأموال ، وبعد أن بسط صلاح الدين نفوذه كاملا على مدينة آمد أوكل أمرها وأمر خراجها من المال لنور الدين بن قرا أرسلان ، فقيل لصلاح الدين إنك وعدته المدينة لا بأموالها التي تزيد على ثلاثة آلاف دينار؟ فأجاب :إنه لا يحسن بنا

أن نعطي صديقنا المدينة فارغة ، وقد قيل أنه عثر في أحد أبراج هذه المدينة على مائة ألف شمعه ، وأنه كان في مكتبها ألف ألف وأربعون ألف مجلد أهداها صلاح الدين كلها لكاتبه القاضي الفاضل ، ومكن ولاية ابن ارسلان على مدينةآمد ، ثم توجه الى عينتاب ، فأذعن له صاحبها نصر الدين بن كمرتكين ، ثم تحول عنها الى حلب فحاصرها ، ولم يكن صاحبها عماد الدين على حال يحسد عليه ، فقد كان استلمها خاوية من المال حتى انه لم يكن لديه ما يقدمه لجنوده ، يضاف الى ذلك أنه لم يجب شيئا من أهالي حلب وضواحيها ، ويروى انه قال لاحد الزعماء : ليس لدي ماأقدمه لك ، فاجابه هذا الزعيم قائلا : بع حلي زوجتك وادفع للمحاربين اذا شئت ان تكون ملكا ، وقد افضى به العوز الى حد صار معه الاهالي يطعمونه واهل بيته يوما فيوما ، وهذا مادفع القادة والجنود الى ان يتركوا امر الحرب للاهالي الذين اخذوا ذلك على عاتقهم ، ومع ذلك لم يتسن لصلاح الدين ان يحتل حلب عنوة ، فلجأ الى المفاوضات ، وبيان ذلك انه استمال ود زعماء حلب بما اغدقه عليهم من الاعطيات ، فأقنع هؤلاء عماد الدين بتسليم حلب لصلاح الدين والاكتفاء باماكن اخرى حتى لايفقد كل شيء ، ثم قالوا له:هل تظن ان العامة يمكنها ان تدافع عنك وتعمل في سبيل رزقك ، وقد نفد الطعام ولم يعد عندك ماتعطيهم ، فارتضى عماد الدين بأن يدخل صلاح الدين الى مدينة حلب ، وان يستولي عماد الدين على سنجار والرقة ونصيبين والخابور ، وعندما علم اهالي حلب بذلك لفهم الحزن وسخطوا سخطا شديداً على عماد الدين ، فاجتمعوا عند القلعة وراحوا يسبونه ويهزأون به ، ووضعوا طستا ورداء ونادوه قائلين : تبا لك من خنثى لايصلح لك الاغسل الاواني ، وذلك بينما كان يرمقهم بنظراته من شرفة القلعة التي نزل منها في ١٨ صفر متوجها الى خيمة ضربت له ، ثم قصد سنجار فتولى امرها وامر البلاد التي نص الاتفاق على ان يتولى امرها ، واما صلاح الدين ، فقد كان سروره شديداً باحتلال حلب ، ويحكي انه ردد وهو يصعد درجات القلعة قوله تعالى :« قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك

على كل شيء قدير »(آل عمران: ٢٦)، ويقال انه حدث من معه من الزعماء قائلا : الان عرفت ان الملك استتب لي ، صدقوني اني لم احسد نور الدين المتوفى الا على حلب ، ولم اتمن سواها ، وبعد ان تمكن منها اعفى الناس من عدة ضرائب ، ثم وزع عليهم من المال مامقداره ثمانمائة وخمسين الف دينار .

وقد اصيب في المعارك التي دارت قبل ان يدخل صلاح الدين حلب اخوه تاج الملوك بوري فمرض عدة ايام ، ثم قضى نحبه،وعندما زاره صلاح الدين قال:« يجب ان تسر بامتلاكنا حلب وهي لك منذ الان ، فأجاب تاج الملوك قائلا : ان السيادة تفيد الاحياء وليس من دنت اجالهم مثلي ، ثق تماما انك دفعت ثمن ملكها غاليا ، فقد ضيعت اخاك في ذلك»، وقد كان تاج الملوك محاربا مقداما ، فبكاه صلاح الدين ومن معه من الحضور بكاء شديدا .

وفي تلك الاثناء ادرك حراس حارم ان صاحبها ينوي بيعها للفرنجة ، فاغتنموا فرصة خروجه للنزهة ، فاوصدوا الابواب دونه ، ومنعوه من الدخول ، واخبروا صلاح الدين ان يأتي ويأخذ مدينة حارم ، فندب لذلك ابن عمه ، وابن اخيه ، ولكن الحراس ، اصروا على ان يحضر هو بنفسه فكان لهم ماارادوا ، فقد جاءهم صلاح الدين واجزل عطاءهم واخرجهم من القلعة ، ولكنه لم يتعرض لصاحبها بأذى لان الزعماء دافعوا عنه ، واكدوا ان الحراس غدروا به .

وجعل صلاح الدين ابنه الملك الظاهر مكانه في قلعة حلب ، وقفل راجعا الى دمشق ، ثم غادر دمشق بجيوشه الى قلعة الكرك فطوقها ، ولكن الفرنجة استعدوا للاغارة عليه فأحس بذلك فرجع الى دمشق •

وفي هذا الوقت جاء اخوه الملك العادل من مصر محملا بالذهب الكثير ، فولاه امر حلب ومايتبعها من رعبان وسواحل الفرات حتى

حماة ، وقد خرج الظاهر بن صلاح الدين من قلعة حلب بعد مقدم عمه الملك العادل ، ولحق بأبيه بعد ان أقام في القلعة ستة اشهر .

في عام ١٤٩٥ يونانية ٥٨٠ للعرب(١١٨٤ م) استعد صلاح الدين للهجوم على الكرك فاستقدم نور الدين من حصن كيفا ، واخاه العادل من حلب ، وتقي الدين من مصر ، وتجمعوا هناك ، وفي المقابل استعد الفرنجة فتخوف صلاح الدين ، وامر ان تحرق المنجنيقات ، ثم تحولت جموعه الى السامرة وداهمتها وكان البرنس ارناط صاحب الكرك قد حصن مدينته هذه تحصينا جيداً.واتجه البرنس صاحب انطاكية نحو حارم بمائتي فارس ، فبطش في ضواحيها بعدد كبير من العرب ، كانوا مجتمعين عند جسر الحديد ، كذلك صعد نحواً من عشرين فارسا الى الكمناء في الجبل وكان عددهم نحواً من اربعمائة راجل فقتلوهم على بكرة ابيهم .

وفي هذا العام توفي قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين البي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين ، فتولى امرها من بعده حسام الدين بولق ارسلان ، ولأنه كان بعد فتى ، عين خاله ناصر الدين شاه ارمن وصيا له اسمه نظام الدين ، فتزوج نظام الدين هذا بأم حسام الدين ونهض بشؤون الملك خير قيام ، وعندما توفي الفتى حسام الدين ، خلفه اخوه الاصغر قطب الدين بايعاز من نظام الدين وصار امر المملكة بيده وبيد عبده لؤلؤ ، وما ان كبر قطب الدين حتى احس بذلك ، فعمل على التخلص من نظام الدين وعبده لؤلؤ وحدث مرة ان مرض نظام الدين فعاده قطب الدين وعندما انتهت الزيارة خرج قطب الدين فرافقه العبد لؤلؤ الى الباب اكراما له ، وبينما هما في دهليز ضيق ضرب قطب الدين العبد بسيفه فقتله وعاد الى نظام الدين المستلقي على فراش المرض فأجهز عليه ، وقذف برأس العبد ورأس سيده بوجه الزعماء ، فسيطر عليهم الرعب واذعنوا لحسام الدين ، وبذلك انتهت وصاية نظام الدين التي دامت عشرين عاما ، فقد قتل في عام ٦٠١ للعرب(١٢٠٤ م)٠

وفي السنة ٥٨١ للعرب ، ١٤٩٦ يونانية (١١٨٥ م) اتجه صلاح الدين نحو حلب ، ثم تجاوز الفرات الى الرها ، فاخرج منها صاحبها مظفر الدين بن زين الدين ، ثم واصل مسيره الى دارا ورأس العين ، فقدم عماد الدين بن قرا ارسلان لزيارته بدلا من اخيه نور الدين الذي كان مريضا ، ومن ثم استأنف صلاح الدين مسيره الى بلد ثم الى الموصل ، فبادر صاحب اربيل ، زين الدين بن علي كوجك اليه ، وقد كان صلاح الدين صاحب حران مظفر الدين ، وعندما احكم صلاح الدين قبضته على الموصل توسلت اليه صاحبتها أم عز الدين بنت أرتق ، فقد خرجت إليه هي وبنت نور الدين وتذللتا إليه في محاولة لأن يترك الموصل لعز الدين ، ولكن محاولتهما لم تجد نفعا ، فثار اهالي الموصل تعبيراً عن تأييدهم لزنكي ورفضهم لصلاح الدين ، لذا لم يجد بداً من الرحيل ، فقصد خلاط لانه علم ان صاحبها شاه ارمن قد توفي ، فقام عبده بكتمر الذي عامل الخلاطيين جيداً ، فأحبهم واحبوه ، وعندما علم بقدوم البهلوان بن ايلدكز سلطان العجم استنجد بصلاح الدين ووعده بان يتخلى له عن المدينة ، ولكنه حصن مدينته ولم يخرج للقاء صلاح الدين عندما قدم

وعندما قدم شمس الدين البهلوان وقف على الطرف الاخر للمدينة ، وتأهب لمنازلتها ، نصحه زعماؤهما بألا يضغط على بكتمر ، والا انحاز هذا الأخير إلى صلاح الدين ، فأخذ البهلوان بنصيحة الزعماء وتقرب من بكتمر فطيب خاطره ، وقدم له محظية من خاصته ، ثم غادره وتركه وشأنه .

وعندما رأى صلاح الدين ذلك انقلب الى ميافارقين التي كان صاحبها قطب الدين ملك ماردين قد توفي فتولى امرها ابنه الفتى كما سلف بيانه ، فطوق صلاح الدين هذه المدينة ، والتي كان قائدها اسد الدين يرنقش ، وكان فيها خاتون زوجة قطب الدين صاحب ماردين ومعها بناتها ، فراحت تشجع المقاتلين ، فامتدت الحرب طويلا دون ان يحقق صلاح الدين مطامعه فيها ، فلجأ الى المماالقة ، فقد منى زوجة قطب الدين المذكورة انفا بان يزوج ابنه من احدى

بناتها ان سلمته المدينة ، فوافقت على ذلك شريطة ان يترك لها قلعة الهتاخ ، فكان لها ماارادت ، فتركت له المدينة وقصدت تلك القلعة .

وقدم صاحب إمد قطب الدين سقمان بن نور الدين بن قرا ارسلان لزيارة صلاح الدين فأحسن صلاح الدين استقباله ، ثم رجع الى مدينته ، ومن ثم قصد صلاح الدين من ميافارقين شاطىء نهر قرمان،كما قصد كفر زمار على ساحل دجلة .

وفي هذه الاثناء شعر اهالي الموصل بضيق شديد ، فبعثوا الى صلاح الدين غير مرة المرأتين المشار اليهما من قبل في محاولة لعقد معاهدة معه ، فتدخل بين الطرفين صاحب سنجار عماد الدين وتمت بناء على ذلك بينهما معاهدة تنص على ان يتخلى عز الدين صاحب الموصل عن شهر زور وعن الزابين وبيت وازيق ، وكل الشرق ، كما تنص على ان تضرب النقود باسم صلاح الدين ، وان ينادى في الخطب باسمه ايضا ، وبعد ذلك توجه صلاح الدين الى حران حيث ابتلي بمرض شديد ظن انه سيموت بسببه ، ولهذا قصد ابن عمه ناصر الدين بن اسد الدين شيركوه الذي كان معه الى مدينته حمص حيث اتفق مع الشبان على ان يكون هو خلفا لصلاح الدين ان مات ، ولكن شاءت قدرة الله ان يموت ناصر الدين ، وان يتماثل صلاح الدين الى الشفاء ، فتوجه صلاح الدين الى حمص واستولى على ماكان بحوزة ناصر الدين من الاموال ، وجعل الفتى الملك المجاهد ابن ناصر الدين خلفا له في حمص ، ويقال ان صلاح الدين عندما زار حمص بعد سنة سأل الملك المجاهد الى اين وصلت من القرآن ؟ فقال الى قوله :(ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلونة في بطونهم ناراً) (النساء: ١٠) فأعجب صلاح الدين بذكاء هذا الفتى ، وقال ان كان هذا الفتى قد فهم ماقال ، فقد لزم ان نخافه .

الصراع بين أندرونيقس واسحق

وفي عام ١١٨٥ م ١٤٩٦ لليونان ، تـأهب البـاغي أندرونيقس ليبطش باسحق آخر من بقي مـن أسرة منويل الملكية ، فـاعتصم ، اسحق بمنزله ، فبعث أندرونيقس قائد العسكر ليحضره ، فـطعنه اسحق بسيفه عدة طعنات ، ثم ركب جواده وتوجه نحو الكنيسة وهو يصرخ وسيفه في يده يقطر دما ، فلحق به بعض الأهالي ولفيف مـن القادة المعادين للبـاغي أندرونيقس ، فـدخلوا الكنيسـة ، وحملوا البطريرك على أن يتوج اسحق ملكا ، وعندما سمع أندرونيقس بذلك لاذ بالفرار عن طـريق البحـر ، فقبضـوا عليه ، وأرجعـوه إلى العاصمة ، ونكلوا به وقطعوه بسيوفهم إربا إربا ، ثم أحرقوه أمـام الجماهير المحتشدة .

وفي هذا العام اشتد داء الجذام على ملك القدس بلدوين ، فتخلى عن المملكة لابن أخته الصغير بلدوين (الخامس) ومالبث أن توفي .

أخبار صلاح الدين في هذه الفترة

وفي سنة ٥٨٢ للعرب ١٤٩٧ لليونان (١١٨٦ م) تماثل صلاح الدين إلى الشفاء ، فترك حران متوجها إلى حلب ثم حمص ، وأيقن أن ناصر الدين ابن عمه شيركوه قـد مـات ، فـأخذ قلعـة حمص من ابنه الذي كان قد خلفه في ولاية حمص ، وقد وجد في القلعة أشياء كثيرة ، ومن ثم واصل مسيره إلى دمشق ، ثم عاد إلى حلب فعـزل عنها أخاه العادل وجعل مـكانه ابنه الملك الظـاهر ، كمـا ولى ابنه الثاني الملك الأفضل على دمشق ، وأما مصر ، فقد جعلها لابنه الملك العزيز ، وبعثه إليها مع أخيه العادل ، ولما علم ابن أخيه تقـي الدين أن مصر لم تعد له ، ارتـاب واسـتعد للرحيل إلى إفـريقية ، ولكن صلاح الدين عمل على إرضـائه وطلب إليه أن يحضر إليه ، وأقنعـه بأنه إنما قربه منه طمعا بقوته وولاه حماه والمعرة وسـلمية ومنبـج

وقلعة نجم وميافارقين ، كما استقدم صلاح الدين ابنه الملك المنصور وجيوشه من مصر ، لكن مملوكه بوزباه رفض المجيء اليه ويمم شطر المغرب وملك افريقية.

اجتماع الكواكب السيارة في مكان واحد

وفي عام ١٤٩٧ لليونان (١١٨٦ م) اجتمعت الكواكب السيارة الستة في برج الميزان ماعدا زحل فقد كان على شكلين في ١٤ أيلول و ٢٩ جمادى الآخرة ، فتكهن المنجمون بأنه سيحدث طوفان وريح صرصر تهلك الخلق كلهم ، وأنه سيقع طوفان نظير طوفان نوح فيما لو تجمعت الكواكب كلها في برج الحوت ، وقد كان سلطان قونية قلج ارسلان أكثر الناس اقتناعا بهذه المزاعم لهذا هرع لحفر الأنفاق ، وبناء البيوت المحكمة ، وقد كلفه ذلك مبالغ كثيرة ، ولكن الله تعالى كذب المنجمين ،فقد كان الجو في اليوم الذي زعموا أن الطوفان سيقع فيه أكثر نقاء وصفاء منه في سائر الأيام ، ولم يلاحظ فيه سوى كسوف شمسي مألوف ، ولم يعد للمنجمين مكانة مرموقة في نظر الملوك والسلاطين لكذب دعواهم ولم يحافظ على هذه المكانة سوى منجم مشهور خالف المنجمين فيما زعموه من أن طوفانا سيحدث ، ولما سأله السلطان عما استند إليه فيما قاله قال : إنه لم يعتمد فيما ذهب إليه على التنجيم ، لكن قدر إن وقع الطوفان فسيموت هو وغيره ولن يبقى من يلومه على خطأ مزاعمه ، وإن لم يحدث ، فسوف تصدق تقديراته ويكسب الجائزة ، فضحك السلطان من هذا المنجم وأجزل له العطاء .

وفي هذه الأثناء عقد البرنس صاحب أنطاكية صلحا مع صلاح الدين وقبض بالحيلة على روفين صاحب قيليقية وأوثقه بالسلاسل وحشد جنده وتوجه بهم إلى بلاده،فوقف بوجهه لاون وقفة الأبطال ورده إلى بلده مخزيا ، وعلى إثر ذلك دفع له الأرمن ثلاثين الف

دينار مع المصيصة وأذنة ، فأفرج عن روفين ، الذي ارتد واستعاد المدينتين ، فنقم البرنس وعاث فسادا في بلاد قيليقية كلها .

وفي هذه الأوقات تم اغتيال البهلوان سلطان العجم ، وقد نجم عن ذلك حروب طاحنة ، فقد اقتتل الأكراد والتركمان غير مرة في ضواحي نصيبين ، وبيان ذلك أن أحد التركمان اقترن بتركمانية ليست من عشيرته ، وعندما مر موكب العرس بحصن كردي في زوزان اعترض طريق الموكب عدد من الأكراد وطلبوا منهم وليمة العرس ، لكن التركمان رفضوا هذا المطلب ، فأغار الأكراد عليهم ، وانتزعوا منهم العروس وساقوها إلى حصنهم فنشب القتال بعنف وشراسة فقطعت الطرق ونهبت البضائع ، وقتل من الجمعين نحو عشرة آلاف شخص ، ثم تجمع نحو ثلاثين الف كردي واشتبكوا مع التركمان في موقعة قرب الخابور ، فهزم الأكراد وتناثرت جثث قتلاهم مابين الخابور ونصيبين ، ثم التقى الجمعان ثانية بضواحي الموصل وانهزم الأكراد ثانية ، وشرع التركمان بمهاجمة الأكراد على التوالي حتى طردوهم إلى قيليقية وأوسعوا رجالهم ونساءهم وفتيانهم قتلا وجرحا وظلوا يلاحقونهم حتى أجبروهم على الرحيل عن سورية وبلاد مابين النهرين ، ثم دخلوا أرمينية ، واعتقلوا ستة وعشرين ألف من الأرمن وجعلوهم عبيدا ، ثم باعوهم ، وأشعلوا النيران في دير كرابيد وبطشوا برهبانه ، وفتكوا في تل بسمة (٢٢) بمائة وتسعين من السريان ، وأغاروا على مائتي شاب من مسيحي السريان في قرية أمرون بقلوذية التابعة لملطية وقتلوهم ، وانتشرت الفوضى وعم الهلع في كل من ملطية وكبدوكية

وفي ذلك الوقت اندلع قتال أيضا بين الاسماعيلية والعرب وفتك كل منهم بالآخر بشكل فظيع .

الصراعات داخل صفوف الفرنجة في هذه الفترة

وفي هذا العام اختلف الفرنج فيما بينهم وبيان ذلك أن صاحب القدس قبل أن يموت أو كل أمر تربية نجله الصغير إلى قمص طرابلس ، ولكن الطفل مالبث أن مات ، فصار أمر المملكة إلى أمه (٢٣) التي وقعت بحب رجل يدعى غي ، فتزوجته ، وجعلته ملكا مع انه ليس من أسرة ملكية ، فنقم عليها قمص طرابلس ولجأ إلى صلاح الدين وراح يشي بها وبسائر النصارى ويعرض الاتفاق معه .

وفي عام ٥٨٣ للعرب (١١٨٧ م) لاحظ صلاح الدين أن البرنس أرناط نكث بتعهده ، فقد تعرض لقافلة تجارية عربية ونهب محتوياتها ، فأعد صلاح الدين جيشا وقصد الكرك ، فحطم أشجارها وخرب القرى التي حولها ، ثم تحول عنها إلى الشوبك وفعل بها مثل مافعل بالكرك ، وأما ابنه الملك الأفضل ، فقد يمم شطر طبرية وغزة ، وتحرك الفرنجة ولاقوا العرب ، وأوشكوا أن يقضوا عليهم قضاء تاما لولا أن ظاهرهم الحلبيون ، ثم تداول قادة الفرنجة في أمر مقاتلة العرب فرأى قمص طرابلس مصالحة صلاح الدين محذرا من قوته التي استطاع بوساطتها أن يبسط نفوذه على مصر وفلسطين وسائر بلاد المشرق ، وأما غي الملك الغر الذي تزوج من ملكة القدس فقد قال بغطرسة : لابد من منازلة العرب ، وعندئذ أجابه قمص طرابلس : سترى عاقبة ماستفعل ، وكذلك تداول صلاح الدين أمر منازلة الفرنجة مع زعمائه الذين رأوا ألا ينازلوا الفرنجة الآن وهم في أوج قوتهم واجتماع شملهم ، كما رأوا أن يتريثوا حتى يتشتت شمل الفرنجة فيضعفوا ويسهل على العرب البطش بهم ، وأما صلاح فرأى خلاف ذلك ، فقد قال : ترى متى يجتمع لي مثل هذه الحشود الغفيرة ؟ الأجدر أن نتشجع ونبارزهم وليفعل الله مايريد ، قال ذلك ، ثم امتطى جواده واتجه هو وجنده نحو الأردن ، فتوقفوا على ضفاف بحيرة طبرية ، واحتشد الفرنجة في صفورية ومكث الجمعان عدة أيام ، لم يتعرض أحدهما للآخر ، إلى أن بعث

صلاح الدين فريقا من جنده في طريق مـــائية ومجهــولة إلى طبــرية ليلا ، وعندما انبلج الصبح تسللوا إلى المدينة وأعملوا فيها الســيف والنار ، فاعتصمت الملكة بالقلعة وعندما سمع زوجها غي (٢٤) بذلك خارت قــواه ، ولكنه مــالبث أن اســتعاد قـــوته وتحمس وحمس الفرنجة ، وأغاروا على العــرب ، ولما حــل الليل وقــف الطــرفان أحدهما الآخر يرقبا بعضهما طيلة الليل ونال العطش من الفــرنجة دون العــرب ، لأن هؤلاء كانت بحــــوزتهم ناحية الأردن ، ولما لاح الصباح وتبين للعرب قوة الفــرنجة ، وهــم يتقــدمون ويقتحمــون كالدبابير خارت قواهم وأحجموا عن القتال ، فبادر صلاح الدين إلى وسط جموعهم وهو يردد صيحات مدوية تتمثــل بــالتشجيع تــارة وبالتهديد أخرى وتعد بالمنى حينا وبالمنية حينا آخر ، فــأثار بــذلك عزيمة شاب شجاع يدعى منغورس وهو مملوك من مماليك صـــلاح الدين فاندفع هذا المقاتل إلى مابين الصفين ، فبرز له مقاتل فرنجي وطعنه برمحه فهوى عن فرسه ، فانقض عليه وسحبه من ضــفيرته متجها به نحو صفوف الفرنجة ، ثم حز رأسه وكان هذا عاملا هاما في رفع معنويات الفرنجة فقد اعتقدوا أنه واحــد مــن أبناء صـــلاح الدين ، ولما كان قمص طرابلس يبطن المكر فقد خشي أن تكون الغلبة للفرنجة ، فتصبح مشورته بعدم القتال ســببا لاحقــا لهــلاكه ، لذا طالب بالانقضاض على العرب والبطش بهم ، ففتحوا له الطريق بين الصفوف ، فعبرها متجها نحو طرابلس،لكن انسحابه هذا كان أحد الأسباب التي أدت إلى خسارة الفرنجة لهذه الموقعة ، فلم يبق بينهم من يثق بصاحبه ، ومع ذلك لم يجدوا للحرب بــديلا ، فخــاضوها ، فكانت وبالا عليهم فقد فتك بهم العرب ، وأسروا صـــاحب القــدس والبرنس أرناط صاحب الكر ك ،ولفيفا مـــن الرهبــان الاســبتارية والداوية وغيرهم ، ولم ينج منهم إلا القليلون .

وعندما وضعت الحرب أوزارها اجتمع صـــلاح الدين في خيمتـــه بــزعمائه وطلب أن يحضروا له البــــرنس أرناط ، وغي زوج الملكة صاحب القدس ، فأكرمه وقد كان العطش قد نال من غي ، فـــأمر له صلاح الدين بماء حتى يشرب ، فأتي بماء مثلج ، فشرب نصفه ودفع

بنصفه الآخر إلى أرناط فقال له صلاح الدين : لايجـوز أن تسـقيه دون أمري ! فقال غي : إن الأسر موت فلا تمته مرتين ، إن الهزيمة قتل ، فلا تقتله مرتين ، فـأعجب صـلاح الدين بهـذا الكلام ، وكاد يعفـو عن أرناط لولا معـارضة الزعمـــاء الذين أصروا على قتله قائلين : إنه لايستحق أن يبقى على قيد الحياة ، لأنه أقسم مـرارا ولم يبر بيمينه ، وبعد ذلك أرسل الأسيرين إلى خيمة ضربـت لهمـا وبعد ساعة من الزمن ، استحضر صلاح الدين أرناط وحده واسـتل سيفا بيده وقطع رأسه ، وكان أرناط هـذا قـد خـاض كثيرا مـن الحروب ضد العرب وقتل عددا كبيرا منهم .

فتح بيت المقدس

وبعد ذلك اتجه صلاح الدين إلى قلعة طبرية فـاستمال ملكتهـا ، وحلف لها ، وأجزل لها العطاء ورحلها مع أهلها وحاشيتها وأموالها إلى طرابلس ، في حين قبض على الرهبـان الاسـبتارية والداوية ، وبطش بهم ، ثم باع الفارس منهـم بخمسـمائة دينار ، وقـد كانوا ثمانين فارسا ، وكان صلاح الدين يقول : إن هؤلاء يفوقون الفرنجة جميعا خطرا وأذى للعرب ، لأنهم يؤثرون الموت في سبيل الايمـان ، فيجب الاجهاز عليهم ، ثم توجه صلاح الدين إلى عكا ، فدخلها بعـد أن هرب زعماؤها بحرا إلى صـور ، ولم يبـق في عكا إلا الضـعفاء والمساكين ، ودخل حيفا ونابلس وصيدا وتبنين ويافـا وقيسـارية والناصرة وبيروت ، وقد ازدرى العرب النصارى الذين كانوا يقيمون في البلاد العربية ازدراء تعجز الكلمات عن وصفه ، ومـع ذلك نجـا صاحب جبيل ، لأنه سلم العرب مـدينته . ثـم قصـد صـلاح الدين عسقلان ، وقد كانت في ذلك الحين تعج بالمحاربين ، فطوقها، لكنه لم يستطع دخولها ، فسأل صاحب طبـرية ملك بيت المقـدس الذي كان أسيرا عنده أن يساعده في دخـول عسـقلان لقـاء أن يفـرج عنه ، فاستحضر ملك بيت المقدس حـاكم عسـقلان وطلب إليه أن يسـلم مدينته لصلاح الدين فأبى فأمر باعتقاله ، ونصح أهالي عسقلان أن يسلموا مدينتهم فأذعنوا وسلموها ، وحاول أهالي صور أن يسلموا

المدينة ، لكن قمصـــها كونراد حضر إليهــا وعمــل على حــراستها والدفاع عنها .

وتحول صلاح الدين إلى بيت المقدس فحاصرها وأقام المنجنيقات على الجانب الشمالي من سورها لاتساع هذا الجانب ، ومــواءمته لتمركز المحاربين عليه ، وبقيت الأمور على هذه الحال ثــلاثة أيام ، فخنق الفرنجة وهم ستون ألفا مابين راجل وفارس ، وخــرجوا إلى قتال العرب فبطشوا بالعديد منهــم و كان بين هؤلاء عز الدين عيسى صاحب قلعة جعبــر ،و في ذلك الوقــت شرع الجنود العــرب بقــذف السهام ليشغلوا المراقبين على السور ، بينما شرع العمال الحلبيون باقتلاع الحجارة بسرعة من فتحة نقبوها في جســم الســور و بــدأ بالانهيار ، و عندما رأى الفرنجة هــذا انهــارت قــواهم و خــارت عزائمهم ، و بدأ اليأس يدب إلى نفوس الفرنجة فبعثوا باثنين مــن حكمائهم إلى صلاح الدين يطلبون الأمان والسلام ، فرفض صــلاح الدين ، و قال : لن أفتح المدينة إلا بالسيف ، و سوف أفعل بكم كما فعلتم بالعرب حين ملكتموها ، فأنتم تعرفون كم قتلتــم وســبيتم ، فقال أحد الزعيمين : لي كلمة اريد أن أقولها ، و لكن ليس قبــل أن تعطيني الأمان ،فقال له صلاح الدين : عليك الأمــان ،فقــل :فقــال السفير : لو لم نعرف قوة ايمانك و ارتبــاطك بشريعتــك و تمســك بســنة مــن تقــدمك مـــن الملوك المنتصرين الذين كانوا إذا انكسر أعداؤهم و ألقوا سلاحهم طلبوا الأمــان و أعطــوه ، لما أتينا إليك ، والآن بعد أن جئناك و لم نجد من من كرمك مــا كنا نأمــل ،ســنعود وسنبلغ رجالنا الأبطال المجاهدين ما لاقيناه لديك ،و اعلم أن أول ما سنفعله هو البطش بمــن لدينا مــن الأسرى العــرب ، و ســـنحرق مسجدكم الكبير ثم الكنائس وسائر الأبنية ، ثم الأمــوال و المقتنيات و لن نبقي على شيء ثم سنذبح نساءنا و أبنائنا و بناتنا بــأيدينا ، و لن ندع لكم فرصة الانتقام منا ،ولن يستسلم الرجل منا قبل أن يقتل واحــدا أو اثنين منكم ، فــأخذ صــلاح الدين بهـــذا الكلام و أوعز للسفيرين أن يمكثا في إحدى الخيم إلى أن يتداول الأمر مــع قــادته الذين قالوا له : إن كل ما قاله هذا الرسول صحيحا ، و قــد يصــنع

الفرنجة أكثر من ذلك فاستدعى صلاح الدين الرسولين و قال لهما : إنني أقبل بما عرضتما ، و لكن لا يمكن أن يخرج كل الفرنجة من بيت المقدس مجانا ، و أمرائي يطلبون ذهبا لأنهم خسروا في هذه الحرب كثيرا فاتفق الطرفان على أن يدفع كل رجل عشرة دنانير و المرأة خمسة دنانير ، و أن يدفع كل ولد ، و كل بنت دينارين ، ويخرج الجميع في كل ما يمكنهم حمله ، فأدى الأغنياء عنهم و عن غيرهم من الفقراء و خرجوا جميعا آمنين و كان مجموع ما استطاع أن يدفعه الاغنياء عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، لكن مع هذا فقد بقي خمسة آلاف ممن لم يستطيعوا أن يدفعوا شيئا فساقهم العرب أسرى ، لكن بعض الحراس أفرجوا عن عدد كبير من المسيحيين لقاء رشوة مقدارها دينار أو دينارين ، في حين أفرج مظفر الدين ابن زين الدين عن ألف شخص تقريبا من الأرمن و السريان بلا مقابل ، لأنهم كما قال : رهاويون من أبناء رعيتي ، و مثل ذلك فعل ابن شهاب الدين صاحب البيرة ، فقد أفرج عن معظم أبناء بلده.

و في ذلك الوقت كان في القدس ملكة يونانية متوشحة بثوب الرهبانية و منقطعة للعبادة في احد الأديرة فالتمست من صلاح الدين أن لا يتعدى عليها ، فكان لها ما ارادت ، فقد أمر صلاح الدين أن تخرج هي وأموالها و الشمامسة ، و الشماسات والخدم تحت حماية كوكبه من الفرسان الى حدود الفرنجة ، و صنع صلاح الدين الأمر نفسه مع جميع الملكات الفرنجيات اللواتي كن في القدس ، و أخرج البطريرك جميع محتويات كنيسة القيامة وسائر الكنائس و قناديل الفضة والذهب ورحل ، و أما أهالي القدس فقد باعوا ما لم يقووا على حمله ، و باختصار سلموا صلاح الدين المدينة خاوية من الذخائر ، و هذا ما حمل العماد الكاتب على أن يقول لصلاح الدين : لماذا ينقل هؤلاء كل هذه الأموال علما أن اتفاقك معهم لا ينص إلا على الأمان ، فقال له صلاح الدين : هذا صحيح ، و لكن الفرنجة اذا ما اعترضناهم لن يتفهموا موقفنا على هذا النحو بل سيفسرونه تراجعا عن قسم قطعناه على أنفسنا و سيبثون ذلك في الأصقاع فيشوهون سمعتنا ، و هكذا انتزع صلاح الدين القدس من

الفرنجة يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ للعرب (١١٨٧ ميلادي)و ١٢ تشرين الأول ١٤٩٨ لليونان ، و ذلك بعد ٢٨ يوما من تجمع الكواكب السيارة الستة ، ولم يتسن للمسيحيين بعد هذا التاريخ أن يملكوا القدس أبدا ، و مع ذلك أبقى صلاح الدين أربع رهبان من الفرنج في كنيسة القيامة ليقوموا على خدمة القبر المقدس و تولى بعد زمن قصير بطريرك لليونان أمر رعاية هذه الكنيسة

وبعد بيت المقدس يمم صلاح الدين شطر مدينة صور القابعة في قلب البحر فأقام حولها أبراجا قوية وقد استنفد كل طاقاته في قتال هذه المدينة ، وكان يشجع جنده قائلا : لم يعد للفرنجة على البحر موقع يقيمون فيه الا صور ، فانا طردناهم منها لن يقووا على مهاجمتنا بعد الآن ، فاندفع جند صلاح الدين يقاتلون الفرنجة في هذه المدينة بلا هوادة ، لكن دون جدوى ، فقد أحكم تحصينها بالخنادق ، المركيز الذي قدم من رومية ، و كان رجاله الابطال الملاحون يغيرون على العرب ويبطشون بهم و يعودون ، و لهذا استعان صلاح الدين بألف سفينة ضخمة من الاسكندرية ، فأغار الفرنجة عليها ليلا وحطموا معظمها ، واعتقلوا ملاحيها ، وألقى ما تبقى منهم أنفسهم في البحر فغرقوا ، في حين فر آخرون بسفنهم الى بيروت ، فتبعهم الفرنجة وألقوا القبض عليهم وعندما شاهد صلاح الدين دفاع الفرنجة المستميت أمر بإحراق ما أقام من الأبراج ، وما بقي لديه من السفن والمنجنيقات أمر بتحويلها من صور الى عكا وأمر جنده بأن يمضي كل منهم الى وطنه كي ينال قسطا من الراحة في بيته.

الخلاف بين صلاح الدين والخليفة الناصر

نشب في هذه الآونة خلاف بين صلاح الدين وبين الخليفة الناصر ، وسبب ذلك أن صلاح الدين لم يؤد الجزية للخليفة عن

سورية ، كما أنه لم يبعث له شيئا مما كان يجبيه من مصر ، بل حاول في نشوة انتصاراته أن يلغي الخطبة للخليفة ، ويجددها للفاطميين بمصر ، وقد استاء الخليفة أيما استياء عندما أخبره بغدادي كان من قبل يعمل في خدمة صلاح الدين باستيلائه على بيت المقدس.

وفي هذا العام حشد واحد من الرعاة التركمان يدعى رستم خمسة الاف فارس ، وجمعا غفيرا من الرجالة وتوجه لغزو قيليقية ، فبادر صاحبها لاون الى سد الثغور في ناحية مرعش ، ثم أغار على هؤلاء التركان فهربوا وتحولوا الى غزو أطراف حلب ، فانبرى لهم البرنس بوهيموند وأبادهم جميعا.

وفي عام ٥٨٤ للعرب (١١٨٨ م) قاد صلاح الدين جنده بنفسه الى حصن الأكراد لفتحه ، فحاصره يوما كاملا لكن استعصى عليه فارتد الى طرطوس ، وقبل أن ينهي جنده نصب خيامهم تمكن الحلبيون من احتلال أسوار هذه المدينة ، واعتصم الفرنجة في برجين من ابراجها ، ولكن هؤلاء جميعا لم يصمدوا في وجه صلاح الدين فاستسلموا له فهدم قلعتها وأسوارها وكنيستها المعروفة بكنيسة مريم والدة الرب وكل ابنيتها ، ثم قصد قلعة المرقب فلم يلق فيها أحدا ، ثم قصد جبله فسلمه أياها من فيها من العرب ، ثم توجه الى اللاذقية فهاجمها بقوة وضراوة ، ثم قام الحلبيون بحفر نفق تحت الأرض طوله ستون ذراعا وعرضه أربعة أذرع ، فخارت قوى الفرنجة واستسلموا لصلاح الدين وطلبوا منه الأمان فأذن لهم أن يخرجوا بأولادهم ونسائهم وأموالهم ما عدا آلات الحرب والبهائم والقمح ، وقد جعل صلاح الدين ابن اخيه تقي الدين صاحب حماة واليا على اللاذقية.

وقدمت في هذه الأيام جيوش فرنجية في كثير من السفن من صقلية لنصرة المسيحيين ، وبادر قائدهم ليحادث صلاح الدين قائلا: لقد بسطت نفوذك على كل السواحل التي كانت بيد الفرنجة ولم تدع

لهم إلا القليل ويحسن بك أن تكف عن محاربتهم ، وإلا أغاروا عليك من البحر زرافات ووحدانا وضايقوك ، فالأجدر بك ألا تسيء معاملة جيرانك فهم بمنزلة الحصن الذي يحميك من الأهالي ، فأجاب صلاح الدين قائلا إن مبادىء ديننا تملي علينا أن نعزز هذا الدين ونحميه ، والله يفعل ما يشاء ، فرجع القائد الفرنجي الى بلده ، ثم تابع صلاح الدين زحفه فوصل قلعة صهيون القائمة على صخرة واقفة بين واديين عميقين ، فطوقها ثم دخلها بسلام ، وجعل ناصر الدين منفورس بن عمر تكين مملوك مجاهد الدين بن بوزان واليا له عليها ، ثم اجتاح شغر بكاس وزحف نحو الدربساك واحتلها ، كما انتزع بغراس من الرهبان الداوية ، وقد كانت هذه المدينة خالية من الجنود ، وهكذا أصبحت كل هذه البلاد للعرب ، وهذا ما أقلق الأنطاكيين لأن طرق الامداد سدت في وجوههم ، فقلت مؤنهم ، لهذا تذلل البرنس لصلاح الدين ورجاه الأمان ، فكان له ذلك لمدة ثلاثة أشهر ، ثم توجه صلاح الدين الى حلب ومنها الى دمشق لينال قسطا من الراحة ، ومن ثم يمم شطر صفد فحاصرها الى أن أخذها من ولاتها كما أخذ بلدة كوكب بعد أن ضيق عليها.

وفي هذا العام توفي طبيب دمشقي يدعى الموفق أسعد ، ويعرف بابن المطران ، وكان نصرانيا فاعتنق الاسلام ، وقد اجتمع لديه المال الكثير وزوجه صلاح الدين إحدى جواريه ، ولكنه مالبث أن مات فخبت شهرته ، وبعد أن توفي صلاح الدين شوهدت امرأته وواحد من فتيانه يتسولان في بيوت الضباط ٠

وفي عام ٥٨٥ للعرب(١١٨٩ م) غزا صاحب أنطاكية البرنس بلدتي حارم وشيح ، وبطش بمن فيها من المسيحيين والعرب ، وفي هذه الأونة وبعد أن أخذت صيدا من صاحبها أرناط توجه أرناط هذا الى شقيف ارنون بإذن من صلاح الدين ، ثم قدم الى صلاح الدين نفسه وطلب منه أن يمهله ثلاثة أشهر ليعمل على نقل أهله من صور الى دمشق ويتخلى له عن الشقيف المذكور آنفا فأذن له صلاح الدين ، لكنه مالبث أن أدرك أن أرناط يراوغ ويخادع فاعتقله ، ثم

بعث به الى دمشق ولم يفـرج عنه إلا بعـدما تخلى له عن الشـقيف المذكور •

وفي هذا العـام ١٥٠٠ لليونان (١١٨٩ م) نشـب خـلاف بين السلطان قلج ارسلان وبين ابنه الأكبر المقيم في سـبسطية ، فقتـل نحو اربعة آلاف تركي من اتباع الولد ، ومن ثم أصلح بينهما الأمير بهرامشاه صهر السلطان الذي أبعد عنه حاجبه الأمير اختيار الدين حسن الذي سبب الخلاف بين السلطان وولده ، فجمع اختيار الدين نحو مائتي فارس من اقربائه وتوجه بهم الى مـرج كينوك ، فحمـل عليهم جماعة من التركمان بأمر من ابن السلطان ، فبطشوا باختيار الدين واتباعه ، ثم قطعوا اختيار الدين وجعلوا أشلاءه على رؤوس رماحهم وطوفوا بها في سبسطية يوم عيد الصليب.

قدوم الافرنج الى صور

وتولى في هذا العام ملطية معز الدين قيصر شاه بن السلطان قلج ارسلان ، وقدمت في هذا العـام أيضـا الى صـور جمـاهير غفيرة ومختلفة من الفرنج ، ثم توجهوا منها الى عكا ، وما أن علم صلاح الدين بذلك حتى تأهب فاستنفر جميع جيوشـه ، وزحـف بهـا الى مقربة من الفرنجة ، ولاحظ أنهم يزدادون يوما إثـر يوم ، فتـداول الأمر مع قواده فرأوا أن يغيروا على الفرنجة قبل أن يزدادوا أكثـر فأكثر ، فاستعدوا لذلك أول رجـب في ليلة الجمعـة ، وفي الصـباح التحم الجمعان وأمضوا طيلة النهار يقتتلون سجالا حتـى إذا جـن الليل بات الجميع على جيادهـم ، وفي صـباح السـبت اسـتؤنف القتال ، فاستمر حتى المساء ، وفي أثناء ذلك انسحب الفرنجة مـن جهة الجانب الشمالي لعـكا لأنه لم يكن لديهـم خيام هناك فـدخل صلاح الدين مع عدد من رجالته عكا ، وأدخل الامداد اليها وأخلاها من الضعفاء ، وأوعز الى جنده أن يستمروا في القتـال دفـاعا عن السور وضد سـائر الفـرنجة لعلهـم يسـتسلمون ، ولكن هؤلاء ـ الفرنجة ـ لكثـرة عددهـم لم يسـتسلموا بسـهولة ولم

يسمحوا للعرب أن يفتحوا ثغرات في جيوشهم ، ولهـذا لم يكن مـن السهل على صـلاح الدين الابقـاء على عكا ، فقـد أغار عدد مـن الفرسان الفـرنجة على مخيم للعـرب ، وفتـكوا بـالعديد منهم ، فطاردهم العـرب الى تـل يدعى تـل المصلوبين حيث كان يعتصم هؤلاء الفرنجة ويتحصنون بإحكام ، فتحول صلاح الدين الى تل يقابل التل السالف ، ويطل على عكا ، وصار الرجالة من الجيش يتبارزون في كل يوم حتى سئم الفرنجة ، فنادوا العرب قائلين لا شك أن كلانا سئم من هذه الحـرب وتريد اليوم أن نلهـو قليلا بمبـارزة الفتيان الصـغار منا ومنكم ، فجمعـوا مائة فتـى مـن كل طرف ، وأخذوا يتقاذفون بالحجارة ثم الرماح والعصي واخيرا هزم الفتيان الفـرنجة الفتيان العـرب وحشروهـم في المدينة ، على أن الملحمة العظمى كانت يوم الأربعاء ٢٠ رجب عندما انطلق الفـرنجة من خيامهم كالنسور يتقدمهم الملك والكهنة وقد حملوا الانجيل فـوق رؤوسهم مغطى بقماش حـريري أحمـر ، ففـوجىء صـلاح الدين واستنفر جنده بصيحات مدوية ، فتحول الفرنجة من الجهة اليسرى الى الجهة اليمنى حيث كان ابن أخي صلاح الدين ، تقي الدين عمر الذي كان يقاتل الفرنجة بضراوة ، وعندمـا أيقـن الملك أن العـرب صامدون وضع شارة الصليب على وجهه وهجـم يشـق صـفوف الجيوش العـربية حيث كان ولدا صـلاح الدين الظـاهر والأفضل ، وقطب الدين ابن نور الدين بن قـرا أرسـلان صـاحب حصن كيفا ، وابن لاجين صاحب نابلس وغيرهم والتحم الجمعـان وراح الفرنجة يلتهمون العرب التهام النار للهشـيم ، ففـر العـرب وطاردهم الفرنجة وأبواقهم تصدح بصـيحات النصر ، وقـد هـزم العرب شر هزيمة في ذلك اليوم فقد بلغ الفرنجة حدود طبرية ودمشق وسلبوا العرب خيامهم وبطشوا بالضعفاء منهم ، ثم عادوا فطاردوا العرب ، نحو فرسخ ، فوجدوا بقية باقية منهم ، فلم يتعرضوا لهم بأذى لما لاحظوه عليهـم مـن الضـعف والاعياء ، بـل خلدوا الى الاستراحة في خيامهـم ، في حين كان صـلاح الدين يصـيح بجنده المنكسرين ويستنهض هممهم،لكنهم لاذوا بخيامهـم وقـد نال منهـم التعب والاعياء،وكان من نتائج هـذه الموقعـة مقتـل الفـي

فرنجي ، واربعة الاف ومائة عربي فأمر صرح الدين بأن تلقى جثثهم في البحر ، فأمسك رجل بخيط وصار يعقد فيه عقده كلما القيت جثه في البحر ، وفي هذه الأحيان رأى قادة صلاح الدين أن يبعدوا بعض الشيء عن الفرنجة محتجين لذلك بفساد المناخ بسبب الروائح المنتشرة من جثث القتلى ، وأما الفرنجة فقد أخذوا بحفر خندق من التل الى البحر يفصلهم عن الجيوش العربية ، ثم طوقوا عكا من ناحية البحر ، فقطعوا الطريق عليها ، فلم يعد بوسعهم أن يدخلوا الى المدينة أو أن يخرجوا منها .

وفي هذه الآونة قدم ملك الألمان عن طريق القسطنطينية بمائتي الف فارس وراجل ، فخاف صلاح الدين ، وبعث سفيرا له يدعى بهاء الدين ابن شداد الى خليفة بغداد وكل ملوك المشرق ، يستنجدهم والا فالعربية ستضمحل لا محالة.

وعندما اهلت سنة ٥٨٦ للعرب (١١٩٠ م) ارتاح صلاح الدين لتحول الفرنجة الذين ركزوا كل اهتمامهم على مدينة عكا ، ومع ذلك فاجأوا العرب حين كان صلاح الدين في رحلة صيد ، فاستنفر الجند أخوه العادل فأغاروا على الفرنجة ، وتتالت القتلى من الطرفين ولو لم يحل الظلام لحسمت المعركة لصالح أحدهما ، وارتد الفرنجة الى معسكراتهم ، وهطلت أمطار غزيرة فشكلت أوحالا حالت دون استمرار القتال ، ولا سيما على الفرسان ، ولم يعد بمقدور صلاح الدين أن يعرف شيئا عن الذين في عكا من العرب حتى استطاع أحد سكان عكا أن يسبح في البحر ، ويذهب الى صلاح الدين ويعلمه أن الفرنجة يحاربون هذه المدينة حربا ضروسا وأنهم يستعدون لاقتحامها بعدما بنوا أبراجا عالية تطل على المدينة ، وهذا ما جعل سكانها في خطر داهم ، فقرر صلاح الدين أن يزحف الى الفرنجة ليشغلهم قليلا عمن في داخل عكا ، لكن اعترض سبيله عدة خنادق كان الفرنجة قد حصنوا انفسهم بها ، ولهذا يئس صلاح الدين من الوصول اليهم ، فتراجع الى تل يعرف بتل العجول بعيدا عن الفرنج. وفي هذا الوقت أتى الى نجدته ملوك عدة من العرب نذكر منهم ، على

سبيل المثال : معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود صاحب اربيل ، وعلاء الدين كرم شاه بن مسعود صاحب الموصل ، واستطاع صلاح الدين أن يدخل إلى عكا رجالا ذوي خبرة باشعال النار فأحرقوا ثلاثة أبراج فرنجية ، ولو لم تعصف في تلك الفترة رياح شديدة لكان قد أحرق لهب الأبراج الافرنج كلهم ، ومن سوء حظ الافرنج أن الخنادق التي تربصوا بها لم تدع لهم فرصة للفرار أو النجاة من النيران ، وأما الأبراج التي أحترفت فقد صممت على نحو يذهل من يراها ، فقد وضعت على عجلات تمكنهم من دفعها والصاقها بالسور متى شاؤوا كما كان بمقدورهم أن يجتنبوها بالحبال اليهم دون أن ينزلوا من عليها من المتحاربين.

وأما ملك الألمان ، فقد منعه اليونان في البداية من أن يغادر القسطنطينية ، ولكنه ألح عليهم فأفسحوا له المجال ، ليصل الى بلاد قلج أرسلان حيث جيش السلطان قطب الدين ملكشاه الجيوش واعترض بها الألمان لكنه هزم أمامهم ، وبلغ الألمان قونية وبطشوا بالعديد من أهلها ، وفي هذا الوقت قصد بباس ميخائيل القسيس اليوناني والكاتب الملطي الى قونيه لدفع الخراج فأغار عليه التركمان وأردوه قتيلا ، وبقي قلج أرسلان معتصما بقلعة قونيه الى أن دفع مبالغ طائلة لملك الألمان وصالحه ، وفتح في وجهه الطريق الى قيليقية ، فبادر اليه لاون ابن اسطفان بن لاون صاحب قيليقية ، وزاره في طرسوس وأزعن له ، ومن ثم ذهب ملك الألمان ـ وهو شيخ يسبح في النهر مع أن البرد كان في ذلك الوقت قارسا فمرض ومات فنقل ابنه جثمانه الى أنطاكية ، ثم سار باقي الألمان ـ وقد أنهكوا ـ الى ضواحي طرابلس ، ثم أبحروا الى عكة ، ولكن معظمهم قضى نحبه في قيليقية بسبب المرض.

وفي هذه الأثناء قدم ملك انكلترا ، فتوقف في قبرص وانتزعها من اليونان ، ومن ثم واصل مسيره الى عكا فقويت شوكة الفرنجة في هذه المدينة التي كان فيها أيضا عشرة أمراء عرب ، فأخبروا صلاح الدين بأن الحروب المستمرة أوهنتهم ، فاستبدل بهم أمراء لم يكن

لهم مزيد خبرة بفنون القتـال على السـور ، ولهـذا ازداد مـوقف الفرنجة قوة ومنعة ولا سيما بعد أن نصبوا سبعة منجنيقات مقـابل كل برج ، ومع ذلك بعث ملك انكلترا الى صلاح الدين سـفير يسـبر امكانية الاجتماع به والاتفـاق على تـدبير يخـدم مصـالح الطرفين ، فكان جواب صلاح الدين أن يصطلح الطرفان أولا ومـن ثم يمكن أن يترتب أمر الاجتماع ، لأنه لا يليق بالملوك أن يقتتلوا بعد أية مفاوضات ، ثم حدث أن مرض ملك انكلترا ، فتـوقف الفـرنجة عن متابعة الحرب ، لكن ما أن تمـاثل الملك للشـفاء حتـى أرسـل سفيره ثانية الى صـلاح الدين ، وقـال له: أرجـو أن تعـذرني عن التقصير في اجابتك ، فقد انتابني مرض أعاقني عن ذلك وهاأنذا قد شفيت الآن وبـادرت الى مـراسلتك وأرغب أن أبعـث اليك ببعض الهدايا ، فلا يحسن بالملوك أن يقطعوا عرى المودة وتبـادل الرسـل والهدايا والتهاني ولو في أوقات الحروب ، هذا ما علمنا اياه آبـاؤنا الملوك السالفون،فقال صلاح الدين :إن هـادنتمونا هـادناكم ، فأجاب السفير إن لدينا حماما زاجـلا ونسـورا وبـواشق وليس لدينا مـا نطعمها فلو أعطيتمـونا زغاليل ودجـاجا اطعمناهـا واحضرناهـا اليكم ، فقال أخو صلاح الدين العادل للسـفير على سـبيل المزاح : طالما ملك انكلترا قد عوفي فلا شك أنه يحتاج الى زغاليل.

ثم ألبس صلاح الدين السـفير الانكليزي حلة ملكية وحمله ببعض الدجاج والحمام والزغاليل ، وبعد ثلاثة أيام عاد سـفراء الفـرنجة الى صلاح الدين يريدون ثلجـا وثمـارا فحملوا مـا طلبـوا ورجعوا ، وقد قيل إن الملك الانكليزي لم يهدف من ارسال سـفرائه الى صلاح الدين المرة تلو الأخرى الا ليقف على مالديه وعلى ما لدى ملوك المشرق من القوات ، وعندما ضيق الفرنجة على العـرب في عكا قال أهلها لصلاح الدين: أنجدنا والا فسـوف نسـلم المدينة ، وكان صلاح الدين يعمل جاهدا على شغل الفـرنجة بـالقتال داخـل عكا وخارجها ، وهذا ما حدث فقـد أجبـر صـلاح الدين الفـرنجة على تقسيم جيوشهم الى قسـمين ، قسـم لمنازلة العـرب داخـل عكا ، وقسم لمحاربتهم في الخارج ، ولما أيقن العرب داخل عكا أنهم

مهزومون لا محالة ، طلبوا الأمان ، فـأجابهم الفـرنجة بـأن ذلك مشروط بأن يرد لهم صلاح جميع الأسرى الفـرنجة ، وكل البـلاد والمدن التي أخذها منهم ، فكان رد صلاح إني أفرج عن ثـلاثة آلاف أسير فقط لقاء العرب الذين داخـل عكا ، وإذا تخلى الفـرنجة عن المدينة بادلتهم بمدينة عوضها ، والا فليسـتعيدوا تلك المدن بـالقوة كما أخذتها منهم ، وما إن علم الفرنجة بـذلك حتـى صـعدوا على أسوار عكا بالسلالم ثم هبطوا الى قلب المدينة وفتكوا بالكثير ممـن فيهـا ، وانحسر بعض الاهـالي في ناحية مـن المدينة ، فقـالوا للفرنجة : انتظروا ريثما نطلب من صلاح الدين أن يدفـع لكم ذهبـا ويفرج عمن لديه مـن أسراكم ، فـوافق الفـرنجة على ذلك واتفـق الطرفان على أن تكون المهلة أربعة عشر يوما حتى يبدو القمر الجديد وعلى أن يقدم صلاح الدين للفـرنجة مـائتي ألف دينار ذهبـي،وأن يفرج عن مائة أسير تحدد أسماؤهم مـن الكونتية والقمـامصة وأن يفرج عن ألف وخمسمائة أسير آخرين غير محددين ، وبعـث بهـذا الاتفاق الى صلاح الدين . فتداول الأمر مع قواده ، فقالوا بصـوت واحد: إن هؤلاء العرب أخواننا ويجب أن ننقذهم ، فـأخذ صـلاح الدين بهذا الرأي وجمع الأسرى الفرنجة ، وأما الذهب ، فقد تقرر أن يدفـع للفـرنجة في كل عشرة أيام ثلث المبلغ الذي تقـرر دفعه ، وعندما انتهت الأيام العشرة الأولى طلب مـن الفـرنجة أن يفرجوا عن كل الرهائن الذين عندهم ، على أن يدفـع ثلث الذهـب وجميع الرهائن بدلا من الثلثين الباقيين : أو أعطـونا رهـائن مـن عندكم بدلا من ثلث الذهب الذي سوف تقبضونه ، فقال الفـرنجة : تكفيكم كلمتنا وتقريرنا بشأن الرهائن ، فأنف صلاح الدين من هذا الجواب ، ورفض طلبهم فنقموا نقمة عارمة وقيدوا كل من لديهم من العرب بالحبال وساقوهم الى تل قرب المدينة ، وأوثقوهم بـالحبال وجمعوا حولهم براميل الخمرة العتيقة والحطب وحشروهم ثم فتكوا بهم بالسيوف ، وكان كاتب الديوان يشهد ذلك ، وقـدر عدد القتلى من العرب المتناثرين داخل عكا وخارجها وعلى أسوارها وعلى التل المذكور آنفا بمائة ألف وثمانمائة نسـمة ، وكان ذلك في رجـب مـن عام ٥٨٧ للعرب ، وفي آب من عام ١٥٠٢ لليونان ، (١١٩١ م)

وإنما أطلنا في الحديث عن هذا الحصار لكونه مشهورا عند العرب ، فقد كتبوا فيه مجلدات حول ما أصابهم من الشدة من الفرنجة.

وما أن مكن الفرنجة أقدامهم في عكا حتى بادروا الى تنظيم جيش لحراستها ، ورمموا ما تداعى من أسوارها ، ثم توجهوا الى أرسوف ، وكذلك رحل صلاح الدين لكن مع ذلك ظل كل منهما يتعرض للآخر بين الفينة والأخرى على الطريق ، وفي أحد الأيام هاجم صلاح الدين الفرنجة فحنق الملك الانكليزي وأغار على صلاح الدين وصحبه غارة بددتهم ، ولم يبق مع صلاح الدين الا سبعة عشر من أخيار العرب وحملة الرايات ونافخي الأبواق ، وكان يمكن أن ينقض الفرنجة على صلاح الدين ومن بقي معه وأن يأسروا صلاح الدين فيقوضوا بذلك أقوى سند للعرب ، ولكنهم خشوا أن يتربص بهم كمين ، فأقلعوا عن ذلك.

وسير صلاح الدين في ذلك الحين فرسانا وبنائين الى قلعة بغراس ليأتوه بما فيها من الذخيرة والمؤن وليهدموها ، ولكنهم ما إن بلغوا تلك القلعة حتى علموا أن لاون صاحب قيليقية استعد ليغير عليهم ، فرجعوا فارين ، وعندما علم الأنطاكيون بذلك توجهوا الى هذه القلعة ـ وكانوا إذ ذاك في ضيق من أمرهم ـ فوجدوا فيها اثني عشر ألف مكوك من القمح ففرجوا بذلك عن أنفسهم لأن الجوع كان قد ضايقهم جدا ، وما هي الا أيام حتى أغار لاون على بغراس وأخرج الفرنجة منها.

واغار صلاح الدين على عسقلان وأخلاها من سكانها ، ولكن العرب عجزوا عن حراستها ، وقد سوغوا ذلك بأن الفرنجة بنوا بينها وبين القدس مدينة يافا ، وذهب صلاح الدين الى بيت المقدس ووضع فيه من العتاد والرجال ما يمكن أن يحميه ، وفي ذلك الوقت قصد صاحب ملطية معز الدين صلاح الدين وشكا اليه محاولة أبيه

وإخوته انتزاع هذه المدينة منه فأوسع له صلاح الدين وزوجه من ابنة أخيه العادل ، وطمأنه قائلا: لا تخف أباك ولا أخوتك.

وأرسل الملك الانكليزي الى صلاح الدين رسولا يقول له: لقد أتت الحرب على جندنا وجندكم والام ستظل الأمور على هذه الحال ، وقد رويت سيوفنا وسيوفكم من الدماء ، فلترد ما أخذته منا من البلاد ولا سيما بيت المقدس مقرديننا الذي تركنا أوطاننا من أجله فإن قبلت ذلك غادرنا الى أوطاننا تاركين كل شيء فتستريح ، فأجاب صلاح قائلا : ان هذه البلاد كانت فيما سبق لليونان لالكم ، وقد أخذها العرب منهم وعندما ضعف العرب أخذتموها منهم ، ونحن الآن نسترد بلادنا منكم ، وأما القدس التي تعدونها مقام دينكم ، فهي ايضا مقر ديننا ، ونحن نقدسها أكثر منكم ، وهذا ماأوصانا به الله في القرآن .

ثم أرسل الملك الانكليزي الى صلاح الدين مرة ثانية ، وقال : أرغب في أن يصاهرني العادل أخوك ، فأزف له شقيقتي التي جاءت معي لتسجد في بيت المقدس واذا ما اكتفيت أنت بالقلاع والمدن ، وبقيت القرى بيد الرهبان الداوية والاسبتارية ، وتخليت لأخيك العادل عن المدن الساحلية ، عند ذلك يتم الزواج ، وسأستعمل أختي على كل المدن التي بحوزة الفرنجة الآن ، وسيكون مركزها بيت المقدس ، فأبى صلاح الدين ذلك في حين كلف أخوه بشقيقة الملك الانكليزي ، وطلب الى القواد والأعيان ان يقنعوا أخاه صلاح الدين بعرض ذلك الملك ، فتشبث صلاح الدين برأيه ، لكن هؤلاء القادة قالوا له نحن متأكدون من أن هذا الزواج لن يكون ، فابنة الملك الكبير تأنف الزواج من عربي ، ولعل الملك عرض عليك ذلك مازحا كعادته ، ولهذا كله يحسن الا تخجل اخاك ، فوافق صلاح الدين وبعث سفيرا الى ملك الانكليز ليخبره بذلك فأقام السفير ثلاثة أيام ، ثم قال له الملك : استغرقت ثلاثة أيام في سبيل ان أقنع أختي بهذا الزواج ، فلم تقنع بذلك الا اذا تنصر العادل ، فعاد السفير خائبا .

وفي هذه الأيام توفي تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين وهو في طريقه الى خلاط لمحاربتها ، فحمل الى ميافارقين حيث دفن ، وكان تقي الدين هذا شديد الكراهية للمسيحيين ولهذا كان يبطش بالفلاحين الأرمن بلا رحمة في جبل جور ، وكان مع تقي الدين المتوفى ابنه الملك المنصور فاعتصم بميافارقين،وأرسل لصلاح الدين قائلا ان أخذت مني بلاد أبي تقي الدين تحالفت مع بكتمر صاحب خلاط ، فأذعن له صلاح الدين قليلا ، ثم جعل العادل واليا على بلاد ابيه ، في حين نصب الملك المنصور على سميساط وحران والرها .

وبعد يوم واحد من رحيل العرب والفرنجة عن عسقلان كمن العرب للفرنجة وهم يقطعون الحطب خارج المعسكر ، ولكن الفرنجة اكتشفوا أمرهم فامتطوا جيادهم ، وبطشوا بثلاثة من قواد صلاح الدين في حين أسر العرب فارسين من الفرنجة ، فوجه ملك الانكليز الى الملك العادل سفيرا يعاتبه على ذلك الكمين ، وأبدى رغبته في أن يجتمع بأخيه السلطان صلاح الدين في تلك الخيمة ولكن صلاح الدين رفض ذلك لأمرين أحدهما الخوف ، وثانيهما أنه لم ير ذلك مقبولا قبل ان يعقد بينهما صلح وهذا مالم يكن ، وعلى افتراض حصول مثل ذلك الاتفاق فان احدهما لايفهم لغة الآخر الا بمترجم فليكن اذن المترجم سفيرا ، وذلك يغني عن الاجتماع المباشر ، وعندما حل الشتاء ارتحل صلاح الدين الى بيت المقدس وارتحل الملك الانكليزي الى عكا ، ثم ارسل صلاح الدين للملك اربعة وعشرين ألف دينار ذهبي من أجل أن يفرج عن الأسرى العرب .

وفي مستهل عام ٥٨٨ للعرب (١١٩٢ م) سار الفرنجة الى عسقلان وبدأوا بترميم ابنيتها ، وكان قد نشب خلاف بين المركيز صاحب صور وبين ملك الانكليز ، فقد طمع المركيز ان يستقل بهذه المدينة عن الملك ، فحاول الملك أن ينزعه عنها ، فأرسل المركيز الى صلاح الدين يخبره بالتحالف معه لمحاربة أبناء جلدته الفرنجة ، وبينما كان سفير المركيز عند صلاح الدين تسلل اليه

رجلان اسماعيليان تنكرا بلباس الرهبان ، فطعنه أحدهما بسكينة ، وفر الثاني الى كنيسة مجاورة كان قد نقل اليها سفير المركيز ، وعندما سمعه هذا الاسماعيلي الثاني يتكلم هجم عليه ضمن الكنيسة وطعنه ثانية فاجهز عليه فالقى الفرنجة القبض على هذين الرجلين وعذبوهما فزعما أن ملك انكلترا هو الذي بعث بهما ، فصدق الفرنجة ذلك لما بينه وبين المركيز من خلاف ، ولكن تبين فيما بعد أن (سنان) زعيم الاسماعيليين هو الذي أرسلهما ليغتالا سفير المركيز ، واثر ذلك جعل الملك الانكليزي الكونت هنري واليا على مدينة صور ، فتزوج امراة المركيز وجامعها وهي حامل مخالفا بذلك الناموس .

وفي هذه الغضون زحف الفرنجة الى الداروم ، وأخذوها من المسلمين وبطشوا بأهلها ، كما اعترض الفرنجة قافلة كبيرة للمسلمين آتية من مصر تحمل ذهبا لصلاح الدين ، أضف الى ذلك أن معلومات وردت اليه تفيد أن الفرنجة يستعدون للهجوم على القدس فجهز جيوشه لمنازلتهم ، وأحكم تحصين أسوار المدينة وخرب كل القنوات خارج السور ، وعندما علم ملك انكلترا بذلك أوعز الى الفرنجة بالتوقف عن الزحف الى بيت المقدس قائلا : لم يعد في ضواحي المدينة ماء ، فالعرب قد خربوا قنوات المياه وأما النهر فبعيد عنها مسافة تزيد على الفرسخ ، ولاتظنوا أن بيت المقدس مثل عكا التي لولا البحر لما استطعنا أن نحاصرها أكثر من يومين ، فاخذ الفرنجة برأي الملك وتحولوا الى غزة ، ففرح صلاح الدين بذلك ، لكن الملك عاد فاوفد اليه سفيرا ليقول له : لاتظن أني أعرض عن غزو بيت المقدس ضعفا وجبنا ، فإن الكبش لايرجع القهقرى الا لكي ينطح الرأس ، فإن رأيت أن نتهادن على مانريد ، فهذا أفضل لك ، وبعد عدة مراسلات تهادن الطرفان على أن تبقى بلاد الفرنج للفرنج ، وهي : يافا وضاحيتها ، وطرابلس وانطاكية وعكة ، وحيفا وقيسارية وارسوف ، وتظل سائر البلاد تحت سلطان العرب ماعدا عسقلان التي يجب أن تمسي خرابا على أن يدفع صلاح الدين للفرنجة ماانفقوه من أجل إعادة

بنائها ، وافسح المجال أمام جماهير الفرنجة لزيارة القدس ، وقد غالى صلاح الدين في إكرام هؤلاء الزوار وأجزل لهم العطاء كما قدم لهم خيولا ليركبوها ، ويقال ان ملك الانكليز بعث الى صلاح الدين يقول ان كل فرنجي لايحمل علامتي لاتسمح له أن يدخل بيت المقدس ، فاستفسر صلاح الدين من بعض العقلاء عن هذه العلامة ، فقيل له ان العبادة هي الدافع الأسمى الذي يحمل الفرنجة على المجيء الى بيت المقدس ، فاذا ماحجوا ورجعوا الى أوطانهم لم يعد لديهم مايحملهم على العودة الى المشرق ، وعليه اذا مااحتاج الملك العودة ثانية الى المشرق لايمكنه أن يلزمهم بمرافقته ، وعندما فهم صلاح الدين ذلك ، بعث للملك يقول : ان هؤلاء الناس هم غرباء لايحسن بي ان أضايقهم ، وأما أنت فبوسعك أن تمنعهم من المجيء الى هنا .

واثر احتلال الفرنجة لعكة قبضوا على زعيمين عربيين ، وهما ابن المشطوب ، وقرقوش الحاجب الرومي الأصل الذي بعثه صلاح الدين الى افريقية ، وفتح مدنا عدة ، ومن ثم رجع الى مصر حيث اشاد سورا مايزال يعرف باسمه الى اليوم،وقد عهد اليه فيما بعد بقيادة الجيش في عكا ، وقد طالبه الفرنجة بثمانية آلاف دينار للافراج عنه ، فقال لهم:كم دفع ابن المشطوب حتى أفرجتم عنه؟ فقالوا دفع ثلاثين ألف دينار ، فقال :ليس من الانصاف أن يدفع هو ثلاثين ألف وأنا ثمانية آلاف ، فضحك الفرنج وقبضوا منه ثلاثين ألف ،ولقرقوش حكايات طريفة مثل هذه ، من ذلك أن أحد الشعراء نظم فيه ديوانا تاما لم يظهره الا بعد ان توفي ذلك الشاعر .

وبعدما عقد الصلح بين العرب والفرنجة ذهب صلاح الدين الى بيروت ، حيث زاره البرنس بوهيموند صاحب انطاكية فغالى في اكرامه وضيافته ووشحه كما وشح الأعيان الأربعة عشر الذين حضروا معه حللا ملكية ، ومنحه نصف غلة أنطاكية التي كان العرب قد احتلوها من قبل ، وقد أعجب صلاح الدين بمجيء البرنس

اليه بهذه الثقة وتلك الطمأنينة ، ولهذا بالغ في إكرامه وأجزل عطاءه وأحسن توديعه ، ومن ثم رحل صلاح الدين عن بيروت الى دمشق .

أما ملك انكلترا فقد استعمل على عكا ابن اخته القمص هنري ، ومن ثم عاد الى وطنه ويظن انه مات قبل ان يصل اليه (٢٥)

وفاة السلطان قلج ارسلان

في آب من سنة ١٥٠٣ لليونان ، ١١٩٢ م توفي في قونية السلطان قلج أرسلان الذي كان يتحلى بشجاعة وذكاء تمكن بهما من طرد اليونان من عدة مواضع ، وعندما تقدمت به السن قسم مملكته على أبنائه ، ويبدو أن هؤلاء الأبناء لم يكونوا يبرون بأبيهم ، فقد كان اذا حضر عند أحدهم للغذاء ـ مثلا ـ ملة فاضطر للتحول الى ابن آخر ، الى أن زار ابنه صاحب مدينة بروغلو غياث الدين كيخسرو فرحب به وأحسن وفادته ، ثم جيش جيوشه واصطحب اباه وتوجه الاثنان الى قونية فانتزعها من اخيه قطب الدين ،ثم سارا الى أقصر حيث مرض الأب الشيخ هناك فأعاده ابنه كيخسرو الى قونية وتوفي هناك وكانت مثواه الأخير ، وبقي كيخسرو متوليا أمر قونية ، الى أن أخرجه منها أخوه ركن الدين ، وسنوضح ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى ، والجدير بالذكر ان مدة حكم السلطان قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان ابن قتلمش بن يبغو بن سلجوق بن دقاق قد استمرت ثمانية وثلاثين عاما وقد كان أبا لاثني عشر ملكا (٢٦)

وفاة صلاح الدين

وفي هذه الآونة ابتلي صلاح الدين بحمى شديدة مات على أثرها في دمشق ليلة الاربعاء ٢٧ صفر من سنة ٥٨٩ للعرب (٤ آذار ١١٩٣ م) وقد خلف سبعة عشر ولدا بين ذكر وأنثى ، وقد كان جوادا معطاء ، ولهذا مات ولم يكن في خزانته سوى دينار وستة وثلاثين فلسا ، وقد كان كرمه من عوامل نجاحه الأساسية في إدارة شؤون البلاد ، ويحكى أنه لما احتل دمشق ووضع أمامه مافي خزانتها من الدنانير والدراهم ، أوعز الى ابن المقدم ان يعطي كل واحد من الزعماء والفرسان والعبيد حفنة من هذه الأموال ، فصار ابن المقدم لايملأ حفنته جيدا ، فنهره وقال : املأ حفنتك ، فضحك ابن المقدم ولما سأله عن سبب ذلك قال : أذكر ان نور الدين كان يوما في مكانك وأحضرت له علبة من جيد الزبيب ، فقال لي وزع بحفنتك على الأعيان ، ولما لاحظ اني أملأ حفنتي جيدا ، همس قائلا : ان وزعت هكذا فلن يكفي الجميع ، فضحك صلاح الدين وقال:ان البخل لايوائم الملوك ، بل يوائم التجار ولن توزع بعد الآن بيد واحدة ، بل بكلتا يديك ، وقد قال أحد الحاضرين ان الحفنة التي أصابته كانت مائة وخمسين دينارا .

ومما يحكى عن صلاح الدين أنه بينما كان يحاصر عكا ركب يوما مع قاضي المعسكر واذ بيهودي يقول اني أتظلم الى الشرع العربي ، فسئل عن خصمه وعمن أكل حقه قال ان خصمي هو السلطان ، لأن عبيده تعدوا علي ، فلم يغضب صلاح الدين بل استدعى هذا اليهودي وأجلسه الى جانبه ، فقال اليهودي أنا تاجر من دمشق أتيت من الاسكندرية ومعي عشرين حملا من السكر وعندما حللت في مرفأ عكا ، نهب عبيدك مابحوزتي من السكر وأخذوه الى الخزانة بدعوى انني كافر ومالي يجب ان يكون للسلطان ، وعندما تبين صلاح الدين صدق ما قاله اليهودي أوعز الى خزنته ، فدفعوا الى اليهودي ثمن سكره .

ومما يحكى عن صلاح الدين ايضا انه كان يوما جالسا مع الزعماء ، وكان العبيد يلعبون على مقربة منه ، فرمى أحدهم صاحبه بحذاء فسقط قرب ركبة صلاح الدين ، فالتفت الى الجانب الآخر وشرع يحدث جليسه موهما بأنه لم ير ماحدث ، ويحكى ايضا أنه عطش يوما فطلب ماء فجعل العبيد كل منهم يأمر صاحبه بأن يحضر الماء دون أن يأتوا بشيء ، فطلب صلاح الدين الماء ثانية وثالثة ورابعة وخامسة الى أن أحضر له الماء ، فشرب بدون تنمر ، ودخل يوما الحمام فعطش فطلب ماء باردا فعندما أتي تساقطت قطرات منه على جسمه فارتعدت فرائصه لما كان به من مرض ، فرفض ان يشرب فازداد عطشه فاضطر ان يطلب ثانية وعندما أتي بالماء اندلق الماء كله على جسمه فارتعد ارتعادا شديدا ، ثم قال للخادم : هل تنوي ان تقتلني ، ولم يزد .

وقد سر بكتمر صاحب خلاط بموت صلاح الدين سرورا بالغا ، وأعد جنده ليغير على ميافارقين ، فوثب عليه صهره هزارديناري ، عبد شاه أرمن وقتله وحل محله ، ورعى ولده محمدا الصغير رعاية الأب لولده (٢٧)

وممن ماتوا في هذا العام سنان امام الاسماعيلية (شيخ الجبل) في مصيات ، وقام مقامه ابنه الناصر الفارسي ، وقد كان سنان هذا مهيبا لدى الملوك العرب والفرنجة ، فقد صنع سكاكين عدة صك على كل واحدة منها اسم أحد الملوك ، وكان على من تهدى اليه إحدى هذه السكاكين ، ان ينجز مايطلبه منه سنان ولو كلفه ذلك حياته ، وقد نهل هذا الزعيم الاسماعيلي من جميع العلوم ، واعتنق مبدأ تناسخ الأرواح الذي ينسب الى افلاطون ، وقد علم أتباعه هذا المبدأ ، ولهذا كانوا لايبالون بالموت ظنا منهم أنهم سيبقون أحياء بعد أن يموتوا ، وقد اختفى سنان في حياته غيرمرة ، وكان يشاع في كل مرة أنه قد مات ، ولكنه مايلبث أن يظهر ثانية ، وهذا ماجعل أتباعه يعتقدون أنه حي يرزق بعد موته .

وفي ١٥٠٤ لليونان (١١٩٣ م) تمكن لاون صاحب قيليقية من خداع البرنس بوهيموند صاحب انطاكية ، واعتقله وسبب ذلك ان بغراس كانت بيد لاون ، فعندما تركها العرب استعادها لاون وأوعز الى واليها الارمني أن يسر الى البرنس أنه يرغب في الايقاع بمولاه لاون ، كما يرغب في أن يتخلى له ـ اي للبرنس ـ عن القلعة ويعود الى أنطاكية للاقامة هناك ، فبعث هذا الحاكم بذلك الى البرنس ووعده بأنه سيسلمه قلعة بغراس ، فانطلت الحيلة على البرنس وصدق كلام الحاكم ، فسار هو وامرأته وابنه متظاهرين بأنهم يصطادون،وعندما بلغوا عين ماء بظاهر البلد دلى لهم الحاكم طعاما وخمرا ، ونصحهم الا يدخلوا القلعة نهارا وأن عليهم الانتظار الى أن يخيم الظلام ، فيقبلوا على القلعة حيث يجدوا أبوابها مفتوحة فيدخلوها سرا ، كما نصحهم بألا يصطحبوا معهم شيئا من الفرسان والأسلحة ، لئلا يتنبه حراس القلعة فيفتضح الأمر ، فانطلت على البرنس الحيلة كلها ، فترك عين الماء التي كان يخيم عندها موهما بأنه يقصد أنطاكية ، حتى اذا جن الليل ، ارتد هو وابنه وزوجته وخدمه ، الى باب القلعة ، فوجدوه مشرعا فولجوه بسرور بالغ حيث استقبلهم الحاكم قائلا : لتخلدوا الآن الى الراحة وفي صباح الغد نستدعي فرسانكم شيئا فشيئا ونقبض على حراس القلعة ، فأطمأن البرنس وصحبه الى كلام الحاكم الذي مالبث أن أبلغ لاون ، فأقبل مع عدد من الأرمن فاعتقل البرنس وامرأته وابنه وأوثقهم بالقيود ، ونكل بالبرنس تنكيلا شديدا انتقاما منه لانه سلف ونكل بروفين أخي لاون ، وبقي البرنس معتقلا لدى لاون الى أن قدم هنري ابن أخت ملك انكلترا فأفرج عنه بالوعد والوعيد ، وقويت شوكة لاون ، بعد أن مات السلطان قلج أرسلان ، فقد بسط نفوذه على اثنين وسبعين حصنا ، بعضها كان بحوزة الأتراك وبعضها كان بحوزة اليونان ، وكان منتصرا في معاركه كلها .

وما أن بلغ نبأ وفاة صلاح الدين الى صاحب الموصل عز الدين بدأت الاحلام تراوده باحتلال سورية ، فاستنفر قوى أخيه عماد

الدين صاحب سنجار ونصيبين ، وقوى ابن أخيه صاحب الجزيرة ومظفر الدين بن زين الدين صاحب اربيل وهيأهم جميعا للاستيلاء على مابحوزة آل صلاح الدين من البلاد ، ولكن الملك الأفضل ، وهو الابن الأكبر لصلاح الدين ، والذي خلف أباه في ولاية دمشق استقدم عمه العادل الذي كان في دمشق ، وأرغمه على قيادة الجيش ، ومن ثم راح يجيش جيوش نويه من الولاة ، فقد استدعى اخاه الملك العزيز من مصر ، وأخاه الظاهر من حلب ، وابن عمه المنصور صاحب حماة ، وابن عم أبيه الملك المجاهد بن ناصر الدين منحمص ، ثم جعل جيوش هؤلاء جميعا جيشا واحدا ، ووجهه بقيادة عمه العادل الى مرج الريحان بضواحي الرها ، فما أن علم بذلك عماد الدين صاحب الموصل حتى توجه بجيوشه الى نصيبين حيث أصيب باسهال حمله على العودة الى بلاده ، ومالبث ان توفي هناك ، وقد كان هذا الحاكم طيب الطوية خير النزعة ، كريم اليد واللسان ، وقد حل محله في ولاية الموصل ابنه نور الدين أرسلان شاه الذي كان وصيه مجاهد الدين قايماز(٢٨)

وفي عام ٥٩٠ للعرب ، ١٥٠٤ يونانية (١١٩٣م) ، توجه علاء الدين تكش خوارزمشاه بجيشه الى خراسان فاشتبك مع طغرل قرب الري ، فقتل طغرل وقطع رأسه وأرسله الى بغداد حيث رفع على قصبة ووضع بباب قصر الخليفة ، وملك خوارزمشاه همذان وسائر البلدان وعين عليها نائبا يدعى قتلغ اينانج بن البهلوان ، سلطان همذان السالف ، فاستحضر خوارزمشاه عندما هرب طغرل من سجنه ، واخذ منه مقاليد الحكم في البلاد ، وقد كان طغرل هذا اخر حكام الدولة السلجوقية في خراسان ، وظلت دولتهم في بلاد الروم ، وهو ابن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ارسلان بن داود بك بن ميخائيل بن سلجوق بن تقاق .

وفي هذا العام زحف صاحب مصر الملك العزيز الى دمشق ليخرج اخاه الملك الأفضل منها ، فتدخل عمهما الملك العادل فأصلح بينهما بأن تظل القدس للعزيز واللاذقية وجبلة لصاحب حلب الملك

الظاهر ، وبعض قرى مصر للملك العادل ، ومن ثم عقدوا هدنة فيما بينهم وعاد كل منهم الى بلده .

وفي عام ٥٩١ للعرب ١٥٠٥ يونانية (١١٩٤ م) وجه الخليفة الناصر جيوشا بامرة سيف الدين طغرل أحد قادته الى أصفهان ، ففتح الأهالي له أبواب المدينة لبغضهم الشديد للخوارزميين الطغاة الذين قهروهم .

وفي هذا العام ايضا استعد صاحب مصر العزيز للقدوم الى دمشق وانتزاعها من أخيه الأفضل ، ولما علم الأفضل توجه بنفسه الى قلعة جعبر يطلب نجدة العادل وأخيه الظاهر ، فذهبا معه الى دمشق في حين كان العزيز قد قدم اليها ، ثم بعثوا الى العادل والأفضل يقولون هلم الينا نسلمكما اياه ، فأحس العزيز بمكيدة تعد له ، فأسرع بالعودة الى مصر فلحقه الأفضل والعادل وبلغا بلبيس ، وكان بمقدورهما أن يحتلا مصر لولا ان العادل طلب الى الأفضل أن يتريث ، وأصلح بينهما ، فعاد الأفضل الى دمشق وتولى القدس ايضا ، وأما العادل فقد أقام في مصر يسوس مملكة العزيز .

وفي عام ٥٩٢ للعرب (١١٩٥ م) زحف الملك العادل والملك العزيز من مصر الى دمشق ليأخذاها من الملك الأفضل فتأهب الأفضل لمواجهتهما ، ووزع قواده على الأسوار والأبراج والأبواب ، فخانه حارس الباب الشرقي واسمه عز الدين الحمصي ،وأدخل العادل الى دمشق ، فنزل في دار عمه أسد الدين شيركوه ، ثم تبعه الملك العزيز ، وأخذا دمشق من الأفضل ، ثم ولياه امر قلعة صرخد ، فذهب اليها ، وأما الملك العزيز ، فقد رجع الى مصر وبقي العادل في دمشق كأنه نائب يقوم مقام العزيز وكانت السياسة كلها بيده والاسم للملك العزيز وقد بعث الملك الظاهر مرارا من حلب الى الملك الأفضل يقول له : لاتصدق العادل ، فلن يجديك نفعا ، وأنا أعرفه أكثر منك ، فأنا ابن أخيه وصهره ، ولو كان

يشفق علينا لعاملني أفضل من معاملته لك ، فأجابه الأفضل قائلا : لقد ساء ظنك فيمن هو بمقام أبينا ، ومن لا يمكن أن يؤذينا .

وفي العام ٥٩٣ للعرب ١٥٠٧ لليونان (١١٩٦ م) هاجم الملك العادل الفرنج زاعما أن الصلح ، قد أصبح لاغيا بوفاة صلاح الدين وملك انكلترا ، ولهذا زحف الى يافا ودخلها عنوة ، فاستنجد الفرنجة الذين كانوا في الساحل بأصحابهم صارخين انجدونا والا احتل العرب كل السواحل ، فأنجدوهم بجيوش جرارة يقودها رجل يدعى(شنسلير) (٢٨) وهو من رجال الكهنة فحاصرت الجيوش تبنين طويلا وكادت أن تقتحمها لولا ان ذاع خبر سقوط هنري صاحب عكا من مكان مرتفع وموته ، ولهذا توقفت الجيوش عن القتال ، لأنه لم يبق لهم ملك ، فاستحضروا ملك قبرص وزفوا له زوجة هنري ، وعندما علم الملك العادل بذلك بعث الى الفرنجة يرغب في مصالحتهم ، فاصطلح الطرفان على أن تكون بيروت للفرنج وتبنين للعرب ، ولهذا غادرها الفرنجة وذهبوا .

وفاة ملكشاه وطغتكين بن أيوب وعماد الدين زنكي

وفي هذا العام (١١٩٦ م)مات ملكشاه بن خوارزمشاه في نيسابور ، فحل محله قطب الدين محمد علما ان المملكة بحسب وصية ابيه كان يجب ان تؤول الى ابنه هندوخان ، كما مات في هذا العام سيف دين الاسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين ، صاحب بلاد اليمن ، فخلفه ابنه اسماعيل ، ولكن اسماعيل هذا لم يكن مؤدبا ، فثار عليه الزعماء وقتلوه .

وفي عام ٥٩٤ للعرب (١١٩٧ م) مات عماد الدين بن زنكي بن مودود بن زنكي بن آق سنقر صاحب سنجار ونصيبين والرقة فخلفه ابنه قطب الدين محمد ، وكان وصي محمد هذا عبد ابيه مجاهد الدين يقش .

هجوم نور الدين ارسلان على نصيبين

وفي هذا العام سار نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل الى نصيبين واخذها من ابن عمه قطب الدين محمد ، ذلك أن محمدا كان قد تمادى على قرى مابين النهرين على حدود الموصل فعمل نور الدين على اخراج محمد منها فأبى ، فوجه اليه جيوشا طردته الى حران ، فاستعان محمد بالعادل ، وأما نور الدين ، فبعد ان مكث أياما في نصيبين التي كان قد انتزعها حديثا من ابن عمه محمد فقد استشرى المرض بجنده ، فمات ستة من أشهر زعماء الموصل ، منهم حاجب نور الدين ، مجاهد الدين قايماز ، مما حمل نور الدين على العودة الى الموصل ، فارتد قطب الدين واستعاد نصيبين .

خوارزمشاه ينتزع بخارى من الصينيين

وفي هذا العام زحف خوارزمشاه الى بخارى ، وأخذها من الصينيين الذين كان العرب البخاريون ينعمون معهم بدفء المحبة والسلام على اختلاف أديانهم ، مما دفعهم الى الوقوف في وجه خوارزمشاه ، فقد تصدوا له على الأسوار وقاتلوه أشد مايكون القتال ، والبسوا كلبا ثوب خوارزمشاه ، وطرحوه بين الأهالي وهم يقولون لهم هذا هو ملككم ، ومع ذلك احسن خوارزمشاه معاملتهم بعد أن دخل بخارى ، فقد صفح عنهم وعاهدهم وأعطاهم ذهبا .

الملك العادل يستولي على ماردين

وفي هذا العام ايضا استولى الملك العادل على ماردين بعد أن قاتل صاحبها حسام الدين قتالا شديدا ، وقد كان حسام الدين هذا

فتى وكان نظام الدين بن يقش وصيا عليه ، وقد خدع أهالي ماردين بالملك العادل ، فسلموه المدينة ، فما ان دخلها جنده حتى سلبوا مافيها وبطشوا بأهلها وحاصروا قلعتها .

وفاة العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر وتولي أخيه الأفضل .

وفي عام ٥٩٥ للعرب (١١٩٨ م) توفي صاحب مصر الملك العزيز ابن صلاح الدين ، فقد سقط عن حصانه بينما كان يطارد ذئبا في رحلة صيد ، فألمت به حمى شديدة وعاد الى مصر فمات فيها ، فاختلف الزعماء فيمن سيخلفه من ذويه ، فقد رأى بعضهم أن يخلفه ابنه الصغير الملك المنصور ، في حين رأى آخرون ان يخلفه الملك العادل ، ورأى غيرهم أن يكون الملك الأفضل خلفا للملك العزيز ، وقد رجحت كفة هؤلاء ، فاستدعي الملك الأفضل من صرخد وجعل ملكا ، ففر أعداؤه في مصر الى بيت المقدس واحتلوها ، وأما الملك الأفضل ، فقد جيش جيوش مصر وسار بها الى دمشق يريد احتلالها ، فأعلم الدماشقة الملك العادل الذي كان بماردين بذلك ، فترك فيها ابنه الملك الكامل محمدا ، وتوجه هو الى دمشق التي كان الملك الأفضل قد سبقه اليها ، ولكن جيوشه انقسمت على أنفسها فارتد الى مصر دون ان يفيد شيئا من مجيئه الى دمشق .

وأما الملك الكامل بن الملك العادل ، فقد بقي في ماردين يضغط على من كان في قلعتها الى ان نفدت ذخائرهم ، واستشرت بهم الأمراض ، فرأى نظام الدين الذي كان وصيا على الطفل حسام الدين ان يسلم هذه القلعة ، وهذا ماأثار صاحب الموصل نور الدين وولدي عمه صاحب سنجار وصاحب الجزيرة ، وقال بعضهم لبعض . اذا ماتمكن أتباع العادل من ماردين ، فسيتمكنون من احتلال بلادنا كلها ثم اتحدوا وزحفوا جميعا الى دنيسر (٢٩) ، فنزل الملك الكامل الى البرية حيث لاقاه المواصلة ، ففر هو واتباعه الى ماردين ، فوجدوا أن حماة قلعتها قد نزلوا عنها الى المدينة ، فنهبوا

خيامه ، وهذا ماحمل الكامل على أن يعود في تلك الليلة الى حـــران ومن ثم تحول الى دمشق حيث ابوه الملك العـــادل ، ويروى بعضـــهم أنه لو لم ينزل أصحاب الكامل عن الجبل الى البرية ، لصـــعب على المواصـــلة ان يخــــرجوهم مـــن مــــاردين ، ولما كادوا يحتلوا القلعة ، ولكن الله ـ جلت حكمته ـ يفعل مايشاء .

الملك العادل يرحل إلى مصر

في سنة ٥٩٦ للعرب (١١٩٩ م) جمـــع الملك العـــادل جيوشـــه وسار باتجاه مصر ، وعلم الأفضل بذلك فهيأ جيوشه واستعد لقتال عمه ولكنه هزم واضطر للعودة إلى القاهرة ليلا ، مما جعل العـــادل يتابع طريقه إلى القاهرة ويحاصرها بقصـــد أخـــذها وهنا اقتـــرح الأقطاب على الأفضل أن يلجأ إلى الهـــدنة ويطلب المصـــالحة لعـــدم مقدرته على القتال ، وقد اقتنع الأفضل بهذا الرأي ، ورضي أن تؤول إليه ولاية دمشق أو الرها وحران بدلا من مصر ، إلا أن الملك العادل رفض طلبه هذا ، ولكنه وافق على تـــوليته على ميافـــارقين وحـــاني وجبل جور وأقسم كل منهما للآخر وتوجه الأفضل إلى صرخد وبعث أتباعه ليتسلموا ميافارقين ، ولكنه فوجيء بابن الملك العـــادل نجـــم الدين أيوب يرفض تسليمه الولاية فشكاه إلى والده الذي أجابه بأن ابنه متمرد عليه ، وعلم الأفضل أن هذا اتفاق بين العـــادل وابنه فلم يفكر بإرسال وسيط بينه وبين العادل .

وفاة خوارزمشاه صاحب خوارزم

وفي السنة نفسها توفي خوارزمشاه تكش بن ألب أرسلان صاحب خوارزم وبعض خراسان كالري وجزء من بلاد الجبل ، فتولى مكانه محمد بن قطب الدين الذي سمي علاء الدين باسم أبيه .

وفي السنة نفسها مات القاضي الفاضل الفقيه المصري وحيد عصره في مصر .

إلغاء العادل الخطبةللملك المنصور

في عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م قام العادل بإلغاء الخطبة للملك المنصور الفتى ابن الملك العزيز مما أزعج الأقطاب ، وجعلهم يكتبون إلى الملك الأفضل في صرخد وإلى أخيه الملك الظاهر في حلب يطلبون منهما القدوم إلى دمشق وأبدوا استعدادهم لاعتقال العادل إذا مابرز إليهما،ولكن الأنباء تسربت إلى العادل فأرسل إلى ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى الذي كان في دمشق وطلب منه أن يسرع إلى صرخد لحبس الأفضل في قلعتها ، فهرب الأفضل إلى أخيه الظاهر في حلب وتوجها معا إلى منبج واحتلاها ، ثم تابعا فاحتلا قلعة نجم ثم سارا إلى حماة حيث قدم لهما ناصر الدين بن تقي الدين ثلاثين الف دينار صوري فتركاها وتوجها إلى دمشق عن طريق بعلبك ، واتفق الاثنان على أنهما إذا احتلا دمشق فإنها تبقى للأفضل إلى أن يسترد مصر فعندها تصبح مصر للأفضل ويرد دمشق للظاهر ، إلا أن الخلاف وقع بينهما عندما احتلا دمشق فقد طلب الظاهر أن تكون دمشق له على أن يرسل مع أخيه الأفضل جنوده لاحتلال مصر ولكن الأفضل قال له : إن أمي وأهلي ضيوف في حمص ، ولذا أرغب وقد أتيت بهم من صرخد إلى حمص وأعطيتها إلى زين الدين قراجا عبد أبي حتى يساندني فأرجو أن تترك لي دمشق لتمكث فيها النساء ، وتدافع أنت عنهن حتى تستولي على مصر ، ولكن الظاهر ظل مصرا على رأيه حتى علم الناس بذلك فانصرف قسم من زعمائهم إلى العادل وقسم آخر إلى دمشق إلا أن الأخوين اتفقا بعد ذلك ، وطلبا الصلح من عمهما العادل ، وقد استجاب العادل لهما ومنح الملك الظاهر منبج وأفامية وكفرطاب وبعض المعرة إضافة إلى حلب ، وأعطى الملك الأفضل سميساط

وسروج ورأس العين وجملين ، ودخل الملك العادل إلى دمشق وانصرف كل واحد إلى شأنه .

محاولة انتزاع مابين النهرين من آل العادل

وفي الوقت الذي كان فيه الأفضل والظاهر يحاصران دمشق قام نور الدين بجمع جيوشه واصطحب ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار وصاحب ماردين ، وتوجهوا جميعا ليستردوا مابين النهرين من آل العادل ، ولكن المرض تفشى بينهم عندما وصلوا إلى رأس العين وكان ذلك في الصيف ، وقد أرسل الملك الفائز بن العادل الذي كان في حران إلى نور الدين يطلب الهدنة ، فوافق الأخير ولاسيما أن نبأ اتفاق الأفضل والظاهر والعادل قد وصل إليه مع نبأ المرض وهكذا عاد نور الدين إلى الموصل ، وعاد كل واحد إلى مركزه ٠

ركن الدين بن قلج أرسلان يأخذ ملطيه

وفي ذلك العام كان معز الدين قيصر شاه واليا على ملطيه ، فزحف أخوه ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان وحاصرها واستطاع أخذها منه في حزيران ١٥١١ لليونان (١٢٠٠ م) ، وفر الملك معز الدين يطلب العون من حميه الملك العادل الذي بعثه إلى الرها ومنحه مساعدة ، فيما كان ركن الدين يتابع طريقه من ملطيه إلى ارضروم التي كان يتولاها ابن الملك محمد بن صلتق وهو من الأسرة المالكة في المدينة،وقد خرج إلى ركن الدين مظهرا الود والطاعة إلا أن ركن الدين لم يعبأ بهذا بل سجنه ودخل المدينة ، ثم أخذ قونية من غياث الدين كيخسرو أخيه . وقد فر غياث إلى سورية وقصد الملك الظاهر صاحب حلب وأخبره بما حدث طالبا نجدته ، ولكنه قوبل بالرفض فترك حلب وجعل يتنقل بين البلاد حتى وصل إلى قسطنطينية التي أكرمه ملكها وزوجه إحدى بنات بطارقته

العظام ، وبقي غياث هناك حتى وصل الفرنج إلى هناك حيث غادرها غياث يريد حميه وكان صاحب إحدى القلاع فرحب به وقال له : يكفيني هذا البلد ويكفيك إلى ان يقضي الله امره ، واقام هناك إلى حين وفاة أخيه .

كوارث طبيعية

وفي تلك السنة قلت مياه النيل ولم يفض فحدث ارتفاع شديد في الأسعار ، واكل الناس في مصر جثث الحيوانات والبشر ، وانتشر الطاعون ، ثم حدث زلزال هدم الأسوار والأبنية في دمشق وحمص وحماه وطرابلس وصور وعكا والسامرة ، واصاب الزلزال بلاد الروم إلا انه لم يكن قويا في بلاد المشرق .

خوارزمشاه محمد بن تكش ينتزع مرو ونيسابور

سار خوارزمشاه محمد بن تكش سنة ٥٩٨ للعرب (١٢٠١ م) إلى خراسان ، وانتزع مرو ونيسابور من غياث الدين واخيه شهاب الدين فقد كانت لهما،ولما رجع إلى خوارزم بسبب موت ابيه أخذهما غياث الدين فبعث إليه قائلا : كنت اظن انك تساعدني وتحارب الصين معي ، ولكنك ابيت إلا ان تضرني ، ولكن غياث الدين لم يعد إليه المدينتين مما اضطره للسير إليه واخذهما عنوة ولم يستطع غياث الدين ان يقف في وجهه بسبب داء النقرس الذي اصابه . وكان اخوه شهاب الدين يقاتل الهنود يومئذ .

محاولة الملك العادل الاستيلاء على ماردين

في سنة ٥٩٩ للعرب (١٢٢٠ م) أرسل الملك العادل أبو بكر بن ايوب حاكم مصر ودمشق جيشا كبيرا مع ابنه الملك الأشرف موسى

إلى ماردين وهناك حاصر هذا الجيش المدينة ، وسـيطر على بعض المناطق والقرى ، فتدخل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب بين الطرفين وعقد هدنة تقضي بأن يدفع صـاحب مـاردين إلى الملك العادل مائة وخمسين الف دينار ، قيمـة كل دينار منهـا سـتة دراهم فضة وأن يدعو له على المنابرويكتـب اسـمه على الدراهـم والدنانير ، وقد تسلم الملك الظاهر عشرين ألف دينار مـن ذلك المبلغ وأخذ منه قرية قرادي في شبختان وتركه وانصرف .

وأثناء الأحداث السالفة كان التركمان يعيثون في البـلاد فسـادا ويسلبون وينهبون حتى صار الناس يخشـون السـفر دون حمـاية الجند .

العادل ينتزع سروج ورأس العين

وفي تلك السنة انتزع العادل من أخيه الأفضل سروج ورأس العين وجملين ، وانتزع منه أخوه الظاهر صاحب حلب قلعـة نجـم ، ولم يتبق له إلا سميساط ، ولما وجد الأفضل أن عمه واخاه قـد ظلمـاه راسل ركن الدين سليمان بن الملك قلج أرسلان صاحب ملطية وقونية وابدى له إذعانه واستسلامه له وخطب له ، وسك الدراهـم بـاسمه واصبح بمثابة واحد من الأمراء في بلاد الروم ، ثم ارسـل إلى أمـه فذهبت إلى الملك العادل ورجته أن يرد لابنها ماأخذه من يده ، إلا أن العادل رفض رجاءها ليلقى آل صـلاح الدين العقـاب نفسـه الذي عوقب به آل أتابك عندما بعث أمه وابنة عمه فرفض توسلهما .

وفي هذه السنة أرغم الملك العادل الملك المنصور ابن الملك العـزيز على ترك مصر وجعل إقامته في الرها إلى جانب أمـه وأخـوته وذلك خشية من أن يبايعه المصريون .

انتزاع الفرنج القسطنطنية من اليونان

في نيسان سنة ٦٠٠ للعرب (١٥١٥ لليونان / ١٢٠٤ م) أخذ الفرنج القسطنطينية من اليونان وألغوا دولتهم منها ، وكان ملك اليونان قد تزوج أخت الملك فرنسيس ورزق منها طفلا ، وكان لملك اليونان أخ تمرد عليه وفقأ عينه وأماته في السجن ، فهرب ابن الملك المقتول وقصد خاله الملك فرنسيس ، فتحمس وحشد جنوده ، وسار الى محاصرة القسطنطينية ، وكان الأهالي حاقدين على ملكهم فأشعلوا المدينة بالنار ، وساعدوا الافرنج على دخول المدينة والقضاء على الملك الظالم ، ومن ثم سلموا عرش المملكة للفتى شكليا فيما تولوا الأمر عمليا ، وراحوا يرهقون الأهالي بالضرائب الباهظة ، وسلبوا الكنائس الأمتعة والصلبان والأناحيل والمذهبات ..

ولما رأى الأهالي القسوة والنهب ، هبوا على ملكهم وقتلوه وطردوا الفرنج وأغلقوا الأبواب في وجههم ، واستمر الفرنج في قتالهم على الأسوار حتى مل الأهالي وضعفوا فاستنجدوا بالسلطان ركن الدين صاحب قونية الذي لم يستطع مساعدتهم مما أدى الى ثورة التجار الفرنج وعددهم نحو ثلاثين ألفا ، وقاموا بإضرام النار في المدينة حتى أحرقت ربعها ، ثم فتحوا ابوابها للفرنج الذين قتلوا أعداد كبيرة من اليونان ولاذ العديد بكنيسة أياصوفيا حتى اضطر الرهبان والأساقفة للخروج وهم يحملون الصلبان والأناجيل يرجون منهم أن يكفوا أذاهم ، ولكن الفرنج لم يهتموا بما سمعوه منهم وتابعوا فتكهم وقتلوا الكهنة وسرقوا الكنيسة وكان للفرنجة ثلاثة قواد هم : دوقس البنادقة الضرير ، وقد ركبوا في سفنه والثاني المركيس مقدم الافرنسيس وثالثهم غوندفلند ، وقد اختير الاخير لملك قسطنطينية بالقرعة فيما أخذ الأول أقريطش ورودس وغيرهما ، وتولى المركيس البلاد الواقعة شرقي الخليج المار في بنطش مثل لوذقية ونيقية وفيلادلفيا

وغيرها الا انها لم تبـق له فقـد تغلب عليه الاشـكري الامبـراطور اليوناني واستطاع انتزاعها منه.

محاولة نور الدين شاه الاستيلاء على نصيبين

كان الاتفاق سائدا بين نور الدين شاه حاكم الموصل وقطب الدين محمد بن زنكي ابن عمه حاكم سنجار ، إلا أن العادل أوقـع الفتنة بينهما ، فهاجم نور الدين نصيبين وهي لابن عمه ، وكانت تقـع في يده لولا الخبر الذي جاءه من الموصل والذي مفـاده أن مـظفر الدين كوكبري صاحب إربيل زحف الى نينوى وعاث فيهـا فسـادا ، ولذا عاد نور الدين الى مدينة بلد ، ولكن نمي اليه أن مـظفر الدين رجـع الى اربيل فسار هو الى تل أعفر ، وأخذه عنوة ويومهـا كان الملك الأشرف في حران فجـاء الى رأس العين واتفـق مـع مـظفر الدين صـاحب اربيل ومـع حـاكم آمـد وحصن كيفا ، ومع حاكم الجزيرة ليمنعوا صـاحب الموصـل مـن احتلال شيء من صاحب سنجار وقد اجتمعوا في نصيبين ثم زحفـوا الى باعر بايا ، وتوجه نور الدين الى كفر زمار ثم الى بوشذه وأقام مع جنده حتى يسـتعيدوا قـوتهم ، فتـوجه اليهـم الأشرف بجنوده ، وقاتلوهم وخسر نور الدين المعركة وهرب مع أربعـة مـن رجاله الى الموصل ، أما خصـومه فقـد زحفـوا الى ضـواحيها فاستأسروا وأحرقوا وأفسدوا ولا سيما في بلد.

مصادفة غريبة

وسمعت إحدى النساء ـ وكانت تطبخ ـ بما يحدث فخشيت من السبي وكان في معصمها ذهب فأخفته تحت الموقـد ، فـدخل أحـد الفرسان ونزلها يفتش عن طعام فوجد بيضة فشـواها على الموقـد وعندما حاول تقليب النار وجد ذلك الذهب

- ٢٣٩٥ -

دخول الفرنج الى حماة

بعد احتلال الفرنج قسطنطينة استجمعوا قوتهم ، وساروا الى قونيه وسبوا حتى الأردن وقضوا على كثير من العرب ، ودخلوا حماة فخرج اليهم الملك المنصور بن تقي الدين بن شاهنشاه بن أيوب ولكنه هزم وفر الى حماة ، وخرج أهل حماه لقتال الفرنج فهلكوا جميعا ، فبعث الملك العادل ومنح الفرنج الناصرة وبقية البلدان التى كانت أموالها تقسم بين العرب والفرنج وعقدت الهدنة بين الطرفين.

استرداد أنقرة

وفي هذه السنة استرد السلطان ركن الدين حكم ملطية وقونية ومدينة انقرة من أخيه بعد حصار دام سنين ، ونفى أخاه وأولاده الى قلعة خارجية ، ولكنه أختبأ لهم في الطريق مع رجاله وفتك بهم ، بيد أنه اصيب بداء المفاصل بعدها بخمسة ايام ومات ليخلفه ابنه قلج ارسلان الذي كان شابا.

وقد عرف ركن الدين بالدهاء والانتظام في أفعاله وميله الى رأي الفلاسفة الخارجين،ولكنه لم يظهر ذلك.

وفي تلك السنة حدث زلزال عنيف دمر سور مدينة صور وأبنية كثيرة في مصر وفلسطين وما بين النهرين والموصل وقبرص وصقلية.

أفعال خصوم نور الدين

وراح خصوم نور الدين يعيثون في الضواحي فسادا واسترجعوا تل أعفر ومنحوه لابن عمه وعقدوا الصلح ، وتشتت الجند.

- ٢٣٩٦ -

خلاف بين سلاجقة الروم

في سنة ٦٠١ للعرب(١٢٠٤ م) نشأ خلاف بين زعماء بلاد الروم ، وبعث أحد أمراء أوج ببلاد التركمان المجاورة لليونان يطلب غياث الدين كيخسرو الذي سلف له وفر الى اليونان وجمع لأجل ذلك جيشا كبيرا وجهه الى قونيه ، فخرج أهلها وجندها اليهم وهزموهم ، وحار غياث الدين بأمره فلاذ بمدينة صغيرة مجاورة لقونية هي ابجرام ، ثم عطف عليه أهالي أقصرا فطردوا حاكمهم وولوه عليهم ، وكذلك فعل أهل قونيه فاعتقل قلج أرسلان ابن اخيه وخضعت له البلاد كافة ، فجاد عليه بذهب كثير وجعله يعود الى الرها ولم يبقه عنده.

وتوجه السلطان غياث الدين الى قيسارية ، وأتى الى زيارته الملك الأفضل ابن صلاح الدين صاحب سميساط ونظام الدين صاحب حصن زياد وخضعا له ، فشهره ذلك..

ناصر الدين والأشرف يستردان حصن زياد

وفي السنة نفسها توجه ناصر الدين محمود بن قرا أرسلان حاكم آمد الى الملك الأشرف طالبا منه أن يمده بالعون لاستعادة حصن زياد ، ولبى الأشرف هذه الدعوة وجهز جنودا من سورية والموصل وسنجار والجزيرة وسار واحتل المدينة وأخذ الجمعان يقاتلان في القلعة ، وحين ذلك طلب صاحب حصن زياد من السلطان غياث الدين المعونة ، فأرسل اليه ستة آلاف فارس بقيادة الملك الأفضل صاحب سميساط ، وعلم الأشرف ناصر الدين بهذه المساعدة فغيروا جبهة القتال ، ودخلوا القلعة وعينوا فيها حراسا.

- ٢٣٩٧ -

زحف الكرج الى أذربيجان

وفي عام ١٥١٦ لليونان (١٢٠٥ م) قام الكرج بـالزحف الى أذربيجان فبطشوا بـأناس عديدن ، وغنمـوا كثيرا ، وبعـد ذالك ساروا الى خلاط وارضروم ، فسار صاحب خلاط ابن قلج ارسلان صاحب أرضروم واخذ جيشا من عنده ، وعاد لمقاتلة الكرج ، وقتـل في المعركة القائد الكرجي زكري الصغير ، وفـر أهـل امـكرج الى بلدهم.

حوادث طريفة

وفي تلك السنة انجبت امرأة طفلا له رأسان واربعة أرجل وأربعة أيد ومات في اليوم نفسه.

ودخل اثنان من العميان مسجدا في بغداد وقتلا أعمى ثالثا ليأخذا أمواله ، وفي الصباح هما بالفرار الى الموصل فرآهما أحد الحراس فقال ممازحا : هذان الأعميان قتلا ذلك الأعمى لأنه لا يقتل الأعمـى إلا مثله ، فراح كل منهما يحلف أنه لم يقتل الرجل بل قتله صـاحبه فقبض عليهما الحارس واعترفا بفعلتهما بأن أحدهما قد أمسكه ثـم خنقه الثاني بحبل ، فأصدر الحاكم أمرا بقتلها.

أكراد مخربون

وفي سنة ٦٠٢ للعرب (١٢٠٥ م) ظهـر جمـاعة مـن الأكراد التيرهانية من جبـال حـاداي وأحـدثوا دمـارا كبيرا في تلك البلاد[١] ، فلاقاهم العجم وقتلوا عددا كبيرا منهم ، وهؤلاء الأكراد لم يسلموا بـل ظلوا على وتنيتهـم ، وكانوا ينكلون بـالمسلمين أشـد التنكيل ويقتلونهم ، وكان من عادة هؤلاء أنه إذا ما ولدت لهم فتـاة

وقف أبوها في باب منزله وصاح : من يخطب هذه الفتاة ، فإن خطبها أحد تركها حية وإلا قتلها ، ولهذا قل عدد نسائهم ، وربما كان ينكح المرأة الواحدة كل رجال البيت.

وإذا دخل عليها أحدهم جعل حذاءه خارجا على الباب حتى لا يدخل سواه ، حتى يخرج هو فيأذن للثاني بالدخول ، ويكون المولود ابنا لأكبرهم سنا.

احتلال أنطالية

وفي عام ٦٠٣ للعرب (١٢٠٦ م) زحف الكرج مرة ثانية الى خلاط ، ففعلوا فيها ما فعلوا من سبي وقتل وحرق ، وفي شهر شعبان احتل غياث الدين كيخسرو أنطالية التي على ساحل البحر ، بعد أن كان قد وجه اليها الجيوش في العام المنصرم ، فما كان من أهالي اليونان إلا أن استنجدوا بالفرنج في قبرص ، واستدعى السلطان جيوشه من المدينة ، وجعلهم في الجبال ، حتى إذا خرج من المدينة أحد قبضوا عليه ، وبقيت الحال على هذا النحو حتى سلمت المدينة الى السطان ، أما اليونانيون والأتراك فقد اتفقوا معا وحاربوا الفرنج وانتزع السلطان القلعة وأسر من فيها من الفرنج ، كما احتل كوتاس أيضا.

تسليم مدينة خلاط

وفي العام نفسه قوي أمر سلطان خلاط محمد بن بكتمر فقضى على صهره هزار ديناري الذي قتل أباه وعاش في بذخ كبير مذ أن كان طفلا حتى كرهه الخلاطيون ، وثار عليه بلبان أحد عبيد شاه أرمن في منازكرد ، وبعث بعض الخلاطيين الى ناصر الدين أرتق ابن ايلغازي بن البي بن تمرتاش بن

ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين يحرضونه على ابن خال أبيه ويدعونه لاستلام المدينة ، فما كان منه إلا أن زحف بجيوش أتراك ومعديين وقد استعدوا للقتال ، ولكن الذي جرى أن بلبان أرسل الى صاحب ماردين يطلب منه ترك خلاط ليتدبر أمرها هو زاعما أن أهل خلاط ينفرون من المعديين ، وعندما لم يقبل بذلك هدده بلبان إذا لم يعد الى بلده ، ولكنه خاف بعد أن وجد جيوشه قليلة ، فعاد ليرى أن بلده قد غزاه الملك الأشرف ، وأقام الأشرف في ديئسر وجمع منها أموالا طائلة ثم مالبث أن تركها وعاد الى حران.

محاولة الملك الأوحد احتلال خلاط

وقام بلبان بالزحف الى خلاط بعد أن حشد الجنود ، ولكنه لم يستطع احتلالها ، فجعل يعطي لأهل خلاط الوعود والمواثيق على أنه لن يؤذي أحدا منهم ، حتى سلموه المدينة فقام بسجن ابن بكتمر في حصن من الحصون ، واستفحل أمره ، وفي هذه الأثناء احتل الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن العادل قلعة موش ومدينتها ، وتوجه الى خلاط ، ولكن بلبان سد الثغور ، وقضى على عدد كبير من أعوانه ، وأفلت الأوحد وعادا الى بلده ميافارقين مع نفر من المصابين.

كيف تم الأمر للملك الأوحد

وقام الكرج باحتلال مدينة القرص بولاية خلاط في العام نفسه بعد أن قاموا بمحاصرتها عدة أعوام قاطعين عنها الذخيرة،وفي عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م طلب الملك الأوحد نجدة من أبيه الملك العادل حتى يزحف الى خلاط

فبعث الملك الأشرف جيشا كبيرا قبع قرب المدينة ، وحاول بلبان

محاربته ولكنه عجـز عن ذلك وعاد الى خـلاط ليبعـث رسـولا الى صاحب أرضروم مغيث الدين بن قلج أرسلان ليستنجده ، فاستجاب له واقبل ليحارب مع بلبان الملك الأوحد مـع أخيه حتـى تـم النصر لهما ، فزحفا الى موش لاحتلالها.

ولكن مغيث الدين خان بلبان وقتله ليستولي على خلاط ، وعندما توجه إلى المدينة ليتولاها وجد أبوابها مغلقة في وجهه ، فتحـول الى منازكرد ، ولكن أهلها قاوموه أيضا ممـا جعله ييأس ويجـر ذيول الخيبة الى بلده ، ثم إن أهل خلاط استدعوا الملك الأوحد وسـلموه المدينة ليتولاها.

اضطرابات في خلاط

وكان الولاة العرب المجـاورين يتخـوفون مـن الملك العـادل فلم يرضهم ان يتولى ابنه المدينة فراحوا لذلك يغزون الخلاطيين وخاصة الكرج ، فقام بعض الأمراء الخلاطيين بانقلاب على الأوحد ، واحتل أهم قلعة هناك وهي قلعـة (وان) اضـافة الى أرجيش ، وبعـد تدخل الأشرف أخي الملك الأوحد استطاع هذا الأخير أن يسـترجع قلعة وان ، ولكنه لما خرج فيما بعد الى منازكرد لينظمهـا كمـا يريد ثار الخلاطيون من زعماء الصفوف وكانوا قد استاءوا لتسليم المدينة الى أصحاب العادل فـطردوهم مـن المدينة وقـاموا بمحـاصرة القلعة ، فما كان من الملك الأوحد الا أن جاء الى خـلاط في جيوش مابين النهرين واحتل المدينة بعد أن دب خلاف بين أهلها وفتك بعدد كبير منهم ، واعتقل العديد ونفاهم الى ميافـارقين ، وهـكذا تـم اخماد حركة زعماء الصفوف الذين كانت أمور العـزل والتـولية في أيديهم .

موت كيخسرو

وفي هذه السنة مات غياث الدين كيسخرو فخلفه ولده عز الدين كيكاوس، الذي قام باعتقال اخيه علاء الدين كيقباذ في قلعة مسارا بأسفل دير مار أهرون في الجبل المبارك قرب ملاطية .

الفرنج في حمص

وفي هذه السنة ايضا قام الفرنج بالزحف الى حمص قادمين من طرابلس فعاثوا الفساد في أرجائها ولم يستطع صاحب حمص أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه الكبير أن يكفهم عن ذلك،وقام القبارصة ايضا بالاستيلاء على بعض السفن العربية واعتقال أصحابها،مما جعل الملك العادل يسير في جيوشه من مصر ليكف الفرنج .

موت صاحب مراغة

وفي السنة ذاتها مات صاحب مراغة علاء الدين بن قرا سنقر ، فخلفه ابنه الصغير ، ولكنه مالبث ان مات أيضا فأقبل صاحب تبريز نصر الدين أبو بكر بن البهلوان واحتل المدينة دون أن يتمكن من قلعة راوند التي قاومه فيها مربي الغلام المتوفى .

زحف الكرج الى مدينة أرجيش

في عام ٦٠٥ للعرب (١٢٠٨) م زحف جيش عرمرم من الكرج الى مدينة أرجيش من ضواحي خلاط فقاموا باحتلالها ونهبها والفتك بأهلها شيبا وشبابا وأسر نسائها وأطفالها ، ولم يتركوها الا خرابا ، ولم يتمكن نجم الدين الأوحد الذي كان في خلاط أن

يقاومهم لكثرتهم ، ولعدم ثقته بالاهالي الذين فتك بهم فيما سـالف ، وكان يظـن أنه لو تـرك المدينة لسـلمها أهلهـا الى الكرج .

زلزال في نيسابور

وفي هذه السنة أصاب نيسابور زلزال قوي ، فهـرب على أثـره جميع السكان متوجهين الى البـرية فبقـوا عدة ايام حتـى ينتهـي الزلزال فيعودوا ، كما أنه حصل زلزال آخر في خراسان ، ولكنه لم يكن بالقوة نفسها لزلزال نيسابور .

اتفاق نور الدين ارسلان مع الملك العادل

وفي عام ٦٠٦ للعـرب (١٢٠٩) م زوج نور الدين ارسـلان صاحب الموصل ابنته لأحد ابناء الملك العـادل بعـد أن تـم الصـلح بينهما ، واتفقا على انتزاع مدينة سنجار من صاحبها قـطب الدين ليتولاها العادل ، كما اتفقا على احتلال جزيرة قـردو (٣١) مـن صاحبها ابن سنجر شاه ليتـولاها نور الدين ارسـلان ، ولكن نور الدين بعد ان فكر مليا ندم على ماخطط لأنه ايقـن انه سـينتزع منه سنجار والجزيرة ان احتلهما بل وينتزع منه الموصل ايضا ، وعندما شاور اصحاب الرأي لامـوه جميعـا ، اذ لم يطلعهـم على اتفـاقه السري مع الملك العادل ، ونصحوه بأن ينجز وعده للعادل كيلا يعـد ذلك نقضا للعهود فيقيم عليه الحجة ، وبينما كان نور الدين في حيرته هذه ويتظاهر بتهيئة جيش ليرسله الى نصرة الملك العادل أتـاه ليلا رسول من صاحب اربيل مظفر الدين كوكبري يعده بأنه سيوافي اليه بجيوشه ليتفقا معا على الملك العادل ويحـولا دون تمـكنه مـن تلك البلاد ، فرضي بذلك نور الدين مبتهجـا وعاهـد على ذلك فعـاد الى الخليفة يحثه على تعنيف العادل بسبب طمعه ، كما بعث رسولا الى صاحب حلب الملك الظافر بن صلاح الدين والى السـلطان عز الدين كيكاوس ووعدهم بـالمعونة ، اضـافة الى أن أصـحاب العـادل لم

يحاربوا سنجار بشدة وخاصة أسد الدين صاحب حمص، الذي كان يبعث علنا الى المدينة مؤنا مختلفة ، وتشجع صاحب سنجار على التشبث بمدينته بعد أن كان مستعدا لتسليمها ، وأخذ بدلا منها ، ثم جاء الى الملك العادل رسول الخليفة الناصر فوبخ العادل على طمعه مما جعله يعقد الصلح ويكتفي بالخابور ونصيبين ويعود الى سورية

مظفر الدين والملك العادل

وكان صاحب إربيل مظفر الدين وقتئذ في الموصل فقام بتزويج ابنتيه الى ابني نور الدين وهما عز الدين مسعود وعماد الدين زنكي ، على أنه فيما سلف ، كان مظفر الدين يساند أصحابه العادل ، لكن الحال تغيرت بعد ان ارسل اليه صاحب سنجار ابنه راجيا أن يراجع العادل ليدعه في مركزه ، فكتب اليه في هذا الشأن وكله ثقة أن طلبه لن يخيب عند العادل مهما كان ولكن العادل غض طرفا عن طلبه مما دعا مظفر الدين أن يرتاب وينضم الى نور الدين على الرغم من المشادة التي كانت بينهما ...

وفاة نور الدين ارسلان

وفي السنة ذاتها توفي صاحب الموصل نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر ، وكان قويا عادلا تخافه رعيته ، وسلاطين عصره ، ولما حانت وفاته استحلف زعماءه من أجل ابنه الكبير الملك القاهر عز الدين مسعود ، وولى ابنه الصغير عماد الدين زنكي قلعتي العقر وشوش مع اصقاعمها ، وجعل لهما وصيا مملوكه (بدر الدين لؤلؤ) وكان رجلا حكيما ذا هيبة يستحق هذا المنصب،وعندما استفحل المرض على نور الدين اقترح عليه الأطباء ان يسبح في عين دير القديس زينا في سواحل دجلة (٣٢)

فذهب مع بدر الدين وسبح هناك الا انه لم يستفد من ذلك اذ كان مرضه مميتا ، وماكاد بدر الدين يركبه في السفينة ليرجعه الى الموصل حتى سبقته المنية وكان معهما مملوكان فحسب ، فحملوه في الليل الى بيته دون اشعار احد ، وبقي بدر الدين طوال النهار مشغولا بتصريف الامور الضرورية حتى الساعة التاسعة وعندها اعلن نبأ وفاته ، فشيعوه ليلا ودفنوه في قبر اعد من قبل تجاه منزله ، وخلفه ابنه الملك القاهر ، وامست ازمة أمور الولاية بيد بدر الدين.

وفي عامي ٦٠٨ ـ ٦٠٩ للعرب (١٢١٢ ـ ١٢١٣ م) لم نجد اي خبر هو أهل لأن يذكر

الحواشي والهوامش

حواشي المؤرخ الرهاوي المجهول .

١ ـ أي السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢ م) .

٢ ـ أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه أحمد بن بدر الجمالي ثاني الملوك الأرمن الذين تحكموا بالخلافة الفاطمية في مصر ، اغتيل سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م .

٣ ـ من كبار قادة التركمان الذين دخلوا الشام ، تعاون مع تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق ، واستقر فترة في القدس ، وبعد استرداد الفاطميين للقدس ، ترك الشام إلى الجزيرة حيث أسس أولاده عددا من الامارات ، وكان تاريخ الامارات الارتقية موضوع إطروحة للدكتور عماد الدين خليل ، نشرت في بيروت ١٩٨٠ .

٤ ـ أي الخلافة الفاطمية مع من دان لها بالطاعة والولاء

٥ ـ الرها هي إيدسا في السريانية ، وهي أورفا الحالية داخل الأراضي التركية مقابل الحدود السورية ، تمتعت بمكانة تاريخية كبيرة ، ويشير المؤرخ هنا إلى حملة السلطان الب أرسلان عليها ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م . انظر كتابي « مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ط دمشق ١٩٧٥ ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

٦ ـ يريد به الامبراطور البيزنطي

٧ ـ حول أوفى التفاصيل عن علاقات الامبراطور الكسيوس بقادة الحملة الأولى انظر ماكتبته الأميرة آنا كومينا

٨ ـ فراغ بالأصل السرياني المخطوط

٩ ـ يشير هنا إلى ما حل بالقوات التي قادها بطرس الناسك .

١٠ ـ كانت نيقية غير بعيدة عن القسطنطينية ، وكانت حاضرة دولة سلاجقة الروم ، انظر حول سقوطها وما جرى من مشاكل تاريخ الحروب الصليبية تاليف ستيفن رنسمان ـ ترجمة عربية ط ٠ بيروت ١٩٦٧ ، ١ / ٢٤٩ ـ ٢٥٩ .

١١ ـ دخل في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ م السلطان ملكشاه مدينة انطاكية حيث الحقها بأملاكه ، وقبل مغادرته لها عين واحدا من ضباطه واسمه يغي سيان ، وهو الذي حاول التصدي للحملة الأولى انظر كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ، ٢٣٧ ـ ٢٤٢

١٢ ـ الحقيقة أن هذا حدث قبل وصول الحملة إلى أنطاكية انظر رنسمان ١ / ٢٨٧ ـ ٢٩١ .

١٣ ـ بياض بالأصل .

١٤ ـ انظر كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ٢٣٧ ـ ٢٤٢

١٥ ـ انظر المصدر السابق

١٦ ـ حدث خلاف بين الفرنجة حول أنطاكية وادارتها انتهى بتولية بوهيموند ـ انظر رنسمان ١ / ٣٣٥ ـ ٣٣٦

١٧ ـ بلدة قُرَيْبَة من حران من ديار مضر ـ معجم البلدان

١٨ ـ تبعد عن البيرة قليلا إلى الشمال ، والبيرة عند ياقوت في معجم بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية ، وهي قلعة حصينة ، ولها رستاق واسع .

١٩ ـ قرية مستطيلة من أعمال سميساط ، ولها عرض صالح ، وفيها سوق ودكاكين وافرة وفيها حصن كبير على قلعة .معجم البلدان .

٢٠ ـ مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة في العواصم ، وهي قلعة تحت جبل . معجم البلدان .
٢١ ـ كذا والأصح « سليمان بن ملك غازي » كمشتكين بن دانشمند .
٢٢ ـ مدينة على شاطيء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الارمن . معجم البلدان .
٢٣ ـ مرعش مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق ، والجبل الاسود قريب منها ـ معجم البلدان .
٢٤ ـ عين زربة بلد بالثغور الشامية من ناحية المصيصة ـ معجم البلدان .
٢٥ ـ ماتزال معروفة بهذا الاسم في الجنوب الغربي من تركية على مقربة من الاراضي السورية .
٢٦ ـ هي أضنة حاليا داخل الاراضي التركية على مقربة من الحدود السورية .
٢٧ ـ كذا أي (١١٠٢ م) وهو خطأ والمفروض ان يقول : « ١٤٠٦ » أي ١٠٩٩ م ، ثم القدس لم تسلم بل سقطت عسكريا واقتحمت اقتحاما وتم قتل كل من كان فيها . انظر النصوص المقبلة ، هذا ويلاحظ أن سمة الاختصار واضحة هنا .
٢٨ ـ كان لقيام مملكة القدس اهمية قصوى في تاريخ الحروب الصليبية ، فقد عدت أكبر ممالك الفرنجة في الشرق ، وهددت بنشاطاتها كل من دمشق ومصر ، وظلت هكذا حتى سقطت لصلاح الدين إثر معركة حطين .
٢٩ ـ بني الحصن المذكور على تلة واقعة على الضفة اليسرى لنهر قاديشا كانت تعرف باسم تلة الحجاج ، واسمها الآن تلة أبي سمرة . انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي للدكتور سيد عبد العزيز سالم ط الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٨٨ ـ ٩٥ .
٣٠ ـ كذا ومرت أعمال حصار طرابلس بعدة مراحل ، وسقطت لبرتراند بن صنجيل سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ٠ ٨٨ ـ ١٢١ .
٣١ ـ انظر زبدة الحلب ٠ ٢ / ١٤٣ ـ ١٥١ .
٣٢ ـ انظر زبدة الحلب ٠ ٢ / ٢١٠ .
٣٣ ـ عين السلطان ملكشاه بوزان في منصبه ، وقد قتل بوزران من قبل تتش بن ألب أرسلان ، انظر كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٠٤
٣٤ ـ كان هذا سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٠ م . انظر زبدة الحلب ٠ ٢ / ١٤٥ .
٣٥ ـ كذا ويعتمد في هذا المقام ما جاء في النصوص الاغريقية واللاتينية والعربية
٣٦ ـ هو وليم التاسع صاحب بوتو .
٣٧ ـ يعرف الآن باسم تل باجر في محافظة حلب .
٣٨ ـ مقدر انها سقطت سنة ١١٠٣ م ، وقد تعرض ابن العبري لهذه الحادثة في تاريخه الكبير بالسريانية ، انظر الترجمة الانكليزية ص ٤٦٣ .
٣٩ ـ ذكر ياقوت سروج وقال عنها هي بلدة قريبة من حران من ديار مضر ، هي الآن داخل الحدود التركية قريبة من الاراضي السورية .
٤٠ ـ سيرد ذكر بلك مرارا في نصوص كتابنا هذا ، وهو نور الدولة بلك بن بهرام بن أرتق مات سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م أمام أسوار منبج .
٤١ ـ توفي سكمان سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م . انظر حوله الامارات الارتقية في الجزيرة والشام لعماد الدين خليل . ط بيروت ١٩٨٠ ص : ٢٠٦ ـ ٢١٩ .
٤٢ ـ كان هذا سنة ١١٠١ م
٤٣ ـ في الأصل قربوقاد ، وهو تصحيف زاد به الناسخ حرف « الدال » .
٤٤ ـ هو شمس الدين جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر . انظر الكامل لابن الاثير ٠ ٨ / ٢١٠ .
٤٥ ـ لم يتحدث مصدر آخر عن هذه الغارة التي قام بها جكرمش على الرها ، ولعل هذه العملية جاءت مقدمة لمعركة البليخ سنة ١١٠٥ م .

٤٦ ـ كركر حصن بين سمسياط وحصن زياد ـ خرتبرت أو خربوط ـ معجم البلدان .
٤٧ ـ هو قسطنطين عند ابن العبري .
٤٨ ـ أي سنة ١١٠٧ م .
٤٩ ـ رأس عين الخليل عند نبع نهر البليخ حاليا .
٥٠ ـ في السابع من ليار ١١٠٤ م .
٥١ ـ اعتمد الفرنجة على الفرسان الثقال ، بينما اعتمد التركمان على الفرسان النبالة ، وكان يسددون رماياتهم على مطايا الفرسان الفرنجة ، لهذا عمدوا إلى استخدام ستارة من الرجالة ، وقام تكتيك التركمان الآن على فصل المشاة عن الفرسان والايقاع بكل قوة على حدة ، وأحيل القارىء هنا على التفاصيل التي أوردتها في كتابي « حطين ـ مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس » ط . دمشق ١٩٨٤ .
٥٢ ـ ذكر ابن العديم هذه الحادثة بين وقائع سنة ٥١٧ هـ ، انظر زبدة الحلب . ٢ / ٢١٠ ـ ٢١١ ، وأيضا ذكرها ابن القلانسي . ٢٣٢ ، وعنده وقعت المعركة قرب قنطرة سنجة ، وفي معجم البلدان : سنجة نهر عظيم لايتهيأ خوضه لان قراره رمل سيال كلما وطئه انسان برجله سال به فغرقه ، وهو يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر ، وعلى هذا النهر قنطرة عظيمة هي إحدى عجائب الدنيا ، وهي طاق واحد من الشط إلى الشط .
٥٣ ـ هو ابن أخ لبوهيموند .
٥٤ ـ نجم الدولة سالم بن مالك العقيلي ، أول من تسلم قلعة جعبر توفي سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م انظر ترجمته في كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية . ٤٠٥ ـ ٤٠٧ .
٥٥ ـ نسبة إلى ميخائيل امبراطور بيزنطة .
٥٦ ـ جاولي سقاوة أقطعة السلطان السلجوقي محمد الموصل في محرم سنة ٥٠٠ هـ انظر الكامل لابن الاثير ٠ ٨ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .
٥٧ ـ سنة ١١٠٨ م .
٥٨ ـ في الأصل بين كيرهاز ودليك ، والقرية الاولى هي بالعربية كلز ، ذكرها ياقوت وبين أنها قرية « من نواحي عزاز بين حلب وانطاكية » ، ودلوك عند ياقوت ٠ « بلدة من نواحي حلب بالعواصم » ، وهي تقع بين كلز وعين تاب .
٥٩ ـ بدأ الحصار في شهر أيار ١١١٠ ، وكان هناك باب في الرها يدعى باب كاساس .
٦٠ ـ كان رجال الفرنجة خاصة الفرسان منهم هواة حرب ، يندفعون إلى المعركة بشكل جنوني دونما مراعاة للنظام والعمل الجماعي ، فجندهم تشكل من مجموعات اقطاعية ، وكان الفارس من بينهم ما أن يمتطي حصانه ويتقلد رمحه حتى يحرك مطيته ويندفع نحو خصومه بشكل صاعق ، وهنا توجب على خصوم الفرنجة الابتعاد من طريقهم حتى تتبدد طاقات الهجوم ، وخير من تنبه لهذا الموضوع وعالجه في العصور الوسطى الامبراطور البيزنطي ليون في كتابه حول التكتيك حيث يقول « يعتقد الفرنجي ان الانسحاب عملا غير مشرف مهما كانت الظروف ، وهو مستعد للقتال متى ما عرضت عليه ذلك ، لذلك يتوجب عليك الا تشتبك به حتى تضمن لنفسك جميع أسباب النجاح ، فالفارس الفرنجي ينقض كالصاعقة ورمحه الطويل مسلط وبيده ترسه الطويل ، وهنا عليك أن تتحاماه ، وإذا أمكن استدرجه نحو الاماكن المرتفعة ، فالفارس الفرنجي أقل فعالية في الهضاب منه في المنبسطات ، وإذا ما عسكرت أمامك جيوش للفرنجة طاولها ولاتشتبك معها ، فقد يمل جندها خلال أسابيع ويركب كل جندي مطيته وينطلق عائدا نحو موطنه ... إنك ستجد الفرنجة لايعتنون بالحراسة والاستطلاع ؛ لهذا سيكون من السهل عليك الايقاع ببعض فئاتهم عن طريق الكمائن أو مهاجمة معسكراتهم ، ولاتعرف قوات الفرنجة أي نوع من الانظمة وكل ما يربطهم لايتعدى يمين الولاء ، والفرنجة يغرقون عادة في لجة من الفوضى فور شروعهم بالحملة على خصومهم ، وعليك هنا التظاهر بالفرار (الفر) ثم الارتداد عليهم ، ومهما يكن الحال إذك ستجد على العموم من الاسهل والاقل كلفة اتعاب قوات الفرنجة وانهاكها بالمناوشات والعمليات

الدفاعية ، ومن ثم محاولة تدميرها بضربة حاسمة » . انظر تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى تأليف أومان ـ ط . نيويورك ١٩٥٣ ص ٣٤ (بالانكليزية).

٦١ ـ هذا هو الحصار الثاني للرها من نيسان حتى حزيران لسنة ١١١٢ .

٦٢ ـ سنة ١١١٣ م .

٦٣ ـ جرى اغتياله في مسجد دمشق في يوم الجمعة الاخيرة من ربيع الاخر سنة ٥٠٧ هـ / ١٥ تشرين الأول ١١١٣ م وكان مغتاله من الحشيشية ، ولربما كان لكل من رضوان بن تتش وطغتكين دور في ذلك . انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي : ٢٩٨ ـ ٩٩ ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

٦٤ ـ في كانون أول عام ١١١٣ م .

٦٥ ـ كان هذا سنة ٥١١ هـ / ١١١٨ م . انظر زبدة الحلب . ٢ / ١٨١ ـ ١٨٦ .

٦٦ ـ هي « مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم » معجم البلدان .

٦٧ ـ كان هذا سنة ١١١٣م .

٦٨ ـ ١٠ كانون أول سنة ١١١٣ ، انظر ترجمته بين نصوص كتابنا هذا .

٦٩ ـ سنة ١١١٤ م ، وللبرسقي ترجمة مطولة بين نصوص كتابنا هذا .

٧٠ ـ في أيلول سنة ١١١٥ م ، وكان قائد المسلمين في هذه السنة برسق بن برسق انظر الكامل : ٨ / ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

٧١ ـ ذكرها ياقوت في معجمه وقال عنها : « بلد قرب سمسياط بين حلب والثغور الرومية ، وهي قلعة حصينة ، ولها رستاق واسع .

٧٢ ـ اي سنة ١١١٨ م .

٧٣ ـ أراد امتلاك مصر ، بلغ حتى تنيس « وسبح في النيل وانتقض جرح كان به » ابن الاثير : ٨ / ٢٨٤ .

٧٤ ـ هنزيط عند ياقوت من الثغور الرومية ، وخرتبرت اسم أرمني لحصن زياد في اقصى ديار بكر « بينه وبين ملطية مسيرة يومين ، وبينهما الفرات » . معجم البلدان

٧٥ ـ معروفة حتى الآن بهذا الاسم من أعمال حلب .

٧٦ ـ اي عام ١١١٩ م .

٧٧ ـ سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م . انظر تاريخ دمشق ٠ ٣١٩ ـ ٣٢٠ . الكامل لابن الاثير : ٨ / ٢٨٨ ـ ٢٨٩ . زبدة الحلب : ٢ / ١٨٧ ـ ١٩٠ ٠ الامارات الارتقية : ٢٤٣ .

٧٨ ـ كان هذا في آب سنة ١١١٩ م .

٧٩ ـ في سنة ١١٢٠ .

٨٠ ـ في أيار سنة ١١٢٠ م .

٨١ ـ كذا في الاصل ، والمقصود هنا الكرج ، لكن المؤلف استخدم هذا المصطلح على أساس خضوع شعوب ما وراء أرمينية سابقا إلى امبراطورية الخزر التي اعتنق ملوكها اليهودية ، وقد اتى المؤرخون المسلمون على ذكر هذه الواقعة وأفضل تفاصيل حولها في الجزء غير المنشور من تاريخ ميافارقين ، وقد أثبت رواية هذا الكتاب في حاشية تاريخ دمشق لابن القلانسي : ٣٢٦ ـ ٣٢٨ فلتنظر .

٨٢ ـ انظر تاريخ دمشق . ٣٣٠ ـ ٣٣١ حيث ـ في الحاشية ـ رواية صاحب تاريخ ميافارقين .

٨٣ ـ جرى حذف هنا فقرتين تختصان بالشؤون الاغريقية .

٨٤ ـ المشار إليه هنا قلج أرسلان الاول من سلاجقة الروم

٨٥ ـ كانون أول عام ١١٢٤ م .

٨٦ ـ قرب بحيرة وان في تركيا حاليا ماتزال تحمل الاسم نفسه.

٨٧ ـ آب ١١٢٣ م .

٨٨ ـ في زبدة الحلب ٢ / ٢١٣ « وسيرهم الى حران وحبسهم بها » .
٨٩ ـ من المفيد مقارنة معلومات المؤرخ المجهول مع ما أورده ابن العديم في زبدة الحلب ٢ / ٢١٤ ـ ٢١٥ .
٩٠ ـ عام ١١٢٤ م
٩١ ـ إن ما أورده ابن العديم في زبدة الحلب . ٢ / ٢١٦ ـ ٢١٩ حول ملابسات مصرع بلك أوضح وأكثر تفصيلا
٩٢ ـ من المفيد العودة الى رواية ابن القلانسي بين نصوص كتابنا هذا ، وكان هذا كله عام ١١٢٤ م .
٩٣ ـ ذكر ابن العديم في الزبدة ٢ / ٢١٧ أن بلك نقل الاسرى من سجن حران إلى سجن حلب
٩٤ ـ نحيل القارىء هنا على ترجمة البرسقي بين نصوص كتابنا هذا ، انظر أيضا زبدة الحلب . ٢ / ٢٣٥ ، هذا ويلاحظ أن الفقرة وضعت في غير مكانها فقد توجب تأخيرها إلى ما بعد الحديث عن حصار حلب .
٩٦ ـ كذا ويمزج المؤلف هنا بين وفاة آق سنقر البرسقي التي سبق له أن ذكرها وبين وفاة ابنة مسعود في الرحبة ، انظر زبدة الحلب ٢ / ٢٣٦ ـ ٢٣٧
٩٧ ـ نهاية عام ١١٢٦ م .
٩٨ ـ ذكرها ياقوت فقال عنها : « قرية كبيرة جامعة من نواحي حلب » وفي منطقة جرابلس التابعة الآن لمحافظة حلب قرية اسمها أعرن
٩٩ ـ الياغسياني من كبار رجال دولة زنكي ، له ذكر كبير أيامه وفي أيام نور الدين من بعده
١٠٠ ـ هذا وهم فقد مات مسعود صاحب أصفهان سنة ١١٥٢ ، ولم يتسلم أخوه سليمان السلطة إلا عام ١١٥٩ .
١٠١ ـ أي السن عند ملتقى الزاب الأدنى بنهر الفرات ، وكان ذلك سنة ١١٢٩ م .
١٠٢ ـ عملية الحصار تمت ضد رفنية (أو بعرين أو بارين) وليس ضد حصن الاكراد ، انظر الباهر في الدولة الاتابكية لابن الاثير · ٥٩ ـ ٦١
١٠٣ ـ لعل ذلك كان ١١٢٦ م
١٠٤ ـ عين الدولة بن غازي ، وقد أولد فرعا من فروع أسرة الدانشمند في ملاطية توفي سنة ١١٥١ م .
١٠٥ ـ أي الثغر ، وهي تسمية أطلقت في المشرق على الأراضي المجاورة للاراضي البيزنطية
١٠٦ ـ جيش السلطان مسعود ، سلطان قونية سنة ١١٣٧ م .
١٠٧ ـ عام ١١٣٨ م .
١٠٨ ـ العام نفسه ١١٣٨ م .
١٠٩ ـ الياغسياني .
١١٠ ـ هو محمد بن دبيس ، ذلك أن دبيس سبق أن قتل عام ١١٢٩ .
١١١ ـ كان هذا هو المطران المسؤول .
١١٢ ـ هو جقر بن يعقوب ، انظر تفاصيل المؤامرة في الموصل في الباهر ٧١ ـ ٧٢ ، تاريخ دمشق لابن القلانسي · ٤٣٧ ـ ٤٤٠ .
١١٣ ـ حذفت هنا قصة البئر .
١١٤ ـ اقليم ميديا هو اقليم الجبل عند العرب ، وقاعدته همذان
١١٥ ـ نهر مراد صو شرقي الفرات .
١١٦ ـ في أراضي مستنقعات العمق شرقي نقطة اتصال قره صوبها ، بجوار دربساك ، ويلاحظ أن المؤرخين العرب ـ فيما عدا ابن القلانسي ـ يجعلون هذه المعركة نصرا لنور الدين . انظر تاريخ دمشق : ٤٧٠ . زبدة الحلب : ٢ / ٢٩٢ ـ ٢٩٣ . الكامل لابن الاثير : ٩ / ٣٢ . الروضتين . ١ / ٥٥ . الكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شهبه : ١٣٠ .

١١٧ ـ ترد في بعض النصوص شيخ الدير ، وهي الآن قرية كردية اسمها شادر . انظر زبدة الحلب : ٢ / ١٢٥ .

١١٨ ـ يحسن مقارنة هذه الرواية بما أورده ابن العديم في زبدة الحلب : ٢ / ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

١١٩ ـ كذا والاسم الصحيح ريناد أوف شاتيلون (أرناط) ، وقد تزوج في عام ١١٥٣ من كونستانس ابنة بوهيموند ، أرملة ريموند بواتيو (بيتابين) .

انظر تاريخ وليم الصوري (ترجمة انكليزية) : ٢ / ١٩٨ ـ ٢٠٠ . ابن القلانسي : ٣٧٢ ـ ٣٧٣ . الباهر لابن الاثير : ٩٨ ـ ١٠٠ .

١٢٠ ـ هو بوهيموند الثالث ابن ريموند بواتيو .

١٢١ ـ في الاصل أرنغد وهو الرسم الارمني لريناد.

١٢٢ ـ من أجل تفاصيل موازية انظر الباهر : ١٢٢ ـ ٣١ب . زبدة الحلب ٢٠ / ٣١٨ ـ ٣٢١ والمراد ببانياس هنا بانياس دمشق .

١٢٣ ـ مقارنة عامة مع مواد تاريخ ابن العبري المطول بالسريانية اعتمادا على الترجمة الانكليزية .

١٢٤ ـ لم يستعمل ابن العبري كتاب المؤرخ المجهول ، فهو يتحدث عن الرشوة التي أعطيت الى ملك القدس على يد أهالي دمشق ، ويضيف إنني لم أجد هذه الرواية في خمسة كتب عربية مختلفة ، ولكن وجدتها في كتاب ميخائيل فقط ، وحتى عندما يتفق مع ما قاله المؤرخ السرياني المجهول نراه يضيف تفاصيل .

حواشي ميخائيل السوري :

١ – كذا بالاصل وتضبط المدد والتواريخ وتصحح على ما جاء بالاصول الاخرى المعتمدة خاصة رواية لنا كومينا والمؤرخ الفرنجي المجهول صاحب اليوميات حول الحملة الاولى .

٢ – كتب مترجم أو ناسخ مخطوطة صدد هذه الحاشية . « فدان آرام اليوم اسمها عين العروس ، وهي قبلي حران باربع ساعات ، ونهر بليخا يطلع منها ويسموه البليخ ، وفي وسط الماء يصير زهر اصفر اسمه نيلوفر » .

٣ – مزج المصنف هنا بينهم وبين الاسبتارية .

٤ – كذا وهو وهم صوابه ايلغازي بن ارتق .

٥ – هو فخر الدولة أبو المظفر بن نظام الملك ، اغتيل عام ٥٠٠ ، انظر المنتظم لابن الجوزي : ٩ / ١٤٨ .

٦ – في ابن الاثير : ٨ / ٢٤٨ – حوادث ٥٠١ – « وعبر عسكر السلطان دجلة ولم يعبر هو فصاروا مع صدقة على أرض واحدة بينهما نهر » . وفي مرآة الزمان – ط . حيدر اباد ١٩٥١ : ١ / ١٦ : « وفي موضع يقال له يفانيا » .

٧ – نقل السوري هذه الاخبار بايجاز وتداخل ، وامكن التقويم على ما أورده ابن الاثير في الكامل : ٨ / ٢٦١ (حوادث سنة أربع وخمسمائة) حيث التشابه كبير .

٨ – هو سكمان القطبي ولمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي . ط . دمشق ١٩٨٣ ص ٢٧٩ – ٢٨١ .

٩ – اغتيل سنة ٥٠٧ – انظر ابن القلانسي . ٢٩٨ – ٢٩٩ .

١٠ – لمزيد من التفاصيل انظر الكامل لابن الاثير : ٨ / ٢٦٨ – ٢٦٩ – حوادث سنة ثمان وخمسمائة

١١ – انظر لمزيد من التفاصيل ابن الاثير : ٨ / ٢٦٦ – ٣٠٨ ، وكانت وفاة ايلغازي سنة ٥١٦هـ .

١٢ – تساوي سنة ١٤٣٦ يونانية سنة ١١٢٥ م ، وكان المستظهر قد توفي سنة ١١١٨ م .

١٣ – كذا بالاصل وكان صدقة قد قتل سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م وخلفه ابن دبيس بن صدقة وهو المقصود هنا .

١٤ – كذا والصحيح الموصل ، وحدث هذا كما اسلفنا سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ، ويلاحظ قلة الدقة لدى السرياني في ضبط تواريخ الاحداث .

١٥ – لاتتوافق تفاصيل هذه الرواية مع ماأورده ابن الاثير في الكامل ٨ : / ٣٢٤ – حوادث سنة ٥٢١ هـ –

١٦ – يلاحظ أن السرياني يكرر رواياته .

١٧ – هذه الرواية تنقصها الدقة والتفصيل قارنها برواية زبدة الحلب : ٢ / ٢٤١ – ٢٤٢ .

١٨ – لم يوضح السرياني اسم هذه القلعة أو اسم صاحبها ، ومعروف أن زنكي قد تزوج من ابنة رضوان بن تتش ، وكان رضوان صاحب قلعة حلب .

١٩ – أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني ، وتفاصيل الواقعة رواها ابن القلانسي في تاريخ دمشق ٣٥٠ – ٣٥٦ وحدث ذلك سنة ٥٢٢ هـ ، وفي هذا مثال جديد على عدم تقيد السرياني بدقة التواريخ .

٢٠ – لايمكن الركون إلى هذه الرواية لامن حيث التفاصيل ولامن حيث التاريخ قارن للتدقيق الكامل لابن الاثير : ٨ / ٣٥٦ – ٣٥٧ . ابن القلانسي : ٤٨ . اتعاظ الحنفا للمقريزي : ٣ / ١٥٥ – ١٦١ .

٢١ – لمزيد من التفاصيل والضبط انظر الباهر لابن الاثير فيمايلي بين نصوص موسوعتنا .

٢٢ – تضبط هذه الرواية على ترجمة دبيس بن صدقة في كتابنا هذا وعلى ماأوردت ابن القرنسي ٣٦٦ – ٣٦٨ .

٢٣ ـ انظر الباهر أيضا
٢٤ ـ لمزيد من التفاصيل والضبط انظر ابن القلانسي : ٤٠٨ ـ ٤١٠ .والباهر أيضا .
٢٥ ـ كان بظاهر مدينة ديار بكر ، قامت مكانه قرية يقال لها قره كليسيا . انظر اللؤلؤ المنثور لاغنا طيوس افرام الاول . ط . دمشق ١٩٨٧ ص ٥١٣ .
٢٦ ـ بلده داثرة كان موقعها الشمالي بيرة جيل (البيرة) على نهر قرزمان أحد فروع نهر الفرات ويقال له موزيمان . اللؤلؤ المنثور : ٥١٧ .
٢٧ ـ حدث هذا سنة ٥٣٣ / ١١٣٩ . انظر التفاصيل عند ابن القلانسي ٤٢١ ـ ٤٢٢ .
٢٨ ـ إلى الشمال الشرقي من ماردين على بعد مرحلة منها اللؤلؤ المنثور ٥١٧
٢٩ ـ أشار ابن الأثير في الباهر إلى نشاط زنكي في ديار بكر سنة ٥٣٨ وأوضح انه فتح عدة بلاد منها . مدينة طنزة وأسعرد ، وملك مدينة المعدن الذي يعمل منه النحاس من أرمينية ومدينة حيزان وملك أيضا حصن الزوق وحصن فطليس وحصن باتاسا ، حصن ذي القرنين ، وورد هذه الأسماء في الكامل : ٩ / ٧ بشكل مخالف ، فتعذر على هذا امكانية ضبط الأسماء هذه .
٣٠ أوقعه البابا أنوسنت الذي جاء بعد هونيروس انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري بترجمتي ـ ط بيروت ١٩٩٠ ٢ / ٧١٦ ـ ٧٢١ .
٣١ ـ في أرض كرر ـ هذا ماأوضحه المؤرخ السرياني المجهول .
٣٢ ـ إلى الجنوب من جبل سمعان . اللؤلؤ المنثور ٥١٠ .
٣٣ ـ أشهر ديرة طور عبدين . اللؤلؤ المنثور ٥١٢ .
٣٤ ـ طور عبدين جبل مشرف على نصيبين ، وكورة كثيرة الزيرة والصوامع قصبتها بلدة منيات . اللؤلؤ المنثور ٥١٧ .
٣٥ ـ كونراد ملك النمسا ، وانظر المزيد من التفاصيل في النصوص المقبلة
٣٦ ـ لويس السابع ١١٢٣ ـ ١١٨١ .
٣٧ ـ مدينة في نواحي ملطية اللؤلؤ المنثور ٥١٨ ، وأرجح أنها قلونية ، وقلونية اسم حصن كان بقرب ملطية ـ المرجع نفسه ص ٥١٨ .
٣٨ ـ عند ابن العبري زوجته
٣٩ ـ سقط في مطلع الخبر .
٤٠ ـ سقط بالأصل ألم بمطلع رواية الاتفاق بين عموري ملك القدس وشاور
٤١ ـ عز الدولة نصر بن نيسان انظر خبره في قطعة أخبار الاراتقة من تاريخ ميافارقين لابن الازرق ، وأكل من قرن ماردين معجم البلدان
٤٢ . سقط بالأصل .
٤٣ ـ من المدهش صدور هذا كله عن ميخائيل السوري ، والمثير هنا ليس تعصبه بقدر جهله بالاسلام وعزوه أشياء الى القرآن الكريم والصاق دعوى النبوة بذور الدين .
٤٤ ـ سقط بالأصل .
٤٥ ـ أي رئيس الشمامسة
٤٦ ـ سقط بالأصل
٧ ـ أي كونت فلاندر انظر تفاصيل الخبر في تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ، ترجمتي ـ ط بيروت ١٩٩٠ ٢ ص ١٠٠٥ ـ ١٠٠٧
٤٨ ـ انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ح ٢ ص ١٠٠٧ ـ ١٠٠٨ .
٤٩ ـ ترجم له صاحب اللؤلؤ المنثور ص ٣٢٩ ـ ٣٣١ وأوضح انه توفي سنة ٨١٧ م .
٥٠ ـ أرزون مدينة كبيرة كانت على مقربة من بدليس اللؤلؤ المنثور ٥٠٤
٥١ ـ في جبل سنجار . اللؤلؤ المنثور ٥١٠
٥٢ ـ انظر ترجمته في اللؤلؤ المنثور ٣٨٢ ـ ٣٩١
٥٣ ـ مجلد أو مجموع عام يتضمن صلوات وأدعية .

٥٤ ـ لمزيد من الايضاح انظر اللؤلؤ المنثور ٤٩٤ ـ ٣٩٧ .

٥٥ ـ بظاهر مدينة ديار بكر مسيرة ساعة ونصف الساعة عنها ، أطلالة الآن قرب قرية تدعى قره كاسيا . اللؤلؤ المنثور ٥١٣

٥٦ ـ للتدقيق الزمني لهذه الهزيمة التي الحقها قلج أرسلان بالامبراطور مدويل ولمزيد من التفاصيل انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ٩٨٧ ـ ٩٨٨ .

٥٧ ـ بقرب تل موزل . اللؤلؤ المنثور ٥١٢

٥٨ ـ على مقربة من تل غرب اللؤلؤ المنثور ٥٠٥

٥٩ ـ تحدثت المصادر العربية عن صراع مع سيف الدين بكتمر صاحب خلاط وعن انتزاع تقي الدين لمدينة حاني انظر الكامل لابن الاثير ٩/ ٢١٢ ـ ٢١٣ (حوادث سنة ٥٨٧ هـ) مفرج الكروب ٢ / ٣٧٥ ، ٣٧٦

حواشي تاريخ ابن العبري:

١ ـ كذا بالاصل ، وكان الفرنجة قد استولوا على طرسوس والمصيصة وأذنة قبل الاستيلاء على انطاكية ولعل هناك تصحيف صوابه · طرطوس وبانياس واللاذقية .

٢ ـ لم يحتلها هو بل ابنه برتراند في سنة ٥٠٢ هـ . انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي للسيد عبد العزيز سالم . ط . الاسكندرية ١٩٦٧ ص ١١٣ , ١٢٣ .

٣ ـ في الموصل .

٤ ـ بلد غناء بين حلب وانطاكية . معجم البلدان .

٥ ـ كان أبو الفرج الملطي من اتباع المؤمنين بالطبيعة الواحدة ، مثله مثل برصوم هنا ، وكان المجمع الخلقيدوني المسكوني المنعقد عام ٤٥١ م . بحضور ستمائة وستة وثلاثين أسقفا قد أصدر أمرا بحرمان برصوما .

٦ ـ بلدة في كورة كركر (جرجر) إلى الجنوب الغربي من ديار بكر وبينهما يومان اللؤلؤ المنثور : ٥١٧ .

٧ ـ كان على ضفة الفرات اليمنى بقرب كركر . اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٧ .

٨ ـ مدينة في نواحي ملطية . اللؤلؤ المنثور : ٥١٨ .

٩ ـ بلد من نواحي ديار ربيعة ثم من شبختان شمالي غربي ماردين ـ اللؤلؤ المنثور : ٥٠٥ .

١٠ ـ قلعة وبليدة شمالي ميافارقين . اللؤلؤ المنثور . ٥٢٠ .

١١ ـ على ضفة الفرات بالقرب من خربوط (حصن زياد) اللؤلؤ المنثور · ٥٠٥ .

١٢ ـ كونراد ملك الالمان وامبراطورهم .

١٣ ـ لويس السابع (١١٣٣ ـ ١١٨١) .

١٤ ـ من أبيرة كورة مرعش . اللؤلؤ المنثور : ٥١٣ .

١٥ ـ جمال الدين محمد بن علي الاصفهاني وزير الاتابكة بالموصل . انظر الباهر لابن الاثير · ١١٨ .

١١٦ ـ انظر حول نسب الأسرة الايوبية كتاب شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لاحمد بن ابراهيم الحنبلي ط بغداد ١٩٧٨ ص ٢١ ـ ٢٣ .

١٧ ـ أني قلعة حصينة ، ومدينة بأرض ارمينية بين خلاط وكنجة . معجم البلدان .

١٨ ـ انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ٠ ٢ ص ١٠٠٨ ـ ١٠١١ .

١٩ ـ فرقة من الجند التركمان .

٢٠ ـ لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري : ١٠٣٠ ـ١٠٣٦ . ونصوصنا المقبلة عن الحملة الرابعة

٢١ ـ تل بسمة بلدة في نواحي ديار ربيعة على مقربة من شبختان شمالي غربي ماردين . اللؤلؤ المنثور . ٥٠٥ .

٢٢ ـ ايزابيل اخت بلدوين الرابع ووالدة بلدوين الخامس تزوجت بغي لوزنغنان وجعلت منه ملكا على القدس . انظر تفاصيل ذلك في تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ص ١٠٧٢ ـ ١٠٧٦ .

٢٣ ـ هذا وهم فزوجة ريموند صاحب طرابلس هي التي كانت في طبرية .

٢٤ ـ هذا الظن قائم على وهم ، انظر ماسيأتي من مواد عن الحملة الثالثة ، لاسيما ذيل تاريخ وليم الصوري .

٢٥ ـ لمزيد من التفاصيل انظر الكامل لابن الاثير ٩ /٢٢٢ ـ ٢٢٣ ـ حوادث سنة ٥٨٨ هـ

٢٦ ـ لمزيد من التفاصيل انظر الكامل لابن الاثير ٩ / ٢٢٨ ـ ٢٢٩ (حوادث سنة ٥٨٩) .

٢٧ ـ انظر الكامل لابن الاثير : ٩ / ٢٢٨ ـ حوادث سنة ٥٨٩ .

٢٨ ـ أي المستشار الالماني . انظر ما سيأتي حول الحملة الثالثة .

٢٩ ـ جنوبي ماردين بينهما فرسخان ، كانت فيما مضى مدينة عظيمة أما هي الآن فمجرد قرية اسمها قوج حصار . اللؤلؤ المنثور . ٥١٦

٣٠ ـ أي جزيرة ابن عمر .

٣١ ـ في الكامل لابن الأثير : ٩ / ٣٠٤ (حوادث سنة ٦٠٧ هـ) « أمره الاطباء بالانحدار إلى الحامة المعروفة بعين القيارة ، وهي بالقرب من الموصل » .

المحتوى